الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّرايـة

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء السادس عشر

[سورة الأعراف، الآية: ١٤٩]- [سورة الأنفال، الآية: ٥٣]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)} [الأعراف : ١٤٩]

التفسير:

ولما ندم الذين عبدوا العجل مِن دون الله عند رجوع موسى إليهم، ورأوا أنهم قد ضلُّوا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، أخذوا في الإقرار بالعبودية والاستغفار، فقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا بقَبول توبتنا، ويستر بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين ذهبت أعمالهم.

قوله تعالى:{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} [الأعراف : ١٤٩]، أي:" ولما ندم الذين عبدوا العجل مِن دون الله عند رجوع موسى إليهم"[١].

قال ابن كثير:" أي : ندموا على ما فعلوا"[٢].

قال القرطبي:" أي: بعد عود موسى من الميقات. يقال للنادم المتحير: قد سقط في يده"[٣].

قال الشوكاني:" أي: ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات"[٤].

قال الطبري:أي:" ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم"[٥].

وقال الزجاج: "المعنى: ولما سقط الندم في أيديهم"[٦].

وقرئ: «سقط» بفتح السين والقاف حكاه الزّجاج، وقرأ ابن أبي عبلة «أسقط» وهي لغة[٧].

قوله تعالى:{وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا} [الأعراف : ١٤٩]، أي:" ورأوا أنهم قد ضلُّوا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله"[٨].

قال الطبري:أي:" ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم"[٩].

قوله تعالى:{قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف : ١٤٩]، أي:" فقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا بقَبول توبتنا، ويستر بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين ذهبت أعمالهم"[١٠].

قال الطبري:أي:" قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: {لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين}، يقول: لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته، ويتغمد بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم"[١١].

قال ابن كثير:" أي:من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٦٨.

[٢] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٣.

[٣] تفسير القرطبي:٢٨٥/٧.

[٤] فتح القدير:٢٨٢/٢.

[٥] تفسير الطبري:١١٧/١٣.

[٦] معاني القرآن:٣٧٨/٢.

[٧] انظر: المحرر الوجيز:٤٥٥/٢.

[٨] التفسير الميسر:١٦٨.

[٩] تفسير الطبري:١١٩/١٣.

[١٠] التفسير الميسر:١٦٨.

[١١] تفسير الطبري:١١٩/١٣.

[١٢] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٣.

قال ابن عطية:" قول بني إسرائيل :{لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا}، إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم ورؤيتهم أنهم قد خرجوا عن الدين ووقعوا في الكفر"[١].

وقرأ حمزة والكسائي: «لئن لم ترحمنا»، بالتاء المثناة من فوق، «ربنا» منادى ، «وتَغْفِر لنا»[٢].

الفوائد:

١- إذا أراد الله بعبده خيرا ألهمه التوبة بعد المعصية فندم واستغفر.

٢- ومن فوائد الآية أن الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص. قال تعالى: : {عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ}.

في الآية إن الله تعالى"عاب به العجل في عجزه عن القول والكلام؛ بيان بين أن الله - عز وجل - غير عاجز عنه، وأنه متكلم وقائل؛ لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود به"[٣].

القرآن

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)} [الأعراف : ١٥٠]

التفسير:

ولما رجع موسى إلى قومه مِن بني إسرائيل غضبان حزينًا؛ لأن الله قد أخبره أنه قد فُتِن قومه، وأن السامريَّ قد أضلَّهم، قال موسى: بئس الخلافة التي خلفتموني مِن بعدي، أعجلتم أَمْر ربكم؟ أي: أستعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدَّر من الله تعالى؟ وألقى موسى ألواح التوراة غضبا على قومه الذين عبدوا العجل، وغضبًا على أخيه هارون، وأمسك برأس أخيه يجره إليه، قال هارون مستعطفًا: يا ابن أمي: إن القوم استذلوني وعدُّوني ضعيفًا وقاربوا أن يقتلوني، فلا تَسرَّ الأعداء بما تفعل بي، ولا تجعلني في غضبك مع القوم الذين خالفوا أمرك وعبدوا العجل.[٤]. قوله تعالى:{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" ولما رجع موسى إلى قومه مِن بني إسرائيل غضبان حزينًا"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولما رجع موسى إلى قومه من بني إسرائيل، رجع غضبان أسفًا، لأن الله كان قد أخبره أنه قد فتن قومه، وأن السامري قد أضلّهم، فكان رجوعه غضبان أسفًا لذلك"[٦].

قال أبو الدرداء:" «الأسف»، منزلة وراء الغضب، أشدُّ من ذلك، وتفسير ذلك في كتاب الله: ذهب إلى قومه غضبان، وذهب أسفًا"[٧].

وروي عن السدي:"{أسفًا}، قال: حزينًا"[٨].

وعن الحسن:"{غضبان أسفًا}، قال: غضبان حزينًا"[٩].

وقال ابن عباس:"{أسفًا}، حزينًا، وقال في «الزخرف»: {فَلَمَّا آسَفُونَا} [سورة الزخرف: ٥٥] ، يقول: أغضبونا، و«الأسف»، على وجهين: الغضب، والحزن"[١].

---

[١] المحرر الوجيز:٤٥٦/٢.

[٢] انظر: السبعة في القراءات:٢٩٤.

[٣] الرد على الجهمية:١٤١.

[٤] التفسير الميسر:١٦٩.

[٥] التفسير الميسر:١٦٨.

[٦] تفسير الطبري:١٢٠/١٣.

[٧] أخرجه الطبري(١٥١٢٤):ص١٢٠/١٣-١٢١.

[٨] أخرجه الطبري(١٥١٢٥):ص١٢١/١٣.

[٩] أخرجه الطبري(١٥١٢٧):ص١٢١/١٣.

وقال ابن قتيبة:" {أسفا} شديد الغضب. يقال: آسفني فأسفت. أي: أغضبني فغضبت. ومنه قوله: {فلما آسفونا انتقمنا منهم}"[٢].

قال ابن عطية:" «الأسف» قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن والمعنيان مترتبان هاهنا"[٣].

وفي غضبه وأسفه قولان[٤] :

أحدهما : غضبان من قومه على عبادة العجل ؟ أسفاً على ما فاته من مناجاة ربه .

والثاني : غضبان على نفسه في ترك قومه حتى ضلوا ، أسفاً على ما رأى في قومه من ارتكاب المعاصي .

قوله تعالى:{قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" قال موسى: بئس الخلافة التي خلفتموني مِن بعدي"[٥].

قال الطبري:" يقول: بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم وأوليتموني فيمن خلفت ورائي من قومي فيكم، وديني الذي أمركم به ربكم"[٦].

قال ابن كثير:" يقول : بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم "[٧].

قوله تعالى:{أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور؟"[٨].

قال الطبري:" يقول: أسبقتم أمر ربكم في نفوسكم، وذهبتم عنه؟"[٩].

قال ابن كثير:" استعجلتم مجيئي إليكم ، وهو مقدر من الله تعالى"[١٠].

وفي قوله تعالى:{أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} [الأعراف : ١٥٠]، قولان:

أحدهما : يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة ، وذلك أنه قَدَّروا أنه قد مات لمَّا لم يأت على رأس الثلاثين ليلة ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره ، قاله بعض

قال الماوردي:"والفرق بين العجلة والسرعة أن العجلة : التقدم بالشيء قبل وقته ، والسرعة : عمله في أقل أوقاته"[١٢] .

قوله تعالى:{وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل"[١٣].

قال الطبري:يقول:" وألقى موسى الألواح؟... وقيل: إن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى موسى الألواح تكسرت، فرفع منها ستة أسباعها، وكان فيما رفع {تفصيل كل شيء}، الذي قال الله: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ} وبقي الهدى والرحمة في السبع الباقي، وهو الذي قال الله: {أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٤]"[١٤].

---

(١) أخرجه الطبري(١٥١٢٦):ص١٢١/١٣.
(٢) غريب القرآن:١٧٣.
(٣) المحرر الوجيز:٤٥٦/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:٢٦٣/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٦٨.
(٦) تفسير الطبري:١٢١/١٣.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٣.
(٨) صفوة التفاسير:٤٤٠/١.
(٩) تفسير الطبري:١٢١/١٣.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٣.
(١١)النكت والعيون:٢٦٣/٢.
(١٢) النكت والعيون:٢٦٣/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٤٤٠/١.
(١٤) تفسير الطبري:١٢٢/١٣، ١٢٦

قال ابن عباس:" لما رجع موسى إلى قومه، وكان قريبًا منهم، سمع أصواتهم، فقال: إني لأسمع أصواتَ قومٍ لاهين: فلما عاينهم وقد عكفوا على العجل، ألقى الألواح فكسرها، وأخذ برأس أخيه يجره إليه"[١].

قال علي-عليه السلام-:" كتب الله الألواح لموسى عليه السلام، وهو يسمع صريف الأقلام في الألواح"[٢].

قال سعيد:" أدناه حتى سمع صريف الأقلام"[٣].

قال الربيع بن أنس:" أنزلت التوراة وهي سبعون وَقْر بعير، يقرأ منها الجزء في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى بن عمران، وعيسى، وعزير، ويوشع بن نون، صلوات الله عليهم"[٤].

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف مفرط"[٥].

وقيل:" أن الألواح كانت لوحين. فإن كان الذي قال كما قال، فإنه قيل: "وكتبنا له في الألواح"، وهما لوحان، كما قيل: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} [سورة النساء: ١١] ، وهما أخوان"[٦].

و اختلف أهل العلم في سبب إلقائه «الألواح»، على وجهين:

أحدهما: أنه ألقاها غضبًا على قومه الذين عبدوا العجل. قاله ابن عباس[٧]، والسدي[٨].

والثاني: من أمة محمد -ﷺ- أنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، قال : رب فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد ، فاشتد عليه فألقاها ، قاله قتادة[٩].

قتادة[٩].

عن قتادة، قوله: "{أخذ الألواح}، قال: رب، إني أجد في الألواح أمةً خيرَ أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون- أي آخرون في الخلق- السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرًا، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم ، قال: ربِّ اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ثم يؤجرون عليها، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردَّت عليه تركت تأكلها الطير والسباع. قال: وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم، قال: رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: وذكر لنا أن نبي الله

---

[١] أخرجه الطبري(١٥١٢٩):ص١٢٢/١٣-١٢٣.

[٢] أخرجه الطبري(١٥١٣٤):ص١٢٤/١٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥١٣٥):ص١٢٤/١٣-١٢٥.

[٤] أخرجه الطبري(١٥١٣٦):ص١٢٦/١٣.

[٥] المحرر الوجيز:٤٥٧/٢.

[٦] تفسير الطبري:١٢٧/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥١٢٨):ص١٢٢/١٣.

[٨] أخرجه الطبري(١٥١٣٠):ص١٢٣/١٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥١٣٢)، و(١٥١٣٣):ص١٢٣/١٣-١٢٤.

موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد! قال: فأعطي نبي الله موسى عليه السلام ثنتين لم يعطهما نبيٌّ، قال الله: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي} [سورة الأعراف: ١٤٣] . قال: فرضي نبي الله. ثم أعطي الثانية: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٩] ، قال: فرضي نبي الله ﷺ كل الرضى"[١].

قال ابن عطية:" وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به، والأول هو الصحيح"[٢].

ثم قال ابن كثير:"وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولا غريبًا ، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد رَدّه ابن عطية وغير واحد من العلماء ، وهو جدير بالرد ، وكأنه تَلَقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب ، وفيهم كذابون ووَضّاعون وأفاكون وزنادقة"[٣].

قال الطبري:" والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك، أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل، لأن الله جل ثناؤه بذلك أخبر في كتابه فقال: {ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه}"[٤].

واختلفوا في «الألواح»، على أقوال:

أحدها: أنها كانت من زُمرد أخضر. قاله مجاهد[٥].

والثاني: أنها كانت من ياقوت. وهذا قول سعيد بن جبير[٦].

والثالث: أنها كانت من بَرَد. قاله ابو العالية[٧].

قال ابن كثير:" قيل : كانت الألواح من زُمُرُّد. وقيل : من ياقوت. وقيل : من بَرَد وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث :«ليس الخبر كالمعاينة»[٨]، ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا"[٩].

قوله تعالى:{وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظناً منه أنه قصَّر في كفهم عن ذلك"[١٠].

فإن قيل : فلم قصده بمثل هذا الهوان ولا ذنب له ؟

فعن ذلك جوابان[١١]:

أحدهما : أن هذا الفعل مما قد يتغير حكمه بالعادة فيجوز أن يكون في ذلك الزمان بخلاف ما هو عليه الآن من الهوان .

والثاني : أن ذلك منه كقبض الرجل منا الآن على لحيته وعضه على شفته.

قال ابن كثير:" خوفًا أن يكون قد قَصَّر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرى : { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } [طه : ٩٢ - ٩٤]"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥١٣٢):ص١٢٣/١٣-١٢٤.

[٢] المحرر الوجيز:٤٥٧/٢.

[٣] تفسير ابن كثير:٤٧٧/٣.

[٤] تفسير الطبري:١٢٤/١٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥١٤١):ص١٢٧/١٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥١٣٨):ص١٢٧/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥١٣٩):ص١٢٧/١٣.

[٨]رواه أحمد في مسنده (٢٧١/١) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : "ليس الخبر كالمعاينة إن الله ، عز وجل ، أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت".

[٩] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٣-٤٧٧.

[١٠] صفوة التفاسير:٤٤٠/١.

[١١] انظر: النكت والعيون:٢٦٤/٢.

قال الطبري:" قوله: {وأخذ برأس أخيه يجره إليه}، فإن ذلك من فعل نبي الله صلى الله عليه وسلم كان، لموجدته على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قيل موسى عليه السلام له: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [سورة طه: ٩٢، ٩٣] ، حين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قيله لموسى: {لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}[سورة طه: ٩٤] ، وقال: {يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء}، الآية"[٢].

قال محمد بن إسحاق:" لما انتهى موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، ألقى الألواح من يده، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته، ويقول: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [سورة طه: ٩٢، ٩٣] "[٣].

قال السدي:" أخذ موسى الألواح، ثم رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا، فقال: {يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا} ، إلى قوله: فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [سورة طه: ٨٦-٨٧] ، فألقى موسى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه{قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي} [سورة طه: ٩٤]"[٤].

قوله تعالى:{قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" قال هارون مستعطفًا: يا ابن أمي: إن القوم استذلوني وعدُّوني ضعيفًا وقاربوا أن يقتلوني"[٥].

قال الطبري:"يعني بالقوم، الذين عكفوا على عبادة العجل وقالوا: {هذا إلهنا وإله موسى}، وخالفوا هارون. وكان استضعافهم إياه: تركهم طاعته واتباع أمره، {وكادوا يقتلونني}، يقول: قاربوا ولم يفعلوا"[٦].

وفي قوله تعالى:{قَالَ ابْنَ أُمَّ} [الأعراف : ١٥٠]، قولان:

أحدهما : أنه قال ذلك لأنه كان أخاه لأمه ، قاله الحسن[٧].

والثاني : أنه قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم[٨]، كما قال الشاعر[٩]:

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شقيقَ نَفْسِي ... أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لأَمْرٍ شَدِيدِ

قال ابن عطية:" وقوله: {ابْنَ أُمَ}، استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات"[١٠].

قال ابن كثير:" وإنما قال:{ ابْنَ أُمَّ }؛ لتكون أرأف وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه"[١].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٧٧/٣.
[٢] تفسير الطبري:١٢٨/١٣.
[٣] أخرجه الطبري(١٥١٣١):ص١٢٣/١٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥١٣٠):ص١٢٣/١٣.
[٥] التفسير الميسر:١٦٨.
[٦] تفسير الطبري:١٣١/١٣.
[٧] انظر: النكت والعيون:٢٦٤/٢.
[٨] انظر: تفسير الطبري:١٢١/١٣، والنكت والعيون:٢٦٤/٢.
[٩] الشعر لابي زبيد، انظر: أمالي اليزيدي ٩، جمهرة أشعار العرب: ١٣٩ واللسان (شقق) ، وشواهد العينى (هامش خزانة الأدب) : ٤: ٢٢٢، وغيرها. من قصيدة مختارة، يرثى ابن أخته اللجلاج، ويقال: يرثى أخاه اللجلاج، ويروى البيت: يَا ابْنَ خَنْسَاء، شِقَّ نَفْسِيَ يَا لَجْلاجُ، خَلَّيْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدِ وأما هذه الرواية، فهي رواية النحاة جميعًا في كتبهم في باب النداء. يقول فيها: كُلَّ مَيْتٍ قَدِ اغْتَفَرْتُ، فلا أو ... جع مِنْ وَالِدٍ وَلا مَوْلُودِ
غَيْرَ أَنَّ اللَّجْلاجَ هَدَّ جَنَاحِي ... يَوْمَ فَارَقْتُهُ بِأَعْلَى الصَّعِيدِ
فِي ضَرِيحٍ عَلَيْهِ عِبْءٌ ثَقِيلٌ ... مِنْ تُرَابٍ وجَنْدَلٍ مَنْضُودِ
عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ عِنْدَ صَدٍ ... حَرَّ انَ يَدْعُو بِاللَّيْلِ غَيْرَ مَعُودِ
صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ ... وَلَقَدْ كَانَ عُصْرة المَنْجُودِ
وقوله: ((شقيق)) تصغير ((شقيق)) ، وهو الأخ.
[١٠] المحرر الوجيز:٤٥٧/٢.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر :«قال ابن أم»، بكسر الميم فيهما، وأما الهمزة فمضمومة[2].

قوله تعالى:{فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" فلا تَسرَّ الأعداء بما تفعل بي"[3].

وروي عن مجاهد أنه قرأ:«فَلا تَشْمِتْ بِيَ الأعْدَاءَ»[4].

قوله تعالى:{وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف : ١٥٠]، أي:" ولا تجعلني في غضبك مع القوم الذين خالفوا أمرك وعبدوا العجل"[5].

قال ابن كثير:" أي : لا تَسُقني مَسَاقهم ، ولا تخلطني معهم"[6].

قال الطبري:" يقول: لا تجعلني في موجدتك عليَّ وعقوبتك لي ولم أخالف أمرك، محلَّ من عصاك فخالف أمرك، وعبد العجل بعدك، فظلم نفسه، وعبد غيرَ من له العبادة، ولم أشايعهم على شيء من ذلك"[7].

عن مجاهد: "{ولا تجعلني مع القوم الظالمين}، قال: أصحاب العجل"[8].

الفوائد:

١- الغضب من طباع البشر فلا يلام عليه المرء ومهما بلغ من الكمال كالأنبياء، ولكن أهل الكمال لا يخرج بهم الغضب إلى حد أن يقولوا أو يعملوا ما ليس بخير وصلاح.

٢- مشروعية الاعتذار وقبول العذر من أهل المروءات.

القرآن

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)} [الأعراف : ١٥١]

التفسير:

قال موسى لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يُفَرّط فيما كان عليه من أمر الله: ربِّ اغفر لي غضبي، واغفر لأخي ما سبق بينه وبين بني إسرائيل، وأدخلنا في رحمتك الواسعة، فإنك أرحم بنا من كل راحم.

قوله تعالى:{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي} [الأعراف : ١٥١]، أي:" : ربِّ اغفر لي غضبي، واغفر لأخي ما سبق بينه وبين بني إسرائيل"[9].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال موسى، لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله، في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: {رب اغفر لي}، مستغفرًا من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفٍ سلف له بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به"[10].

قال القرطبي:" أي: اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنه ظنه مقصرا في الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير، أي: اغفر لأخي إن قصر"[11].

---

(1) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٣.
(2) انظر: السبعة في القراءات:٢٩٥.
(3) التفسير الميسر:١٦٨.
(4) أخرجه الطبري(١٥١٤٢)(١٥١٤٤):ص١٣/ ١٣١-١٣٢.
(5) التفسير الميسر:١٦٨.
(6) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٣.
(7) تفسير الطبري:١٣٢/١٣.
(8) أخرجه الطبري(١٥١٤٥):ص١٣٣/١٣.
(9) التفسير الميسر:١٦٩.
(10) تفسير الطبري:١٣٣/١٣.
(11) تفسير القرطبي:٢٨٩/٧.

قال الزمخشري:" لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء قال: {رب اغفر لي ولأخي}، ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة"[١].

قال ابن عطية:" استغفر موسى من فعله مع أخيه ومن عجلته في إلقاء الألواح واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن بأن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه والله أعلم"[٢].

قال الشوكاني:" طلب المغفرة له أولا، ولأخيه ثانيا ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم"[٣].

عن ابن عباس: "يعني قوله: {قال رب اغفر لي ولأخي}، قال: ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له"[٤].

قال الحسن: "عبد كلهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثم مؤمن غير موسى وهارون لما اقتصر على قوله: رب اغفر لي ولأخي، ولدعا لذلك المؤمن أيضا"[٥].

قوله تعالى:{وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ} [الأعراف : ١٥١]، أي:" وأدخلنا في رحمتك الواسعة"[٦].

قال الطبري:يقول:" وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين"[٧].

قوله تعالى:{وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف : ١٥١]، أي:" فإنك أرحم بنا من كل راحم"[٨].

قال الطبري:أي:" فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا"[٩].

الفوائد:

١- دلت الآية على أن "لمن خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يسكت[١٠]، وذلك لأن هارون إنما أقام خوفا على نفسه من القتل، قال تعالى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا} [طه : ٩٢].
٢- ودلت الآية أيضا "أن الغضب لا يغير الأحكام، كما زعمه بعض الناس؛ فإن موسى لم يغير غضبه شيئا من أفعاله؛ بل اطردت على مجراها، من إلقاء لوح، وعتاب أخ، وصك ملك"[١١].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)} [الأعراف : ١٥٢]

التفسير:

---

(١) الكشاف:١٦٢/٢.
(٢) المحرر الوجيز:٤٥٨/٢.
(٣) فتح القدير:٢٨٤/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٠٢):ص١٥٧٠/٥.
(٥) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٢٨٩/٧.
(٦) التفسير الميسر:١٦٩.
(٧) تفسير الطبري:١٣٣/١٣.
(٨) التفسير الميسر:١٦٩.
(٩) تفسير الطبري:١٣٣/١٣.
(١٠) تفسير القرطبي:٢٩٠/٧.
(١١) أحكام القرآن لانب العربي:٣٢٦/٢.

إن الذين اتخذوا العجل إلهًا سينالهم غضب شديد مِن ربهم وهوان في الحياة الدنيا؛ بسبب كفرهم بربهم، وكما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين المبتدعين في دين الله.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الأعراف : ١٥٢]، أي:" إن الذين اتخذوا العجل إلهًا سينالهم غضب شديد مِن ربهم وهوان في الحياة الدنيا"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {إن الذين اتخذوا العجل} إلهًا، {سينالهم غضب من ربهم}، بتعجيل الله لهم ذلك ، {وذلة}، وهي الهوان، لعقوبة الله إياهم على كفرهم بربهم، {في الحياة الدنيا}، في عاجل الدنيا قبل آجل الآخرة"[٢].

روي عن الحسن:" اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه يهبوث"[٣].

عن أيوب قال: "تلا أبو قلابة: {سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا} الآية، قال: فهو جزاء كل مفترٍ يكون إلى يوم القيامة: أن يذله الله عز وجل"[٤].

وقال ابن جريج:" هذا لمن مات ممن اتخذ العجل قبل أن يرجع موسى عليه السلام، ومن فرّ منهم حين أمرهم موسى أن يقتل بعضهم بعضًا"[٥].

قال الطبري:" وهذا الذي قاله ابن جريج، وإن كان قولا له وجه، فإن ظاهر كتاب الله، مع تأويل أكثر أهل التأويل، بخلافه. وذلك أن الله عم بالخبر عمن اتخذ العجل أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وتظاهرت الأخبار عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين بأن الله إذ رجع إلى بني إسرائيل موسى عليه السلام، تابَ على عبدة العجل من فعلهم بما أخبر به عن قيل موسى عليه السلام في كتابه، وذلك قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [سورة البقرة: ٥٤] ، ففعلوا ما أمرهم به نبيهم ﷺ. فكان أمرُ الله إياهم بما أمرهم به من قتل بعضهم أنفُس بعض، عن غضب منه عليهم بعبادتهم العجل. فكان قتل بعضهم بعضًا هوانًا لهم وذلة أذلهم الله بها في الحياة الدنيا، وتوبة منهم إلى الله قبلها. وليس لأحد أن يجعل خبرًا جاء الكتاب بعمومه، في خاصٍّ مما عمه الظاهر، بغير برهان من حجة خبر أو عقل. ولا نعلم خبرًا جاء بوجوب نقل ظاهر قوله: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم}، إلى باطن خاصّ ولا من العقل عليه دليل، فيجب إحالة ظاهره إلى باطنه"[٦].

وعن ثابت، وحميد: "أن قيس بن عُبَاد، وجارية بن قدامة، دخلا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقالا أرأيت هذا الأمر الذي أنت فيه وتدعو إليه، أعهدٌ عهده إليك رسول الله ﷺ، أم رأيٌ رأيته؟ قال: ما لكما ولهذا؟ أعرضا عن هذا! فقالا والله لا نعرضُ عنه حتى تخبرنا! فقال: ما عهد إليّ رسول الله ﷺ إلا كتابًا في قراب سيفي هذا! فاستلَّه، فأخرج الكتاب من قراب سيفه، وإذا فيه: «إنه لم يكن نبيّ إلا له حرم، وأنّي حرمت المدينة كما حرّم إبراهيم عليه السلام مكة، لا يحمل فيها السلاحُ لقتال. من أحدث حدثًا أو آوى مُحدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عَدْل». فلما خرجا قال أحدهما لصاحبه: أما ترى هذا الكتاب؟ فرجعا وتركاه وقالا إنا سمعنا الله يقول: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم}، الآية، وإن القوم قد افتروا فرية، ولا أدري إلا سينزل بهم ذلة"[٧].

---

[١] التفسير الميسر:١٦٩.

[٢] تفسير الطبري:١٣٤/١٣.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٠٣):ص١٥٧١/٥.

[٤] أخرجه الطبري(١٥١٤٨):ص١٣٥/١٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٥١٤٧):ص١٣٤/١٣.

[٦] تفسير الطبري:١٣٥/١٣.

[٧] أخرجه الطبري(١٥١٥٠):ص١٣٥/١٣-١٣٦.

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف : ١٥٢]، أي:" كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله"[١].

قال ابن كثير:" نائلة لكل من افترى بدعة ، فإن ذُلَّ البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هَمْلَجَت بهم البغلات ، وطقطقت بهم البراذين"[٢].

قال الطبري:" وكما جَزيت هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا، من إحلال الغضب بهم، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم ربّهم، ورِدَّتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك نجزي كل من افترى على الله، فكذب عليه، وأقر بألوهية غيره، وعبد شيئًا سواه من الأوثان، بعد إقراره بوحدانية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله وقِيلَ ذلك، إذا لم يتب من كفره قبل قتله"[٣].

قال الفضيل بن عياض: "كل شيء في القرآن {وكذلك نجزي المفترين}، ونحو هذا: يقول: كما أهلك الذين من قبل فكذلك يفعل بالمفترين ونحو هذا"[٤].

عن ابن عيينة: في قوله: "{وكذلك نجزي المفترين}، قال: كل صاحب بدعة ذليلٌ"[٥].

الفوائد:

القرآن

{وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)} [الأعراف : ١٥٣]

التفسير:

والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي، ثم رجعوا مِن بعد فعلها إلى الإيمان والعمل الصالح، إن ربك من بعد التوبة النصوح لغفور لأعمالهم غير فاضحهم بها، رحيم بهم وبكل مَن كان مثلهم من التائبين.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا} [الأعراف : ١٥٣]، أي:" والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي، ثم رجعوا مِن بعد فعلها إلى الإيمان والعمل الصالح"[٦].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابلٌ من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرةً كانت معصيته أو كبيرةً، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قبل من عَبَدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم. يقول جل ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط، من بعد سيئ أعمالهم، وصدَّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائبٌ على المنيبين، بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك"[٧].

قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأعراف : ١٥٣]، أي:" إن ربك من بعد التوبة النصوح لغفور لأعمالهم غير فاضحهم بها، رحيم بهم وبكل مَن كان مثلهم من التائبين"[٨].

قال الطبري:" يقول: لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، {رحيم}، بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين"[١].

---

(١) صفوة التفاسير:٤٤٠/١.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٧٧/٣-٤٤٧٨.
(٣) تفسير الطبري:١٣٥/١٣.
(٤) أخرجه ابن ألبي حاتم(٩٠٠٩).
(٥) أخرجه الطبري(١٥١٥١):ص١٣٦/١٣.
(٦) التفسير الميسر:١٦٩.
(٧) تفسير الطبري:١٣٦/١٣-١٣٧.
(٨) التفسير الميسر:١٦٩.

قال سعيد بن جبير:" {لغفور}، لما كان منهم في الشرك"[2]، {رحيم}:"رحيم بهم بعد التوبة"[3].

أخرج ابن ابي حاتم من طريق يزيد بن زريع، قال قتادة:" {لغفور}، يعني: الذنوب الكثيرة، أو الكبيرة. -شك يزيد-"[4]، "{رحيم}، قال: بعباده"[5].

روي عن عبد الله بن مسعود:" أنه سئل عن ذلك يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: {والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم}، فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم ولم ينههم عنها"[6].

الفوائد:

١- من فوائد الآية اكريمة: مشروعية التوسل بأسماء الله وصفاته.

٢- ومنها: أن كل وعيد لله تعالى توعد به عبدا من عباده مقيد بعدم توبة المتوعد.

٣- -ومنها: كل رحمة وهدى ونور في كتاب الله لا ينتفع به إلا أهل الإيمان والتقوى.

٤- ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة[7].

و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [8].

القرآن

{وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)} [الأعراف : ١٥٤]

التفسير:

ولما سكن عن موسى غضبه أخذ الألواح بعد أن ألقاها على الأرض، وفيها بيان للحق ورحمة للذين يخافون الله، ويخشون عقابه.

قوله تعالى:{وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ} [الأعراف : ١٥٤]، أي:" ولما سكن عن موسى غضبه أخذ الألواح بعد أن ألقاها على الأرض"[9].

قال الطبري:" ولما كفّ عنه وسكن، أخذ الألواح بعد ما ألقاها، وقد ذهب منها ما ذهب"[10].

قال ابن كثير:" أي : سكن غضبه على قومه، { أَخَذَ الألْوَاحَ } أي : التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرةً لله وغضبًا له"[11].

قال الثعلبي:" أخذ الألواح التي ألقاها وذهب منها ستة أسباعها"[12].

عن ابن عباس: "{ولما سكت عن موسى الغضب}، قال: فلما ذهب عن موسى الغضب فذلك قول الله: {أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}"[1].

---

[1] تفسير الطبري:١٣٧/١٣.

[2] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١١):ص١٥٧٢/٥.

[3] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١٣):ص١٥٧٢/٥.

[4] تفسير ابن أبي حاتم(٩٠١٢):ص١٥٧٢/٥.

[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١٤):ص١٥٧٢/٥.

[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١٠):ص١٥٧٢/٥.

[7] انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

[8] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[9] التفسير الميسر:١٦٩.

[10] تفسير الطبري:١٣٧/١٣-١٣٨. [بتصرف].

[11] تفسير ابن كثير:٤٧٨/٣.

[12] الكشف والبيان:٢٨٧/٤.

وكل كافٍ عن شيء: ساكت عنه، وإنما قيل للساكت عن الكلام: "ساكت"، لكفه عنه، وقد ذكر عن يونس الجرمي أنه قال: يقال: سكت عنه الحزن، وكلُّ شيء، فيما زعم، ومنه قول أبي النجم[٢]:

وَهَمَّتِ الأَفْعَى بِأَنْ تَسِيحَا   وَسَكَتَ المُكَّاءُ أَنْ يَصِيحَا[٣].

قوله تعالى:{وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف : ١٥٤]، أي:" وفيها بيان للحق ورحمة للذين يخافون الله، ويخشون عقابه"[٤].

قال الطبري:" يقول: وفيما نسخ فيها، أي كتب فيها ، {هدى} بيان للحق، {ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}، يقول: للذين يخافون الله ويخشون عقابَه على معاصيه"[٥].

عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: قوله :"{للذين هم لربهم يرهبون}، قال: يخافون ويتقون"[٦].

وقال مجاهد وإبراهيم: هو " الرجل يريد أن يذنب، فيذكر مقام ربه، فيدع الذنب"[٧].

قال ابن عباس:" أعطى الله موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة التوراة مكتوبة، فلما جاء بها فرأى بني إسرائيل عكفوا على العجل، رمى التوراة من يده فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع فلما ذهب عن موسى الغضب، فذلك قول الله: {أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}، قال: فيما بقي منها"[٨].

قال ابن كثير:" يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ، ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودا في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها ، وهي من جوهر الجنة فقد أخبر الله تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة. { لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } ضمن الرهبة معنى الخضوع ؛ ولهذا عدَّاها باللام"[٩].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله، قال تعالى:{ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}.

٢- أن دين الله سبحانه وتعالى رحمة للخلق من ظلم أنفسهم وظلم بعضهم لبعض، سواء أكان هذا الظلم بانتهاك الحقوق، أم بالاستبداد بالخيرات، أم بإضلال الأكابر للأصاغر، كما أخبر - تعالى -في هذه الآية عن الرحمة التي ضمنها التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام.

القرآن

{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)} [الأعراف : ١٥٥]

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١٥):ص١٥٧٢/٥.
[٢] الشعر من شواهد الطبري في تفسيره:١٣٨/١٣، والثعلبي في الكشف والبيان:٢٨٧/٤. ولم أجده.
[٣] انظر: تفسير الطبري:١٣٨/١٣.
[٤] التفسير الميسر:١٦٩.
[٥] تفسير الطبري:١٣٨/١٣.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠١٧):ص١٥٧٣/٥.
[٧] رواه ابن أبي الدنيا، في "التوبة"(٥٣):ص٦٧، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان(٧٢٥):ص١٩٩/٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠١٦):ص١٥٧٢/٥-١٥٧٣.
[٩] تفسير ابن كثير:٤٧٨/٣.

التفسير:
واختار موسى من قومه سبعين رجلا مِن خيارهم، وخرج بهم إلى طور «سيناء» للوقت والأجل الذي واعده الله أن يلقاه فيه بهم للتوبة مما كان من سفهاء بني إسرائيل من عبادة العجل، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك -يا موسى- حتى نرى الله جهرة فإنك قد كلَّمته فأرِنَاهُ، فأخذتهم الزلزلة الشديدة فماتوا، فقام موسى يتضرع إلى الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم، وقد أهلكتَ خيارهم؟ لو شئت أهلكتهم جميعًا من قبل هذا الحال وأنا معهم، فإن ذلك أخف عليَّ، أتهلكنا بما فعله سفهاء الأحلام منا؟ ما هذه الفعلة التي فعلها قومي من عبادتهم العجل إلا ابتلاءٌ واختبارٌ، تضلُّ بها مَن تشاء مِن خلقك، وتهدي بها من تشاء هدايته، أنت وليُّنا وناصرنا، فاغفر ذنوبنا، وارحمنا برحمتك، وأنت خير مَن صفح عن جُرْم، وستر عن ذنب.

قوله تعالى:{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" واختار موسى من قومه سبعين رجلا مِن خيارهم، وخرج بهم إلى طور «سيناء» للوقت والأجل الذي واعده الله أن يلقاه فيه بهم للتوبة مما كان من سفهاء بني إسرائيل من عبادة العجل"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: واختار موسى من قومه سبعين رجلا للوقت والأجل الذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم، للتوبة مما كان من فعل سفهائهم في أمر العجل"[٢].

عن ميمون: "{واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا}، قال: لموعدهم الذي وعدهم"[٣].

عن مجاهد: "{سبعين رجلا لميقاتنا}، قال: اختارهم لتمام الوعد"[٤].

قال السدي:" إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدًا، فاختار موسى قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناه! فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رَبِّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، لو شئتَ أهلكتهم من قبل وإيّاي!"[٥].

قال ابن إسحاق:" اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخيِّر فالخيرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتَطَهَّروا، وطهِّروا ثيابكم! فخرج بهم إلى طور سيْناء، لميقات وقَّته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون -فيما ذكر لي- حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربِّه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربِّنا! فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتى تغشى الجبلَ كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا! وكان موسى إذا كلمه الله وقَع على جبهته نورساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه! فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقَعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلِّم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل! فلما فرغ الله من أمره، انكشف عن موسى الغمام. أقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة! فأخذتهم الرجفة- وهي الصاعقة- فَافْتُلِتَتْ أرواحهم، فماتوا جميعًا، وقام موسى عليه السلام يناشد ربّه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي! قد سفهوا! أفتهلك مَنْ ورائي من بني إسرائيل؟"[٦].

---

[١] التفسير الميسر:١٦٩.
[٢] تفسير الطبري:١٤٠/١٣.
[٣] أخرجه الطبري(١٥١٥٥):ص١٤١/١٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥١٥٦):ص١٤١/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٥١٥٢):ص١٤٠/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥١٥٣):ص١٤٠/١٣-١٤١.

قوله تعالى:{فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" فلما رجف بهم الجبل وصعقوا"[١].

قال ابن عباس:" رُجف بهم"[٢].

قال مجاهد:" ماتوا ثم أحياهم"[٣].

وفي قوله تعالى:{فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف : ١٥٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنها الزلزلة ، قاله الكلبي[٤].

والثاني : أنه الموت . قال مجاهد : ماتوا ثم أحياهم .

والثالث : أنها نار أحرقتهم فظن موسى أنهم قد هلكوا ولم يهلكوا ، قاله الفراء .

قوله تعالى:{قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" قال موسى على وجه التضرع والإستسلام لأمر الله: لو شئت يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلتَ فإنَّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء"[٥].

وفي سبب أخذها لهم أربعة أقوال :

أحدهما : لأنهم سألوا الرؤية ، قاله ابن إسحاق[٦] .

والثاني :أخذتهم الرجفة من أجل دَعْواهم على موسى قتلَ هارون. وهذا قولعلي بن أبي طالب[٧].

والثالث: لأنهم فيما دَعَوُا الله قالوا: اللهم أعطِنا ما لم تعط أحدًا بعدنا! فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. وهذا قول ابن عباس[٨].

والرابع: لأنهم لم ينهوا عن عبادة العجل. وهذا قول ابن عباس أيضا[٩]، وابن جريج[١٠]، ومحمد بن كعب القرظي[١١].

قوله تعالى:{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم: {أَرِنَا الله جَهْرَةً} [النساء: ١٥٣] ؟"[١٢].

وفي قوله تعالى:{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} [الأعراف : ١٥٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أتهلك هؤلاء الذين أهلكتهم بما فعل السفهاء منا، أي: بعبادة من عبد العجل؟ قالوا: وكان الله إنما أهلكهم لأنهم كانوا ممن يَعبد العجل. وقال موسى ما قال، ولا علم عنده بما كان منهم من ذلك. وهذا معنى قول السدي[١٣].

والثاني: معناه: إن إهلاكك هؤلاء الذين أهلكتهم، هلاك لمن وراءهم من بني إسرائيل، إذا انصرفت إليهم وليسوا معي، و{السفهاء}، على هذا القول، كانوا المهلَكين الذين سألوا موسى أن يُرِيهم ربَّهم. وهذا معنى قول ابن إسحاق[١٤].

والثالث:معناه: أتؤاخذنا وليس منا رجلٌ واحد تَرَك عبادتك، ولا استبدل بك غيرك؟ وهذا قول ابن زيد[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٤١/١.

[٢] أخرجه الطبري(١٥١٦٧):ص١٤٨/١٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥١٦٥):ص١٤٨/١٣.

[٤] انظر: النكت والعيون:٢٦٥/٢.

[٥] صفوة التفاسير:٤٤١/١.

[٦] انظر: النكت والعيون:٢٦٥/٢.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥١٥٧):ص١٤٢/١٣.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥١٥٤):ص١٤١/١٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥١٦٠)، و(١٥١٦٣):ص١٤٣/١٣-١٤٤.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥١٦١):ص١٤٤/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥١٦٢):ص١٤٤/١٣.

[١٢] صفوة التفاسير:٤٤١/١.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٥١٦٨):ص١٤٩/١٣.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٥١٦٩):ص١٤٩/١٣-١٥٠.

والصواب-والله أعلم- "أن موسى إنما حزن على هلاك السبعين بقوله: {أتهلكنا بما فعل السفهاء منا}، وأنّه إنما عنى بـ{السفهاء} عبدةَ العجل. وذلك أنه محالٌ أن يكون موسى صلى الله عليه وسلم كان تخيَّر من قومه لمسألة ربِّه ما أراه أن يسألَ لهم إلا الأفضل فالأفضل منهم، ومحالٌ أن يكون الأفضل كان عنده مَنْ أشرك في عبادة العجل واتخذَه دون الله إلهًا"[٢].

قوله تعالى:{إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك"[٣].

قال الطبري: يقول:" ما هذه الفعلة التي فعلَها قومي، من عبادتهم ما عبَدُوا دونك، إلا فتنة منك أصَابتهم، ويعني بـ«الفتنة»، الابتلاء والاختبار ، يقول: ابتليتهم بها، ليتبين الذي يضلَّ عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بترك عبادته. وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى الله، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سببٍ منه جل ثناؤه"[٤].

قال ابن عباس:" إن هو إلا عذابك تصيبُ به من تشاء، وتصرفه عمن تشاء"[٥].

عن أبي العالية: "{إن هي إلا فتنتك}، قال: بليّتك"[٦].

عن ابن زيد قوله: "{إن هي إلا فتنتك}، أنت فتنتهم"[٧].

قوله تعالى:{تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" تضل بهذه المحمة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته"[٨].

قوله تعالى:{أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة"[٩].

قال الطبري:" يقول: أنت ناصرنا، فاستر علينا ذنوبَنا بتركك عقابَنا عليها، وتعطف علينا برحمتك"[١٠].

قال ابن كثير:" الغَفْر هو : الستر ، وترك المؤاخذة بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغفر ، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل"[١١].

قوله تعالى:{وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} [الأعراف : ١٥٥]، أي:" وأنت خير مَن صفح عن جُرْم، وستر عن ذنب"[١٢].

قال الطبري:" يقول: خير من صَفَح عن جُرم، وسَتر على ذنب"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : لا يغفر الذنوب إلا أنت"[١٤].

الفوائد:

١- وجوب التوبة من كل ذنب، ومشروعية صلاة ركعتين وسؤال الله تعالى عقبها أن يقبل توبة التائب ويغفر ذنبه.

٢- كل سلوك ينافي الشرع فهو من السفه المذموم، وصاحبه قد يوصف بأنه سقيه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥١٧٠):ص١٣/١٥٠.
(٢) تفسير الطبري:١٣/١٥٠.
(٣) صفوة التفاسير:١/٤٤١.
(٤) تفسير الطبري:١٣/١٥١.
(٥) أخرجه الطبري(١٥١٧٤):ص١٣/١٥١.
(٦) أخرجه الطبري(١٥١٧١):ص١٣/١٥١.
(٧) أخرجه الطبري(١٥١٧٥):ص١٣/١٥٢.
(٨) صفوة التفاسير:١/٤٤١.
(٩) صفوة التفاسير:١/٤٤١.
(١٠) تفسير الطبري:١٣/١٥٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٣/٤٨١.
(١٢) التفسير الميسر:١٦٩.
(١٣) تفسير الطبري:١٣/١٥٢.
(١٤) تفسير ابن كثير:٣/٤٨١.

القرآن

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)} [الأعراف : ١٥٦]

التفسير:

واجعلنا ممن كتبتَ له الصالحات من الأعمال في الدنيا وفي الآخرة، إنا رجعنا تائبين إليك، قال الله تعالى لموسى: عذابي أصيب به مَن أشاء مِن خلقي، كما أصبتُ هؤلاء الذين أصبتهم من قومك، ورحمتي وسعت خلقي كلَّهم، فسأكتبها للذين يخافون الله، ويخشون عقابه، فيؤدون فرائضه، ويجتنبون معاصيه، والذين هم بدلائل التوحيد وبراهينه يصدقون.

قوله تعالى:{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ} [الأعراف : ١٥٦]، أي:" واجعلنا ممن كتبتَ له الصالحات من الأعمال في الدنيا وفي الآخرة"[(١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: مخبرًا عن دعاء نبيه موسى عليه السلام أنه قال فيه: اجعلنا ممن كتَبت له{في هذه الدنيا حسنَةً، وهي الصالحات من الأعمال ، {وفي الآخرة}، ممن كتبتَ له المغفرة لذنوبه"[(٢)].

قال ابن كثير:" هناك الفصل الأول من الدعاء دفع المحذور ، وهذا لتحصيل المقصود { وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ } أي : أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة"[(٣)].

عن ابن جريج قوله: "{واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة}، قال: مغفرة"[(٤)].

قوله تعالى:{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [الأعراف : ١٥٦]، أي:" إنا رجعنا تائبين إليك"[(٥)].

قال الطبري:" إنا تبنا إليك"[(٦)].

قال ابن كثير:" أي : تبنا ورجعنا وأنبنا إليك"[(٧)].

عن ابن عباس : "{إنا هدنا إليك}، قال: تبنا إليك"[(٨)].

أخرج الطبري من طريق جابر عن علي -عليه السلام- قال: "إنما سميت «اليهود»، لأنهم قالوا: {هدنا إليك}"[(٩)].

قال ابن كثير:" جابر - هو ابن يزيد الجُعْفي – ضعيف"[(١٠)].

قوله تعالى:{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ} [الأعراف : ١٥٦]، أي:" قال الله تعالى لموسى: عذابي أصيب به مَن أشاء مِن خلقي، كما أصبتُ هؤلاء الذين أصبتهم من قومك"[(١١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال الله لموسى: هذا الذي أصبتُ به قومك من الرجفة، عذابي أصيب به من أشاء من خلقي، كما أصيب به هؤلاء الذين أصبتهم به من قومك، ورحمتي عمَّت خلقي كلهم"[(١٢)].

قال ابن كثير:" أي : أفعل ما أشاء ، وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك ، سبحانه لا إله إلا هو "[(١)].

---

(١) التفسير الميسر:١٧٠.
(٢) تفسير الطبري:١٥٢/١٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٨١/٣.
(٤) أخرجه الطبري(١٥١٧٦):ص١٥٢/١٣.
(٥) التفسير الميسر:١٧٠.
(٦) تفسير الطبري:١٥٢/١٣.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٨١/٣.
(٨) أخرجه الطبري(١٥١٧٧):ص١٥٣/١٣.
(٩) أخرجه الطبري(١٥١٩٩):ص١٥٥/١٣.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٨١/٣.
(١١) التفسير الميسر:١٧٠.
(١٢) تفسير الطبري:١٥٦/١٣.

قوله تعالى:{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف : ١٥٦]، أي:" ورحمتي وسعت خلقي كلَّهم"[٢].

قال الطبري:يقول:" ورحمتي عمَّت خلقي كلهم"[٣].

قال ابن كثير:" قوله تعالى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } آية عظيمة الشمول والعموم ، كقوله إخبارًا عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } [غافر : ٧]"[٤].

وفي قوله تعالى:{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف : ١٥٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أن مخرجها عام ومعناها خاص ، تأويل ذلك : ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد -ﷺ- لقوله تعالى :{فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، الآية. قاله ابن عباس[٥]، وقتادة[٦]، وابو بكر الهذلي[٧]، وابن جريج[٨].

والثاني : أنها على العموم في الدنيا والخصوص في الآخرة ، وتأويل ذلك : ورحمتي وسعت في الدنيا البر والفاجر ، وفي الآخرة هي للذين اتقوا خاصة ، قاله الحسن[٩]، وقتادة[١٠].

والثالث : أنها التوبة ، وهي على العموم ، قاله ابن زيد[١١].

قوله تعالى:{فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : ١٥٦]، أي:" فسأكتبها للذين يخافون الله، ويخشون عقابه، فيؤدون فرائضه، ويجتنبون معاصيه، والذين هم بدلائل التوحيد وبراهينه يصدقون"[١٢].

قال ابن كثير:" يعني : فسأوجب حُصُول رحمتي مِنَّةً مني وإحسانا إليهم ، كما قال تعالى : { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام : ٥٤]، أي : سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد- ﷺ -"[١٣].

وفي قوله تعالى:{فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف : ١٥٦]، قولان:

أحدهما : يتقون الشرك ، قاله ابن عباس[١٤].

والثاني : يتقون المعاصي ، قاله قتادة[١٥].

قال الطبري:" يقول: فسأكتب رحمتي التي وسعت كل شيء للقوم الذين يخافون الله ويخشون عقابه على الكفر به والمعصية له في أمره ونهيه، فيؤدُّون فرائضه، ويجتنبون معاصيه"[١٦].

قال ابن كثير:" {الذين يتقون}، أي : الشرك والعظائم من الذنوب "[١٧].

وفي قوله تعالى:{ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [الأعراف : ١٥٦]، قولان:

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٨١/٣.
[٢] التفسير الميسر:١٧٠.
[٣] تفسير الطبري:١٥٦/١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:٤٨١/٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠٢):ص١٥٦/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠٥):ص١٥٧/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠٣):ص١٥٧/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠٤):ص١٥٧/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠٩):ص١٥٩/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٠٩):ص١٥٩/١٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٢١٠):ص١٥٩/١٣.
[١٢] التفسير الميسر:١٧٠.
[١٣] تفسير ابن كثير:٤٨٢/٣.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٢١١):ص١٦٠/١٣.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٢١٢):ص١٦٠/١٣.
[١٦] تفسير الطبري:١٥٩/١٣.
[١٧] تفسير ابن كثير:٤٨٣/٣.

أحدهما : أنها زكاة أموالهم، لأنها من أشق فرائضهم ، وهذا قول الجمهور[١].
والثاني : معناه :يطيعون الله ورسوله ، قاله ابن عباس[٢]، والحسن[٣]، وذهبا إلى أنه العمل بما يزكي النفس ويطهرها من صالحات الأعمال .

قال ابن كثير:" { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } قيل : زكاة النفوس. وقيل : زكاة الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما ؛ فإن الآية مكية "[٤].

عن جُنْدُب - هو ابن عبد الله البَجَلي ، رضي الله عنه - قال : "جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عَقَلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ، ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ، ارحمني ومحمدًا ، ولا تشرك في رحمتنا أحدًا. فقال رسول الله ﷺ :«أتقولون هذا أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا ما قال ؟»، قالوا : بلى. قال : «لقد حَظَرْت رحمةً واسعة ؛ إن الله ، عز وجل ، خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق ؛ جنّها وإنسها وبهائمها ، وأخَّرَ عنده تسعًا وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟»"[٥].

وعن أبي سعيد قال : قال : رسول الله ﷺ : "لله مائة رحمة ، فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق ، فيه يتراحم الناس والوحش والطير"[٦].

أخرج الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق سعد أبو غَيْلان الشيباني عن حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : "والذي نفسي بيده ، ليدخلن الجنة الفاجرُ في دينه ، الأحمق في معيشته. والذي نفسي بيده ، ليدخلن الجنة الذي قد مَحَشته النار بذنبه. والذي نفسي بيده ، ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه"[٧].

قال ابن كثير:" هذا حديث غريب جدا ، و«سعد» هذا لا أعرفه"[٨].

الفوائد:

١- الهداية والإضلال كلاهما بيد الله تعالى فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله تعالى ويسأله أن لا يضله.
٢- رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ فلا تنال اليهود ولا النصارى ولا غيرهم.

القرآن

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)} [الأعراف : ١٥٧]

التفسير:

هذه الرحمة سأكتبها للذين يخافون الله ويجتنبون معاصيه، ويتبعون الرسول النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو محمد ﷺ، الذي يجدون صفته وأمره مكتوبَيْن عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالتوحيد والطاعة وكل ما عرف حُسْنه، وينهاهم عن الشرك والمعصية وكل ما عرف قُبْحه، ويُحِلُّ لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمناكح، ويُحرِّم عليهم الخبائث منها كلحم الخنزير، وما كانوا يستحلُّونه من المطاعم والمشارب التي حرَّمها الله، ويذهب عنهم ما كُلِّفوه

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢/٢٦٧.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٢١٣):ص١٣/١٦٠.
[٣] انظر: النكت والعيون:٢/٢٦٧.
[٤] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٣.
[٥]المسند (٤/٣١٢) وسنن أبي داود برقم (٤٨٨٥).
[٦]المسند (٣/٥٥) ، وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٩٤).
[٧]المعجم الكبير (٣/١٦٨) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢١٦) : "سعيد بن طالب أبو غيلان وثقه أبو زرعة وابن حبان ، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات".
[٨] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٢.

من الأمور الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، والقصاص حتمًا من القاتل عمدًا كان القتل أم خطأ، فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي محمد ﷺ وأقروا بنبوته، ووقروه وعظَّموه ونصروه، واتبعوا القرآن المنزل عليه، وعملوا بسنته، أولئك هم الفائزون بما وعد الله به عباده المؤمنين.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النبيَّ العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب"[١].

قال الطبري:" وهذا القول إبانةٌ من الله جل ثناؤه عن أنّ الذين وَعَد موسى نبيَّه عليه السلام أن يكتب لهم الرحمة التي وصفَها جل ثناؤه بقوله: {ورحمتي وسعت كل شيء}، هم أمة محمد ﷺ، لأنه لا يعلم لله رسولٌ وُصف بهذه الصفة - أعني {الأمي} - غير نبينا محمد ﷺ"[٢].

قال ابن كثير:" } وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم "[٣].

عن ابن عباس: "{فسأكتبها للذين يتقون}، قال: أمة محمد ﷺ"[٤].

عن قتادة قال: "لما قيل: {فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون}، تمنّتها اليهود والنصارى، فأنزل الله شرطًا بيّنًا وثيقًا فقال: {الذين يتبعون الرَّسول النبيّ الأمي}، وهو نبيكم ﷺ، كان أمّيًّا لا يكتبُ"[٥].

وفي تسميته بـ«الأمي»، ثلاثة أقوال[٦]:

أحدها : أنه لا يكتب .

الثاني : لأنه من أم القرى وهي مكة .

الثالث : لأن من العرب أمة أمية .

قوله تعالى:{الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل"[٧].

عن عطاء بن يسار قال: "لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسولِ الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفتِه في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومُبَشّرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأمّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن نقبضه حتى نقيم به الملةَ العوجاء، بأن يقولوا: "لا إله إلا الله"، فنفتح به قلوبًا غُلْفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُمْيًا قال عطاء: ثم لقيتُ كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته: قلوبًا غُلُوفيا، وآذانًا صموميًا، وأعينًا عُمْوميا"[٨].

عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب ، قال : جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعتي، قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله

---

[١] صفوة التفاسير:٤٤١/١.

[٢] تفسير الطبري:١٦١/١٣.

[٣] تفسير ابن كثير:٤٨٣/٣.

[٤] أخرجه الطبري(١٥٢١٤):ص١٦١/١٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٢٢٣):ص١٦٣/١٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري:٢٦٨/١٣.

[٧] صفوة التفاسير:٤٤١/١.

[٨] أخرجه الطبري(١٥٢٢٥):ص١٦٤/١٣.

وقد رواه البخاري في صحيحه ، عن محمد بن سِنَان ، عن فُلَيْح ، عن هلال بن علي - فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله : "ليس بفظ ولا غليظ" : "ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح". كانظر: صحيح البخاري برقم (٢١٢٥).

ﷺ : "أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟" فقال برأسه هكذا ، أي : لا. فقال ابنه ، إي : والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله فقال : "أقيموا اليهودي عن أخيكم". ثم ولى كفنه والصلاة عليه"[١].

قال ابن كثير:" هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح ، عن أنس"[٢].

عن جبير بن مطعم ، قال : "خرجت تاجرًا إلى الشام ، فلما كنت بأدنى الشام ، لقيني رجل من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجل نبيًا ؟ قلت : نعم. قال : هل تعرف صورته إذا رأيتها ؟ قلت : نعم. فأدخلني بيتا فيه صور ، فلم أر صورة النبي ﷺ ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا ، فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلى منزله ، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ ، وإذا رجل آخذ بعقب النبي ﷺ ، قلت : من هذا الرجل القابض على عقبه ؟ قال : إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي ، فإنه لا نبي بعده ، وهذا الخليفة بعده ، وإذا صفة أبي بكر ، رضي الله عنه"[٣].

عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب، قال : "بعثني عمر إلى الأسقف ، فدعوته ، فقال له عمر : هل تجدني في الكتاب ؟ قال : نعم. قال : كيف تجدني ؟ قال : أجدك قَرْنا. قال : فرفع عمر الدرة وقال قرن مه ؟ قال : قرن حديد ، أمير شديد. قال : فكيف تجد الذي بعدي ؟ قال : أجد خليفة صالحا ، غير أنه يؤثر قرابته قال عمر : يرحم الله عثمان ، ثلاثا. قال : كيف تجد الذي بعده ؟ قال : أجد صدأ حديد. قال : فوضع عمر يده على رأسه وقال : يا دفراه ، يا دَفْراه! قال : يا أمير المؤمنين ، إنه خليفة صالح ، ولكنه يُستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول ، والدم مهراق"[٤].

عن هشام بن العاص الأموي قال : "بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعني غوطة دمشق - فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغساني ، فدخلنا عليه ، فإذا هو على سرير له ، فأرسل إلينا برسوله نكلمه ، فقلنا : والله لا نكلم رسولا إنما بعثنا إلى الملك ، فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم نكلم الرسول فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك ، قال : فأذن لنا فقال : تكلموا فكلّمه هشام بن العاص ، ودعاه إلى الإسلام ، فإذا عليه ثيابُ سوادٍ فقال له هشام : وما هذه التي عليك ؟ فقال : لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا : ومجلسك هذا ، والله لنأخذنه منك ، ولنأخذن ملك الملك الأعظم ، إن شاء الله ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. قال : لستم بهم ، بل هم قوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، فكيف صومكم ؟ فأخبرناه ، فمُلئ وجهه سوادًا فقال : قوموا. وبعث معنا رسولا إلى الملك ، فخرجنا ، حتى إذا كنا قريبًا من المدينة ، قال لنا الذي معنا : إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك ، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال ؟ قلنا : والله لا ندخل إلا عليها ، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا ، حتى انتهينا إلى غرفة فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا ، فقلنا : لا إله إلا الله ، والله أكبر فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفة حتى صارت كأنها عِذْق تصَفّقه الرياح ، فأرسل إلينا : ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا : أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له ، وعنده بطارقته من الروم ، وكل شيء في مجلسه أحمر ، وما حوله حمرة ، وعليه ثياب من الحمرة ، فدنونا منه فضحك ، فقال : ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية ، كثير الكلام ، فقلنا : إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك ، وتحيتك التي تُحيى بها لا تحل لنا أن نحييك بها. قال : كيف تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا : السلام عليك. قال : وكيف تحيون ملككم ؟ قلنا : بها. قال : وكيف يرد عليكم ؟ قلنا : بها. قال :

---

[١] المسند (٥/٤١١).
[٢] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٣.
[٣] المعجم الكبير (٢/١٢٥) ورواه أيضا في الأوسط برقم (٣٤٩٦) "مجمع البحرين" وقال : "لا يروى عن جبير إلا بهذا الإسناد ، تفرد به محمد بن إدريس". قال الهيثمي في المجمع (٨/٢٣٣) : "فيه من لم أعرفهم".
[٤] سنن أبي داود برقم (٤٦٥٦) ، "والدفر : النتن".

فما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله ، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تَنَقَّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها ، قال : فهذه الكلمة التي قلتموها حيث تنفضت الغرفة ، كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم ؟ قلنا : لا ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال : لوددت أنكم كلما قلتم تَنَقَّضَ كل شيء عليكم. وإني خرجت من نصف ملكي. قلنا : لم ؟ قال : لأنه كان أيسر لشأنها ، وأجدر ألا تكون من أمر النبوة ، وأنها تكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال : كيف صلاتكم وصومكم ؟ فأخبرناه ، فقال : قوموا فقمنا. فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كَثير ، فأقمنا ثلاثًا.

فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا ، فأعدناه. ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبْعَةِ العظيمة مذهبة ، فيها بيوت صغار عليها أبواب ، ففتح بيتا وقفلا فاستخرج حريرة سوداء ، فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين. عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله. قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا آدم ، عليه السلام ، وإذا هو أكثر الناس شعرًا.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا له شعر كشعر القطط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا نوح ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء ، وإذا فيها رجل شديد البياض ، حسن العينين ، صَلْت الجبين ، طويل الخد ، أبيض اللحية كأنه يبتسم ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا إبراهيم ، عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر فإذا فيه صورة بيضاء ، وإذا - والله - رسول الله ﷺ فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله ﷺ قال : وبكينا. قال : والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس ، وقال : والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم ، إنه لهو ، كأنك تنظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فإذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط ، غائر العينين ، حديد النظر ، عابس متراكب الأسنان ، مقلَّص الشفة كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا موسى عليه السلام. وإلى جانبه صورة تشبهه ، إلا أنه مُدْهَان الرأس ، عريض الجبين ، في عينيه قبل ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا هارون بن عمران ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبْط رَبْعَة ، كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا لوط ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمرة ، أقنى ، خفيف العارضين ، حسن الوجه فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال هذا إسحاق ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق ، إلا أنه على شفته خال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال هذا يعقوب ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة رجل أبيض ، حسن الوجه ، أقنى الأنف ، حسن القامة ، يعلو وجهه نور ، يعرف في وجهه الخشوع ، يضرب إلى الحمرة ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا إسماعيل جد نبيكم ، عليهما السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة كأنها آدم ، عليه السلام ، كأن وجهه الشمس ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا يوسف ، عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمْش الساقين ، أخفش العينين ضخم البطن ، رَبْعة متقلد سيفا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا داود ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة رجل ضخم الأليتين ، طويل الرجلين ، راكب فرسًا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا سليمان بن داود ، عليه السلام.

ثم فتح بابًا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وإذا شابٌ شديد سواد اللحية ، كثير الشعر ، حسن العينين ، حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا. قال : هذا عيسى ابن مريم ، عليه السلام.

قلنا : من أين لك هذه الصور ؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء ، عليهم السلام ، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال : إن آدم ، عليه السلام ، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكان في خزانة آدم ، عليه السلام ، عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال : أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي ، وإني كنت عبدًا لأشركم ملكه ، حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا ، وسرحنا ، فلما أتينا أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فحدثناه بما أرانا ، وبما قال لنا ، وما أجازنا ، قال : فبكى أبو بكر وقال : مسكين! لو أراد الله به خيرًا لفعل. ثم قال : أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم"[(١)].

قال الحافظ ابن كثير:" هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي ، رحمه الله ، في كتاب "دلائل النبوة" ، عن الحاكم إجازة ، فذكره وإسناده لا بأس به"[(٢)].

قوله تعالى:{يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" يأمرهم بالتوحيد والطاعة وكل ما عرف حُسْنه، وينهاهم عن الشرك والمعصية وكل ما عرف قُبْحه"[(٣)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يأمر هذا النبيُّ الأميُّ أتباعَه بالمعروف، وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك "المعروف" الذي يأمرهم به ، {وينهاهم عن المنكر} وهو الشرك بالله، والانتهاء عمّا نهاهم الله عنه"[(٤)].

قال ابن كثير:" هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كان حاله ، عليه الصلاة والسلام ، لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فَأرْعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه ، ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله ، كما قال تعالى : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : ٣٦]"[(٥)].

عن أبي حميد وأبي أسيد ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : " إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم منه"[(٦)].

قال ابن كثير:" هذا حديث جيد الإسناد ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب [الستة"[(٧)].

وعن علي ، رضي الله عنه ، قال : إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا ، فظنوا به الذي هو أهدى ، والذي هو أهنا ، والذي هو أنجي والذي هو أتقى"[(٨)].

[(١)]دلائل النبوة للبيهقي: ٣٨٥/١.
[(٢)] تفسير ابن كثير:٤٨٦/٣.
[(٣)] التفسير الميسر:١٧٠.
[(٤)] تفسير الطبري:١٦٥/١٣.
[(٥)] تفسير ابن كثير:٤٨٧/٣.
[(٦)]المسند من حديث أبي أسيد (٤٩٧/٣) ومن حديث أبي حميد (٤٢٥/٥).
[(٧)] تفسير ابن كثير:٤٨٨/٣.
[(٨)]المسند (١٢٢/١).

قوله تعالى:{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" ويُحِلُّ لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمناكح، ويُحرِّم عليهم الخبائث منها كلحم الخنزير، وما كانوا يستحلُّونه من المطاعم والمشارب التي حرَّمها الله"[١].

قال الطبري:" وذلك ما كانت الجاهلية تحرِّمه من البحائر والسَّوائب والوصائل والحوامي، {ويحرم عليهم الخَبَائث}، وذلك لحم الخنزير والرِّبا وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرمها الل"[٢].

قال ابن كثير:" أي : يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر ، والسوائب ، والوصائل ، والحام ، ونحو ذلك ، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث.. وقال بعض العلماء : كل ما أحل الله تعالى ، فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه ، فهو خبيث ضار في البدن والدين. وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها ، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها ، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته. وفيه كلام طويل أيضا"[٣].

عن ابن عباس: "{ويحرم عليهم الخبائث}، وهو لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرَّمات من المآكلِ التي حرمها الله"[٤].

قوله تعالى:{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" ويذهب عنهم ما كُلِّفوه من الأمور الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، والقصاص حتمًا من القاتل عمدًا كان القتل أم خطأ"[٥].

قال ابن كثير:" أي : إنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : «بعثت بالحنيفية السمحة»[٦]. وقال لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري الأشعري ، لما بعثهما إلى اليمن : «بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا»[٧]. وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي :«إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره»[٨].

ثم قال ابن كثير:" قد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها ، وسهلها لهم ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل»[٩]، وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[١٠]؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : { رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة : ٢٨٦] وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلت ، قد فعلت[١١]"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٠.

[٢] تفسير الطبري:١٦٥/١٣.

[٣] تفسير ابن كثير:٤٨٨/٣.

[٤] أخرجه الطبري(١٥٢٢٩):ص١٦٦/١٣.

[٥] التفسير الميسر:١٧٠.

[٦]حديث حبيب بن أبى ثابت: أخرجه ابن سعد (١٩٢/١)، وأخرجه أحمد (٢٦٦/٥، رقم ٢٢٣٤٥) ، والطبرانى والطبرانى (٢١٦/٨، رقم ٧٨٦٨) . قال الهيثمى (٢٧٩/٥) : فيه على بن يزيد الألهانى وهوضعيف.
وأخرجه أحمد (١١٦/٦، رقم ٢٤٨٩٩) . قال العجلونى (٢٥١/١) : سنده حسن.

[٧] الحديث:" يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلف".
أخرجه أحمد (٤١٢/٤، رقم ١٩٧١٤) ، والبخارى (١١٠٤/٣، رقم ٢٨٧٣) ، ومسلم (١٣٥٩/٣، رقم ١٧٣٣).

[٨]أخرجه أحمد ٤٢٠/٤ (٢٠٠٠٨)، وفي ٤٢٣/٤ (٢٠٠٢٩)، و"البخاري" ٨١/٢ (١٢١١) وفي ٣٧/٨ (٦١٢٧)، و"ابن خزيمة"(٨٦٦).

[٩]رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٢٦٩) ومسلم في صحيحه برقم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.

[١٠]رواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٠٤٥) من حديث أبي ذر ، رضي الله عنه.

[١١]صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس ، رضي الله عنه.

قال ابن عباس:" ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم. يقول: يضع ذلك عنهم"[٢].

قال السدي:" يقول: يضع عنهم عهودهم ومواثيقَهم التي أخذت عليهم في التوراة والإنجيل"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ} [الأعراف : ١٥٧]، قولان:

أحدهما : أنه عهدهم الذي كان الله تعالى أخذه على بني إسرائيل. قاله ابن عباس[٤]، والحسن[٥]، ومجاهد[٦]، والضحاك[٧]، والسدي[٨].

والثاني : أنه التشديد على بني إسرائيل الذي كان في دينهم من تحريم السبت وتحريم الشحوم والعروق وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله مجاهد[٩]، وقتادة[١٠]، وسعيد بن جبير[١١]، وابن زيد[١٢].

عن ابن سيرين قال: "قال أبو هريرة لابن عباس: ما علينا في الدين من حَرَج أن نزني ونسرق؟ قال: بلى! ولكن الإصر الذي كان على بني إسرائيل وُضِع عنكم"[١٣].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ "الإصر" هو العهد= وقد بينا ذلك بشواهده في موضع غير هذا بما فيه الكفاية وأن معنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعملِ بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حُكْم القرآن"[١٤].

وفي قوله تعالى:{وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف : ١٥٧]، قولان:

أحدهما : أنه الميثاق الذي أخذه عليهم فيما حرمه عليهم ، قاله ابن أبي طلحة[١٥].

والثاني : أن تلك الأغلال هي ما بيّنه الله تعالى في قوله:{غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة : ٦٤]، ودعاهم إلى أن يؤمنوا بالنبيّ فيضع ذلك عنهم. قاله ابن زيد[١٦].

قوله تعالى:{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" فالذين صدقوا بمحمد وعظّموه ووقّره"[١٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي، وأقرُّوا بنبوّته، وَقَّروه وعظموه وحَمَوه من الناس"[١٨].

قال ابن كثير:" أي : عظموه ووقروه"[١٩].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٨-٤٨٩.
[٢] أخرجه الطبري(١٥٢٣٦):ص١٣/١٦٧.
[٣] أخرجه الطبري(١٥٢٣٥):ص١٣/١٦٦.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣٠):ص١٣/١٦٦.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣٣):ص١٣/١٦٦.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣٤):ص١٣/١٦٦.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣١):ص١٣/١٦٦.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣٥):ص١٣/١٦٦.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٠):ص١٣/١٦٧.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣٧):ص١٣/١٦٧.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٣٨)، (١٥٢٣٩):ص١٣/١٦٧.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٢):ص١٣/١٦٨.
[١٣] أخرجه الطبري(١٥٢٤١):ص١٣/١٦٧.
[١٤] تفسير الطبري:١٣/١٦٨.
[١٥] انظر: النكت والعيون:٢/٢٦٩.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٣):ص١٣/١٦٨.
[١٧] التفسير الميسر:١٧٠.
[١٨] تفسير الطبري:١٣/١٦٨.
[١٩] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٩.

وفي قوله تعالى:{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ} [الأعراف : ١٥٧]، وجهان:
أحدهما : يعني عظموه ، قاله علي بن عيسى[١].
والثاني : منعوه من أعدائه وقّروه، قاله ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، واختاره أبو جعفر الطبري[٤].
الطبري[٤]. ومنه تعزير الجاني لأنه يمنعه من العود إلى مثله.

قوله تعالى:{وَنَصَرُوهُ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" ونصروا دينه"[٥].

قال الطبري:" يقول: وأعانوه على أعداء الله وأعدائه، بجهادهم ونصب الحرب لهم"[٦].
لهم"[٦].

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد"[٧].

قال الطبري:" يعني القرآن والإسلام"[٨].

قال ابن كثير:" أي : القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس"[٩].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف : ١٥٧]، أي:" أولئك هم الفائزون بما وعد الله به عباده المؤمنين"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : في الدنيا والآخرة "[١١].

قال الطبري:" يقول: الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها جل ثناؤه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، هم المنجحون المدركون ما طلبُوا ورجَوْا بفعلهم ذلك"[١٢].

عن قتادة قال: فما نقموا- يعني اليهود- إلا أن حسدوا نبيَّ الله، فقال الله: {الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه}، فأما نصره وتعزيره فقد سبقتم به، ولكن خياركم من آمن بالله واتَّبع النور الذي أنزل معه"[١٣].

قال الطبري:" يريد قتادة بقوله «فما نَقَموا إلا أن حسدوا نبي الله»، أن اليهودَ كان محمَّد ﷺ بما جاء به من عند الله رحمةً عليهم لو اتبعوه، لأنه جاء بوضع الإصر والأغلال عنهم، فحملهم الحسد على الكفر به، وترك قبول التخفيف، لغلبة خِذْلانِ الله عليهم"[١٤].

الفوائد:

١- بيان شرف النبي محمد ﷺ وأمته.
٢- بيان فضل تزكية النفس بعمل الصالحات وإبعادها عن المدسيات من الذنوب.
٣- بيان فضل التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٤- وجوب توقير النبي ﷺ وتعظيمه ونصرته وإتباع الكتاب الذي جاء به والسنن التي سنها لأمته.

القرآن

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢/٢٦٩.
[٢]تفسير الطبري(١٥٢٤٤):ص١٣/١٦٨-١٦٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٥):ص١٣/١٦٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري:١٣/١٦٨.
[٥] التفسير الميسر:١٧٠.
[٦] تفسير الطبري:١٣/١٦٩.
[٧] صفوة التفاسير:١:٤٤٢.
[٨] تفسير الطبري:١٣/١٦٩.
[٩] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٩.
[١٠] التفسير الميسر:١٧٠.
[١١] تفسير ابن كثير:٣/٤٨٩.
[١٢] تفسير الطبري:١٣/١٦٩.
[١٣] أخرجه الطبري(١٥٢٤٦):ص١٣/١٦٩.
[١٤] تفسير الطبري:١٣/١٦٩.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)} [الأعراف : ١٥٨]

التفسير:

قل -أيها الرسول- للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا لا إلى بعضكم دون بعض، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما، لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفنائه وبعثه، فصدَّقوا بالله وأقرُّوا بوحدانيته، وصدَّقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأميِّ الذي يؤمن بالله وما أنزل إليه من ربه وما أنزل على النبيين من قبله، واتبعوا هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله، رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم.

قوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" قل -أيها الرسول- للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا لا إلى بعضكم دون بعض"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد للناس كلهم {إنّي رسول الله إليكم جميعًا}، لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرُّسل، مرسلا إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم"[٢].

قال ابن كثير:" يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ { قُلْ } يا محمد : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربي والعجمي ، { إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } أي : جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، كما قال تعالى : { قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } [الأنعام : ١٩] وقال تعالى : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } [هود : ١٧] وقال تعالى : { وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ } [آل عمران : ٢٠] والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، رسول الله إلى الناس كلهم"[٣].

عن أبي الدرداء ، رضي الله عنه ، قال: «كانت بين أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عمر عنه مغضبا ، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء : ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ "أما صاحبكم هذا فقد غامر" - أي : غاضب وحاقد - قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء : وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : "هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ إني قلت : يأيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم : كذبت وقال أبو بكر : صدقت"»[٤].

عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : "أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي - ولا أقوله فخرًا : بعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئا"[٥].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٠.
[٢] تفسير الطبري:١٧٠/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٤٨٩/٣.
[٤]صحيح البخاري برقم (٤٦٤٠).
[٥]) المسند (٣٠١/١) قال الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٨) : "رجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث".
قال ابن كثير في تفسيره:٤٩٠/٣:" إسناده جيد ، ولم يخرجوه".

عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك ، قام من الليل يصلي ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم : "لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي ، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ، ونصرت على العدو بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعبا ، وأحلت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مساجد وطهورًا ، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك ، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم ، والخامسة هي ما هي ، قيل لي : سل ؛ فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله"[1].

وعن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : "من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني ، فلم يؤمن بي ، لم يدخل الجنة"[2].

قوله تعالى:{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما"[3].

قال الطبري: يعني:"الذي الذي له سلطان السَّموات والأرض وما فيهما، وتدبير ذلك وتصريفه"[4].

قال ابن كثير:" صفة الله تعالى ، في قوله { رَسُولُ اللَّهِ } أي : الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه ، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة ، وله الحكم"[5].

قوله تعالى:{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفنائه وبعثه"[6].

قال الطبري: "يقول: لا ينبغي أن تكون الألوهة والعِبادة إلا له جل ثناؤه، دون سائر الأشياء غيره من الأنداد والأوثان، إلا لمن له سلطان كل شيء، والقادر على إنشاء خلق كل ما شاء وإحيائه، وإفنائه إذا شاء إماتته"[7].

قوله تعالى:{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" فصدَّقوا بالله وأقرُّوا بوحدانيته، وصدَّقوا برسوله محمد ﷺ"[8].

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: قل لهم: فصدِّقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقِرُّوا بوحدانيته، وأنه الذي له الألوهة والعبادة، وصدقوا برسوله محمد ﷺ أنَّه مبعوث إلى خلقه، داع إلى توحيده وطاعته"[9].

قال ابن كثير:" أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به "[10].

قوله تعالى:{النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب"[11].

قال ابن كثير:" أي : الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم "[1].

---

[1] المسند (٢٢٢/٢).
قال ابن كثير: في تفسيره:٤٩٠/٣:" إسناد جيد قوي أيضا ولم يخرجوه".
[2] المسند (٤٩٦/٤).
[3] التفسير الميسر:١٧٠.
[4] تفسير الطبري:١٧٠/١٣.
[5] تفسير ابن كثير:٤٩١/٣.
[6] التفسير الميسر:١٧٠.
[7] تفسير الطبري:١٧٠/١٣.
[8] التفسير الميسر:١٧٠.
[9] تفسير الطبري:١٧٠/١٣.
[10] تفسير ابن كثير:٤٩١/٣.
[11] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

قال الطبري: " قوله: {النبي الأمي}، فإنه من نعت رسول الله ﷺ"[2].

قوله تعالى:{الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء"[3].

قال الطبري: " يقول: الذي يصدق بالله وكلماته"[4].

قال ابن كثير:" أي : يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه "[5].

واختلف في قوله تعالى:{ وَكَلِمَاتِهِ} [الأعراف : ١٥٨]، على قولين:

احدهما: معناه: وآياته. قاله قتادة[6].

والثاني: أنه عنى بذلك عيسى ابن مريم عليه السلام. قاله مجاهد[7]، والسدي[8].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله تعالى ذكره أمرَ عباده أن يصدِّقوا بنبوّة النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، ولم يخصص الخبرَ جل ثناؤه عن إيمانه من «كلمات الله» ببعض دون بعضٍ، بل أخبرهم عن جميع «الكلمات»، فالحق في ذلك أن يعمَّ القول، فإن رسول الله ﷺ كان يؤمن بكلمات الله كلِّها، على ما جاء به ظاهرُ كتابِ الله"[9].

قوله تعالى:{وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف : ١٥٨]، أي:" اسلكوا طريقة واقتفوا أثره رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم"[10].

قال الطبري:" يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقّ في اتّباعكم إيّاه"[11].

قال ابن كثير:" أي : اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ، { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }، أي : إلى الصراط المستقيم"[12].

الفوائد:

١- عموم رسالة النبي محمد ﷺ لكافه الناس عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم.

٢- هداية الإنسان فردا أو جماعة أو أمة إلى الكمال والإسعاد متوقفة على إتباع النبي محمد -ﷺ-.

القرآن

{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)} [الأعراف : ١٥٩]

التفسير:

ومِن بني إسرائيل من قوم موسى جماعة يستقيمون على الحق، يهدون الناس به، ويعدلون به في الحكم في قضاياهم.

قوله تعالى:{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} [الأعراف : ١٥٩]، أي:" ومِن بني إسرائيل من قوم موسى جماعة يستقيمون على الحق، يهدون الناس به"[13].

قال الطبري:" يعني: بني إسرائيل جماعة يهتدون بالحق، أي: يستقيمون عليه ويعملون"[1].

---

(1) تفسير ابن كثير:٤٩١/٣.

(2) تفسير الطبري:١٧١/١٣.

(3) صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

(4) تفسير الطبري:١٧١/١٣.

(5) تفسير ابن كثير:٤٩١/٣.

(6) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٧):ص١٧١/١٣.

(7) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٨):ص١٧١/١٣.

(8) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٤٩):ص١٧١/١٣-١٧٢.

(9) تفسير الطبري:١٧٢/١٣.

(10) انظر: التفسير الميسر:١٧٠، وصفوة التفاسير:٤٤٢/١.

(11) تفسير الطبري:١٧٢/١٣.

(12) تفسير ابن كثير:٤٩١/٣.

(13) التفسير الميسر:١٧٠.

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به ، كما قال تعالى : { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } [آل عمران : ١١٣] ، وقال تعالى:{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [آل عمران : ١٩٩] ، وقال تعالى:{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } الآية [البقرة : ١٢١] ، وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا * وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩]"[(٢)].

وفي قوله تعالى:{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} [الأعراف : ١٥٩]، ثلاثة أقوال:
أحدها : أنهم الذين تمسكوا بالحق في وقت ضلالتهم بقتل أنبيائهم ، ولا يدل هذا على استدامة حاله على الأبد [(٣)].
والثاني : أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، ابن جريج[(٤)].
والثالث : أنهم من آمن بالنبي -ﷺ- وابن صوريا وغيرهما ، قاله الكلبي[(٥)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي من طريق حامد بن يحيى:" {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: بينكم وبينهم نهر من سهل، قال حامد: سهل. نهر من رمل يجري"[(٦)].

واخرج الطبري عن السدي:" "{ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شُهْدٍ"[(٧)].

وقال صفوان بن عمرو: "هم الذين قال الله تعالى:{ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق}، يعني: سلطان من أسباط بني إسرائيل يوم الملحمة العظمى ينصرون الإسلام وأهله"[(٨)].

أخرج الطبري عن ابن جريج قوله: "{ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: بلغني أن بني إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءَهم، كفروا. وكانوا اثني عشر سبطًا، تبرّأ سبطٌ منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله أن يفرِّق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نَفَقًا في الأرض، فساروا فيه حتى خرجُوا من وراء الصين، فهم هنالك، حُنَفاء مسلمُون يستقبلون قبلتنا، قال ابن جريج:

---

(١) تفسير الطبري:١٧٢/١٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٩١/٣-٤٩٢.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٧٣/١٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥١):ص١٧٣/١٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٧٣/١٣.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم(٨٣٧٢):ص١٥٨٨/٥.
(٧) تفسير الطبري(١٥٢٥٠):ص١٧٣/١٣. قال السيد أحمد شاكر:" نهر من شهد)) يعنى: نهراً من عسل من أنهار الجنة التي قال الله تعالى في سورة محمد: ١٥ {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى}، وبهذا اللفظ (شهد) ، ذكره ابن كثير في تفسيره ٣: ٥٧٣. وفي الدر المنثور ١: ١٣٦: ((وبينهم نهر من سهل - يعني من رمل - يجري)) ، ثم جاء الألوسى في تفسير الآية (٩: ٧٥) فنقل ذلك هكذا: ((وبينهم نهر من رمل يجري)) ثم قال: ((وضعف هذه الحكاية ابن الخازن، وأنا لا أراها شيئا، ولا أظنك تجد لها سنداً يعول عليه ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً إلى السماء)) . ونقل الألوسى نقل من المعنى الذي ذكره السيوطي ((سهل)) - يعني من رمل)) ، وهو فاسد جداً والصواب أن ((سهل)) ، محرف عن ((شهد)) ، وهو الصواب إن شاء الله. هذا تحرير نص الخبر وتأويله، وأما صحته أو ضعفه فهما بمعزل من تصحيح نصه، ومثل هذا الخبر والذي يليه، لا يؤخذ به إلا بحجة قاطعة يجب التسليم لها. ولا حجة في رواية موقوفة على السدي".
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٣٧٣):ص١٥٨٨/٥.

قال ابن عباس: فذلك قوله: {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} [سورة الإسراء: ١٠٤] . و«وعد الآخرة»، عيسى ابن مريم، يخرجون معه. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السَّرَب سنة ونصفًا"[١].

قال ابن كثير: "هذا خبر عجيب"[٢].

قوله تعالى:{وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف : ١٥٩]، أي:" ويعدلون بالحق في الحكم في قضاياهم"[٣].

قال الطبري:" أي: وبالحق يعطُون ويأخذون، ويُنصفون من أنفسهم فلا يجورون"[٤].

الفوائد:

١- إنصاف القرآن للأمم والجماعات فقد صرح أن في بني إسرائيل أمة قائمة على الحق، وذلك بعد فساد بني إسرائيل، وقبل مبعث النبي الخاتم أما بعد البعثة المحمدية فلم يبق أحد على الحق، إلا من آمن به واتبعه لنسخ سائر الشرائع بشريعته.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كـ النجاشي وغيره، وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ} [آل عمران:١٩٩]، وقوله: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ} [المائدة:٨٣] وقوله تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف:١٥٩] وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما قدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة[٥].

القرآن

{وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)} [الأعراف : ١٦٠]

التفسير:

وفرَّقنا قوم موسى مِن بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة بعدد الأسباط -وهم أبناء يعقوب- كل قبيلة معروفة من جهة نقيبها. وأوحينا إلى موسى إذ طلب منه قومه السقيا حين عطشوا في التِّيْه: أن اضرب بعصاك الحجر، فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء، قد علمت كل قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة مشربهم، لا تدخل قبيلة على غيرها في شربها، وظلَّلنا عليهم السحاب، وأنزلنا عليهم المنَّ -وهو شيء يشبه الصَّمغ، طعمه كالعسل- والسلوى، وهو طائر يشبه السُّمَانَى، وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم، فكرهوا ذلك وملُّوه من طول المداومة عليه، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وطلبوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. وما ظلمونا حين لم يشكروا لله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؛ إذ فوَّتوا عليها كل خير، وعرَّضوها للشر والنقمة.

---

[١] تفسير الطبري(١٥٢٥١):ص١٧٣/١٣-١٧٤.

[٢] انظر: تفسير ابن كثير:٤٩٢/٣.

[٣] التفسير الميسر:١٧٠.

[٤] تفسير الطبري:١٧٢/١٣.

[٥] انظر: شرح فتح المجيد للغنيمان: الدرس(٣١):ص٢[كتاب الكتروني].

قوله تعالى:{وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" وفرَّقنا قوم موسى مِن بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة بعدد الأسباط -وهم أبناء يعقوب- كل قبيلة معروفة من جهة نقيبها"[١].

قال الطبري:" يعني: قوم موسى من بني إسرائيل، فرقهم الله فجعلهم قبائل شتى، اثنتي عشرة قبيلة.. قيل: إنما فرّقوا أسباطًا لاختلافهم في دينهم"[٢].

قوله تعالى:{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" وأوحينا إلى موسى إذ طلب منه قومه السقيا حين عطشوا في التِّيْه: أن اضرب بعصاك الحجر "[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره:{وأوحينا إلى موسى}، إذ فرّقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة، وتيَّهناهم في التيه، فاستسقوا موسى من العَطش وغَوْر الماء{أن اضرب بعصَاك الحجر}"[٤].

قوله تعالى:{فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء"[٥].

قال الطبري:أي:" فانصبّت وانفجرت من الحجر اثنتَا عشرة عينًا من الماء"[٦].

قوله تعالى:{قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" قد علمت كل قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة مشربهم، لا تدخل قبيلة على غيرها في شربها"[٧].

قال الطبري:أي:" يعني: كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة {مشربهم}، لا يدخل سبط على غيره في شربه"[٨].

قوله تعالى:{وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ} [الأعراف : ١٦٠]، أي:"وظلَّلنا عليهم السحاب"[٩].

قال الطبري:" يكنُّهم من حرّ الشمس وأذاها"[١٠].

قوله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" وأنزلنا عليهم المنَّ -وهو شيء يشبه الصَّمغ، طعمه كالعسل- والسلوى، وهو طائر يشبه السُّمَانَى"[١١].

قال الطبري:أي:" طعامًا لهم"[١٢].

قوله تعالى:{كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه"[١٣].

قال الطبري:" يقول: وقلنا لهم: كلوا من حَلال ما رَزقْناكم، أيها الناس، وطيّبناه لكم"[١٤].

قوله تعالى:{وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الأعراف : ١٦٠]، أي:" فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث عرّضوها بالكفر لعذاب الله"[١٥].

---

[١] التفسير الميسر:١٧١.
[٢] تفسير الطبري:١٧٤/١٣-١٧٦.
[٣] التفسير الميسر:١٧١.
[٤] تفسير الطبري:١٧٦/١٣.
[٥] التفسير الميسر:١٧١.
[٦] تفسير الطبري:١٧٧/١٣.
[٧] التفسير الميسر:١٧١.
[٨] تفسير الطبري:١٧٧/١٣.
[٩] التفسير الميسر:١٧١.
[١٠] تفسير الطبري:١٧٧/١٣.
[١١] التفسير الميسر:١٧١.
[١٢] تفسير الطبري:١٧٧/١٣.
[١٣] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.
[١٤] تفسير الطبري:١٧٧/١٣.
[١٥] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

قال الطبري:" في الكلام محذوف، ترك ذكره استغناءً بما ظهَر عما ترك، وهو:فأجِمُوا ذلك، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، {وما ظلمونا}، يقول: وما أدخلوا علينا نقصًا في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا، وفعلهم ما فعلوا، {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، أي: ينقصونها حظوظَها باستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل"[1].

الفوائد:

١- إذا أنعم الله على عبد أو أمة نعمة ثم لم يشكرها تسلب منه أحب أم كره وكائنا من كان.

٢- ومن الفوائد: أن العذاب ظلم وضر من العباد لأنفسهم كما قال تعالى:{ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

القرآن

{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)} [الأعراف : ١٦١]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- عصيان بني إسرائيل لربهم سبحانه وتعالى ولنبيهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القول الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: اسكنوا قرية «بيت المقدس» ، وكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها أين شئتم ومتى شئتم، وقولوا: حُطَّ عنا ذنوبنا، وادخلوا الباب خاضعين لله، نغفر لكم خطاياكم، فلا نؤاخذكم عليها، وسنزيد المحسنين مِن خَيْرَيِ الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ} [الأعراف : ١٦١]، أي:" واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس"[2].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا، يا محمد، من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيَّهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القولَ الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: {اسكنوا هذه القرية}، وهي قرية بيت المقدس"[3].

واختلف المفسرون في تعيين «القرية»، على أقوال:

الأول:أنها بيت المقدس. قاله قتادة[4]، والسدي[5]، والربيع[6]، وهو قول الجمهور[7].

والثاني: أنها أريحا من بيت المقدس، إذ كانت قاعدة ومسكن ملوك. قاله ابن زيد[8].

والثالث: أنها : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، قاله الضحاك[9].

والراجح هو القول الأول، وهو قول الجمهور. والله أعلم.

وقوله تعالى{هَذِهِ الْقَرْيَةَ}[الأعراف : ١٦١]، أي "المدينة، سميت بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته"[10].

وقال أهل اللغة، أن "اشتقاق القرية من قريت، أي جمعت، والمقراة: الحوض يجمع فيه الماء، والقَرِيّ: مسيل يجتمع الماء إليه[1]، ويقال لبيت النمل: قرية، لأنه يجمع النمل [2]، قال الشاعر[3]:

---

[1] تفسير الطبري:١٧٧/١٣.

[2] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

[3] تفسير الطبري:١٧٨/١٣.

[4] أنظر: تفسير الطبري(٩٩٩):ص١٠٢/٢.

[5] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٠):ص١٠٢/٢-١٠٣.

[6] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠١):ص١٠٣/٢.

[7] انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٩/١.

[8] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٢):ص١٠٣/٢.

[9] نقلا: عن تفسير الثعلبي: ٢٠١/١، وتفسير القرطبي: ٤٠٩/١.

[10] تفسير القرطبي: ٤٠٩/١.

كَأَنَّ قُرَى نَمْلٍ عَلَى سَرَوَاتِهَا   يُلَبِّدُهَا فِي لَيْلِ سَارِيَةٍ قَطْرُ

فالقرية تجمع أهلها، ومنه يقال للظهر: القرى، لأنه مجتمع القوى"[٤].

قوله تعالى:{وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ} [الأعراف : ١٦١]، أي:"وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شتئم منها"[٥].

قال الطبري:" يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها أنّى شئتم منها"[٦].

قوله تعالى:{وَقُولُوا حِطَّةٌ} [الأعراف : ١٦١]، أي:" وقولوا حين دخولكم: يا ألله حُطَّ عنا ذنوبنا"[٧].

قال الطبري:" يقول: وقولوا: هذه الفعلة {حِطّةٌ}، تحطُّ ذنوبنا"[٨].

والـ{حِطَّةٌ}: من قول القائل : " حط الله عنك خطاياك فهو يحطها حطة "[٩].

واختلف أهل العلم في معنى: «حِطَّةٌ»، على أقوال:

أحدها: أن معناه: حُطَّ عنا خطايانا، وهو قول الحسن[١٠]، وقتادة[١١]، وابن زيدٍ[١٢]، وعطاء[١٣]، ورواية ابن جريج عن ابن عباس[١٤].

قال الماوردي :"وهو أشبهُ بظاهر اللفظ"[١٥]. وهذا تفسير حسن، قال به كثير من أهل العلم[١٦].

والثاني:أن معناه: قولوا (لا إله إلا الله). روي ذلك عن عكرمة[١٧]، كأنهم وجهوا تأويله : قولوا الذي يحط عنكم خطاياكم، وهو قول لا إله إلا الله .

والثالث: أن {حِطَّةٌ} المغفرة، فكأنه أمر بالاستغفار، وهو رواية سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ[١٨]، وروي عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك[١٩].

والرابع: أنه قولهم : "هذا الأمر حق كما قيل لكم"[١]، وهو رواية الضحاك، عن ابن عباسٍ[٢].

([١])انظر "الزاهر" ٢/ ١٠٧، "جمهرة أمثال العرب" ٢/ ٤١١، "تهذيب اللغة" (قرأ) ٣/ ٣٩١١، "مقاييس اللغة" (قرى) ٥/ ٧٨، "المحكم" ٦/ ٣٠٧.

([٢])قال ابن سيده: قرية النمل: ما تجمعه من التراب، "المحكم" ٦/ ٣٠٧، وانظر "اللسان" (قرأ) ٦/ ٣٦١٧. والبيت الذي ذكره يؤيد قول ابن سيده.

([٣]) البيت من شواهد الواحدي في التفسير البسيط: ٥٥٢/٢، ولم أتعرف على قائله.

([٤]) التفسير البسيط: ٥٥٢/٢.

[٥] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

[٦] تفسير الطبري:١٧٨/١٣.

[٧] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

[٨] تفسير الطبري:١٧٨/١٣.

([٩]) تفسير الطبري: ١٠٥/٢.

([١٠]) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٩):ص١٠٥/٢، وابن أبي حاتم(٥٨٤):ص١١٩/١.

([١١]) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٩):ص١٠٥/٢، وابن أبي حاتم(٥٨٤):ص١١٩/١.

([١٢]) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٠):ص١٠٥/٢-١٠٦.

([١٣]) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٤):ص١٠٦/٢.

([١٤]) أنظر: تفسير الطبري(١٠١١):ص١٠٦/٢.

([١٥])النكت والعيون: ١٢٦/١.

([١٦])انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي: ٧٠، معاني القرآن للأخفش: ٢٦٩/١، تفسير ابن أبي حاتم: ١٨٥/١، النكت والعيون للماوردي: ١٢٦/١، المفردات للراغب: ١٢٢، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥٨/١، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١٠٤/١، محاسن التأويل للقاسمي: ١٣٤/٢، وغيرها.

([١٧]) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٥):ص١٠٧/٢، وابن أبي حاتم(٥٨٢):ص١١٨/١.

([١٨]) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٢):ص١٠٦/٢، وفيه:" : (حطة) ، مغفرة". وأنظر: الخبر(١٠١٦):ص٢ /١٠٦. وفيه": أمروا أن يستغفروا".

([١٩]) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١١٨/١.

الخامس: معناه: " أن أقروا بالذنب". حكاه الأوزاعي عن ابن عباس[٣].
السادس: أن معنى (حِطَّةٌ): بسم الله، ذكره السمرقندي[٤] عن بعضهم، فكأن المعنى عليه: ادخلوا الباب خاضعين لله مستعينين به على عدوكم، فإن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطاياكم نتيجة امتثالكم، وهو محتمل.
والسابع: أن (حِطَّة) من ألفاظ أهل الكتاب لا يعرف المراد منها، قاله الأصم[٥].
والثامن: أن (حِطَّة): كانت تعني في ذلك المكان الدلالة على العجز، وهي من أقوال أصحاب المسألة والشحاذين، أمروا بها كيلا يحسب لهم أهل القرية حساباً، ولا يأخذوا منهم حذراً، فيكون القول الذي أمروا به على ذلك قولاً يخاطبون به أهل القرية[٦].
والتاسع: أن (حِطَّة) تعني إقامة من الحط بمعنى حط الرحال وإنزالها، أي: ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة والاستقرار بها، قاله أبو مسلم الأصفهاني[٧].
وهذان القولان الأخيران كما ذكر الألوسي بعيدان لعدم ظهور تعلق الغفران بهما[٨].
وأحسن هذه الوجوه وأقربها إلى التحقيق القول الأول، والله أعلم.
قوله تعالى:{وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف : ١٦١]، أي:" وادخلوا الباب خاضعين لله"[٩].
قال الصابوني:" أي: ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه"[١٠].
واختلفوا في «الباب»، في قوله: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف : ١٦١]، على ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ (باب حِطَّةَ)، وهذا قول ابن عباس[١١]، ومجاهد[١٢]، والسدي[١٣]، والضحاك[١٤]، واختاره الطبري[١٥]، وهو المشهور[١٦].
والثاني: أنه باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل[١٧].
والثالث: أنه باب القرية، التي أمروا بدخولها[١٨].
قال الثعلبي:"يعني: بابا من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب"[١٩].
واختلفوا في قوله : {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف : ١٦١]، على وجهين:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/١-١٠٧. ، ويقرب منه ما ذكره السيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب: ٨٤ من أن المعنى صواباً، فكأن المطلوب منهم: الإقرار بصدق الرسول فيما جاء به، والتسليم وعدم التكذيب، وهو محتمل.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠١٧):ص١٠٧/٢، وابن أبي حاتم(٥٨١):ص١١٨/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٣):ص١١٨/١.
(٤) أنظر: بحر العلوم: ١٢١/١.
(٥)أنظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٩٥/٣، وذكر ذلك السيوطي في المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب: ٨٣-٨٤، وهو قول بعيد إذ اللفظة معلومة الاشتقاق في العربية.
(٦)انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٥١٥/١.
(٧)انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٩٥/٣، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٥١٥/١.
(٨) أنظر: روح المعاني: ٢٦٥/١.
(٩) التفسير الميسر:١٧١.
(١٠) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٦):ص١٠٤/٢.
(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٣):ص١٠٣/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٧٤):ص١١٧/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٥):ص١٠٤/٢.
(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١١٧/١.
(١٥) أنظر: تفسير الطبري: ١٠٣/٢.
(١٦) انظر:تفسير الطبري: ١٠٣/٢، و تفسير القرطبي: ٤١٠/١.
(١٧) انظر:تفسير الطبري: ١٠٣/٢، و تفسير القرطبي: ٤١٠/١.
(١٨) أنظر: النكت والعيون: ١٢٥/١.
(١٩) تفسير الثعلبي: ٢٠١/١.

أحدهما: أن معناه: رُكَّعاً، منحنين ركوعا. وهذا قول ابن عباس[1].
والثاني: أن معناه: متواضعين خشوعا، لا على هيئة متعينة[2].
والقول الأول أشبه بالصواب: وأصل «السجود»: الانحناء لمن سُجد له معظَّما بذلك. فكل منحن لشيء تعظيما له فهو «ساجد»، ومنه قول زيد الخيل بن مهلهل الطائي[3]:
بِجَمْعٍ تَضَلُّ الْبَلْقُ في حُجُرَاتِهِ   تَرَى الأكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْحَوافِرِ
فقوله:«سجدا»، أي: خاشعة خاضعة، ومن ذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة[4]:
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَواتِ الْمِلَيـ   ـكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جِوَاراً
فذلك تأويل ابن عباس قوله : {سجدا} ركعا، لأن الراكع منحن، وإن كان الساجد أشد انحناء منه[5].
عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : "قيل لبني إسرائيل : {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدّلوا وقالوا : حطة : حبة في شعرة""[6].
وروي عن عبد الله بن مسعود قال: "قيل لهم: {ادخلوا الباب سجدا}، فدخلوا مقنعي رؤسهم"[7].
قوله تعالى:{نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ} [الأعراف : ١٦١]، أي:" نغفر لكم خطاياكم، فلا نؤاخذكم عليها"[8].
قال قتادة:" من كان خاطئا غفرت له خطيئته"[9].
قال الطبري:" يتغمد لكم ربكم {ذنوبكم}، التي سلفت منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها"[10].
قال الماوردي:" أي: نرحمْكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها "[11].
وأصل «الغفر»: التغطية والستر، فكل ساتر شيئا فهو غافره، ومن ذلك قيل للبيضة من الحديد التي تتخذ جُنة للرأس «مغفر»، لأنها تغطي الرأس وتجنه، ومنه :غمد السيف، وهو ما

([1]) أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٦)، و(١٠٠٧)، و(١٠٠٨):ص١٠٤/٢.
([2]) انظر: تفسير الطبري: ١٠٤/٢، وتفسير القرطبي: ٤١٠/١.
([3]) الكامل ١ : ٢٥٨ ، والمعاني الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجري الشجري : ١٩ ، ومجموعة المعاني : ١٩٢ ، وغيرها . والباء في قوله " بجمع " متعلقة ببيت سالف هو :
بَنِي عَامِرٍ ، هَلْ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا ... أَبُو مِكْنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ؟
والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين. والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) : الناحية. والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهي تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة . قال ابن قتيبة في المعاني الكبير : " يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل. يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر " . وفي المطبوعة هنا " فيه " والجيد ما أثبته ، والضمير في " منه " للجيش أو الجمع.
([4]) ديوانه: ٤١. راوح يراوح مراوحة : عمل عملين في عمل ، يعمل ذامرة وذا مرة ، قال لبيد يصف فرسا :
وولّى عامدا لِطِيات فَلْج   يراوح بين صون وابتذال
وقوله : " من صلوات " " من " هنا لبيان الجنس ، مثل قوله تعالى : يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق " . وحذف " بين " التي تقتضيها " يراوح " ، لدلالة ما يأتي عليها ، وهو قوله : " طورا . . وطورا " . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء مع تضرع واستغاثة وجزع . جأر إلى ربه يجأر جؤارا .
([5]) انظر: تفسير الطبري: ١٠٥/٢.
([6])صحيح البخاري برقم (٤٤٧٩)، و سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩٩٠).
([7]) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٧٩):ص١١٨/١.
[8] التفسير الميسر:١٧١.
([9]) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٨٥):ص١١٩/١.
[10] تفسير الطبري:١٧٨/١٣.
([11]) النكت والعيون: ١٢٦/١.

تغمده فواراه ولذلك قيل لزئبر الثوب : «غفرة»، لتغطيته الثوب، وحوله بين الناظر والنظر إليه، ومنه قول أوس بن حجر[1] :

فلا أعتب ابن العم إن كان جاهلا وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا

فقوله: «وأغفر عنه الجهل»: أي: أستر عليه جهله بحلمي عنه[2].

و«الخطايا»، جمع :خطية، بغير همز، كما(المطايا)، جمع: مطية، ولو كانت (الخطايا) مجموعة على(خطيئة)، بالهمز : لقيل خطائي على مثل قبيلة وقبائل، وقد تجمع " خطيئة " بالتاء، فيهمز فيقال " خطيئات " . و " الخطيئة " فعيلة، من " خَطِئَ الرجل يخطأ خِطْأً "، وذلك إذا عدل عن سبيل الحق. ومنه قول الشاعر [3]:

وإن مُهَاجِرَيْن تَكَنَّفاه لعمر الله قد خطئا وخابا

يعني : أضلا الحق وأثما[4].

قوله تعالى:{سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف : ١٦١]، أي:" وسنزيد المحسنين مِن خَيْرَيِ الدنيا والآخرة"[5].

قال الثعلبي: "إحسانا وثوابا"[6].

قال النسفي:" أي: من كان محسناً منكم، كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة"[7].

قال ابن كثير:" أي : إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضعفنا لكم الحسنات"[8].

قال ابن عطية:" المعنى: إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال لا إله إلا الله فقيل هم المراد بـ{الْمُحْسِنِينَ} هنا"[9].

هنا"[9].

قال الطبري:{ الْمُحْسِنِينَ}، " وهم المطيعون لله،على ما وعدتكم من غفران الخطايا"[10].

قال ابن عباس:"من كان منكم محسنا زيد في إحسانه، ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته"[11]. وروي عن قتادة[12]، نحو ذلك.

الفوائد:

---

(1)ديوانه ، قصيدة " ٣١. وهذه الرواية جاءت في شرح شواهد المغني : ١٣٧ ، وأما في سائر الكتب : " " إن كان ظالما " ، وهي أجود. وقوله : " أجهل " بمعنى جاهل ، كما قالوا " أوجل " بمعنى وجل ، وأميل بمعنى مائل ، وأوحد بمعنى واحد ، وغيرها. ورواية صدر البيت على الصواب : " ألا أعتب " كما في المفضليات ٥٩٠ وغيره ، أو " وقد أعتب " كما في القرطين ٢ : ٦٩. ويروى " ولا أشتم ابن العم " . يقول : أبلغ رضاه إذا ظلم او جهل ، فأترك له ما لا يحب إلى ما يرضاه.

(2) تفسير الطبري: ١٠٩/٢-١١٠.

(3)البيت لأمية بن الأسكر، أمالي القالي ٣ : ١٠٩ ، وكتاب المعمرين : ٦٨ والخزانة ٢ : ٤٠٥ ، ويروى صدره " أتاه مهاجران تكنفاه " . وأما عجزه فاختلفت رواياته : " بترك كبيرة خطئا . . " و " ليترك شيخه خطئا . . " ، " ففارق شيخه ، . . " وكان أمية قد أسن ، عمر في الجاهلية عمرا طويلا ، وألفاه الإسلام هرما . ثم جاء زمن عمر ، فخرج ابنه كلاب غازيا ، وتركه هامة اليوم أو غد . فقال أبياتا منها هذا للبيت ، فلما سمعها عمر ، كتب إلى سعد بن أبي وقاص : أن رحل كلاب بن أمية بن الأسكر ، فرحله . وله مع عمر في هذه الحادثة قصة جيدة (في القالي ١ : ١٠٩) .

(4) أنظر: تفسير الطبري: ١١٠/٢.

(5) التفسير الميسر:١٧١.

(6) تفسير الثعلبي: ٢٠٢/١.

(7) تفسير النسفي: ٦٦/١.

(8) تفسير ابن كثير: ٢٧٥/١.

(9) المحرر الوجي: ١٥١/١.

(10) تفسير الطبري:١٧٨/١٣.

(11) أخرجه الطبري(١٠١٨):ص١١١/٢.

(12) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٦):ص١١٩/١.

١- من فوائد الآية الكريمة: وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا.
٢- ومنها: جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حِلّ الغنائم من خصائص هذه الأمة ـ أي أمة محمد ﷺ؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حِلّ الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك.
٣- ومنها: أنه يجب على من نصره الله، وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع، والشكر لله؛ لقوله تعالى: {وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا}؛ ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة دخلها مطأطئاً رأسه[1] يقرأ قول الله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً} [الفتح: ١].
٤- ومنها: أن الجهاد مع الخضوع لله عزّ وجلّ، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: {نغفر لكم خطاياكم}، وسبب للاستزادة أيضاً من الفضل؛ لقوله تعالى: {وسنزيد المحسنين}.
٥- ومنها: أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحساناً في عبادة الله، أو إحساناً إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: "الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[2] ؛ وقال: "ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته[3]".

القرآن

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)} [الأعراف : ١٦٢]

التفسير:

فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة، فأرسلنا عليهم عذابًا من السماء، أهلكناهم به؛ بسبب ظلمهم وعصيانهم.

قوله تعالى:{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [الأعراف : ١٦٢]، أي:" فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة"[1].

قال الطبري:" فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، فقالوا، وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة: حنطة في شعيرة، وقولهم ذلك كذلك، هو غير القول الذي قيل لهم قولوه"[2].

واختلف في قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [الأعراف : ١٦٢]، على وجوه[1]:

---

[1] راجع البخاري ص٣٥٠، كتاب المغازي، باب ٤٩: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، حديث رقم ٤٢٨١؛ ومسلماً ص٨٠٣، كتاب صلاة المسافرين، كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به، باب ٣٥: ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم فتح مكة، حديث رقم ١٨٥٤ [٢٣٨] ٧٩٤؛ ولم أقف على من أخرجه بلفظ "مطأطئاً رأسه".

[2] أخرجه مسلم ص١١٤٧، كتاب الذكر والدعاء، باب ١١: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم ٦٨٥٣ [٣٨] ٢٦٩٩.

[3] أخرجه البخاري ص١٩٢، كتاب المظالم، باب ٣: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم ٢٤٤٢؛ وأخرجه مسلم ص١١٢٩، كتاب البر والصلة، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٧٨ [٥٨] ٢٥٨٠.

[1] التفسير الميسر:١٧١.

[2] تفسير الطبري:١٧٩/١٣.

أحدها: أنهم: "دخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا : حبة في شعيرة". روي ذلك عن رسول الله-ﷺ-[2]، وعلى هذا القول عامة المفسرين، وقد روي عن ابن عباس[3]، وعطاء ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك[4].
والثاني: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة. قاله عكرمة[5]، وأبو الكنود[6].
والثالث:أنهم: فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم ويقولون : حنطة. قاله ابن عباس أيضا[7].
والرابع: إنهم قالوا: " هطى سمقا يا ازبة هزبا "، وهو بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء. قاله ابن مسعود[8].
والخامس: وقال أبو مسلم : إن المراد بقوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [البقرة:٥٩]: أنهم لم يفعلوا ما أمرهم الله به، ولم يلتفتوا إليه، لا على أنهم أتوا له ببدل، ودلل على قوله ذلك بقوله-عز وجل-: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ} [الفتح:١٥]، ولم يكن تبديلهم إلا الخلاف في الفعل لا في القول فكذلك هنا[9].
وهذا قول بعيد؛ لأن ظاهر الآية والأحاديث الصحيحة تبطله، والله أعلم.
وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا : حطة، أي : احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا : حنطة في شعرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته ؛ ولهذا قال : {فَأَنزلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}"[10]، ومعنى السجود في قوله تعالى عند الدخول، أي: "الانحناء شكراً لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل، إذ لا جدوى له، والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن لهم أهل القرية وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تتعرض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على استاهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفرطوا في التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره"[11].

([1]) انظر: تفسير الطبري: ١١٢/٢-١١٥، والبسيط للواحدي-تحقيق الفائز-: ٩٤٢/٣، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٣٣/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٠٤/٧، معالم التنزيل للبغوي: ٩٩/١، زاد المسير لابن الجوزي: ٨٥/١ وغيرها.

([2]) عن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : قال الله لبني إسرائيل : " ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم " ، فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاهم ، وقالوا : حبة في شعيرة .(رواه أحمد في المسند : ٨٢١٣ (ج ٢ ص ٣١٨ حلبي) ، عن عبد الرزاق ، بهذا الإسناد ، ولكن بلفظ " حبة في شعرة " . وكذلك رواه البخاري ٦ : ٣١٢ ، و٨ : ٢٢٨ - ٢٢٩ (فتح الباري) ، من طريق عبد الرزاق. وذكر الحافظ (٨ : ٢٢٩) أن لفظ " شعرة " رواية أكثر رواة البخاري ، وأن رواية الكشميهني " شعيرة " . وذكره ابن كثير ١ : ١٨٠ ، ونسبه أيضًا لمسلم والترمذي ، من رواية عبد الرزاق).

([3]) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٩٠):ص١١٩/١-١٢٠، و تفسير الطبري(١٠٣٤):ص١١٥/٢.

([4]) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.

([5]) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣١):ص:١١٥/٢.

([6]) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٨):ص١١٩/١.

([7]) أنظر: تفسير الطبري(١٠٢٤):ص١١٣/٢.

([8]) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٩):ص١١٩/١، والتفسير الطبري(١٠٢٩):ص١١٤/٢، والدر المنثور: ٧١/١.

([9]) أنظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٩٧/٣، وروح المعاني للألوسي: ٢٦٦/١،

([10]) تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١.

([11]) انظر: تفسير ابن عاشور: ٥١٥.

قوله تعالى:{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف : ١٦٢]، أي:" فأرسلنا عليهم عذابًا من السماء، أهلكناهم به؛ بسبب ظلمهم وعصيانهم"[١].

قال الطبري:يقول:" بَعثنا عليهم عذابًا، أهلكناهم بما كانوا يغيّرون ما يؤمرون به، فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله"[٢].

واختلف أهل التفسير في معنى «الرجز»، في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف : ١٦٢]:

الأول:أنه الطاعون،قاله ابن زيد[٣]، وهو قول الجمهور[٤].

والثاني: أنه الغضب. وهو قول أبي العالية[٥].

والثالث: أنه العذاب. قاله ابن عباس[٦]، وقتادة[٧]، وابن زيد في أحد قوليه[٨].

والرابع:وقيل: إما الطاعون أو البرد. قاله الشعبي[٩].

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لحديث رسول الله ﷺ: " الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ "[١٠]، وقد روى أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل : سبعون ألفاً[١١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: لؤم بني إسرائيل، ومضادَتُهم لله، ورسله؛ لأنهم لم يدخلوا الباب سجداً؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكباراً واستهزاءً.

٢- ومنها: بيان قبح التحريف سواء كان لفظياً، أو معنوياً؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص.

٣- ومنها: تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى:{فبدل الذين ظلموا قولًا}.

٤- ومنها: بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء.

٥- ومنها: الإشارة إلى عدل الله عزّ وجلّ، وأنه لا يظلم أحداً، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه.

٦- ومنها: إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة، وضده "الإيمان"، كما في قوله تعالى: {وأمَّا الذين فسقوا فمأواهم النار} [السجدة: ٢٠] ؛ و فسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده "العدالة"، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} [الحجرات: ٦].

٧- ومنها: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ لقوله تعالى: { بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}.

---

(١) التفسير الميسر:١٧١.

(٢) تفسير الطبري:١٧٩/١٣.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤٠):ص١١٧/٢.

(٤)انظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨. واختاره جماعة من أهل التفسير منهم ابن عاشور.(انظر: تفسيره: ٥١٦/١). والطاعون : قيل : هو مرض خاص معروف عن العلماء والأطباء ، وقيل : بل هو كل مرض عام (وباء) ، يؤدي إلى وفاة الكثيرين من الناس ، وبذلك فإن كل مرض يسمى طاعونا ويكون سببه معلوما حسب قواعد الطب الحسي فإنه ليس طاعونا على الحقيقة ،أي ليس بالطاعون الذي جاءت به الأحاديث، بل قد يكون وباء .

(٥) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣٩):ص١١٧/٢.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤٢):ص١١٨/٢.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣٨):ص١١٧/٢.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(١٠٤١):ص١١٧/٢.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٩٤):ص١٢٠/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨.

(١٠) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما .

(١١) انظر: تفسير الكشاف: ١٤٣/١.

٨- ومنها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ قال تعالى: { بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}، فأضاف الظلم إليهم، والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلماً، والله - تبارك وتعالى- يقول: {ولا يظلم ربك أحداً} [الكهف: ٤٩].
٩- ومنها: أن الظلم سبب لنُزول العذاب.

القرآن
{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)} [الأعراف : ١٦٣]

التفسير:
واسأل -أيها الرسول- هؤلاء اليهود عن خبر أهل القرية التي كانت بقرب البحر، إذ يعتدي أهلها في يوم السبت على حرمات الله، حيث أمرهم أن يعظموا يوم السبت ولا يصيدوا فيه سمكًا، فابتلاهم الله وامتحنهم؛ فكانت حيتانهم تأتيهم يوم السبت كثيرة طافية على وجه البحر، وإذا ذهب يوم السبت تذهب الحيتان في البحر، ولا يرون منها شيئًا، فكانوا يحتالون على حبسها في يوم السبت في حفائر، ويصطادونها بعده. وكما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء، لإظهار السمك على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده فيه، وإخفائه عليهم في اليوم المحلل لهم فيه صيده، كذلك نختبرهم بسبب فسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

قوله تعالى:{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [الأعراف : ١٦٣]، أي:" واسأل -أيها الرسول- هؤلاء اليهود عن خبر أهل القرية التي كانت بقرب البحر"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: واسأل، يا محمد، هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر {القرية التي كانت حاضرة البحر}، يقول: كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه."[٢].

قال ابن كثير:" أي : واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم ؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي "أيلة" وهي على شاطئ بحر القلزم"[٣].

قال الماوردي:" وسؤالهم عن هذه القرية إنما هو سؤال توبيخ على ما كان منهم فيها من سالف الخطيئة وقبيح المعصية"[٤].

واختلف في هذه «القرية»، على أقوال :
أحدها : أنها أيلة ، قاله ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، وعكرمة[٧]، والسدي[٨].
والثاني : أنها بساحل مدين ، قاله قتادة[٩].
والثالث : أنها مدين، قرية بين أيلة والطور ، حكاه أبو جعفر الطبري عن ابن عباس[١].
والرابع : أنها قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا ، قاله ابن زيد[٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٧١.
[٢] تفسير الطبري:١٧٩/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٤٩٣/٣.
[٤] النكت والعيون:٢٧٢/٢.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥٢):ص١٨٠/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥٨):ص١٨١/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥٤):ص١٨٠/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥٧):ص١٨١/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٥٩):ص١٨١/١٣.

والخامس: أن القرية التي كانت حاضرة البحر طبرية، وهذا قول ابن شهاب(3)، والقرية التي قال فيها:{وَاضْرِبْ لَهَم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ }[يس : ١٣] . أنطاكية(4).

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر، وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا، لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأيِّ ذلك من أيٍّ، والاختلاف فيه على ما وصفت. ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه، إلا بخبر يوجب العلم. ولا خبر كذلك في ذلك"(5).

قوله تعالى:{إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ} [الأعراف : ١٦٣]، أي:" إذ يعتدي أهلها في يوم السبت على حرمات الله حيث أمرهم أن يعظموا يوم السبت ولا يصيدوا فيه سمكًا"(6).

قال الطبري:" يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمرَ الله، ويتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم، وكان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرَّم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك"(7).

قال ابن كثير:"أي : يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك "(8).

قال ابن عباس:" ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم الحيتان"(9).

وفي اعتدائهم في «السبت»، قولان:

أحدهما : أنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال، وهذا قول الحسن(10).

والثاني : أنهم حبسوها في يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، والسبت هو اليوم المعروف(11).

وفي تسميته بـ«السبت»، أربعة أقاويل(12):

أحدها : أن السبت هو اسم للقطعة من الدهر، فسمي ذلك اليوم به، وهذا قول الزجاج(13).

والثاني : أنه سُمِّي بذلك لأنه سَبَت خَلْق كل شيء، أي قطع وفرغ منه، وهذا قول أبي عبيدة(14).

والثالث : أنه سُمِّي بذلك، لأن اليهود يَسْبِتُون فيه، أي: يقطعون فيه الأعمال.

والرابع : أن أصل السبت، الهدوء والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده، كما قال تعالى:{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُم سُبَاتًا}، فَسُمِّي به اليوم لاستراحة اليهود فيه .

قوله تعالى:{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا} [الأعراف : ١٦٣]، أي:" حين كانت الحيتان«الأسماك»تأتيهم يوم السبت - وقد حُرِّم عليهم الصيدُ فيه - كثيرةً ظاهرةً على وجه الماء"(15).

قال الطبري:" يقول: إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه العمل{شرَّعًا}، يقول: شارعة ظاهرةً على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق"(1).

---

(1) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦١):ص١٨٢/١٣.
(2) انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦٠):ص١٨١/١٣.
(3) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٤٤٢):ص١٥٩٧/٥.
(4) انظر: النكت والعيون:٢٧٢/٢.
(5) تفسير الطبري:١٨٢/١٣.
(6) التفسير الميسر:١٧١.
(7) تفسير الطبري:١٨٢/١٣-١٨٣.
(8) تفسير ابن كثير:٤٩٣/٣.
(9) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٤٤):ص١٥٩٨/٥.
(10) أنظر: النكت والعيون: ١٣٤/١-١٣٥.
(11) أنظر: النكت والعيون: ١٣٤/١-١٣٥.
(12) أنظر: اللسان، وتهذيب اللغة، مادة "سبت"، والنكت والعيون: ١٣٥/١.
(13) أنظر: النكت والعيون: ١٣٥/١.
(14) أنظر: النكت والعيون: ١٣٥/١.
(15) صفوة التفاسير:٤٤٣/١.

قال ابن عباس:" كانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى مثله من السبت المقبل، فإذا جاء السبت عادت شرعا"[٢].

وعن ابن عباس أيضا: "{شرعًا}، يقول: من كلّ مكان"[٣].

وفي قوله تعالى:{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا} [الأعراف : ١٦٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أن معنى:{شُرَّعاً}، أي: طافية على الماء ظاهرة ، قاله ابن عباس[٤]، ومنه شوارع البلد لظهورها .

والثاني : أنها تأتيهم من كل مكان ، قاله عطية العوفي[٥].

والثالث : أنها شرّع على أبوابهم كأنها الكباش البيض رافعة رؤوسها حكاه بعض المتأخرين فتعدَّوا فأخذوها في السبت ، قاله الحسن[٦].

قوله تعالى:{وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ} [الأعراف : ١٦٣]، أي:" وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي"[٧].

قال ابن عباس:" فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى مثله من السبت المقبل"[٨].

قال الطبري:" يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت{لا تأتيهم}، الحيتان"[٩].

وقرأ الحسن: «وَيَوْمَ لا يُسْبَتُونَ» بضم الياء، من "أسبت القوم يسبتون"، إذا دخلوا في "السبت"[١٠].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف : ١٦٣]، أي:" مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرَّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله"[١١].

قال الطبري:" يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده {كذلك نبلوهم}، ونختبرهم بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها"[١٢].

قال ابن كثير:أي:" نختبرهم بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله ، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام"[١٣].

قال القرطبي:" وروي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد"[١٤].

---

[١] تفسير الطبري١٨٣/١٣.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٤٥):ص١٥٩٨/٥.
[٣] أخرجه الطبري(١٥٢٦٣):ص١٨٣/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦٢):ص١٨٣/١٣.
[٥] انظر: النكت والعيون:٢٧٢/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٢٧٢/٢.
[٧] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٤٨):ص١٥٩٩/٥.
[٩] تفسير الطبري:١٨٣/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري:١٨٤/١٣.
[١١] صفوة التفاسير:٤٤٣/١.
[١٢] تفسير الطبري:١٨٣/١٣-١٨٤.
[١٣] تفسير ابن كثير:٤٩٣/٣.
[١٤] تفسير القرطبي:٣٠٦/٧.

عن أيوب قال:" تلا الحسن ذات يوم: {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون}، فقال: حوتٌ حرمه الله عليهم في يوم، وأحله لهم فيما سوى ذلك، فكان يأتيهم في اليوم الذي حرَّمه الله عليهم كأنه المخاض، لا يمتنع من أحد. وقلَّما رأيت أحدًا يكثر الاهتمامَ بالذنب إلا واقعه، فجعلوا يَهتمُّون ويمْسِكون، حتى أخذوه، فأكلوا أوْخَم أكلة أكلها قوم قطُّ، أبقاه خزيًا في الدنيا، وأشدُّه عقوبة في الآخرة! وايم الله، ما حوتٌ أخذه قوم فأكلوه، أعظم عند الله من قتل رجلٍ مؤمن! وللمؤمن أعظم حرمة عند الله من حوت، ولكن الله جعل موعدَ قومٍ الساعة {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [سورة القمر: ٤٦] "[١].

عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل"[٢].

الفوائد:

١- تقرير الوحي والنبوة لرسول الله محمد ﷺ إذ مثل هذا القصص الذي يذكر لبني إسرائيل لن يتم إلا عن طريق الوحي، وإلا فكيف علمه وذكر به اليهود أصحابه وأهله، وقد مضى عليه زمن طويل.

٢- أنه إذا أنعم الله على أمة نعمة ثم أعرضت عن شكرها تعرضت للبلاء أولا ثم العذاب ثانيا.

٣- بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ قال تعالى:{كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

القرآن

{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)} [الأعراف : ١٦٤]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- إذ قالت جماعة منهم لجماعة أخرى كانت تعظ المعتدين في يوم السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه: لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم في الدنيا بمعصيتهم إياه أو معذبهم عذابا شديدًا في الآخرة؟ قال الذين كانوا ينهَوْنهم عن معصية الله: نَعِظهم وننهاهم لِنُعْذَر فيهم، ونؤدي فرض الله علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورجاء أن يتقوا الله، فيخافوه، ويتوبوا من معصيتهم ربهم وتعدِّيهم على ما حرَّم عليهم.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} [الأعراف : ١٦٤]، أي:" واذكر -أيها الرسول- إذ قالت جماعة منهم لجماعة أخرى كانت تعظ المعتدين في يوم السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه: لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم في الدنيا بمعصيتهم إياه أو معذبهم عذابا شديدًا في الآخرة؟"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا، يا محمد{إذ قالت أمة منهم}، جماعة منهم لجماعة كانت تعظ المعتدين في السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، في الدنيا بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره، واستحلالهم ما حرم عليهم، {أو معذبهم عذابًا شديدًا}، في الآخرة"[٤].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك ، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٢٨٤):ص١٣/١٩٦-١٩٧.

[٢] أخرجه ابن بطة في الخلع وإبطال الحيل (٤٢).

[٣] التفسير الميسر:١٧٢.

[٤] تفسير الطبري:١٣/١٨٤-١٨٥.

: { لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} ؟ أي : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم"[١].

واختلف أهل العلم في هذه الفرقة التي قالت: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ}[الأعراف:١٦٤]، على قولين:

أحدهما: أنها كانت من الفرقة الناجية، لأنها كانت هي الناهيةَ الفرقةَ الهالكةَ عن الاعتداء في السبت. قاله ابن عباس[٢]، وقتادة[٣]، وعكرمة[٤]، السدي[٥]، وابن زيد[٦].

قال ابن عباس:" هي قرية على شاطئ البحر بين مكة والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعًا في ساحل البحر. فإذا مضى يوم السبت، لم يقدروا عليها. فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم. فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النهاة: تعلَّموا أنّ هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، لم تعظون قومًا الله مهلكهم، وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: "معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون"، وكلّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، والذين قالوا: {معذرة إلى ربكم}، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة وخنازير"[٧].

وعن عكرمة، عن ابن عباس: "{وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا}، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: {لم تعظون قوما الله مهلكهم} أم لا! قال: فلم أزل به حتى عرَّفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة[٨].

وفي رواية أخرى عن عكرمة:" جئت ابن عباس يومًا وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدَّمت فجلستُ، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس، جعلني الله فداءك؟ فقال: هؤلاء الورقات! قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تعرف أيلة! قلت: نعم! قال: فإنه كان حيّ من يهود، سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغُوصوا، بعد كدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض، تنبطحُ ظهورُها لبطونها بأفنيتهم وأبنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام! فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة منهم: بل نُهيتم عن أكلها وأخذِها وصيدها في يوم السبت. وكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحَّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم! اللهَ، اللهَ، ننهاكم أن تعترّضوا لعقوبة الله! وقال الأيسرون: {لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا}؟ قال الأيمنون: "معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون"! أي: ينتهون، فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، فقال الأيمنون: قد فعلتم، يا أعداء الله! والله لا نُبَايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصيبكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده بالعذاب! فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلّمًا، وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال: أي عبادَ الله، قردةٌ والله تعاوَى لها أذناب! قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القردةُ أنسابها من الإنس، ولا

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٩٤/٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦٦):ص١٨٦/١٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٧٣):ص١٨٩/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٧٦):ص١٩٢/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٦٨):ص١٨٧/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٧٥):ص١٩١/١٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٥٢٦٦):ص١٨٦/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٥٢٦٩):ص١٨٧/١٣.

تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود تأتي نسيبها من الإنس فتشمّ ثيابه وتبكي، فتقولُ لهم: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: نعم! ثم قرأ ابن عباس: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} . قال: فأرى اليهود الذين نَهَوْا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها فلا نقول فيها! قال قلت: إنَّ جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: {لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم}؟ قال: فأمرَ بي فكسيتِ بُرْدَين غليظين"[١].

وروي عن مالك قال: "زعم ابن رُومان أن قوله: "تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم"، قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهبتْ، فلا يرى منها شيء إلى السبت. فاتخذ لذلك رجل منهم خيطًا ووتدًا، فربط حوتًا منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجحدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حوتٍ وجدناه! فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك- ولا أدري لعله قال: ربط حوتين- فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا ريحه، فجاءوا فسألوه، فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع! فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها رَبض، فغلَّقوها، فأصابهم من المسْخ ما أصابهم. فغدا إليهم جيرانهم ممن كان يكون حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوَّروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسَّح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسَّح به"[٢]

والثاني: أن الفرقة التي قالت: {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، كانت من الفرقة الهالكة. قاله ماهان الحنفي أبي صالح[٣]، وهو مروي عن ابن عباس ايضا[٤].

قال ابن عباس:" نجا الناهون، وهلك الفاعلون، ولا أدري ما صنع بالساكتين!"[٥].

قال ابن كثير:" وقوله تعالى:{وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا"[٦].

قوله تعالى:{قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} [الأعراف : ١٦٤]، أي:" قال الناهون: إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير"[٧].

قال الطبري:" قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية الله مجيبيهم عن قولهم: عظتنا إياهم معذرةٌ إلى ربكم، نؤدِّي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[٨].

قال ابن كثير:"أي : نفعل ذلك { مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ } أي : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[٩].

عن ابن عباس: "{قالوا معذرة إلى ربكم}، لسخطنا أعمالهم"[١٠].

قوله تعالى:{وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف : ١٦٤]، أي:" ورجاء أن يتقوا الله، فيخافوه، ويتوبوا من معصيتهم ربهم وتعدِّيهم على ما حرَّم عليهم"[١١].

قال الطبري:" يقول: ولعلهم أن يتقوا الله فيخافوه، فينيبوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعدِّيهم على ما حرّم عليهم من اعتدائهم في السبت"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٢٧٢):ص١٨٨/١٣-١٨٩.
[٢] أخرجه الطبري(١٥٢٧٧):ص١٩٣/١٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٨٣):ص١٩٥/١٣-١٩٦.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٧٨)-(١٥٢٨٢):ص١٩٣/١٣-١٩٥.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٢٧٩):ص١٩٤/١٣.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٩٦/٣.
[٧] صفوة التفاسير:٤٤٤/١.
[٨] تفسير الطبري:١٨٤/١٣-١٨٥.
[٩] تفسير ابن كثير:٤٩٤/٣.
[١٠] أخرجه الطبري(١٥٢٦٤):ص١٨٥/١٣.
[١١] التفسير الميسر:١٧٢.

قال ابن كثير:" يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم "[٢].

وقرئ: «مَعْذِرَةً» نصبًا، بمعنى: إعذارًا وعظناهم وفعلنا ذلك[٣].

عن ابن زيد، في قوله: "{ولعلهم يتقون}، قال: يتركون هذا العمل الذي هم عليه"[٤].

عن عطاء قال: "كنت جالسًا في المسجد، فإذا شيخ قد جاء وجلس الناسُ إليه، فقالوا: هذا من أصحاب عبد الله بن مسعود! قال: قال ابن مسعود: {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر} الآية، قال: لما حرم عليهم السبت، كانت الحيتان تأتي يوم السبت، وتأمن فتجيء، فلا يستطيعون أن يمسوها. وكان إذا ذهب السبت ذهبت، فكانوا يتصيّدون كما يتصيد الناس. فلما أرادوا أن يعدوا في السبت، اصطادوا، فنهاهم قوم من صالحيهم، فأبوا، وكَثَرَهم الفجَّار، فأراد الفجار قتالهم، فكان فيهم من لا يشتهون قتاله، أبو أحدهم وأخوه أو قريبه. فلما نهوهم وأبوا، قال الصالحون: إذًا نُتَّهم! وإنا نجعل بيننا وبينهم حائطًا! ففعلوا، فلما فقدوا أصواتهم قالوا: لو نظرتم إلى إخوانكم ما فعلوا! فنظروا، فإذا هم قد مُسخوا قردةً، يعرفون الكبير بكبره، والصغير بصغره، فجعلوا يبكون إليهم. وكان هذا بعد موسى ﷺ"[٥].

الفوائد:

١- جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد نجى الله تعالى الناهين عن المنكر وأهلك الذين باشروه ولم ينتهوا منه دون غيرهم.

القرآن

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)} [الأعراف : ١٦٥]

التفسير:

فلما تركت الطائفة التي اعتدت في يوم السبت ما ذُكِّرت به، واستمرت على غيّها واعتدائها فيه، ولم تستجب لما وَعَظَتْها به الطائفة الواعظة، أنجى الله الذين ينهون عن معصيته، وأخذ الذين اعتدَوْا في يوم السبت بعذاب أليم شديد؛ بسبب مخالفتهم أمر الله وخروجهم عن طاعته.

قوله تعالى:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأعراف : ١٦٥]، أي:" فلما تركت الطائفة التي اعتدت في يوم السبت ما ذُكِّرت به، واستمرت على غيّها واعتدائها فيه، ولم تستجب لما وَعَظَتْها به الطائفة الواعظة"[٦].

قال ابن كثير:" أي : فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه، وضيَّعت ما وَعظتْها الطائفة الواعظة وذكَّرتها به، من تحذيرها عقوبةَ الله على معصيتها، فتقدّمت على استحلال ما حرم الله عليه"[٨].

قال ابن جريج:" فلما نسُوا موعظة المؤمنين إياهم، الذين قالوا: {لم تعظون قومًا}"[٩].

قوله تعالى:{أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} [الأعراف : ١٦٥]، أي:" وأنجى الله الذين ينهون عن معصيته"[١].

---

[١] تفسير الطبري:١٣/١٨٤-١٨٥.
[٢] تفسير ابن كثير:٣/٤٩٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري:١٣/١٨٥.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٢٦٥):ص١٣/١٨٥.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٢٨٦):ص١٣/١٩٨.
[٦] التفسير الميسر:١٧٢.
[٧] تفسير ابن كثير:٣/٤٩٤.
[٨] تفسير الطبري:١٣/١٩٩.
[٩] أخرجه الطبري(١٥٢٨٧):ص١٣/١٩٩.

قال الطبري:" أنجى الله الذين ينهون منهم عن معصية الله، واسْتحلال حِرْمه"[٢].

روي عن ابن عباس: "{أنجينا الذين ينهون عن السوء}، قال: يا ليت شعري، ما السُّوء الذي نهوا عنه؟"[٣].

قوله تعالى:{وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف : ١٦٥]، أي:" وأخذ الذين اعتدَوْا في يوم السبت بعذاب أليم شديد؛ بسبب مخالفتهم أمر الله وخروجهم عن طاعته"[٤].

قال الطبري:" يقول: وأخذ الله الذين اعتدوا في السبت، فاستحلوا فيه ما حرَّم الله من صيد السمك وأكله، فأحلَّ بهم بأسَه، وأهلكهم بعذاب شديدٍ بئيس بما كانوا يخالفون أمر الله، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو «الفسق»"[٥].

قال ابن كثير:" أي:ارتكبوا المعصية { بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا"[٦].

قال أبو عبيدة:" {بِعَذابٍ بَئِيسٍ}، أي: شديد. قال ذو الإصبع[٧]:

أان رأيت بنى أبيك مجمّحين إليك شوسا

حنقا علىّ وما ترى لى فيهم أثرا بئيسا"[٨]

عن ابن عباس في قوله: "{وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس}: أليم وجيع"[٩].

عن مجاهد: "{بعذاب بئيس}، قال: شديد"[١٠]. وفي رواية:" أليم شديد"[١١].

عن قتادة: "{بعذاب بئيس}، قال: موجع"[١٢].

عن ابن زيد: "{بعذاب بئيس}، قال: بعذاب شديد"[١٣].

قال ابن كثير: { بَئِيسٍ }" معناه في قول مجاهد : «الشديد» ، وفي رواية : «أليم». وقال قتادة : «موجع». والكل متقارب"[١٤].

وقرئ:«بِعَذَابٍ بِيسٍ»، بكسر الباء وتخفيف الياء، بغير همز، وقرء:«بَيْئِسٍ»، بفتح الباء وتسكين الياء، وهمزة بعدها مكسورة. وذلك شاذ عن أهل العربية [١٥].

الفوائد:

١- إطلاق لفظ السوء على المعصية مؤذن بأن المعصية مهما كانت صغيرة تحدث السوء في نفس فاعلها.

٢- أن الدعوة والبلاغ سبب في النجاة من نقمة الله وسخطه في الدنيا والآخرة، قال تعالى:{ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ}، إذ أن النجاة كانت لمن كان ينهى عن السوء.

---

(١) التفسير الميسر:١٧٢.

(٢) تفسير الطبري:١٣/١٩٩.

(٣) أخرجه الطبري(١٥٢٨٨):ص١٣/٢٠٠.

(٤) التفسير الميسر:١٧٢.

(٥) تفسير الطبري:١٣/١٩٩.

(٦) تفسير ابن كثير:٣/٤٩٤.

(٧)البيت الأول فى اللسان "شوس"، والثاني فى تفسير الطبري ٩/ ٦٤.
والشوس: رفع الرأس تكبرا، التجميح: التحديق فى النظر بملء الحدقة (اللسان، شوس).

(٨) مجاز القرآن:١/٢٣١.

(٩) أخرجه الطبري(١٥٢٨٩):ص١٣/٢٠٢.

(١٠) أخرجه الطبري(١٥٢٩٠):ص١٣/٢٠٢.

(١١) أخرجه الطبري(١٥٢٩١):ص١٣/٢٠٢.

(١٢) أخرجه الطبري(١٥٢٩٢):ص١٣/٢٠٢.

(١٣) أخرجه الطبري(١٥٢٩٣):ص١٣/٢٠٢.

(١٤) تفسير ابن كثير:٣/٤٩٦.

(١٥) انظر: تفسير الطبري:١٣/٢٠٠.

القرآن

{فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)} [الأعراف : ١٦٦]

التفسير:

فلما تمردت تلك الطائفة، وتجاوزت ما نهاها الله عنه من عدم الصيد في يوم السبت، قال لهم الله: كونوا قردة خاسئين مبعدين من كل خير، فكانوا كذلك.

قوله تعالى:{فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ} [الأعراف : ١٦٦]، أي:" فلما تمردت تلك الطائفة، وتجاوزت ما نهاها الله عنه من عدم الصيد في يوم السبت"[(١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلما تمرَّدوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرَّم الله عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه"[(٢)].

قال عكرمة:" «العتو»: في كتاب الله التجبر"[(٣)].

قوله تعالى:{قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف : ١٦٦]، أي:" قال لهم الله: كونوا قردة خاسئين مبعدين من كل خير، فكانوا كذلك"[(٤)].

قال الطبري:" أي: بُعَداء من الخير"[(٥)].

قال ابن كثير:" { خاسئين}، أي : ذليلين حقيرين مهانين"[(٦)].

وفي قوله تعالى:{خاسئين}[البقرة:٦٥]، أربعة أقوال:

أحدها : أن معناه: مبعدين. ومنه: خَسَأتُ الكلب أخسؤه خَسْئاً، أي بَاعدته وطردْته. قاله الزجاج[(٧)].

والثاني : أن معناه: أذلة صاغرين، وهذا قول أبي العالية[(٨)]، والربيع[(٩)]، وروي عن مجاهد وقتادة وأبي مالك نحو ذلك[(١٠)].

والثالث: معناه: صاغرين. قاله مجاهد[(١١)].

والرابع: :أن معنى: خاسئا، أي: ذليلاً . قاله ابن عباس[(١٢)].

قال الطبري:في معنى {الخاسئين}: "أي: مبعدين من الخير أذلاء صغراء"[(١٣)]، وبالتالي إن جميع الأقوال الثلاثة ضمن المعنى الصحيح. والله تعالى أعلم.

و«الخاسئ»:"المبعد المطرود، كما يخسأ الكلب يقال منه: " خسأته أخسؤه خسأ وخسوءا، وهو يخسأ خسوءا " . قال : ويقال :"خسأته فخسأ وانخسأ". ومنه قول الراجز[(١٤)] :

كالكلب إن قلت له اخسأ انخسأ

يعني : إن طردته انطرد ذليلا صاغرا"[(١٥)].

---

(١) التفسير الميسر:١٧٢.

(٢) تفسير الطبري:٢٠٣/١٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٩٩):ص١٦٠٣/٥.

(٤) التفسير الميسر:١٧٢.

(٥) تفسير الطبري:٢٠٣/١٣.

(٦) تفسير ابن كثير:٤٩٧/٣.

(٧) أنظر: معاني القرآن: ٤٩!/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٧٤):ص١٣٣/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٩):ص١٧٥/٢.

(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٣٣/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٦)، و(١١٤٧):ص١٧٥/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(١١٥٠):ص١٧٥/٢.

(١٣) تفسير الطبري:١٧٤/٢.

(١٤)) لسان العرب : (خسأ) ، وروايته : " إن قيل له ".

(١٥) تفسير الطبري: ١٧٤/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (خسأ) ١/ ١٠٢٨، "جمهرة أمثال العرب" ٣/ ٢٣٧، "الصحاح" (خسأ) ١/ ٤٧.

وأنشد الفراء[1]:

وَإذا زَجَرْتُ الْكَلْبَ قُلْتُ اخْسَأ لَهُ   وَالْكَلْبُ مِثْلُكَ ياخُرَيْمُ سَوَاءُ

وأنشد ابن الأنباري لعمران بن حطان[2]:

لاَ تَجْعَلَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلِي   يَا رَبِّ مَنْزِلَ خَاسِئً مَدْحُورِ

قال قتادة:" فصارُوا قردةً لها أذناب، تعاوى، بعدما كانوا رجالا ونساءً"[3].

عن ابن عباس:" فجعل الله منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صارُوا قردةً، وأن المشيخة صاروا خنازيرَ"[4].

قال عطاء:" افترقت ثلاث فرق. فرقة أكلت، وفرقة اعتزلت ولم تنه، وفرقة نهت ولم تعتزل فنودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات نودوا: يا أهل القرية فانتبهت طائفة ثم نودوا: يا أهل القرية فانتبهت طائفة أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية فانتبه الرجال والنساء والصبيان فقال الله لهم: كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برءوسهم، أي: بلى"[5].

وفي رواية أخرى عن عطاء:" لما كان في جوف الليل نودي: يا أهل القرية فلما انتبهوا من نومهم ثم نودي: يا أهل القرية فلبسوا ثيابهم وبرزوا من بيوتهم ثم نودي: يا أهل القرية كونوا قردة خاسئين فمسخوا قردة"[6].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف : ١٦٦]، على وجهين[7]:

أحدهما: أنهم مُسِخُوا قردةً، فصاروا لأجل اعتدائهم في السبت في صورة القردة المخلوقين من قبل، في الأيام الستة. قاله ابن عباس[8]، وقتادة[9]، والسدي[10].

قال ابن عباس : "لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل"[11].

والثاني: أنهم لم يمسخوا قردة، وإنما مسخت قلوبهم، وهو مَثَلَ ضربه الله لهم، كما قال تعالى:{كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}[الجمعة:٥] . قاله مجاهد[12]. واعترض عليه الطبري[13] وابن كثير[14].

وقال ابن كثير:"هذا قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} الآية [المائدة : ٦٠]"[15].

([1]) لم أعثر على قائله، والبيت من شواهد الواحدي في التفسير البسيط: ٦٣٨/١.

([2]) البيت ذكره الواحدي في تفسيره: ٦٣٩/٢، و لم أجده فيما اطلعت عليه من شعر عمران بن حطان ضمن "ديوان الخوارج" جمع نايف محمود معروف، ولا في "شعر الخوارج" لـ (إحسان عباس).

وهو عمران بن حطان من بني عمرو بن سيبان بن ذهل، كان رأس القَعدة من الصُّفْرية إحدى فرق الخوارج، وكان خطيبًا شاعرا، توفي سنة أربع وثمانين ذكر الجاحظ أخباره في "البيان والتبيين" ١/ ٤٧، والمبرد في "الكامل" ٣/ ١٦٧، وانظر: "تهذيب التهذيب" ٣/ ٣١٧.

([3]) أخرجه الطبري(١٥٢٩٤):ص٢٠٣/١٣.

([4]) أخرجه الطبري(١٥٢٩٥):ص٢٠٣/١٣.

([5]) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٦٦):ص١٦٠٣/٥.

([6]) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٦٧):ص١٦٠٣/٥.

([7]) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١-٢٩٠.

([8]) أنظر: تفسير الطبري(١١٣٨)، و(١١٣٩):ص١٦٧/٢-١٧٠.

([9]) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٠)، و(١١٤١):ص١٧٠/٢-١٧١.

([10]) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٢):ص١٧٢/٢.

([11]) أخرجه الطبري(١١٣٨):ص١٦٧/٢-١٦٨. وهذا النص قطعة من الخبر.

([12]) أنظر: تفسير الطبري(١١٤٣)، و(١١٤٤):ص١٧٢/٢-١٧٣.

([13]) أنظر: تفسير الطبري: ١٧٣/٢.

([14])تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١.

([15])تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس :{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة:٦٥]، فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

قلت: والصحيح في هذه المسألة: أن مسخهم قرودا، إنما كان معنويًا لا صوريًا خلاف ما ذهب إليه مجاهد[١]، رحمه الله. ورجحه ابن كثير[٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: توبيخ اليهود الموجودين في عهد الرسول ﷺ على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علموا ما حلّ بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله.

٢- ومنها: تحريم الحيل، وأن المتحيل على المحارم لا يخرج عن التمرد والعدوان؛ لقوله تعالى: {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ}، وقال في موضع آخر: {الذين اعتدوا منكم في السبت}[البقرة: ٦٥]؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثماً من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرماً وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني- رحمه الله- في المتحيلين: "إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون"؛ وصدق رحمه الله؛ وللحيل مفاسد كثيرة . راجع إن شئت كتاب "إغاثة اللهفان" لابن القيم . رحمه الله . وغيره.

وأنت إذا تأملت حيل اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره. وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذُكر أشد حيلة من حيل اليهود . ومع ذلك أحل الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: "لا ترتكبوا ما

---

(١) إن المروي عن مجاهد أنه سبحانه وتعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم وهو وهو مثل قوله تعالى: {كمثل الحمار يحمل أسفارا} (الجمعة: ٥) ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذي لا ينجح في تعليمه: كن حمارا، واحتج على امتناعه بأمرين:

الأول: أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد والبنية المحسوسة فإذا أبطلها وخلق في تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداما للإنسان وإيجادا للقرد فيرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنسانا وخلق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت قردا فهذا يكون إعداما وإيجادا لا أنه يكون مسخا.

والثاني: إن جوزنا ذلك لما آمنا في كل ما نراه قردا وكلبا أنه كان إنسانا عاقلا، وذلك يفضي إلى الشك في المشاهدات.

وأجيب عن الأول بأن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سمينا بعد أن كان هزيلا، وبالعكس فالأجزاء متبدلة والإنسان المعين هو الذي كان موجودا والباقي غير الزائل، فالإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس، وذلك الأمر إما أن يكون جسما ساريا في البدن أو جزءا في بعض جوانب البدن كقلب أو دماغ أو موجودا مجردا على ما يقوله الفلاسفة وعلى جميع التقديرات فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ وبهذا التقدير يجوز في المالك الذي تكون جثته في غاية العظم أن يدخل حجرة الرسول عليه السلام.

وعن الثاني أن الأمان يحصل بإجماع الأمة، ولما ثبت بما قررنا جواز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها، ولم يكن بنا حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد رحمه الله وإن كان ما ذكره غير مستبعد جدا، لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات فقد يقال في العرف الظاهر إنه حمار وقرد، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن في المصير إليه محذور ألبتة.(انظر: تفسير الرازي: ١٠٤/٢).

(٢) انظر: تفسيره: ١٩١/١.

ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل"[١] ؛ فالمتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة.

٣- ومن فوائد الآية: بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مسخوا قردة خاسئين؛ والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئاً صورته صورة المباح؛ ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي؛ وهذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: {فكلًّا أخذنا بذنبه} [العنكبوت: ٤٠].

٤- ومنها: بيان قدرة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {كونوا قردة خاسئين}؛ فكانوا في لحظة قردة.

القرآن

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)} [الأعراف : ١٦٧]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- إذ علم ذلك إعلامًا صريحًا ليبعثن على اليهود مَن يذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة. إن ربك -أيها الرسول- لسريع العقاب لِمَن استحقه بسبب كفره ومعصيته، وإنه لغفور عن ذنوب التائبين، رحيم بهم.

قوله تعالى:{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف : ١٦٧]، أي:" واذكر أيها الرسول- حين أعلم ربك ليسلطنَّ على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم"[١].

قال الطبري:" يعني: أعلم ربك ليبعثن على اليهود من يسومهم سوء العذاب. قيل: إن ذلك، العربُ، بعثهم الله على اليهود، يقاتلون من لم يسلم منهم ولم يعط الجزية، ومن أعطى منهم الجزية كان ذلك له صغارًا وذلة"[٢].

قال ابن كثير:" { تَأَذَّنَ } تَفَعَّل من الإذن أي : أعلم ، قاله مجاهد[٣]. وقال غيره : أمر. وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا تُلُقِّيَت باللام في قوله : { لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ } أي : على اليهود { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } أي : بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. ويقال : إن موسى ، عليه السلام ، ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم وإياهم ، أخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ، ومحمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فكانوا تحت صفاره وذمته يؤدون الخراج والجزى"[٤].

أخرج الطبري عن مجاهد في قول الله: "{وإذ تأذن ربك}، قال: أمرَ ربك"[٥].

وأخرج ابن ابي حاتم عن مجاهد قوله: "{وإذ تأذن ربك}، قال: قال ربك"[٦]. وروي عن سفيان الثوري مثل ذلك[١].

---

[١] قال ابن القيم: [رواه أبو عبد الله ابن بطة: "حدثنا أحمد بن سلام حدثنا الحسن بن صباح حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو"، وهذا إسناد جيد يصحح مثله الترمذي]. أهـ. إغاثة اللهفان ٥١٣/١؛ عون المعبود مع شرح ابن القيم ٣٤٠/٩.

[١] صفوة التفاسير:٤٤٤/١.[بتصرف بسيط].

[٢] تفسير الطبري:٢٠٤/١٣-٢٠٥.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٢٩٧):ص٢٠٤/١٣.

[٤] تفسير ابن كثير:٤٩٧/٣.

[٥] تفسير الطبري(١٥٢٩٧):ص٢٠٤/١٣.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٦٨):ص١٦٠٣/٥.

قال الطبري:" يعني بقوله: «أذِن»، أعلم"[2].

قال أبو عبيدة:" {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ}، مجازه: وتأذن ربك، مجازه: أمر وهو من الإذن وأحلّ وحرّم ونهى"[3].

قال السدي:" يقول: إن ربك يبعث على بني إسرائيل العرب، فيسومونهم سوء العذاب، يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم"[4].

عن ابن عباس قوله: "{وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب}، قال: هي الجزية، والذين يسومونهم: محمد ﷺ وأمّته، إلى يوم القيامة"[5].

قال قتادة:" فبعث الله عليهم هذا الحيَّ من العرب، فهم في عذاب منهم إلى يوم القيامة"[6].

عن سعيد بن جبير: "{وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب}، قال: هم أهل الكتاب، بعث الله عليهم العرب يجبُونهم الخراجَ إلى يوم القيامة، فهو سوء العذاب. ولم يجب نبيٌّ الخراجَ قطُّ إلا مُوسى ﷺ ثلاث عشرة سنةً، ثم أمسك، وإلا النبي ﷺ"[7].

قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ} [الأعراف : ١٦٧]، أي:" . إن ربك -أيها الرسول- لسريع العقاب لِمَن استحقه بسبب كفره ومعصيته"[8].

قال ابن كثير:" أي : لمن عصاه وخالف أمره وشرعه"[9].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن ربك يا محمد، لسريعٌ عقابه إلى من استوجَب منه العقوبة على كفره به ومعصيته"[10].

قوله تعالى:{وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأعراف : ١٦٧]، أي:" وإنه لغفور عن ذنوب التائبين، رحيم بهم"[11].

قال ابن كثير:" أي : لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة ، لئلا يحصل اليأس ، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا ؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف"[12].

قال الطبري:" يقول: وإنه لذو صفح عن ذنوب من تاب من ذنوبه، فأناب وراجع طاعته، يستر عليها بعفوه عنها، {رحيم}، له، أن يعاقبه على جرمه بعد توبته منها، لأنه يقبل التوبة ويُقِيل العَثْرة"[13].

الفوائد:

١- أن الله سلط الأمم على اليهود، يسومونهم سوء العذاب، وذلك ببغيهم وفسادهم وسوء أخلاقهم.

القرآن

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٠٣/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.
[2] تفسير الطبري:٢٠٤/١٣.
[3] مجاز القرآن:٢٣١/١.
[4] أخرجه الطبري(١٥٣٠٩):ص٢٠٧/١٣.
[5] أخرجه الطبري(١٥٢٩٩):ص٢٠٥/١٣.
[6] أخرجه الطبري(١٥٣٣٠٢):ص٢٠٦/١٣.
[7] أخرجه الطبري(١٥٣٣٠٦):ص٢٠٦/١٣.
[8] التفسير الميسر:١٧٢.
[9] تفسير ابن كثير:٤٩٧/٣.
[10] تفسير الطبري:٢٠٧/١٣.
[11] التفسير الميسر:١٧٢.
[12] تفسير ابن كثير:٤٩٧/٣.
[13] تفسير الطبري:٢٠٧/١٣.

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)} [الأعراف : ١٦٨]

التفسير:

وفرَّقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات، منهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ومنهم المقصِّرون الظالمون لأنفسهم، واختبرنا هؤلاء بالرخاء في العيش والسَّعَة في الرزق، واختبرناهم أيضًا بالشدة في العيش والمصائب والرزايا؛ رجاء أن يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا من معاصيه.

قوله تعالى:{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا} [الأعراف : ١٦٨]، أي:" وفرَّقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وفرّقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات شتى متفرِّقين"[٢].

قال ابن كثير:" يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمما ، أي : طوائف وفرقًا ، كما قال تعالى { وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا } [الأسراء : ١٠٤]"[٣].

قال ابن عباس:" في كل أرض يدخلها قومٌ من اليهود"[٤].

قوله تعالى:{مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ} [الأعراف : ١٦٨]، أي:" منهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ومنهم المقصِّرون الظالمون لأنفسهم"[٥].

قال ابن كثير:" أي : فيهم الصالح وغير ذلك ، كما قالت الجن : { وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا } [الجن : ١١] "[٦].

قال الطبري:" يقول: من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله من بني إسرائيل{ الصالحون}، يعني: من يؤمن بالله ورسله، [ومنهم] دون الصالح. وإنما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادِهم عن دينهم، وقبل كفرهم بربهم، وذلك قبل أن يبعث فيهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليه"[٧].

قوله تعالى:{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف : ١٦٨]، أي:" واختبرناهم أيضًا بالشدة في العيش والمصائب والرزايا؛ رجاء أن يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا من معاصيه"[٨].

قال ابن كثير:" أي : اختبرناهم { بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ }، أي : بالرخاء والشدة ، والرغبة والرهبة ، والعافية والبلاء ، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }"[٩].

قال الطبري:" يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي {الحسنات} التي ذكرها جل ثناؤه، ويعني بـ{السيئات}، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال ، {لعلهم يرجعون}، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه"[١٠].

الفوائد:

---

[١] التفسير الميسر:١٧٢.
[٢] تفسير الطبري:٢٠٨/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٤٩٨/٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٣١١):ص٢٠٨/١٣.
[٥] التفسير الميسر:١٧٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٩٨/٣.
[٧] تفسير الطبري:٢٠٨/١٣.
[٨] التفسير الميسر:١٧٢.
[٩] تفسير ابن كثير:٤٩٨/٣.
[١٠] تفسير الطبري:٢٠٨/١٣-٢٠٩.

١- أنه من الجزاء الذي حكم الله به عليهم مع هذا العذاب المستمر إلى يوم القيامة تقطيعهم في الأرض وتشتيتهم فيها جزاء كفرهم وفسادهم.
٢- دلّت الآية على بتمزيق اليهود في الأرض، وتمزيقهم أدعى إلى أن يقع بسببه البلاء الشديد عليهم جماعة جماعة، ولا يستطيع أن ينصر بعضهم بعضاً بسببه.
٣- أن الواجب حمده سبحانه وتعالى في الحالتين: النعم والمصائب، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة.
٤- أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته، قال تعالى:{ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، وقال: {قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨]. ثم بين الحق تبارك وتعالى أن السيئات التي هي المصائب ليس لها سبب إذا أذنب العبد إلا من نفسه، وأما ما يصيب العبد من الخير فلا تنحصر أسبابه، لأنه من فضل الله، يحصل بعمل العبد وبغير عمله من إنعام الله عليه، فالواجب على العباد أن يشكروا ربهم ويحمدوه على ما أنعم به عليهم، كما يجب أن يكثروا من التوبة والأوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب سببت لهم المصائب والبلايا.
٥- ومن الفوائد: أن الخير من المال والدنيا والولد والزوجة والصحة والعافية، كل ذلك فتن عظيمة جداً؛ لينظر الله عز وجل أيصبر المرء فيشكر أم يكفر ويجزع.

القرآن

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)} [الأعراف : ١٦٩]

التفسير:

فجاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم بَدَلُ سوء أخذوا الكتاب من أسلافهم، فقرؤوه وعلموه، وخالفوا حكمه، يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا من دنيء المكاسب كالرشوة وغيرها؛ وذلك لشدة حرصهم ونَهَمهم، ويقولون مع ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا تمنيًا على الله الأباطيل، وإن يأت هؤلاء اليهودَ متاعٌ زائلٌ من أنواع الحرام يأخذوه ويستحلوه، مصرّين على ذنوبهم وتناولهم الحرام، ألَمْ يؤخذ على هؤلاء العهود بإقامة التوراة والعمل بما فيها، وألا يقولوا على الله إلا الحق وألا يكذبوا عليه، وعلموا ما في الكتاب فضيعوه، وتركوا العمل به، وخالفوا عهد الله إليهم في ذلك؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون الله، فيمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون دنيء المكاسب أن ما عند الله خير وأبقى للمتقين؟

قوله تعالى:{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" فجاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم بَدَلُ سوء أخذوا الكتاب من أسلافهم"(١).

قال الطبري:" فتبدَّل من بعدهم بَدَل سوء، ورثوا كتاب الله فَعُلِّموه، وضيعوا العمل به، فخالفوا حكمه"(٢).

قال ابن كثير:" يقول تعالى : فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح ، خلف آخر لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة هذا الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد : هم النصارى - وقد يكون أعم من ذلك"(٣).

قال مجاهد:" إي والله، لَخَلْفُ سَوْء ورثوا الكتابَ بعد أنبيائهم ورسلهم، ورَّثهم الله وَعهِد إليهم، وقال الله في آية أخرى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} [سورة مريم: ٥٩]"(٤).

---

(١) التفسير الميسر:١٧٢.
(٢) تفسير الطبري:٢١١/١٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٩٨/٣.
(٤) أخرجه الطبري(١٥٣٢١):ص٢١٣/١٣.

وروي عن مجاهد في قول الله: "{فخلف من بعدهم خلف}، قال: النصارى"[١].
قال الطبري:" إنما وصف أنه خَلَف القومَ الذين قصّ قصصهم في الآيات التي مضت، خَلْف سوءٍ رديء، ولم يذكر لنا أنهم نصارى في كتابه، وقصتهم بقصص اليهود أشبه منها بقصص النصارى. وبعدُ، فإن ما قبل ذلك خبرٌ عن بني إسرائيل، وما بعده كذلك، فما بينهما بأن يكون خبرًا عنهم أشبه، إذ لم يكن في الآية دليل على صرف الخبر عنهم إلى غيرهم، ولا جاء بذلك دليل يوجب صحة القول به"[٢].
يقال منه: "هو خَلَف صِدْقٍ"، "وخَلْفُ سَوْءٍ"، وأكثر ما جاء في المدح بفتح "اللام"، وفي الذم بتسكينها، وقد تحرَّك في الذم، وتسكّن في المدح، ومن ذلك في تسكينها في المدح قول حسان[٣]:

لَنَا القَدَمُ الأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ

وإذا وُجّه إلى الفساد، مأخوذ من قولهم: "خَلَف اللبن"، إذا حمض من طُول تَركه في السقاء حتى يفسد، فكأنَّ الرجل الفاسد مشبَّهٌ به. وقد يجوز أن يكون منه قولهم : "خَلَف فم الصائم"، إذا تغيرت ريحه. وأما في تسكين "اللام" في الذمّ، فقول لبيد[٤]:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[٥]

قوله تعالى:{يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا من دنيء المكاسب كالرشوة وغيرها؛ وذلك لشدة حرصهم ونَهَمهم ويقولون مع ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا تمنيًا على الله الأباطيل"[٦].
قال ابن كثير:" أي : يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا ، ويسرفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه"[٧].
قال الطبري:" فيأخذون الرشوة فيه من عَرَض هذا العاجل {الأدنى}، يعني: الأقرب من الآجل الأبعد، ويقولون إذا فعلوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا، تمنِّيًا على الله الأباطيل، كما قال جل ثناؤه فيهم: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [سورة البقرة: ٧٩]"[٨].
قال ابن عباس:" يقول: يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شاءوا من حلال أو حرام، ويقولون: {سيغفر لنا}"[٩].
قال سعيد بن جبير:" يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٣١٣):ص١٣/٢١٠.
[٢] تفسير الطبري:١٣/٢١١.
[٣]ديوانه: ٢٥٤، وسيرة ابن هشام ٣: ٢٨٣ واللسان (خلف).
من قصيدة بكى فيها سعد بن معاذ، في يوم بنى قريظة ورجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشهداء. وقوله: ((القدم الأولى)) ، يعنى سابقة الأنصار في الإسلام.وروى السيرة: ((في ملة الله تابع)
[٤]ديوانه، القصيدة: ٨، واللسان (خلف) ، وغيرها كثير. يرثي بها أربد، صاحبه وابن عمه، قال:قَضِّ اللُّبَانَةَ لا أَبَالَكَ وَاذْهبِ ... وَالْحَقْ بأُسْرَتِكَ الكِرام الغُيَّبِ
ذَهَبَ الَّذِين................. ... ذَهَبَ الَّذِين..................
يَتَأَكَّلُونَ مَغَالَةً وَخِيَانَةً ... وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ
يَا أَرْبَدَ الخَيْرِ الكريمُ جُدُودُهُ ... خَلَّيْتَني أَمْشِي بِقَرْنٍ أعْضَبِ
. . . .
إنَّ الرَّزِيَّةَ، لا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا ... فِقْدَانُ كُلَّ أَخٍ كَضَوْءِ الكَوْكَبِ
((المغالة)) الفحش في العداوة والوشاية عن تعاديه، و ((القرن الأعْضب)) ، المكسور، يعنى أنه قد فتر حده بموت أربد.
[٥] انظر: تفسير الطبري:١٣/٢٠٩-٢١٠.
[٦] التفسير الميسر:١٧٢.
[٧] تفسير ابن كثير:٣/٤٩٨.
[٨] تفسير الطبري:١٣/٢١١.
[٩]أخرجه الطبري(١٥٣٢٤):ص١٣/٢١٣-٢١٤.

عن مجاهد: "{يأخذون عرض هذا الأدنى} قال: ما أشرف لهم من شيء في اليوم من الدنيا حلالٌ أو حرام يشتهونه أخذوه، ويبتغون المغفرة، فإن يجدوا الغد مثلَه يأخذوه"(٢). وفي رواية "يتمنَّون المغفرة"(٣).

قال ابن زيد في قوله: "{يأخذون عرض هذا الأدنى}، قال: الكتاب الذي كتبوه، {ويقولون سيغفر لنا}، لا نشرك بالله شيئًا"(٤)

قوله تعالى:{وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" وإن يأت هؤلاء اليهودَ متاعٌ زائلٌ من أنواع الحرام يأخذوه ويستحلوه، مصرّين على ذنوبهم وتناولهم الحرام"(٥).

قال الطبري:" يقول: وإن شرع لهم ذنبٌ حرامٌ مثله من الرشوة بعد ذلك، أخذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه. يخبر جل ثناؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنُوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا تَوْبة"(٦).

قال قتادة:" إن جاءهم حلال أو حرامٌ أخذوه"(٧).

عن سعيد بن جبير:"{وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه}، قال: ذنبٌ آخر، يعملون به"(٨).

عن مجاهد:" {وإن يأتهم عرض مثله}، لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم عن ذلك، كلما أشرف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالا كان أو حرامًا"(٩).

قال ابن زيد في قوله: " {وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه}، يأتهم المحقّ برشوة فيخرجوا له كتاب الله، ثم يحكموا له بالرشوة. وكان الظالم إذا جاءهم برشوة أخرجوا له «المثنّاة»، وهو الكتاب الذي كتبوه، فحكموا له بما في «المثنّاة»، بالرشوة، فهو فيها محق، وهو في التوراة ظالم، فقال الله:{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}"(١٠)

عن السدي قوله: "{فخلف من بعدهم خلف} إلى قوله: {ودرسوا ما فيه}، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعُوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استُقْضِي ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي! فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع. فإذا مات، أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه، فيرتشي. يقول: وإن يأت الآخرين عرضُ الدنيا يأخذوه. وأما «عرض الأدنى»، فعرض الدنيا من المال"(١١).

قوله تعالى:{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟"(١٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {ألم يؤخذ}، على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: {سيغفر الله لنا فعلنا هذا}، إذا عوتبوا على ذلك {ميثاقُ الكتاب}، وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل، بإقامة التوراة، والعمل بما فيها. فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذين قص قصتهم في هذه الآية، موبخًا على خلافهم أمرَه، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه، ألا

---

(١) أخرجه الطبري(١٥٣١٤):ص٢١٢/١٣.
(٢) أخرجه الطبري(١٥٣١٨):ص٢١٢/١٣.
(٣) أخرجه الطبري(١٥٣١٩):ص٢١٢/١٣.
(٤)أخرجه الطبري(١٥٣٢٥):ص٢١٤/١٣.
(٥) التفسير الميسر:١٧٢.
(٦) تفسير الطبري:٢١١/١٣.
(٧) أخرجه الطبري(١٥٣٢٢):ص٢١٣/١٣.
(٨) أخرجه الطبري(١٥٣١٦):ص٢١٢/١٣.
(٩) أخرجه الطبري(١٥٣٢١):ص٢١٣/١٣.
(١٠)أخرجه الطبري(١٥٣٢٥):ص٢١٤/١٣.
(١١) أخرجه الطبري(١٥٣٢٣):ص٢١٣/١٣.
(١٢) صفوة التفاسير:٤٤٥/١.

يقولوا على الله إلا الحق، ولا يُضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه؟"[١].

قال ابن كثير:" قال : فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ، ولا يتوبون منها "[٢].

عن ابن عباس: "{ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق}، قال: فيما يوجبون على الله من غُفران ذنوبهم التي لا يَزَالون يعودون فيها ولا يَتُوبون منها"[٣].

قوله تعالى:{وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله"[٤].

قال الطبري:أي:" قرأوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتاب فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه وتركوا العمل به، وخالفوا عهد الله إليهم في ذلك"[٥].

عن ابن زيد:"{ودرسوا ما فيه}، قال: علّموه، علّموا ما في الكتاب الذي ذكر الله، وقرأ: {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [سورة آل عمران: ٧٩]"[٦].

قوله تعالى:{وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام"[٧].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: وما في الدار الآخرة، وهو ما في المعادِ عند الله، مما أعدّ لأوليائه، والعاملين بما أنزل في كتابه، المحافظين على حدوده خير للذين يتقون الله، ويخافون عقابه، فيراقبونه في أمره ونهيه، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم"[٨].

قال ابن كثير:" يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه ، ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي : وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم ، وترك هوى نفسه ، وأقبل على طاعة ربه "[٩].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأعراف : ١٦٩]، أي:" أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون دنيء المكاسب أن ما عند الله خير وأبقى للمتقين؟"[١٠].

قال الطبري:" يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم، ويقولون: {سيغفر لنا}، أنَّ ما عند الله في الدار الآخرة للمتقين العادِلين بين الناس في أحكامهم، خير من هذا العرض القليل الذي يستعجلونه في الدنيا على خلافِ أمر الله، والقضاء بين الناس بالجور؟"[١١].

قال ابن كثير:" يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟"[١٢].

قال ابن عطية:" و«العقل»: الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه عقال البعير، أي يمنعه من التصرف، ومنه المعقل أي موضع الامتناع"[١٣].

قال ابن عثيمين:" و«"العقل» -هنا-: عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف. وهو إدراك الأشياء، وفهمها.؛ وهو الذي

---

[١] تفسير الطبري(١٥٣٢٦):ص٢١٤/١٣-٢١٥.
[٢] تفسير ابن كثير:٤٩٩/٣.
[٣] أخرجه الطبري(١٥٣٢٧):ص٢١٥/١٣.
[٤] صفوة التفاسير:٤٤٥/١.
[٥] تفسير الطبري:٢١٥/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٣٢٨):ص٢١٥/١٣.
[٧] صفوة التفاسير:٤٤٥/١.
[٨] تفسير الطبري:٢١٥/١٣.
[٩] تفسير ابن كثير:٤٩٩/٣.
[١٠] التفسير الميسر:١٧٢.
[١١] تفسير الطبري:٢١٥/١٣.
[١٢] تفسير ابن كثير:٤٩٩/٣.
([١٣])المحرر الوجيز: ١٣٧/١.

يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد. وهو أن يحسن الإنسان التصرف.؛ وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه"[٢].

والعَقْل :"يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ. وإلى الأوّل أشار صلّى الله عليه وسلم بقوله: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل»[٢]، وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرّدّه عن ردى»[٢]، وهذا العقل هو المعنيّ بقوله: وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ[العنكبوت: ٤٣] ، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأوّل، نحو: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ}[البقرة:١٧١]، إلى قوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٧١]، ونحو ذلك من الآيات، وكلّ موضع رفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأوّل. وأصل العَقْل: الإمساك والاستمساك"[٢].

والعقل أصله: المنع[٢]، وعقل الإنسان هو "تمييزه الذي به فارق جميع الحيوان، سمي عقلاً لأنه يعقله أي يمنعه عن التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه، ومن هذا سميت الدية عقلاً لأنها إذا وصلت إلى ولي المقتول عقلته عن قتل الجاني، أي منعته"[٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: توبيخ هؤلاء الذين وصفهم الله في الآية وهم اليهود الذين ورثوا الكتاب من أسلافهم، فقرؤوه وعلموه، وخالفوا حكمه، يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا من دنيء المكاسب كالرشوة وغيرها.

٢- أخبر الله عز وجل أن قولهم: {سيغفر لنا}، قول غير حق، لأن من حكم الله تعالى أن لا يغفر للكفار وهم كفار.

٣- أن اتباع الهوى يعمي عين القلب.

٤- ومن فوائد الآية: توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غيٍّ؛ لقوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

القرآن

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)} [الأعراف : ١٧٠]

التفسير:

والذين يتمسَّكون بالكتاب، ويعملون بما فيه من العقائد والأحكام، ويحافظون على الصلاة بحدودها، ولا يضيعون أوقاتها، فإن الله يثيبهم على أعمالهم الصالحة، ولا يضيعها.

---

[٢] تفسير ابن عثيمين: ١٥٨/١.

[٢] الحديث عن أبي هريرة عن النبي قال: «إنّ الله لما خلق العقل قال له: أقبل: فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك، فبك آخذ وبك أعطي» .

قال ابن تيمية: إنه كذب موضوع باتفاق، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم بإسنادين ضعيفين. انظر: الإحياء مع تخريجه ١/ ٨٣، وحلية الأولياء ٧/ ٣١٨، وكشف الخفاء ١/ ٢٣٦.

[٢] الحديث عن عمر قال: قال رسول الله: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويردّه عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله» ا. هـ. قال العراقي: أخرجه ابن المحبّر في العقل، وعنه الحارث بن أبي أسامة. انظر: الإحياء ١/ ٨٣. قلت: داود بن المحبّر كذّاب، وقال ابن حجر: وأكثر (كتاب العقل) الذي صنّفه موضوعات. مات سنة ٢٠٦ هـ. انظر: تقريب التهذيب ص ٢٠٠.

[٢] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٥٧٧-٥٧٨.

[٢] أنظر: مقاييس اللغة: ٦٩/٤.

[٢] التفسير البسيط: ٤٥٠/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (عقل) ١/ ٢٥٢٤، وانظر: "اللسان" (عقل) ٥/ ٣٠٤٧.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ} [الأعراف : ١٧٠]، أي:" والذين يتمسَّكون بالكتاب، ويعملون بما فيه من العقائد والأحكام"[١].

قال ابن كثير:" ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالى:{ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ }، أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره"[٢].

قال ابن زيد:" كتاب الله الذي جاء به موسى عليه السلام"[٣].

عن مجاهد قوله: "{والذين يمسكون بالكتاب}، من يهود أو نصارى"[٤].

عن الحسن قوله: "{والذين يمسكون بالكتاب}، قال: يعني: لأهل الإيمان منهم"[٥]. عن الفرج قال: "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول في قول الله: {والذين يمسكون بالكتاب} الذي جاء به موسى ﷺ"[٦].

وفي اختيار كلمة «يُمَسِّكُون» معنى زيادة «إِمْسَاك»، فلم يقل: «يَمْسِكُون»، لأن فإن الإنسان قد يتمسك ولا يستمسك. والله أعلم.

وقرأ عاصم وحده: «يُمْسِكُونَ»، بتخفيف الميم وتسكينها، من :أمْسك يمسك[٧].

قوله تعالى:{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الأعراف : ١٧٠]، أي:" ويحافظون على الصلاة بحدودها، ولا يضيعون أوقاتها"[٨].

قال الزهري:" إقامتها أن تصلي الصلاة لوقتها"[٩].

و«إقامة الصلاة»: هي:"أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فُرِضَتْ عليه، كما يقال: أقام القومُ سُوقَهم، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها"[١٠]، وكما قال الشاعر[١١]:

أَقَمْنَا لأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ ضِّرَاب فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا

قوله تعالى:{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف : ١٧٠]، أي:" فإن الله يثيبهم على أعمالهم الصالحة، ولا يضيعها"[١٢].

عن الحسن قوله: "{إنا لا نضيع أجر المصلحين}، قال: هي لأهل الإيمان منهم"[١٣].

ولم يقل «إنا لا نضيع أجرهم»؛ فأفاد ثلاثة أمور[١٤]:

أولا: الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.

ثانيا: أن الله آجرهم لإصلاحهم.

ثالثا: أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

الفوائد:

١- أن التمسك بالكتاب لازمه فعل جميع الطاعات واجتناب جميع المنهيات.

---

(١) التفسير الميسر:١٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير:٤٩٩/٣.

(٣) أخرجه الطبري(١٥٣٢٩):ص٢١٦/١٣.

(٤) أخرجه الطبري(١٥٣٣٠):ص٢١٧/١٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥١١):ص١٦٠٩/٥.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥١٢):ص١٦٠٩/٥.

(٧) انظر: السبعة في القراءات:١٩٧، وتفسير الطبري:٢١٦/١٣.

(٨) التفسير الميسر:١٧٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥١٣):ص١٦٠٩/٥.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٤١/١.

(١١) البيت ذكره الطبري ولم أتعرف على قائله. انظر: تفسير الطبري: ٢٤١/١.

(١٢) التفسير الميسر:١٧٢.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥١٤):ص١٦١٠/٥.

(١٤)انظر: تفسير ابن عثيمين: ١/ ٦٧.

إذ أن التمسك بالكتاب والقيام بحقه معناه: حفظه وتلاوته والقيام به آناء الليل والنهار وتدبر آياته وإحلال حلاله وتحريم حرامه والانقياد لأوامره، والانزجار بزواجره والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والوقوف عند حدوده، وينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، والنصيحة له بكل معانيها والدعوة إلى ذلك على بصيرة.

٢- أن هذه الآية هي عامة في كل كتاب والآيات في ذلك كثيرة، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب الله فقال: «فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به»[١]، وفي حديث علي مرفوعا: «إنها ستكون فتن»[٢] . «قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: " كتاب الله» . وذكر الحديث.

٣- ومن الفوائد: أنه تعالى خص الصلاة بالذكر فقال: {وَأَقَامُوا الصَّلاةَ}، قصد بيان الخصوصية والاهتمام به، وفيه الترغيب في إقامة الصلاة؛ وإقامتها أن يأتي بها مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك.

القرآن

{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)} [الأعراف : ١٧١]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- إذ رفعنا الجبل فوق بني إسرائيل كأنه سحابة تظلهم، وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة، وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة، أي اعملوا بما أعطيناكم باجتهاد منكم، واذكروا ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم بالعمل بما فيه؛ كي تتقوا ربكم فتنجوا من عقابه.

قوله تعالى:{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ} [الأعراف : ١٧١]، أي:" اذكر أيها الرسول- حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رءوس بني إسرائيل"[٣].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر، يا محمد، إذ اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل"[٤].

قال مجاهد:" كما تنتق الزُّبْدَة"[٥].

واختلف في معنى:{نَتَقْنَا}، على أقوال:

أحدها : زعزعناه ، قاله ابن قتيبة[٦].

قال ابن قتيبة:" وكان نتق الجبل أنه قطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظل عليهم. وقال لهم موسى: إما أن تقبلوا التوراة وإما أن يسقط عليكم"[٧].

---

[١]رواه مسلم (فضائل الصحابة / ٣٦) ، وأحمد (٤ / ٣٦٦، ٣٦٧).

[٢]ضعيف) ، رواه أحمد (١ / ٩١) ، والترمذي (٢٩٠٦) ، والدارمي (٣٣٣٤) ، قال الإمام الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول وفي الحارث مقال. وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف جدا من أجل الحارث الأعور.

[٣] صفوة التفاسير:٤٤٦/١.

[٤] تفسير الطبري:٢١٧/١٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٣٣٦):ص٢١٨/١٣.

و"نتق الزبدة": هو أن تنفض السقاء لكي تقتلع منه زبدته.

[٦] انظر: غريب القرآن:١٧٤.

[٧] غريب القرآن:١٧٤.

والثاني : بمعنى جذبناه، والنتق : الجذب ومنه قيل للمرأة الولود ناتق، حكاه الطبري عن بعضهم[١]، ومنه قول النابغة[٢]:

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم طفحت عليك بناتقٍ مذكار .

واختلف في سبب تسميتها ناتقاً ، فقيل لأن : خروج أولادها بمنزلة الجذب . وقيل : لأنها تجذب ماء الفحل تؤديه ولداً[٣] .

والثالث : معناه: ورفعناه عليهم من أصله. قاله أبو عبيدة[٤]، والفراء[٥]، ومنه قول العجاج[٦]:

يَنْتُقُ أَقْتَادَ الشَّلِيلِ نَتْقَا

أي: يرفعه عن ظهره، ومنه قول رؤبه بن العجاج[٧]:

وَنَتَقُوا أحْلامَنَا الأَثَاقِلا

قال الفراء : "رفع الجبل على عسكرهم فرسخا في فرسخ"[٨].

قال الواحدي:" وأحسن العبارات وأجمعها أن يقال: معنى {نَتَقْنَا الْجَبَلَ}: رفعناه باقتلاع له من أصله"[٩].

وهذا الذي ذكره الواحدي هو الظاهر واختيار أكثرهم[١٠].

وقال أبو حيان:"النتق الجذب بشدة وفسره بعضهم بغايته وهو القلع"[١١].

وقال ابن عطية:" أي: اقتلعنا ورفعنا. وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [البقرة: ٦٣]"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري:٢٢٠/١٣، يعني به أبنا عبيدة، ولم أجده في المجاز.

[٢]ديوانه: ٥٠، واللسان (دحق) و (نتق) ، من قصيدتة التي قالها في زرعة بن عمرو بن خويلد، حين لقى النابغة بعكاظ، فأشار عليه أن يشير علي قومه بني ذبيان بترك حلف بني أسد، فأبي النابغة الغدر، فتهدده زرعة وتوعده، فلما بلغه تهدده، ذمه وهجاه، ومجد بني أسد، فقال في أول شعره: نُبِّئتُ زُرْعَةَ، وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الأَشْعَارِ

ثم يقول في ذكر الغاضريين من بني أسد حلفاء بني ذبيان:وَالغَاضِرِيُّونَ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا ... بِلِوَائِهِمْ سَيْرًا لِدَارِ قَرار تَمْشِي بِهِمْ أُدْمٌ كَأَنَّ رِحَالِهَا ... عَلَقُ هُرِيقَ عَلَى مُتُونِ صُوَارِ

. . . .

جَمْعًا يَظَلُّ بِهِ الفَضَاءُ مُعَضِّلا ... يَدَعُ الإكامَ كأَنَّهنَّ صَحَارِي

لَمْ يُحْرَمُوا................. ... .

يصفهم في البيت الأخير بالنعمة، ولين العيش، وأن أمهاتهم عشن بخير معيشة، فكثر ولدهن. وقوله: ((دحقت)) ، وذلك أن المرأة إذا ولدت ولدها بعضهم في إثر بعض قيل: ((دحقت)) ، ((مذكار)) تلد الذكور. ورواية الديوان وغيره: ((طفحت عليك)) ، أي: أتسعت بولدها وغلبت، كما يطفح الماء فيغطي ما حوله ويغرقه.

[٣] انظر: تفسير الطبري:٢٢٠/١٣.

[٤] انظر: مجاز القرآن:٢٣٢/١.

[٥] انظر: معاني القرآن:٣٩٩/١.

[٦]ديوانه: ٤٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٣٢، من أبيات يذكر فيها بعيره وسرعته وشدة سيره. و ((الشليل)) ، الحلس، أو مسح من شعر أو صوف يجعل على عجز البعير وراء الرحل. و ((الأقتاد)) جمع ((قتد)) (بفتحتين) . خشب الرحل.

[٧]ديوانه: ١٢٢، ومجاز القرآن ١: ٢٣٢، واللسان (نتق) ، من أرجوزة تمدح فيها بقومه، ثم مدح سليمان بن علي، قال في ذكر قومه: فالنَّاسُ إِنْ فَصَّلْتَهُمْ فَصَائِلا ... كُلٌّ إِلَيْنَا يَبْتَغِي الوَسَائِلا

قَدْ جَرّبُوا أَخْلاقَنَا الجَلائِلا ... وَنَتَقُوا أَحْلامَنَا الأثاقِلا

فَلَمْ يَرَ النَّاسُ لَنَا مُعَادِلا ... أَكْثَرَ عِزًّا وَأَعَزَّ جَاهِلا

و ((الأثاقل)) جمع ((الأثقل)) ، يعنى أثقل من سائر أحلام الناس، كما يقال ((الأكابر)) ، و ((الأصاغر)) ، و ((الأماثل)).

[٨] معاني القرآن:٣٩٩/١.

[٩] التفسير البسيط:٤٤٠/٩.

[١٠] انظر: تفسير الطبري:٢١٧/١٣، و"نزهة القلوب" ص ٤٤٥ - ٤٤٦، و"تفسير السمرقندي" ١/ ٥٧٩، و"تفسير المشكل" ص ٨٨، و"تفسير ابن الجوزي" ٣/ ٢٨٣، والرازي ١٥/ ٤٥، والقرطبي ٧/ ٣١٣.

[١١]البحر المحيط: ٤/ ٤١٨.

واختلف في سبب رفع الجبل عليهم هل كان انتقاماً منهم أو إنعاماً عليهم ؟ على قولين[٢]:
أحدهما : أنه كان انتقاماً بالخوف الذي دخل عليهم .
والثاني : كان إنعاماً لإقلاعهم به عن المعصية .
قوله تعالى:{كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} [الأعراف : ١٧١]، أي:" كأنه سحابة تظلهم"[٣].
قال الطبري: أي:" كأنه ظلة غمام من الظلال"[٤].
قوله تعالى:{وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الأعراف : ١٧١]، أي:" وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة"[٥].
وفي قوله تعالى:{وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الأعراف : ١٧١]، وجهان:
أحدهما : أنه غلب في نفوسهم انه واقع بهم على حقيقة الظن[٦].
والثاني : أنهم تيقنوه لما عاينوا من ارتفاعه عليهم ، قاله الحسن[٧].
قوله تعالى:{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} [الأعراف : ١٧١]، أي:" وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة"[٨].
قال قتادة:" أي: بجدّ"[٩].
قال الطبري: أي:" قلنا لهم: {خذوا ما آتيناكم بقوة}، من فرائضنا، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، اعملوا باجتهاد منكم في أدائه، من غير تقصير ولا توان"[١٠].
وحكي الماوردي في قوله:" {بِقُوَّةٍ}:بنية صادقة وطاعة خالصة"[١١].
قال ابن عباس:" فقال: {خذوا ما آتيناكم بقوة}، وإلا أرسلته عليكم"[١٢].
قال ابن عباس:" فقال لهم موسى: خذوا ما آتيناكم بقوة"، يقول: من العمل بالكتاب، وإلا خَرَّ عليكم الجبل فأهلككم! فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوّة! ثم نكثُوا بعد ذلك"[١٣].
وعن ابن عباس ايضا:" إنّي لأعلم خَلْقِ الله لأيِّ شيء سجدت اليهود على حَرْفِ وُجوههم: لما رفع الجبل فوقهم سَجَدُوا، وجعلوا ينظرون إلى الجبل مخافةَ أن يقع عليهم. قال: فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سُنَّة"[١٤].
قال ابن جريج:"كانوا أبوا التوراة أن يقبلوها أو يؤمنوا بها، {خذوا ما آتيناكم بقوّة}، قال: يقول: لتؤمنن بالتوراة ولتقبلُنَّها، أو ليقعَنَّ عليكم"[١٥].
قوله تعالى:{وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأعراف : ١٧١]، أي:" اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين"[١٦].

---

[١] المحرر الوجيز:١٣٠/٦.
[٢] انظر: النكت والعيون:٢٧٦/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٧٣.
[٤] تفسير الطبري:٢١٧/١٣.
[٥] التفسير الميسر:١٧٣.
[٦] انظر: النكت والعيون:٢٧٦/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٢٧٦/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٤٤٧/١.
[٩] أخرجه الطبري(١٥٣٣٥):ص٢١٨/١٣.
[١٠] تفسير الطبري:٢١٧/١٣.
[١١] النكت والعيون:٢٧٧/٢.
[١٢] أخرجه الطبري(١٥٣٣٢):ص٢١٨/١٣.
[١٣] أخرجه الطبري(١٥٣٣١):ص٢١٧/١٣-٢١٨.
[١٤] أخرجه الطبري(١٥٣٣٣):ص٢١٨/١٣.
[١٥] أخرجه الطبري(١٥٣٣٦):ص٢١٩/١٣.
[١٦] صفوة التفاسير:٤٤٧/١.

قال الطبري: "يقول ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه ،كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المَواثيق"[١].

قال قتادة:" جبل نزعه الله من أصله ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذُنّ أمري، أو لأرمينَّكم به!"[٢].

عن أبي بكر بن عبد الله قال: "هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيانُ ما أحلَّ لكم وما حرَّم عليكم، وما أمركم وما نهاكم! قالوا: انشُرْ علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرةً وحدودها خفيفةً، قبلناها! قال: اقبلوها بما فيها! قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها! فراجعوا موسى مرارًا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربِّي؟ "لئن لم تقبلوا التوراةَ بما فيها لأرمينَّكم بهذا الجبل". قال: فحدثني الحسن البصريّ، قال: لما نظروا إلى الجبل خرَّ كلُّ رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليُمْنَى إلى الجبلِ، فَرَقًا من أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الأرض يهوديٌّ يسجدُ إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفِعت عنا بها العقوبة قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتَبَه بيده، لم يبقَ على وجه الأرض جبلٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ إلا اهتزّ، فليس اليوم يهوديّ على وجه الأرضِ صغيرٌ ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتزّ، ونَفضَ لها رأسَه"[٣].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: تذكير الله. تبارك وتعالى. لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهد؛ لقوله تعالى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة}؛ وهذا التذكير مقتضاه الإلزام. أي فالتزموا بالميثاق.

٢- ومنها: عتوّ بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تُقْتَل.

٣- ومنها: بيان قوة الله عزّ وجلّ، وقدرته؛ لقوله تعالى: {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة}؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: {ورفعنا فوقكم الطور}[البقرة: ٦٣]، فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عزّ وجلّ؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

٤- ومنها: أن الواجب على أهل الملة أن يأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، ولين، ومداهنة؛ بل لابد من قوة في التطبيق، والدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخٍ على حدّ قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النمل: ١٢٥]؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا.

٥- ومنها: أن الأخذ بالكتاب المُنَزَّل يوجب التقوى؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتقون} أي لأجل أن تكونوا من المتقين لله عزّ وجلّ.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة أن الأنبياء - عليهم السلام - جاؤوا بالرسالة إلى الأمم مقرونة بالتخويف بالعذاب للمكذبين والإنذار للمخالفين، كما جاءت بالبشارة للمؤمنين والرجاء للمصدقين، ومنهم من جاء بالقتال.

وبنو إسرائيل لما امتنعوا من التزام أحكام التوراة - لثقلها عليهم - رفع الله جبلا فوق رؤوسهم، وقيل لهم: التزموا وإلا وقع عليكم الجبل.

القرآن

---

[١] تفسير الطبري:٢١٧/١٣.

[٢] أخرجه الطبري(١٥٣٣٥):ص٢١٨/١٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٣٣٧):ص٢١٩/١٣.

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)} [الأعراف : ١٧٢]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- إذ استخرج ربك أولاد آدم مِن أصلاب آبائهم، وقررهم بتوحيده بما أودعه في فطرهم من أنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا له بذلك، خشية أن ينكروا يوم القيامة، فلا يقروا بشيء منه، ويزعموا أن حجة الله ما قامت عليهم، ولا عندهم علم بها، بل كانوا عنها غافلين.

قوله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الأعراف : ١٧٢]، أي:" واذكر -أيها الرسول- إذ استخرج ربك أولاد آدم مِن أصلاب آبائهم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربَّك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادَتَهم بذلك، وإقرارَهم به"[٢].

قوله تعالى:{وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف : ١٧٢]، أي:"وقررهم بتوحيده بما أودعه في فطرهم من أنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا له بذلك"[٣].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه"[٤].

قال محمد بن كعب القرظي:" أقرَّت الأرواح قبلَ أن تُخْلق أجسادها"[٥].

أُختلف في الذين أخرجهم وأخذ ذلك عليهم على قولين[٦]:

أحدهما : أنه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وجعل فيها من المعرفة ما علمت به من خاطبها.

واختلف من قال بهذا هل كان ذلك قبل نزوله إلى الأرض على قولين[٧]:

أحدهما : أنه كان في الجنة قبل هبوطه إلى الأرض .

والثاني : أنه فعل ذلك بعد هبوطه إليها .

والقول الثاني : في الأصل أنه خلق الأرواح والأجساد معاً وذلك في الأرض عند جميع من قال بهذا التأويل .

فعلى هذا فيه قولان:

أحدهما : أنه أخرجهم كالذر وألهمهم هذا فقالوه ، قال الكلبي[٨] ومقاتل[٩] : وذلك أن الله مسح ظهر آدم بين مكة والطائف فخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية كالذر بيض ، فهم أصحاب الميمنة . وخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية كالذر سود ، فهم أصحاب المشأمة ، فلما شهدوا على أنفسهم جميعاً من آمن منهم ومن كفر أعادهم .

والثاني : أنه أخرج الذرية قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر . ذكره الماوردي[١٠].

وفي قوله تعالى:{وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}[الأعراف: ١٧٢]، قولان[١١]:

أحدهما : هو أنه دلهم على أنفسهم بما شهدوه من قدرته ، قاله بعض المتكلمين .

---

[١] التفسير الميسر:١٧٣.

[٢] تفسير الطبري:٢٢٢/١٣.

[٣] التفسير الميسر:١٧٣.

[٤] تفسير ابن كثير:٥٠٠/٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٣٧٦):ص٢٤٤/١٣.

[٦] انظر: النكت العيون:٢٧٧/٢ وما بعدها.

[٧] انظر: النكت العيون:٢٧٧/٢-٢٧٨.

[٨] انظر: النكت والعيون:٢٧٩/٢.

[٩] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٧٢/٢-٧٣.

[١٠] انظر: النكت العيون:٢٧٩/٢.

[١١] انظر: النكت العيون:٢٧٩/٢.

والثاني : هو إشهادهم على أنفسهم بما اعترفوا من ربوبيته ووحدانيته . وفيه على التأويل قولان [١]:

أحدهما : أنه قال ذلك للآباء من بني آدم حين أخرج من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، ليعلمهم أنه خلق ذرياتهم بعد أن لم يكونوا كان هو الخالق لهم لأنهم كانوا ذرية مثلهم لمن تقدمهم كما صار هؤلاء ذرية لهم فاعترفوا بذلك حين ظهرت لهم الحجة ، قاله ابن بحر [٢] .

والقول الثاني : أنه قال ذلك للذرية حين أخذهم من ظهور آبائهم ، وهذا قول الأكثرين، فعلى هذا فيه قولان [٣]:

أحدهما : أنه قال لهم :{أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} على لسان الأنبياء بعد أن كملت عقولهم .

والثاني : أنه جعل لهم عقولاً علموا بها ذلك فشهدوا به على أنفسهم .

وفي أصل الذرية قولان[٤]:

أحدهما : لأنهم يخرجون من الأصلاب كالذر .

والثاني : أنه مأخوذ من ذَرَأ الله الخلق إذا أحدثهم وأظهرهم .

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم}، قال:"أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم :{ألست بربكم قالوا بلى}، قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}"[٥].

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَان -يعني عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذرّ، ثم كلمهم قَبَلا، فقال: {ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا ... } الآية، إلى {ما فعل المبطلون}"[٦].

وعن ابن عباس أيضا:" أول ما أهبط الله آدم، أهبطه بدَهْنَا، أرض بالهند، فمسح الله ظهره، فأخرج منه كل نَسَمة هو بارئها إلى أن تقوم الساعة، ثم أخذ عليهم الميثاق: {وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}"[٧].

عن الحسن بن أبي الحسن، حدّثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: "غزوت مع رسول الله ﷺ أربعَ غزوات قال: فتناول القوم الذرّيّة بعد ما قَتَلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتدّ عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟»، فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناءَ المشركين؟ فقال: «إن خيارَكم أولادُ المشركين! ألا إنها ليست نسمة تُولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لِسَانها، فأبواها يهوّدانها أو ينصرانها».

قال الحسن: والله لقد قال الله ذلك في كتابه، قال: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم}"[٨].

عن مسلم بن يسار الجهني: «أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم}، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: "خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون". ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: "خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون". فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال: "إن الله إذا خلق العبدَ للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى

---

[١] انظر: النكت العيون:٢٧٩/٢.
[٢] انظر: النكت العيون:٢٧٩/٢.
[٣] انظر: النكت العيون:٢٧٩/٢.
[٤] انظر: النكت العيون:٢٧٩/٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٣٥٤)ص٢٣٢/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٣٣٨):ص٢٢٢-٢٢٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٥٣٤٢):ص ٢٢٤/١٣-٢٢٥.
[٨] أخرجه الطبري(١٥٣٥٣):ص٢٣١/١٣.

يموت على عمل من عمل أهل الجنة، فيدخله الجنة؛ وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من عمل أهل النار، فيدخله النار"»[١].

قال ابن عباس: "إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، وأخرج ذريته كلّهم كهيئة الذر، فأنطقهم فتكلموا، وأشهدهم على أنفسهم، وجعل مع بعضهم النّور، وإنه قال لآدم: هؤلاء ذرّيتك آخذ عليهم الميثاق: أنا ربهم، لئلا يشركوا بي شيئًا، وعليَّ رزقهم. قال آدم: فمن هذا الذي معه النُّور؟ قال: هو داود. قال: يا رب كم كتبت له من الأجل؟ قال: ستين سنة. قال: كم كتبت لي؟ قال: ألف سنة، وقد كتبت لكل إنسان منهم كم يعمَّر وكم يلبث. قال: يا رب زده. قال: هذا الكتاب موضوعٌ فأعطه إن شئت من عمرك! قال: نعم. وقد جفَّ القلم عن أجل سائر بني آدم، فكتب له من أجل آدم أربعين سنة، فصار أجله مائة سنة. فلما عمر تسع مائة سنة وستين سنة جاءه ملك الموت؛ فلما رآه آدم قال: ما لك؟ قال له: قد استوفيت أجلك. قال له آدم: إنما عمرت تسعمئة وستين سنة، وبقي أربعون سنة. قال: فلما قال ذلك للملك، قال الملك: قد أخبرني بها ربي. قال: فارجع إلى ربك فاسأله! فرجع الملك إلى ربه، فقال: ما لك؟ قال: يا رب رجعت إليك لما كنت أعلم من تكرمتك إياه. قال الله: ارجع فأخبره أنه قد أعطى ابنه داود أربعين سنة"[٢].

عن هشام بن حكيم: "أن رجلا أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، أتبْدَأ الأعمال أم قد قُضِي القضاء؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، ثم قال: "هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار"، فأهل الجنة ميسَّرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسَّرون لعمل أهل النار"[٣].

قال ابن كثير:" فهذه الأحاديث دالة على أن الله ، عز وجل ، استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما[٤]، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[٥]، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان ، كما تقدم.

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمَار المُجَاشعي ، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيع. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك ، قالوا : ولهذا قال : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ } ولم يقل : "من آدم" ، { مِنْ ظُهُورِهِمْ } ولم يقل : "من ظهره" { ذُرِّيَّاتِهِمْ } أي : جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن ، كما قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ

---

[١] المسند (٤٤/١) وسنن أبي داود برقم (٤٧٠٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٩٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٧٥)، وتفسير الطبري(١٥٣٥٧):ص٢٣٣/١٣-٢٣٤.واللفظ له.

قال الترمذي : «وهذا حديث حسن ، ومسلم بن يَسَار لم يسمع عُمَر". وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرْعَة. زاد أبو حاتم : وبينهما نُعَيْم بن ربيعة".

[٢] أخرجه الطبري(١٥٣٦١):ص٢٣٧/١٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٣٧٧):ص٢٤٤/١٣.

[٤] انظر: المسند (٢٧٢/١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٩١) وتفسير الطبري (٢٢٢/١٣) وقال النسائي : : "كلثوم هذا ليس بالقوى ، وحديثه ليس بالمحفوظ".

ونص الحديث:

عن كلثوم بن جابر عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال : "إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ، عليه السلام ، بنعمان. يعني: عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } إلى قوله : { الْمُبْطِلُونَ }".

[٥] تفسير الطبري (٢٣٢/١٣) قال الطبري : "ولأعلمه صحيحا ؛ لأن الثقات الذين يعتمد على حفظهم واتقانهم ، ، حدثوا بهذا الحديث عن الثوري فوقفوه على عبد الله بن عمرو ، ولم يرفعوه ولم يذكروا في الحديث هذا الحرف الذي ذكره أحمد بن أبي طيبة عنه".

ونص الحديث: عن مجاهد - عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } قال : "أخذ من ظهره ، كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : { ألست بربكم قالوا بلى } قَالَتِ الْمَلائِكَةُ { شهدنا أن يقولوا } يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين".

الأَرْضِ } [الأنعام : ١٦٥] وقال : { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ } [النمل : ٦٢] وقال : { كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } [الأنعام : ١٣٣]. ثم قال : { وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } أي : أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا. والشهادة تارة تكون بالقول ، كما قال تعالى (٤) { قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا } [الأنعام : ١٣٠] الآية ، وتارة تكون حالا كما قال تعالى : { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } [التوبة : ١٧] أي : حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذلك قوله تعالى : { وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ } [العاديات : ٧] كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كما في قوله : { وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } [إبراهيم : ٣٤] قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا ، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه. فإن قيل : إخبار الرسول به كاف في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد"(١).

قوله تعالى:{أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف : ١٧٢]، أي:" لئلا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرُّون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه"(٣).

قال ابن كثير:"أي : لئلا يقولوا يوم القيامة:{إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}، أي: عن التوحيد { غَافِلِينَ..."(٤).

وقرئ: «أَنْ يَقُولُوا»، بالياء، بمعنى: شهدنا لئلا يقولوا، على وجه الخبر عن الغَيَب(٥).

الفوائد:

١- أن كل نفس خلقها الله تعالى من بني آدم ومن الجن والملائكة فمؤمنون كلهم عقلا مميزون فإذ ذلك كذلك فقد استحقوا كلهم الجنة بإيمانهم حاشا من بدل هذا العهد وهذه الفطرة وهذه الصبغة وخرج عنها إلى غيرها ومات على التبديل(٦).

٢- أن الأطفال لم يغيروا شيئا من ذلك العهد، فهم من أهل الجنة، وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال:«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" قال أبو هريرة: "اقرؤوا إن شئتم قوله عزوجل: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم آية :٣٠]»(٧) (٨).

ومنه قوله -ﷺ-: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي"(٩).

٣- نستنتج من الفائدتين السابقتين: أن معرفة الله فطر عليها الخلق وكذلك الإقرار بربوبيته.

فهذا ظاهر منه أن القلوب مفطورة على الإقرار بالخالق ومعرفته، وأن الانحراف عن هذه المعرفة والإيمان تكون من قبل الأبوين والمجتمع أو بسبب الغفلة والشياطين، إلا أن هذه المعرفة ليست معرفة كافية وافية فتحتاج إلى معرفة مكتسبة وهي ما يحصله الإنسان بتعلم دين الله عز وجل والنظر في آياته الشرعية والكونية

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٠٦/٣.

(٢) صفوة التفاسير:٤٤٧/١.

(٣) تفسير الطبري:٢٥١/١٣.

(٤) .

(٥) انظر:تفسير الطبري:٢٥١/١٣.

(٦) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي:٦٥/٤.

(٧)أخرجه البخاري، الجنائز ٨٧/٢، م. كتاب القدر ٢٠٤٧/٤.

(٨) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي:٦٥/٤.

(٩)أخرجه مسلم، صفة الجنة ٢١٩٧/٤.

فيحصل له بذلك معرفة جديدة تنمو وتزداد كلما ازداد نظراً وعلما قال عزوجل: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر : ٢٨] . فالعلم بالله ومعرفته يزيد من خشيته ومراقبته جل وعلا. فهذا يدل على أن معرفة الله منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب.

القرآن

{أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)} [الأعراف : ١٧٣]

التفسير:

أو لئلا تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد، فاقتدينا بهم من بعدهم، أفتعذبنا بما فعل الذين أبطلوا أعمالهم بجعلهم مع الله شريكا في العبادة؟

قوله تعالى:{أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ} [الأعراف : ١٧٣]، أي:" أو لئلا تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد، فاقتدينا بهم من بعدهم"[١].

بعدهم"[١].

قال الطبري:" أو تقولوا: {إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم} ، اتبعنا منهاجهم"[٢].

قال الشوكاني: "أي: فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و {أو} لمنع الخلو دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين {من قبل}، أي: من قبل زماننا {وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ}، لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب"[٣].

قال الواحدي:" قال المفسرون: هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة: {إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ}، أي: قبلنا، ونقضوا العهد. {وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ} صغارًا وكبارًا فاقتدينا بهم"[٤].

قوله تعالى:{أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف : ١٧٣]، أي:" أفتعذبنا بما فعل الذين أبطلوا أعمالهم بجعلهم مع الله شريكا في العبادة؟"[٥].

قال الطبري: أي:"{أفتهلكنا}، بإشراك من أشرك من أبائنا، واتباعنا منهاجَهم على جهل منا بالحق؟ ويعني بقوله: {بما فعل المبطلون}، بما فعل الذين أبطلوا في دَعواهم إلهًا غير الله"[٦].

قال الواحدي:" أي: أفتعذبنا بما فعل المشركون المكذبون بالتوحيد، وإنما اقتدينا بهم وكنا في غفلة عن الميثاق، وعما نطالب به الآن من التوحيد، وآباؤنا أشركوا، وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبانا، فجرينا على مذهبهم واقتدينا بهم، فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم، والذنب في ذلك لهم، كما قالوا في موضع آخر: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} الآية [الزخرف: ٢٢]. فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام ، ويكون الآباء على الإشراك بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق بالتوحيد على كل واحد من الذرية، هذا هو الكلام على مذهب أهل الأثر"[٧].

قال الشوكاني: أي:"من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا: بين الله -سبحانه- في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم وأنه

---

(١) التفسير الميسر:١٧٣.

(٢) تفسير الطبري:٢٥١/١٣.

(٣) فتح القدير:٣٠٠/٢.

(٤) التفسير البسيط:٤٥٥/٩.

(٥) التفسير الميسر:١٧٣.

(٦) تفسير الطبري:٢٥١/١٣.

(٧) التفسير البسيط:٤٥٥/٩.

فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة"[١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود الله وربوبيته وسواء أقلنا: إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم، أو قلنا: إن هذا هو ما ركب الله تعالى في فطرهم من الإقرار به، فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته.

٢- ومن الفوائد أيضا: أن مقتضى الطبيعة العادية أن يحتذي الرجل حذو أبيه حتى في الصناعات والمساكن والملابس والمطاعم، إذ كان هو الذي رباه، ولهذا كان أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ويشركانه، فإذا كان هذا مقتضى العادة الطبيعية، ولم يكن في فطرتهم وعقولهم ما يناقض ذلك، قالوا: نحن معذورون، وآباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة، ولم يكن عندنا ما يبيّن خطأهم.

فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به: من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء، كان الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية.

كما قال - ﷺ -: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه"، فكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجون بها[٢].

٣- في الآية الكريمة ذكر حكمتين في هذا الإشهاد: لئلا يدعوا الغفلة، أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع في تقليده لغيره. ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة[٣].

٤- أن قوله: {أفتهلكنا بما فعل المبطلون}، أي: لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل[٤].

القرآن

{وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)} [الأعراف : ١٧٤]

التفسير:

وكما فَصَّلْنا الآيات، وبيَّنَّا فيها ما فعلناه بالأمم السابقة، كذلك نفصِّل الآيات ونبيِّنها لقومك أيها الرسول؛ رجاء أن يرجعوا عن شركهم، وينيبوا إلى ربهم.

قوله تعالى:{وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ} [الأعراف : ١٧٤]، أي:" وكما فَصَّلْنا الآيات، وبيَّنَّا فيها ما فعلناه بالأمم السابقة، كذلك نفصِّل الآيات ونبيِّنها لقومك أيها الرسول"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وكما فصلنا يا محمد لقومك آيات هذه السورة، وبيّنا فيها ما فعلنا بالأمم السالفة قبلَ قومك، وأحللنا بهم من المَثُلات بكفرهم وإشراكهم في عبادتي غيري، كذلك نفصل الآيات غيرها ونبيّنها لقومك"[٦].

عن السدي قوله: "{وكذلك نفصل الآيات}، ما نفصل فنبين"[٧].

---

[١] فتح القدير:٣٠٠/٢.
[٢] انظر: آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد:٣٣-٣٤.
[٣] انظر: شرح الطحاوية:٢٢٠.
[٤] انظر: شرح الطحاوية:٢٢٠.
[٥] التفسير الميسر:١٧٣.
[٦] تفسير الطبري:٢٥٢/١٣.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٤٠):ص١٦١٦/٥.

قوله تعالى:{وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف : ١٧٤]، أي:" ورجاء أن يرجعوا عن شركهم، وينيبوا إلى ربهم"[١].

قال صديق خان:" أي: "إلى الحق، ويتركون ما هم عليه من الباطل، وقيل: يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه، والمآل واحد"[٢].

قال الطبري: أي:" لينزجروا ويرتدعوا، فينيبوا إلى طاعتي ويتوبوا من شركهم وكفرهم، فيرجعوا إلى الإيمان والإقرار بتوحيدي وإفراد الطاعة لي وترك عبادة ما سواي"[٣].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الريمة: بطلان ألوهية ما سوى الله سبحانه وتعالى.

٢- ومنها أنه جعل الإشهاد آية وهي الدلالة الواضحة المبينة المستلزمة لمدلولها وإنما يتضح ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله[٤].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن آيات الرب تعالى أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به[٥].

٤- دلّ قوله تعالى: {يَرْجِعُونَ}، على أن مرض الشرك محدث وطارئ على الفطرة ودخيل عليها، وليس بمحل للعبد لكي يحط رحله فيه؛ بل محل العبد وقراره في تجريد العبودية لفاطره ومالكه. فأولى وأحرى بكم أيها المشركون أن تحلوا في محلكم، وتقطعوا غربتكم، وتقروا في قراركم[٦].

القرآن

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)} [الأعراف : ١٧٥]

التفسير:

واقصص -أيها الرسول- على أمتك خبر رجل من بني إسرائيل أعطيناه حججنا وأدلتنا، فتعلَّمها، ثم كفر بها، ونبذها وراء ظهره، فاستحوذ عليه الشيطان، فصار من الضالين الهالكين؛ بسبب مخالفته أمر ربه وطاعته الشيطان.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-؛ قال: "نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي"[٧]. [صحيح]

---

[١] التفسير الميسر:١٧٣.

[٢] فتح البيان في مقاصد القرآن للسيد صديق حسن خان: ٣/ ٤٥٨.

[٣] تفسير الطبري:٢٥٢/١٣.

[٤] انظر: شرح الطحاوية:٢٢٠.

[٥] انظر: شرح الطحاوية:٢٢٠.

[٦] انظر: آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد:١٨.

[٧] أخرجه النسائي في "تفسيره" (١/ ٥٠٨، ٥١١ رقم ٢١٢، ٢١٤)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٤٠٩):ص٢٥٧/١٣، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦١٦ رقم ٨٥٤٢)، ومسدد بن مسرهد في "مسنده"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٧٨ رقم ٧٦٨٠) من طريق يعقوب ونافع ابني عاصم عن عبد الله بن عمرو به.

قلنا: وسنده صحيح.

وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٥) وقال: "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

وقال البوصيري: "ورواته ثقات".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ١٤٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه وابن عساكر.

وصححه ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٦٦)، وقال الحافظ في "فتح الباري" (٧/ ١٥٤): "وروى ابن مردويه بإسناد قوي عن عبد الله بن عمرو. . ."..

والثاني: عن عبد الله بن مسعود؛ قال: "هو بلعم بن أبر رجل من اليمن"[١]. [صحيح]

قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف : ١٧٥]، أي:" واقصص -أيها الرسول- على أمتك خبر رجل من بني إسرائيل أعطيناه حججنا وأدلتنا، فتعلَّمها، ثم كفر بها، ونبذها وراء ظهره"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {واتل}، يا محمد، على قومك {نبأ الذي آتيناه آياتنا}، يعني خبره وقصته، وكانت آيات الله للذي آتاه الله إياها فيما يقال: اسم الله الأعظم، وقيل: النبوّة"[٣].

اختلف في قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف : ١٧٥]، على وجوه:

أحدها : أنه بلعام بن عوراء. قاله ابن عباس[٤]، وابن مسعود[٥]، ومجاهد[٦]، وعكرمة[٧].

قال ابن عباس:" هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، وكان يعلم اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنوا عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل جديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يردعنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزاولوا به حتى دعا عليهم فسلخ ما كان عليه فذلك قوله: {فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين}"[٨].

والثاني : أنه أمية بن أبي الصلت الثقفي ، قاله عبد الله بن عمرو[٩]، والكلبي[١٠].

والثالث :أنه صيفي بن الراهب. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا[١١]، وحكاه نافع بن عاصم عن بعضهم[١٢].

والرابع: أنه من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاه الله الحق فتركه. قاله عكرمة[١٣].

والخامس: قال قتادة:" هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه"[١٤].

وكما اختلفوا في اسمه اختلفوا في مكانه أيضا، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من اليمن. قاله ابن عباس[١٥].

والثاني: وقيل كان من الكنعانيين. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا[١].

---

[١]أخرجه النسائي في "تفسيره" (١/ ٥١٠ رقم ٢١٣)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٣٨٣)، و(١٥٣٨٤):ص٢٥٢/١٣، والطبراني في "الكبير" (٩/ ٢١٩ رقم ٩٠٦٤)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٣)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦١٦ رقم ٨٥٤١) من طريق الأعمش ومنصور كلاهما عن أبي الضحى عن مسروق عنه به.

قلنا: وهذا سند صحيح على شرط الشيخين.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٥): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٠٨) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

[٢] التفسير الميسر:١٧٣.

[٣] تفسير الطبري:٢٥٢/١٣.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٣٨٧)، و(١٥٣٩٠):ص٢٥٣/١٣-٢٥٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٣٨١)-(١٥٣٨٦):ص٢٥٣/١٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٣٩١):ص٢٥٤/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٣٩٤)-(١٥٣٩٧):ص٢٥٤/١٣.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٤٥):ص١٥١٧/٥.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٠٢)-(١٥٤٠٩):ص٢٥٥/١٣-٢٥٧.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١٠):ص٢٥٧/١٣.

[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٤٤):ص١٦١٦/٥.

[١٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٤٣):ص١٦١٦/٥.

[١٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٥٥٤):ص١٦١٨/٥.

[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٤٨):ص١٦١٧/٥.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٠٠):ص٢٥٥/١٣.

والثالث: وقيل من بني صال بن لوط. حكاه الماوردي[٢].
وفي الآيات التي أوتيها ثلاثة أقاويل :
أحدها : أنه اسم الله الأعظم الذي تجاب به الدعوات ، قاله ابن عباس[٣]، والسدي[٤]، وابن زيد[٥]، وكعب[٦]، واختاره الطبري[٧].
قال كعب:" كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب"[٨].
والثاني : أنها كتاب من كتب الله. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا[٩].
وروي عن عكرمة:" أعطاه الله آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب" [١٠].
والثالث : أنه أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه ، قاله مجاهد[١١]، وحكاه المعتمر سليمان عن أبيه[١٢].
قال الماوردي:"وهو غير صحيح، لأن الله لا يصطفي لنبوته إلا من يعلم أن لا يخرج عن طاعته إلى معصيته"[١٣].
قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمرَ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان الله آتاه حُجَجه وأدلته، وهي «الآيات»، وقد دللنا على أن معنى "الآيات": الأدلة والأعلام، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته، وجائز أن يكونَ الذي كان الله آتاه ذلك «بلعم»، وجائز أن يكون أمية. وكذلك «الآيات» إن كانت بمعنى الحجة التي هي بعض كتب الله التي أنزلها على بعض أنبيائه، فتعلمها الذي ذكره الله في هذه الآية، وعناه بها؛ فجائز أن يكون الذي كان أوتيها «بلعم»، وجائز أن يكون «أمية»، لأن «أمية» كان، فيما يقال، قد قرأ من كتب أهل الكتاب، وإن كانت بمعنى كتاب أنزله الله على مَنْ أمر نبيَّ الله عليه الصلاة والسلام أن يتلوَ على قومه نبأه أو بمعنى اسم الله الأعظم، أو بمعنى النبوّة ، فغير جائز أن يكون معنيًّا به «أمية»"؛ لأن «أمية» لا تختلف الأمة في أنه لم يكن أوتي شيئًا من ذلك، ولا خبرَ بأيِّ ذلك المراد، وأيّ الرجلين المعنيّ، يوجب الحجة، ولا في العقل دلالة على أيِّ ذلك المعنيُّ به من أيٍّ. فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله"[١٤].
وفي قوله تعالى:{ فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف : ١٧٥]، وجهان[١٥]:
أحدهما : فانسلخ من العلم بها، لأنه سيسلب ما أوتي منها بالمعصية .
والثاني : أنه انسلخ منها، أي: من الطاعة بالمعصية مع بقاء علمه بالآيات حتى حكي أن بلعام رُيثي على أن يدعو على قوم موسى بالهلاك فسها فدعا على قومه فهلكوا .
قال الطبري:" يعني: خرج من الآيات التي كان الله آتاها إياه، فتبرَّأ منها"[١٦].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٠١):ص٢٥٥/١٣.
[٢] انظر: النكت والعيون:٢٧٩/٢.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١٢):ص٢٥٨/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١١):ص٢٥٧/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١٣):ص٢٥٨/١٣.
[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٥٠):ص١٦١٨/٥.
[٧] انظر: تفسير الطبري:٢٥٢/١٣.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٥٠):ص١٦١٨/٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١٤):ص٢٥٨/١٣.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٥٥٤):ص١٦١٨/٥.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١٥):ص٢٥٩/١٣.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٤١٦):ص٢٥٩/١٣.
[١٣] النكت والعيون:٢٧٩/٢.
[١٤] تفسير الطبري:٢٥٩/١٣-٢٦٠.
[١٥] انظر: النكت والعيون:٢٨٠/٢.
[١٦] تفسير الطبري:٢٦٠/١٣.

قال ابن عباس:"كان الله آتاه آياته فتركها"[1].
وعن ابن عباس ايضا: "{فانسلخ منها}، قال: نزع منه العلم"[2].
قوله تعالى:{فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [الأعراف : ١٧٥]، أي:" فاستحوذ عليه الشيطان"[3].
قال ابن كثير:" أي : استحوذ عليه وغلبه على أمره ، فمهما أمره امتثل وأطاعه"[4].
قال الطبري:" يقول: فصيَّره لنفسه تابعًا ينتهي إلى أمره في معصية الله، ويخالف أمر ربِّه في معصية الشيطان وطاعةِ الرحمن"[5].
وفي قوله تعالى:{فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [الأعراف : ١٧٥]، وجوه:
أحدها : أن الشيطان صيره لنفسه تابعاً بإجابته له حين أغواه[6].
والثاني : أن الشيطان متبع من الإنس على ضلالته من الكفر[7].
والثالث : أن الشيطان أدركه، أي: لحقه فأغواه ، يقال اتبعت القوم إذا لحقتهم ، وتبعتهم إذا سرت خلفهم ، قاله ابن قتيبة[8].
والرابع: سجوده للشيطان حين تراءى له. قاله عبدالرحمن بن جبير بن نفير[9].
قوله تعالى:{فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف : ١٧٥]، أي:" فصار من الضالين الهالكين؛ بسبب مخالفته أمر ربه وطاعته الشيطان"[10].
قال ابن كثير:" أي: من الهالكين الحائرين البائرين "[11].
قال الطبري:" يقول: فكان من الهالكين، لضلاله وخلافه أمر ربه، وطاعة الشيطان"[12].
قال مالك ابن دينار قال: "بعث نبي الله موسى بلعام وكان مجاب الدعوة وكان يقدمهم عند الشدائد، وكان من علماء بني إسرائيل فبعثه إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى فنزلت هذه الآية: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها} إلى قوله: {من الغاوين}"[13].
عن حذيفة بن اليمان: قال رسول الله ﷺ : «"إن مما أتخوف عليكم رجُل قرأ القرآن ، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رِدْء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ، ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك". قال : قلت : يا نبي الله ، أيهما أولى بالشرك : المرمي أو الرامي ؟ قال : "بل الرامي"»[14].
الفوائد:

---

[1] أخرجه الطبري(١٥٤١٨):٢٦١/١٣.
[2] أخرجه الطبري(١٥٤١٩):٢٦١/١٣.
[3] التفسير الميسر:١٧٣.
[4] تفسير ابن كثير:٥٠٩/٣.
[5] تفسير الطبري:٢٦١/١٣.
[6] انظر: النكت والعيون:٢٨٠/٢.
[7] انظر: النكت والعيون:٢٨٠/٢.
[8] انظر: غريب القرآن:١٧٤.
[9] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٥٦):ص١٦١٩/٥.
[10] التفسير الميسر:١٧٣.
[11] تفسير ابن كثير:٥٠٩/٣.
[12] تفسير الطبري:٢٦١/١٣.
[13] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٥٣):ص١٦١٨/٥.
[14] رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده كما في تفسير ابن كثير:٥٠٩/٣، ورواه البزار في مسنده برقم (١٧٥) من طريق : حدثنا محمد بن مرزوق والحسن بن أبي كبشة ، حدثنا محمد بن بكر البرساني به. قال الهيثمي في المجمع (١٨٨/١) : "إسناده حسن".

١- من فوائد الآية الكريمة: أن هذا المنسلخ لم يكن قط نبيا، وفيه الرد على أهل الكتاب بزعمهم أنه كان نبيا[١].
٢- دلَّت الآية الكريمة على أنه لما انسلخ من آيات الله باطراحها، والعمل بخلافها وقع في مَهْواةٍ من الهلكة، استولى عليه فيها الشيطان.
٣- أن سائر المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله. وقد وصف الله تعالى بذلك المشركين في مواضع من كتابه المبين. فقال وهو أصدق القائلين: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص:٥٠] . وقال: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} [المؤمنون: من الآية ٧١] وقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: من الآية ١٧٥-١٧٦] وقال ﷺ: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} [الشورى: من الآية ١٥] وقال تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: من الآية ٢٣] وقال سبحانه وتعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد:١٤] .
يتضح بأن أصل ما احتال به الشيطان عمن أراد الله إضلاله من العباد، وأول ما أوقعهم به في مهواة الكفر والإلحاد، فنالوا بذلك الطرد والإبعاد محبتهم لآلهتهم ومساواة الإله الحق بالأنداد.
٤- ومن الفوائد: أن الرسوخ في العلم أمر خفي، ليس هو كثرة العلم، فكم من رجل كثير العلم ليس براسخ. قال تعالى {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين}.

القرآن

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)} [الأعراف : ١٧٦]

التفسير:

ولو شئنا أن نرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا، ولكنه رَكَنَ إلى الدنيا واتبع هواه، وآثر لَذَّاته وشهواته على الآخرة، وامتنع عن طاعة الله وخالف أمره. فَمَثَلُ هذا الرجل مثل الكلب، إن تطرده أو تتركه يُخْرج لسانه في الحالين لاهثًا، فكذلك الذي انسلخ من آيات الله يظل على كفره إن اجتهدْتَ في دعوتك له أو أهملته، هذا الوصف -أيها الرسول- وصف هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة، فاقصص -أيها الرسول- أخبار الأمم الماضية، ففي إخبارك بذلك أعظم معجزة، لعل قومك يتدبرون فيما جئتهم به فيؤمنوا لك.

قوله تعالى:{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} [الأعراف : ١٧٦]، أي:" ولو شئنا أن نرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا"[٢].

قال ابن كثير:" أي : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها"[٣].

إياها"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولو شئنا لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا بآياتنا التي آتيناه"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} [الأعراف : ١٧٦]، وجوه:

---

[١] انظر: قصص الأنبياء، ص ٣٨٠، ٣٨١.
[٢] التفسير الميسر:١٧٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٥٠٩/٣.
[٤] تفسير الطبري:٢٦١/١٣.

أحدها : يعني: لرفعناه بعلمه بها. قاله ابن عباس(١).
والثاني: معناه: لرفعنا عنه الحال التي صار إليها من الكفر بالله بآياتنا. قاله مجاهد(٢).
والثالث: يعني: لأمتناه فلم يكفر. ذكره الماوردي(٣).

قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمّ الخبر بقوله: {ولو شئنا لرفعناه بها} ، أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاه إياها. والرفع يَعمُّ معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها. ومنها الرفع في الذكر الجميلِ والثّناء الرفيع. وجائزٌ أن يكون الله عنى كلَّ ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاه كل ذلك، بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياه. وإذ كان ذلك جائزًا، فالصواب من القول فيه أن لا يخصَّ منه شيء، إذ كان لا دلالة على خصوصه من خبرٍ ولا عقلٍ"(٤).

قوله تعالى:{وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} [الأعراف : ١٧٦]، أي:" ولكنه رَكَنَ إلى الدنيا"(٥).

قال سعيد بن جبير:" يعني: ركن إلى الأرض"(٦).

عن مجاهد: "أخلد: سكن"(٧).

قال ابن قتيبة:" أي: ركن إلى الدنيا وسكن"(٨).

قال الطبري:" يقول: سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها"(٩).

قال ابن كثير:" أي : مال إلى زينة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرّته كما غرت غيره من غير أولي البصائروالنهى "(١٠).

قال ابن عباس:" كان في بني إسرائيل بلعام بن باعر أوتي كتابا، فأخلد إلى شهوات الأرض ولذتِها وأموالها، لم ينتفع بما جاء به الكتاب"(١١).

قال السدي:" أما {أخلد إلى الأرض} : فاتبع الدنيا، وركن إليها"(١٢).

قال أبو جعفر: وأصل "الإخلاد" في كلام العرب: الإبطاء والإقامة، يقال منه: "أخلد فلان بالمكان"، إذا أقام به وأخلد نفسه إلى المكان" إذا أتاه من مكان آخر، ومنه قول زهير(١٣):

لِمَنْ الدِّيَارُ غَشِيتُهَا بِالْفَدْفَدِ ... كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ المُخْلِدِ

يعني المقيم، ومنه قول مالك بن نويرة(١٤):

بِأَبْنَاء حَيٍّ مِنْ قَبَائِلِ مَالِكٍ ... وَعَمْرِو بن يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَأَخْلَدُوا

وكان بعض البصريين يقول معنى قوله: "أخلد": لزمَ وتقاعسَ وأبطأ، و"المخلد" أيضًا: هو الذي يبطئ شيبُه من الرجال وهو من الدواب، الذي تبقى ثناياه حتى تخرج رَباعيتاه(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٤٢٥):ص٢٦٨/١٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٤٢٦):ص٢٦٨/١٣.
(٣) انظر: النكت والعيون:٢٨٠/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٦٩/١٣.
(٥) التفسير الميسر:١٧٣.
(٦) أخرجه الطبري(١٥٤٢٩):ص٢٦٩/١٣.
(٧) أخرجه الطبري(١٥٤٣١):ص٢٦٩/١٣.
(٨) غريب القرآن:١٧٤.
(٩) تفسير الطبري:٢٦١/١٣.
(١٠) تفسير ابن كثير:٥٠٩/٣.
(١١) أخرجه الطبري(١٥٤٣٢):ص٢٦٩/١٣-٢٧٠.
(١٢) أخرجه الطبري(١٥٤٣٣):ص٢٦٩/١٣-٢٧٠.
(١٣)ديوانه: ٢٦٨، واللسان (خلد) ، مطلع قصيدته في سنان بن أبي حارثة المرى.
(١٤)الأصمعيات: ٣٢٣، من قصيدته قالها في يوم مخطط، وقبله، وهو أول الشعر: إلا أكُنْ لاقَيْتُ يومَ مخطط ... فقد خبر الرُّكْبَانُ ما أتَوَدَّدُ
أتاني بنفر الخير ما قد لقيته ... رزين، وركب حوله متعضدُ
يهلون عمارًا، إذا ما تغوروا ... ولاقوا قريشًا خبروها فأنجدُوا
.

قوله تعالى:{وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف : ١٧٦]، أي:" واتبع هواه، وآثر لَذَّاته وشهواته على الآخرة، وامتنع عن طاعة الله وخالف أمره"[٢].

قال ابن زيد:" كان هَواهُ مع القوم"[٣].

قال الطبري:"وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، ورفض طاعة الله وخالَف أمرَه"[٤].

قوله تعالى:{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} [الأعراف : ١٧٦]، أي:" فَمَثَلُ هذا الرجل مثل الكلب، إن تطرده أو تتركه يُخْرج لسانه في الحالين لاهثًا، فكذلك الذي انسلخ من آيات الله يظل على كفره إن اجتهدْتَ في دعوتك له أو أهملته"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فمثل هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ الكلب الذي يلهث، طردْته أو تركته"[٦].

واختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله جَعَل الله مثَله كمثل الكلب، على قولين:

أحدهما: مثَّله به في اللهث، لتركه العمل بكتابِ الله وآياته التي آتاها إياه، وإعراضِه عن مواعظ الله التي فيها إعراض من لم يؤته الله شيئًا من ذلك، فقال جل ثناؤه فيه: إذْ كان سواء أمرُه، وُعِظَ بآيات الله التي آتاها إياه، أو لم يوعظ، في أنه لا يتَّعظ بها، ولا يترك الكفر به، مثل الكلب الذي سواءٌ أمره في لهثه، طرد أو لم يطرد، إذ كان لا يتركُ اللهث بحال. وهذا معنى قول ابن عباس[٧]، ومجاهد[٨]، وقتادة[٩].

قال قتادة:" هذا مثلٌ ضربه الله لمن عُرِض عليه الهدى، فأبى أن يقبله وتركه، قال: وكان الحسن يقول: هو المنافق {ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث}، قال: هذا مثل الكافر ميتُ الفؤاد"[١٠].

والثاني: مثّله جل ثناؤه بالكلب، لأنه كان يلهث كما يلهثُ الكلب. وهذا قول السدي[١١].

قال الطبري:" وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويلُ من قال: إنما هو مثلٌ لتركه العمل بآيات الله التي آتاها إياه، وأنّ معناه: سواء وعظ أو لم يوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمر ربّه، كما سواءٌ حمل على الكلب وطُرِد أو ترك فلم يطرد، في أنه لا يدَع اللهث في كلتا حالتيه.

وإنما قلنا: ذلك أولى القولين بالصواب، لدلالة قوله تعالى: {ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا}، فجعل ذلك مثلَ المكذِّبين بآياته. وقد علمنا أن اللُّهَاث ليس في خِلقة كل مكذّب كُتب عليه ترك الإنابة من تكذيبه بآيات الله، وأن ذلك إنما هو مثل ضربه الله لهم، فكان معلوما بذلك أنه للذي وصف الله صفته في هذه الآية، كما هو لسائر المكذبين بآيات الله، مثلٌ"[١٢].

قوله تعالى:{ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف : ١٧٦]، أي:" هذا الوصف -أيها الرسول- وصف هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة"[١٣].

---

[١] انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة:٢٣٣/١، ومعاني القرآن للفراء:٣٩٩/١، وتفسير الطبري:٢٧٠/١٣-٢٧١.

[٢] التفسير الميسر:١٧٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٤٣٤):ص٢٧١/١٣.

[٤] تفسير الطبري:٢٦١/١٣.

[٥] التفسير الميسر:١٧٣.

[٦] تفسير الطبري:٢٧١/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٣٨)، و(١٥٤٣٩):ص٢٧٢/١٣-٢٧٣.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٣٥)، و(١٥٤٣٦):ص٢٧٢/١٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٤٠):ص٢٧٣/١٣.

[١٠] أخرجه الطبري(١٥٤٤٠):ص٢٧٣/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٤١):ص٢٧٣/١٣.

[١٢] تفسير الطبري:٢٧٣/١٣.

[١٣] التفسير الميسر:١٧٣.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هذا المثل الذي ضربتُه لهذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ القوم الذين كذبوا بحُججنا وأعلامنا وأدلّتنا، فسلكوا في ذلك سبيل هذا المنسلِخ من آياتنا الذي آتيناها إياه، في تركه العمل بما آتيناه من ذلك"[١].

قوله تعالى:{فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف : ١٧٦]، أي:" فاقصص -أيها الرسول- أخبار الأمم الماضية، ففي إخبارك بذلك أعظم معجزة، لعل قومك يتدبرون فيما جئتهم به فيؤمنوا لك"[٢].

قال الطبري:" يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من نقمتنا على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك وصحَّة نبوّتك، إذ كان نبأ {الذي آتيناه آياتنا} من خفيّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء"[٣].

قال ابن كثير:" يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ :{ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ } أي : لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب - في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران، عليه السلام؛ ولهذا قال : { لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } أي : فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علمًا ، وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته ، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ؛ ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد ، أحل الله به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة"[٤].

عن سالم أبي النضر: "{فاقصص القصص لعلهم يتفكّرون}، يعني: بني إسرائيل، إذ قد جئتهم بخبر ما كان فيهم ممّا يخفُون عليك ، {لعلهم يتفكرون}، فيعرفون أنه لم يأت بهذا الخبر عمّا مضى فيهم إلا نبيٌّ يأتيه خبرُ السماء"[٥].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: اشتراط العلم وإقامة الحجة، وكُلُّ رسولٍ بُعِثَ لإقامة الحجة على العباد.

٢- دلّت الآية الكريمة أن الضلال والانحراف كان منه[٦]، مأخوذ من قوله: {فَانْسَلَخَ مِنْهَا}، ومن قوله: {أَخْلَدَ}.

٣- بيان طبيعة حتمية للمنحرفين عن هدى الله ورسوله، إذ تجدهم يتهارطون تهارط الكلاب علانية على رؤوس الأشهاد ولا يخجلون من تفكه أعدائهم عليهم، فهذه معجزة عظيمة من معجزات القرآن الخالدة.

٤- ومن الفوائد: أن العواطف الفاسدة والشهوات المحرمة ثغرة في حصن القلب تردي صاحبها، ويتسلل من خلالها الشيطان لإهلاك الإنسان، وقد يقع الإنسان في المهالك

---

[١] تفسير الطبري:٢٧٤/١٣.
[٢] التفسير الميسر:١٧٣.
[٣] تفسير الطبري:٢٧٤/١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:٥١٢/٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٤٤٢):ص٢٧٥/١٣.
[٦] أي: الذي منّ الله عليه بالعلم ولم ينتفع به.

بسبب جريانه لإشباع شهوة من هذه الشهوات، حيث إن الشهوات هي أصول المعاصي والدافع إليها، وهي تختلف عن الران الناتج عن المعاصي، فإن الشهوة تسبق الفعل، وهي صفة لازمة، أما الران فهو أثر المعصية، وناتج عنها.

٥- وفي الآية بيان أهمية الهوى، وإن الوقوع في ذلك وقوع في الضلال وبالتالي الوقوع في الفساد الشامل للسماء والأرض ومن فيهم كما قال تعالى:" وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ} [المؤمنون، آية: ٧١].

٦- ومن الفوائد: أن الله لم يذكر التشبيه بالحيوانات إلا في مقام الذم، كقوله تعالى: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار} [الجمعة: ٥]، وقوله: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ... } [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآيتين؛ وكذلك السنة لم تأت بالتشبيه بالحيوان إلا في مقام الذم، كقول النبي ﷺ: «الذي يتكلم والإمام يخطب يوم الجمعة كمثل الحمار يحمل أسفاراً» [(١)]، وقوله: «العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»[(٢)].

القرآن

{سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)} [الأعراف : ١٧٧]

التفسير:

قَبُحَ مثلا مثلُ القوم الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته، فجحدوها، وأنفسهم كانوا يظلمونها؛ بسبب تكذيبهم بهذه الحجج والأدلة.

قوله تعالى:{سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف : ١٧٧]، أي:" قَبُحَ مثلا مثلُ القوم الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته، فجحدوها"[(٣)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ساءَ مثلا القوم الذين كذبوا بحجج الله وأدلته فجحدوها"[(٤)].

قال أبو الليث:" يعني: بئس مثل من كان مثل الكلب، وإنما ضرب المثل بالكلب تقبيحا لمذهبهم. ويقال: بئس مثل القوم الذين كذبوا وكانت صفتهم مثل صفة بلعم وهم أهل مكة كذبوا بآياتنا، فلم يؤمنوا بها مثل بلعم"[(٥)].

قال ابن كثير:" أي : ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه ، صار شبيها بالكلب ، وبئس المثل مثله ؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»[(٦)]"[(٧)].

---

(١)أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠، حديث رقم ٢٠٣٣، قال الحافظ في البلوغ: [رواه أحمد بإسناد لا بأس؛ وهو يفسر حديث أبي هريرة في الصحيحين مرفوعاً: "إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت"]، وقال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير؛ وفيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية) (مجمع الزوائد ٢/ ١٨٧)، وقال أحمد شاكر، في تخريج المسند ٣/ ٣٢٦: إسناده حسن.

(٢)أخرجه البخاري ص ٢٠٤، كتاب الهبة، باب ١٤: هبة الرجل لامرأته، والمرأة لزوجها، حديث رقم ٢٥٨٩، وأخرجه مسلم ص ٩٦٠، كتاب الهبات، باب ٢: تحريم الرجوع في الصدقة بعد القبض ... ، حديث رقم ٤١٧٠ [٥] ١٦٢٢.

(٣) التفسير الميسر:١٧٣.

(٤) تفسير الطبري:٢٧٥/١٣.

(٥) بحر العلوم:٥٦٨/١.

(٦)صحيح البخاري برقم (٢٦٢٢).

(٧) تفسير ابن كثير:٥١٢/٣.

قال أبو السعود:" {ساء مثلا} استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ"[١].

قوله تعالى:{وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ}[الأعراف : ١٧٧]، أي:" وأنفسهم كانوا يظلمونها؛ بسبب تكذيبهم بهذه الحجج والأدلة"[٢].

قال أبو الليث:" يعني: يضرون بأنفسهم"[٣].

قال الطبري:أي: "وأنفسَهم كانوا ينقصُون حظوظَها، ويبخسونها منافعها، بتكذيبهم بها لا غيرَها"[٤].

قال ابن كثير:" أي : ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى"[٥].

قال الشوكاني:" أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها، ولا يتجاوزها، والجملة معطوفة على التي قبلها، على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم"[٦].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الخاسر من نسي إيمانه ويقينه، واغتر بالشبهات فهلك.
٢- ومنها: أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة؛ لقوله تعالى: {وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ}.
٣- ومنها: أن العاصي لا يضر الله شيئاً؛ وإنما يظلم نفسه.

القرآن

{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)} [الأعراف : ١٧٨]

التفسير:

من يوفقه الله للإيمان به وطاعته فهو الموفَّق، ومن يخذله فلم يوفقه فهو الخاسر الهالك، فالهداية والإضلال من الله وحده.

قوله تعالى:{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي} [الأعراف : ١٧٨]، أي:" من يوفقه الله للإيمان به وطاعته فهو الموفَّق"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الهداية والإضلال بيد الله، و«المهتدي»- وهو السالك سبيل الحق، الراكبُ قصدَ المحجّة-في دينه، مَن هداه الله لذلك، فوفَّقه لإصابته"[٨].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له"[٩].

قال أبو الليث:" يعني: من يهده الله لدينه فهو المهتدي من الضلالة"[١٠].

قال الشوكاني:" من هداه فلا مضل له"[١١].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف : ١٧٨]، أي:" ومن يخذله فلم يوفقه فهو الخاسر الهالك، فالهداية والإضلال من الله وحده"[١٢].

---

[١] تفسير أبي السعود:٢٩٤/٣.
[٢] التفسير الميسر:١٧٣.
[٣] بحر العلوم:٥٦٨/١.
[٤] تفسير الطبري:٢٧٥/١٣.
[٥] تفسير ابن كثير:٥١٢/٣.
[٦] فتح القدير:٣٠٣/٢.
[٧] التفسير الميسر:١٧٣.
[٨] تفسير الطبري:٢٧٦/١٣.
[٩] تفسير ابن كثير:٥١٢/٣.
[١٠] بحر العلوم:٥٦٨/١.
[١١] فتح القدير:٣٠٣/٢.
[١٢] التفسير الميسر:١٧٣.

قال أبو الليث:" يعني: ومن يضله عن دينه ويخذله فأولئك هم الخاسرون بالعقوبة"(١).
قال ابن كثير:" ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن"(٢).
قال الشوكاني:" ومن أضله فلا هادي له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن"(٣).
قال الطبري:أي:" و«الضالُّ»: من خذله الله فلم يوفقه لطاعته، ومن فعل الله ذلك به فهو «الخاسر»: يعني: الهالك"(٤).
جاء في حديث ابن مسعود : "إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"(٥).
الفوائد:
١- أن المراد بالهداية هاهنا: اللطف في التسديد والتأييد الذي يختص بالمؤمنين، ويدل على صحة قولنا قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ} [طالحج:١٦]، ولا يمكن استعمال هذه الهداية على البيان والدلالة، بل هداية الإرشاد والتوفيق فقد خص بها من يريد.
٢- في الآية الرد على مذهب القدرية(نفاة القدر)، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الهدى والإضلال بيده وحده جل وعلا، فمن هداه فلا مضل له، ومن أضله فلا هادي له.
ويؤخذ من هذه الآية وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه جل وعلا عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئتها وتعالى عن ذلك علوا كبيرا!(٦).
٣- ومن فوائد الآية: أن هداية التوفيق ليست لأحد غير الله تعالى، وكان النبي ﷺ يستهدي ربه فيقول في دعائه: "اللهم إني أسألك الهدى والسداد"(٧).
فالذي يشرح الصدر ويوفق ويهدي هو الله ولذلك قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص:٥٦].

القرآن
{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)} [الأعراف : ١٧٩]
التفسير:
ولقد خلقنا للنار -التي يعذِّب الله فيها مَن يستحق العذاب في الآخرة- كثيرًا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يعقلون بها، فلا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات كتاب الله فيتفكروا فيها، هؤلاء كالبهائم التي لا تَفْقَهُ ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل بقلوبها الخير والشر فتميز بينهما، بل هم أضل منها؛ لأن البهائم تبصر منافعها ومضارها وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك، أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته.

---

(١) بحر العلوم:٥٦٨/١.
(٢) تفسير ابن كثير:٥١٢/٣.
(٣) فتح القدير:٣٠٣/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٧٦/١٣.
(٥)المسند (٣٩٢/١) وسنن أبي داود برقم (١٠٩٧) وسنن النسائي (٨٩/٦) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٩٢).
(٦) انظر: الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشّنقيطي في تفسيره أضواء البيان: ٧١١/٢-٧١٢.
(٧)أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٥) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف : ١٧٩]، أي:" ولقد خلقنا للنار -التي يعذِّب الله فيها مَن يستحق العذاب في الآخرة- كثيرًا من الجن والإنس"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا لجهنّم كثيرًا من الجن والإنس.. وقال جل ثناؤه: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس}، لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربِّهم"[٢].

والأحاديث في هذا كثيرة ، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها" [٣].

عن ابن عباس: "{ولقد ذرأنا لجهنم} ، خلقنا"[٤].

عن الحسن، في قوله:" {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس}، قال: مما خلقنا"[٥].

قال مجاهد:" لقد خلقنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس"[٦].

قال سعيد بن جبير:" أولاد الزنا ممّا ذرأ الله لجهنم"[٧].

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: "إن الله لما ذرأ لجهنم ما ذرأ، كان ولدُ الزنا ممن ذرأ لجهنم"[٨].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا } أي : خلقنا وجعلنا { لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ } أي : هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلائق ، علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء»[٩].

وفي صحيح مسلم أيضا ، من حديث عائشة بنت طلحة ، عن خالتها عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، أنها قالت : دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله خلق الجنة ، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم»[١٠].

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد»[١١].

وتقدم أن الله -تعالى- لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، قال : «هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي»[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٤.
[٢] تفسير الطبري:٢٧٦/١٣-٢٧٨.
[٣] تفسير ابن كثير:٥١٤/٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٤٤٩):ص٢٧٨/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٤٤٣):ص٢٧٧/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٤٤٨):ص٢٧٨/١٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٥٤٤٤):ص٢٧٧/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٥٤٤٦):ص٢٧٧/١٣.
[٩]صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).
[١٠]صحيح مسلم برقم (٢٦٦٢).
[١١] صحيح البخاري برقم(٣٢٠٨)، وصحيح مسلم برقم(٢٦٤٣).
[١٢]كشف الأستار عن زوائد البزار، (٢١٤٣):ص٢١/٣. عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: " إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم، قبض من طينته قبضتين، قبضة بيمينه وقبضة بيده الأخرى، فقال للذي بيمينه: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وقال للذي في يده الأخرى: هؤلاء للنار ولا أبالي، ثم ردهم في صلب آدم، فهم يتناسلون على ذلك إلى الآن ".
قال البزار: "لا نعلم أحدا رواه بهذا اللفظ إلا أبو موسى".

قوله تعالى:{لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٧٩]، أي:" لهم قلوب لا يفهمون بها الحق"[١].

قال مجاهد:" لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة"[٢].

قال الطبري:" معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حُجَجه لرسله، فيعلموا توحيد ربِّهم، ويعرفوا حقيقة نبوّة أنبيائهم. فوصفهم ربُّنا جل ثناؤه بأنهم: {لا يفقهون بها}، لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبُّر صحة [نبوّة] الرسل، وبُطُول الكفر"[٣].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٧٩]، أي: ولهم أعين" لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار"[٤].

قال مجاهد:أي:" الهدى"[٥].

قال الطبري:" معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفسادِ ما هم عليه مقيمون، من الشرك بالله، وتكذيب رسله؛ فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحقّ، بأنهم لا يبصرون بها"[٦].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٧٩]، أي:" يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ"[٧].

قال مجاهد:أي:" الحقَّ"[٨].

قال الطبري:" آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها، ويقولون: [لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [سورة فصلت: ٢٦]"[٩].

والعرب تقول ذلك للتارك استعمالَ بعض جوارحه فيما يصلح له، ومنه قول مسكين الدارمي[١٠]:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ   حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السِّتْرُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا   سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ

فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم.

ومنه قول الآخر[١١]:

وَعَوْرَاءُ الكلام[١٢] صَمَمْتُ عَنْهَا   وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ
وَبَادِرَةٍ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا   وَقَدْ تَثِقَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلُوعُ

وذلك كثير في كلام العرب وأشعارها[١٣].

قال ابن كثير:" يعني : ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله [سببا للهداية] (٨) كما قال تعالى : { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأحقاف : ٢٦] وقال تعالى : { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ } [البقرة : ١٨] هذا في حق

---

[١] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.
[٢] أخرجه الطبري(١٥٤٥٠):ص٢٨٠/١٣.
[٣] تفسير الطبري:٢٧٨/١٣.
[٤] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٤٥٠):ص٢٨٠/١٣.
[٦] تفسير الطبري:٢٧٨/١٣.
[٧] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.
[٨] أخرجه الطبري(١٥٤٥٠):ص٢٨٠/١٣.
[٩] تفسير الطبري:٢٧٨/١٣-٢٧٩.
[١٠] انظر: أمالي المرتضى ١: ٤٣: ٤٤ ثم ٤٧٤، من قصيدة رواها وشرحها، وخزانة الأدب ١: ٤٦٨.
[١١]حماسة البحترى: ١٧٢.
[١٢] وفي رواية: "وعوراء اللِّئَام". انظر: تفسير الطبري:٢٧٩/١٣.
[١٣] انظر: تفسير الطبري:٢٧٩/١٣-٢٨٠.

المنافقين ، وقال في حق الكافرين : { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ } [البقرة : ١٧١] ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى ، كما قال تعالى : { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [الأنفال : ٢٣] ، وقال : { فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج : ٤٦] ، وقال { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [الزخرف : ٣٦ ، ٣٧]"[١].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الأعراف : ١٧٩]، أي:" أولئك كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع، بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار"[٢].

قال مجاهد:" ثم جعلهم كالأنعام سواءً، ثم جعلهم شرًّا من الأنعام، فقال:{بل هم أضل}"[٣].

قال الطبري:يعني:" هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم، هم كالأنعام، وهي البهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح وما لا يَصْلُح، ولا تعقل بقلوبها الخيرَ من الشر، فتميز بينهما. فشبههم الله بها، إذ كانوا لا يتذكَّرون ما يرون بأبصارهم من حُججه، ولا يتفكرون فيما يسمعون من آي كتابه، ثم قال: {بل هم أضل}، يقول: هؤلاء الكفرة الذين ذَرَأهم لجهنم، أشدُّ ذهابًا عن الحق، وألزم لطريق الباطل من البهائم، لأن البهائم لا اختيار لها ولا تمييز، فتختار وتميز، وإنما هي مسَخَّرة، ومع ذلك تهرب من المضارّ، وتطلب لأنفسها من الغذاء الأصلح. والذين وصفَ الله صفتهم في هذه الآية، مع ما أعطوا من الأفهام والعقول المميِّزة بين المصالح والمضارّ، تترك ما فيه صلاحُ دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارّها، فالبهائم منها أسدُّ، وهي منها أضل، كما وصفها به ربُّنا جل ثناؤه"[٤].

قال ابن كثير:" أي : هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى ، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى : { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ } [البقرة : ١٧١]، أي : ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول ؛ ولهذا قال في هؤلاء : { بَلْ هُمْ أَضَلُّ } أي : من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر ، كانت الدواب أتم منه ؛ ولهذا قال تعالى : { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }"[٥].

وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة ما، تقول: فلان أصم عن الخنا، كما قالوا[٦]:

أصم عما ساءه سميع

أي: لا يسمع ما ساءه مع كونه سميعا، يضرب مثلا للرجل يتغافل عما يكره.

وقال آخر[٧]:

وَعَوْرَاءُ اللِّئَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ

---

[١] تفسير ابن كثير:٥١٣/٣-٥١٤.

[٢] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٤٥٠):ص٢٨٠/١٣.

[٤] تفسير الطبري:٢٨٠/١٣-٢٨١.

[٥] تفسير ابن كثير:٥١٤/٣.

[٦]انظر: مجمع الأمثال، أبو هلال العسكري: ٧٦.

[٧]حماسة البحترى: ١٧٢. (وعوراء الكلام)، وكانت في المخطوطة: و (عوراء اللام)، وكأن الصواب ما في الحماسة. و (العوراء)، الكلمة القبيحة، أو التي تهوى جهلا في غير عقل ولا رشد.

وقال مسكين الدارمي[1]:

أَعْمَى إذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السِّتْرُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ

فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم[2].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف : ١٧٩]، أي:" أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته"[3].

قال مجاهد:"ثم أخبر أنهم هم الغافلون"[4].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفتُ صفتهم، القومُ الذين غفلوا -يعني: سهوًا- عن آياتي وحُججي، وتركوا تدبُّرها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلّت عليه من توحيد ربّها، لا البهائم التي قد عرّفها ربُّها ما سخَّرها له"[5].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه تعالى قسم خلقه فرقتين، فرقة خلقهم للجنة وكتبهم بأسمائهم (وأسماء آبائهم) ٣، وفرقة خلقهم للسعير وذكرهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ممتثلين في ذلك بقوله عز وجل: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ}، ولقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء:١٠١].

وقد بين ذلك ما روي عن النبي ﷺ في حديث القبضتين[6].

وحديث الصادق المصدوق عن عبد الله بن مسعود[7]، وما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حين قال: يا رسول الله أرأيت ما نحن فيه٤ أمر قد فرغ منه، أم أمر مستأنف، فقال عليه السلام: بل أمر قد فرغ منه، قال عمر: ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ :«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[8]، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة"[1].

---

[1]أمالي المرتضى ١: ٤٣: ٤٤ ثم ٤٧٤، من قصيدة رواها وشرحها، وخزانة الأدب ١: ٤٦٨، وصواب رواية البيت الأول: (جارتى الخدر)، لأن قبله: ما ضر جارى إذ أجاوره أن لا يكون لبيته ستر، ورواية الشطر الثاني: (سمعى، وما بى غيره وقر)، بغير إقواء.

[2] انظر: تفسير القرطبي:٢١٥/١، ٣٢٤/٧.[بتصرف]

[3] التفسير الميسر:١٧٤.

[4] أخرجه الطبري(١٥٤٥٠):ص٢٨٠/١٣.

[5] تفسير الطبري:٢٨١/١٣.

[6]وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما أخرجه أحمد والحاكم عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي، قال: فقال قائل: يا رسول الله: فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر". (انظر المسند ١٨٦/٤، والمستدرك ٣١/١، وقال الحاكم بعد روايته: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي، وانظر مجمع الزوائد ١٨٥/٧، ١٨٦، وقال الألباني القدر وحديث القبضتين حق. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الأول ص٧٦).

[7]عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع برزقه وأجله وشقي أو سعيد، فوالله إن أحدكم، أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع، أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع، أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها". (انظر البخاري كتاب القدر باب ١ ج٧/ ٢١٠، ومسلم كتاب القدر باب ١ ج٢٠٣٦/٤، ومسند أحمد ٣٨٢/١، ٤٣٠).

[8]الحديث أخرجه الترمذي من رواية علي بن أبي طالب بهذا اللفظ، وقال عقبه: "هذا حديث حسن صحيح، وأخرج نحوه من حديث عمر وقال عقبه: وفي الباب عن علي وحذيفة بن أسيد وأنس وعمران بن حصين". (انظر سننه ٤٤٥/٤، وانظر البخاري كتاب التوحيد باب ٥٤ ج٨/ ٢١٥، وكتاب القدر باب ٤ ج٧/ ٢١٢، ومسند أحمد ٢٩/١، ٥٢) .

وقد ورد في معنى هذا الحديث أحاديث كثيرة، وكلها تفيد تقدم علم الله وكتابته للأشياء قبل كونها، وأن ذلك لا

٢- من فوائد الآية: أن هؤلاء المشركين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا.
٣- ومنها: أنهم لا يبصرون الحق. كالأعمى.
٤- ومن الفوائد: أن محل الإرادة والتدبير للبدن هو القلب، قال تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٧٩].
٥- ومنها: أن المخلوقين لجهنم ليسوا مخلوقين للعبادة، لأن المخلوقين للعبادة هم الذين سبقت لهم الحسنى بالسعادة وقد قال الله تعالى فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء : ١٠١].

القرآن

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)} [الأعراف : ١٨٠]

التفسير:

ولله سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى، الدالة على كمال عظمته، وكل أسمائه حسن، فاطلبوا منه بأسمائه ما تريدون، واتركوا الذين يُغيِّرون في أسمائه بالزيادة أو النقصان أو التحريف، كأن يُسمَّى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها آلهتهم، أو أن يجعل لها معنى لم يُرِدْه الله ولا رسوله، فسوف يجزون جزاء أعمالهم السيئة التي كانوا يعملونها في الدنيا من الكفر بالله، والإلحاد في أسمائه وتكذيب رسوله.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف : ١٨٠]، أي:" ولله سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى، الدالة على كمال عظمته، وكل أسمائه حسن، فاطلبوا منه بأسمائه ما تريدون"[٢].

عن ابن عباس: "{ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}، ومن أسمائه: «العزيز الجبار»، وكل أسمائه حسن"[٣].

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال:«إن لله تسعة، وتسعين اسما، من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر» . وفي رواية: «من أحصاها» .

وفي أخرى: «لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» .

قال البخاري: «أحصاها: حفظها» ، وفي رواية لمسلم نحوه، وليس فيه ذكر "الوتر"، هذه رواية البخاري، ومسلم[٤].

وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله - ﷺ-: «إن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة ، هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلهَ إلا هو: الرَّحْمنُ، الرَّحِيمُ، المَلِكُ، القُدُّوسُ، السَّلامُ، المُؤمِنُ، المُهَيْمِنُ، العَزِيزُ، الجَبَّارُ، المُتَكَبِّرُ، الخَالِقُ، البَارِئُ، المُصَوِّرُ، الغَفَّارُ، القَهَّارُ، الوهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الفَتَّاحُ، العَلِيمُ، القابضُ، البَاسِطُ، الخَافِضُ، الرَّافِعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، السَّمِيعُ، البصيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللَّطِيفُ، الخَبيْرُ، الحليمُ، العَظيمُ، الغَفُورُ، الشَّكُورُ، العَليُّ، الكَبيرُ، الحَفِيظُ، المُقِيتُ، الحَسِيبُ، الجَليلُ، الكريمُ، الرَّقِيبُ، المُجيبُ، الْوَاسِعُ، الحَكيمُ، الْوَدُودُ، المَجيدُ، البَاعِثُ، الشَّهيدُ، الحَقُّ، الْوَكِيلُ، القَويُّ، المَتِينُ، الْوَليُّ، الحَميدُ، المُحصي، المُبدىءُ، المُعيدُ، المُحْيي،

ينافي وجود الأعمال التي يقوم بها العبد فتحصل بسببها السعادة، أو الشقاوة، ولذلك نهي عن الاتكال وترك العمل. (انظر ذلك بتفصيل في مجموع الفتاوى ٢٧٢/٨- ٢٨٠).

(١) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب:١٤١، الإجماع السابع عشر.

(٢) التفسير الميسر:١٧٤.

(٣) أخرجه الطبري(١٥٤٥١):ص٢٨١/١٣.

(٤)رواه البخاري برقم (٦٤١٠) في الدعوات، باب لله عز وجل مائة اسم غير واحد، ومسلم رقم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها..

المُميتُ، الحَيُّ، القَيُّومُ، الْوَاجِدُ، الماجد، الوَاحِدُ، الأحَدُ، الصَّمَدُ، القَادِرُ، المُقْتَدِرُ، المُقَدِّمُ، المُؤخِّر، الأوَّلُ، الآخرُ، الظَّاهِرُ، البَاطِنُ، الوالي، المُتعالِ، البَرُّ، التَّوَّابُ، المُنتَقِمُ، العَفُوُّ، الرَّؤوفُ، مَالِكُ المُلْكِ، ذُو الجَلالِ والإكرَامِ، المُقْسِطُ، الجَامِعُ، الغَنيُّ، المُغني، المَانِعُ، الضَّارُ، النَّافِعُ، النُّورُ، الهادي، البَديعُ، البَاقي، الوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ»[1].

قال ابن كثير:" والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني ، عن زهير بن محمد : أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي : أنهم جمعوها من القرآن كما رود عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي ، والله أعلم.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده ، عن يزيد بن هارون ، عن فضيل بن مرزوق ، عن أبي سلمة الجهني ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا". فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : "بلى ، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»[2].

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه : «الأحوذي في شرح الترمذي»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم ، فالله أعلم"[3].

---

[1] وقال الترمذي: وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح، أقول: رواه الترمذي رقم (٣٥٠٢) من حديث صفوان بن صالح قال: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وقال: حديث غريب، ورواه ابن حبان في صحيحه رقم (٢٣٨٢) موارد الظمآن من طريق صفوان به، وأخرجه ابن ماجة رقم (٣٨٦١) في الدعاء، باب أسماء الله عز وجل، من طريق أخرى عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا بنحو مما تقدم بزيادة ونقصان، قال البوصيري في " الزوائد ": لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من هذا الوجه ولا غيره، غير ابن ماجة [ص:١٧٥] والترمذي مع تقديم وتأخير، وطريق الترمذي أصح شيء في الباب، وفي إسناد طريق ابن ماجة ضعف لضعف عبد الملك بن محمد الصنعاني، وقال الحافظ في " تخريج الأذكار ": وهذان الطريقان يرجعان إلى رواية الأعرج، وفيهما اختلاف شديد في سرد الأسماء، وزيادة ونقص، ووقع سرد الأسماء في رواية ثالثة أخرجها الحاكم في " المستدرك " وجعفر الفريابي في " الذكر " من طريق عبد العزيز بن الحصين (يعني ابن الترجمان) عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، قال الحاكم بعد تخريج الحديث من طريق صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم الطريق التي أخرجه الترمذي بلفظه سواه: أخرجاه في الصحيح بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسماء فيه، ولعله عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقه وبطوله وذكر الأسماء فيه، ولم يذكره غيره لمسلم، نعم أكثرها في القرآن، ومنها ما ورد فيه الفعل أو المصدر دون الاسم، ومنها ما ليس في القرآن لا بنفسه ولا بورود فعله كالقديم والجميل ونحوهما. اهـ. وقال ابن كثير في التفسير: والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن كما روى جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبو زيد اللغوي، والله أعلم.

أقول: ومع ذلك كله فقد ذكر الحديث ابن حبان في صحيحه، وحسنه النووي في أذكاره.

[2] الحديث في مسند أحمد جـ ٥ برقم ٣٧١٢ وقال الشيخ أحمد شاكر في تخريجه: "إسناده صحيح، وهو في مجمع الزوائد ١٠: ١٣٦. ونسبه لأحمد وأبي يعلى والبزار، وقال: ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان" وانتهى الشيخ شاكر من بحثه إلى توثيق أبي سلمة، وسلامة الحديث من إرسال عبد الرحمن عن أبيه. كما صحح الحديث الشيخ ناصر الألباني وأشبع فيه القول برقم ١٩٨ من الأحاديث الصحيحة له. وهو في الموارد (٢٣٧٢) وفي المستدرك (١/ ٥٠٩).

[3] تفسير ابن كثير:٥١٥/٣.

قوله تعالى:{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف : ١٨٠]، أي:" واتركوا الذين يُغيِّرون في أسمائه بالزيادة أو النقصان أو التحريف، كأن يُسمَّى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها آلهتهم، أو أن يجعل لها معنى لم يُرِدْه الله ولا رسوله"[١].

قال الطبري:" وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو «الله»، وسموا بعضها «العُزَّى» اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو «العزيز»"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف : ١٨٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها : معناه: يكذبون ، قاله ابن عباس[٣].

والثاني : يشركون ، قاله قتادة[٤].

والثالث : يحوّرون ، حكاه الماوردي عن الأخفش[٥].

والرابع: معناه: يجورون عن الحق ويعدلون. قاله أبو عبيدة[٦]، وابن قتيبة[٧].

والخامس: يدخلون فيها ما ليس منها. قاله الأعمش[٨].

وأصل "الإلحاد" في كلام العرب: العدول عن القصد، والجورُ عنه، والإعراض. ثم يستعمل في كل معوَجّ غير مستقيم، ولذلك قيل للحْد القبر: "لحد"، لأنه في ناحية منه، وليس في وسطه[٩].

وفي إلحادهم فيها، قولان :

أحدهما : اشتقاقهم آلهتهم من أسماء الله ، كما سموا بعضها باللات اشتقاقاً من الله ، وبعضها بالعزى اشتقاقاً من العزيز ، قاله ابن عباس[١٠]، ومجاهد[١١].

قال ابن عباس:" إلحاد الملحدين: أن دعوا «اللات» في أسماء الله"[١٢].

قال مجاهد:" اشتقوا «العزى» من «العزيز»، واشتقوا «اللات» من «الله»"[١٣].

والثاني : تسميتهم الأوثان آلهة والله عز وجل أبا المسيح وعزير[١٤].

وقرئ: «يَلْحَدُونَ»، بفتح الياء والحاء من: "لَحَد يَلْحَدُ"[١٥].

قوله تعالى:{سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف : ١٨٠]، أي:" ينالون جزاء ما عملوا في الآخرة"[١٦].

وفي حكم الآية قولان:

أحدهما انها محكمة. ومعناها تهديد لهم وهذا لا ينسخ. وهذا قول الجمهور[١٧].

والثاني: أنهما منسوخة، نسخها الأمر بالقتال. وهذا قول ابن زيد[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٤.

[٢] تفسير الطبري:٢٨٢/١٣.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٥٥):ص٢٨٣/١٣.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٥٦):ص٢٨٣/١٣.

[٥] انظر: النكت والعيون:٢٨٢/٢. ولم أقف عليه في معاني القرآن.

[٦] انظر: مجاز القرآن:٢٣٣/١.

[٧] انظر: غريب القرآن:١٧٥.

[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٥٨٧):ص١٦٢٣/٥.

[٩] انظر: تفسير الطبري:٢٨٣/١٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٥٣):ص٢٨٢/١٣.

[١١]انظر: تفسير الطبري(١٥٤٥٤):ص٢٨٣/١٣.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٤٥٣):ص٢٨٢/١٣.

[١٣] أخرجه الطبري(١٥٤٥٤):ص٢٨٣/١٣.

[١٤] انظر: النكت والعيون:٢٨٢/٢.

[١٥] انظر: السبعة في القراءات: ٢٩٨، وتفسيرر الطبري:٢٨٤/١٣.

[١٦] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.

[١٧]انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٤٤١/٢، ذكر المؤلف في مختصر عمدة الراسخ نفس ما ذكره هنا. وعزا قول الإحكام في تفسيره٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤ إلى الجمهور.

قال ابن زيد:" هؤلاء أهل الكفر، وقد نُسِخ، نَسَخه القتال"[٢].

قال الطبري:" ولا معنى لما قال ابن زيد في ذلك من أنه منسوخ، لأن قوله: {وذروا الذين يلحدون في أسمائه}، ليس بأمر من الله لنبيّه ﷺ بترك المشركين أن يقولوا ذلك، حتى يأذن له في قِتالهم، وإنما هو تهديدٌ من الله للملحدين في أسمائه، ووعيدٌ منه لهم، كما قال في موضع آخر: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحجر: ٣] الآية، وكقوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت: ٦٦] وهو كلام خرج مخرج الأمر بمعنى الوعيد والتهديد، ومعناه: أنْ مَهِّل الذين يلحدون، يا محمد، في أسماء الله إلى أجل هم بالغوه، فسوف يجزون، إذا جاءهم أجل الله الذي أجلهم إليه، جزاءَ أعمالهم التي كانوا يعملونها قبل ذلك من الكفر بالله، والإلحاد في أسمائه، وتكذيب رسوله"[٣].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن أسماء الله تعالى كل ما سمى به نفسه في كتابة، أو سماه به أعلم الخلق به رسوله محمد، ﷺ.

وموقف أهل السنة من هذه الأسماء أنهم يؤمنون بها على أنها أسماء لله تسمى بها الله عزوجل، وأنها أسماء حسنى ليس فيها نقص بوجه من الوجوه

٢- ومنها: التوسل بأسماء الله وصفاته، لقوله تبارك وتعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، فهو أمر منه سبحانه بأن نتوسل إليه بأسمائه الحسنى في جملة التوسلات المشروعة كما يكون دعاؤنا إليه أقرب للإجابة ولا شك في أن ما يصح في الأسماء يصح كذلك في الصفات لأن الأسماء مشتقة من الصفات غالباً ... ولا يعقل أن تكون أسماء وصفات لغير ذلت. إذا .. فيكون المتكلم القائل: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ...) هو ذات الله تبارك وتعالى وتقدس.

وعلى هذا تكون هذه الآية من حيث الحض على التوسل بأسماء الله الحسنى شاملة أيضاً الحض على التوسل بالصفات العلى والذات العلية لأن هذا النوع من التوسل من أعلى أنواع التوسل المشروع وأقرب أسباب الإجابة لدعاء الداعي فجلت وعزت ذاته عن ذوات المخلوقين وتعالت أسماؤه وتنزهت عن أسماء المخلوقين وتقدست صفاته وتسامت عن صفات المخلوقين: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى : ١١] .

ولقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول في تشهده: " اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قد غفر له قد غفر له قد غفر له "[٤].

٣- ومنها: ذم الملحدين في أسمائه وآياته.

٤- بيان أن الإلحاد في أسمائه-تعالى- المشار إليه في الآية، هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادة - ل ح د، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان، إذا عدل إليه، فالإلحاد في أسمائه - تعالى - أنواع:

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٥٧):ص٢٨٤/١٣، وذكره مكي بن أبي طالب في الإيضاح ص: ٣٥٣ عن ابن زيد.

[٢] أخرجه الطبري(١٥٤٥٧):ص٢٨٤/١٣.

[٣] تفسير الطبري:٢٨٥/١٣.

[٤]رواه النسائي (٣ / ٥٢) وغيره عن مِحْجَن بن أذرع الأسلمي وانظر سنن أبي داود (١٤٩٣) وإسناده صحيح كما في " التوسل أنواعه وأحكامه " (ص ٢٩) . وكان من أدعيته صلى الله عليه وسلم " يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث " رواه الحاكم (١ / ٥٠٩) وحسّن إسناده شيخنا في " التوسل " (ص ٣٠).

أحدها: أن تسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.
الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.
والثالث : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود إنه فقير، وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.
ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول الجهمية ومن تبعهم: إن أسماءه - تعالى - ألفاظ مجردة، لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم، والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلا ولغة وشرعا وفطرة، وهو مقابل لإلحاد المشركين.
وخامسها : تشبيه صفاته - تعالى - بصفات خلقه، فهو إلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، تعالى الله عن إلحادهم علوا كبيرا، وبرأ الله أتباع رسوله وورثة نبيه القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ووصفه به نبيه، فأثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئا من التمثيل، وتنزيههم خليا عن التعطيل، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل[١].

القرآن
{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)} [الأعراف : ١٨١]
التفسير:
ومن الذين خَلَقْنا جماعة فاضلة يهتدون بالحق ويَدْعون إليه، وبه يقضون وينصفون الناس، وهم أئمة الهدى ممن أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح.
قوله تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا} [الأعراف : ١٨١]، أي:" ومن بعض الأمم التي خلقنا"[٢].
قال ابن كثير:" أي : ومن الأمم"[٣].
قال الطبري:يقول:" ومن الخلق الذين خلقنا "[٤].
قوله تعالى: {أُمَّةٌ يَهْدُونَ} [الأعراف : ١٨١]، أي:"أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق"[٥].
قال الطبري:" يعني جماعة يهتدون بالحق"[٦].
قال ابن كثير:أي:" قائمة بالحق ، قولا وعملا، { يَهْدُونَ بِالْحَقِّ } يقولونه ويدعون إليه"[٧].
قوله تعالى: {وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف : ١٨١]، أي:" وبه يعملون ويقضون"[٨].
قال الطبري:" يقول: وبالحق يقضُون ويُنصفون الناس"[٩].

---
[١] انظر: لوامع الأنوار البهية:١٢٨/١، لخصه من كتاب البدائع.
[٢] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.
[٣] تفسير ابن كثير:٥١٦/٣.
[٤] تفسير الطبري:٢٨٥/١٣.
[٥] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.
[٦] تفسير الطبري:٢٨٥/١٣.
[٧] تفسير ابن كثير:٥١٦/٣.
[٨] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.
[٩] تفسير الطبري:٢٨٥/١٣.

قال ابن كثير:أي:" يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار : أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية ، هي هذه الأمة المحمدية"[١].

قال القرطبي:" وقيل: هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه السلام من أهل الكتاب. وقيل: هم قوم من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء"[٢].

عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة - وفي رواية - : حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك - وفي رواية - : وهم بالشام"[٣].

وعن ابن جريج، قوله: "{أمة يهتدون بالحق وبه يعدلون}، قال ابن جريج: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: هذه أمتي! قال: بالحق يأخُذون ويعطون ويَقْضُون"[٤].

وعن قتادة، قوله: "{وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها: هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلَها: (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) ، [سورة الأعراف: ١٥٩] "[٥].

عن الربيع بن أنس في قوله: "{وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: قال النبي ﷺ: إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى أنزل"[٦].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن كل طائفة من اليهود والنصارى لا بد أن يوجد فيها من آمن بكتابه وعمل بسنته -ﷺ-، وقد روي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: "أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران"[٧].

٢- ومنها: أن الحق في جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة وإنما عرفنا هذا بالسمع، وعنه أخبر التنزيل في قوله عز وجل: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[٨].

وأخبر النبي عليه السلام: تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهن فى النار إلا واحدة ما أنا عليه اليوم وأصحابى"[٩].

وقال عليه السلام: " لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك"[١٠].

القرآن

---

[١] تفسير ابن كثير:٥١٦/٣.

[٢] تفسير القرطبي:٣٠٢/٧.

[٣]صحيح البخاري برقم (٣٦٤١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).

[٤] أخرجه الطبري(١٥٤٤٥٩):ص٢٨٥/١٣-٢٨٦.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٤٤٦٠):ص٢٨٦/١٣.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٥٨٩):ص١٦٢٣/٥.

[٧]أخرجه البخاري في الصحيح (٣٤٤٦، ٣٠١١، ٢٥٥١، ٢٥٤٧، ٢٥٤٤، ٥٠٨٣٩٧)، وفي الأدب المفرد (٢٠٣)، ومسلم (١٥٤ و١٦٦٦)، وأبو داود الطيالسي في المسند (٥٠٢)، والحميدي في المسند (٧٦٨)، وأحمد في المسند (٤ ٣٩٥ و٤١٤)، والدارمي (٢٢٤٤)، وابن ماجه (١٩٥٦)، وأبو داود (٢٠٥٣)، والترمذي (١١١٦)، والنسائي (٣٣٤٤)، وأبي يعلى (٧٢٥٦)، وابن حبان (٢٢٧ و٤٠٥٣)، والطبراني في الصغير (١١٣) وفي الأوسط (١٨٨٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٥١٦ و١٥١٧).

[٨] انظر: الملل والنحل:١١/١.

[٩]أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١٣٧/٥، رقم ٤٨٨٦) ، وأخرجه أيضا: فى الصغير (٢٩/٢، رقم ٧٢٤) ، قال الهيثمى (١٨٩/١) : فيه عبد الله بن سفيان. قال العقيلى: لا يتابع على حديثه هذا وقد ذكره ابن حبان فى الثقات. والضياء (٢٧٧/٧، رقم ٢٧٣٣).

[١٠]أخرجه مسلم (١٥٢٣/٣، رقم ١٩٢٠) ، والترمذى (٥٠٤/٤، رقم ٢٢٢٩) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٥/١، رقم ١٠).

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)} [الأعراف : ١٨٢]

التفسير:

والذين كذَّبوا بآياتنا، فجحدوها، ولم يتذكروا بها، سنفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، استدراجًا لهم حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، ثم نعاقبهم على غِرَّة من حيث لا يعلمون. وهذه عقوبة من الله على التكذيب بحجج الله وآياته.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف : ١٨٢]، أي:" والذين كذَّبوا بآياتنا، فجحدوها، ولم يتذكروا بها"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بأدلتنا وأعلامِنا، فجحدوها ولم يتذكروا بها"[٢].

قال السعدي:" أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، من الهدى فردوها ولم يقبلوها"[٣].

قوله تعالى:{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف : ١٨٢]، أي:" سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك نم حيث لا يشعرون"[٤].

قال الطبري:يقول:" سنمهله بغِرَّته ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه فيما هو عليه من تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغايةَ التي كُتِبَتْ له من المَهَل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعدَّ له. وذلك استدراج الله إياه"[٥].

قال ابن كثير:" معناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا ، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء ، كما قال تعالى : { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥]"[٦].

قال التستري:" يعني: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا سكنوا وحجبوا عن المنعم أخذوا"[٧].

قال الكلبي: "نزين لهم أعمالهم فنهلكهم"[٨].

وقال الضحاك: "كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة"[٩].

وقال عطاء: "سنمكر بهم من حيث لا يعلمون"[١٠].

قال سفيان الثوري: "نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر"[١١].

وقال الخليل بن أحمد: سنطوي وإن أعمارهم في اغترار منهم"[١٢].

قال السعدي:" بأن يدر لهم الأرزاق"[١٣].

قال البغوي:" قيل: نأتيهم من مأمنهم، كما قال: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} [الحشر : ٢]"[١٤].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٤.

[٢] تفسير الطبري:٢٨٦/١٣.

[٣] تفسير السعدي:٣١٠.

[٤] صفوة التفاسير:٤٤٨/١.

[٥] تفسير الطبري:٢٨٦/١٣-٢٨٧.

[٦] تفسير ابن كثير:٥١٦/٣.

[٧] تفسير التستري:٧٠.

[٨] انظر: تفسير الثعلبي:٣١٢/٤، وزاد المسير:٢٠١/٣.

[٩] انظر: تفسير الثعلبي:٣١٢/٤، وزاد المسير:٢٠١/٣.

[١٠] انظر: تفسير البغوي:٣٠٨/٣.

[١١] انظر: تفسير البغوي:٣٠٨/٣.

[١٢] انظر: تفسير الثعلبي:٣١٢/٤، وزاد المسير:٢٠١/٣.

[١٣] تفسير السعدي:٣١٠.

[١٤] تفسير البغوي:٣٠٨/٣.

قال الشوكاني:" أي: سنستدنيهم إلى إهلاكهم بتوافر النعم وتزايدها عليهم ليزدادوا بطرًا وغفلة حتى يهلكهم الله وهم في أشدّ الغفلة... {مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} أي: من المكان الذي لا يعلمون أنّا سنستدرجهم، بل هم يظنون أن تلك النعم مسابقة لهم في الخيرات، وأنهم ينالون بعد ذلك أحسن منه، كما قال جل وعلا: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَ يَشْعُرُونَ (٥٦)} [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦]"[١].

قال الزمخشري:" ومعنى{سنستدرجهم}: سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغى، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه"[٢].

قال السمعاني:" قال الأزهري: الاستدراج: هو الأخذ قليلا قليلا، ومنه درج الكتاب، وقيل: الاستدراج من الله هو أن العبد كلما ازداد معصية زاده الله - تعالى - نعمة، وقيل: هو أن يكثر عليه النعم وينسيه الشكر، ثم يأخذه بغتة؛ فهذا هو الاستدراج من حيث لا يعلمون"[٣].

قال الماوردي: {من حيث}" لا يعلمون بالاستدراج، أو لا يعلمون بالهلكة، و«الاستدراج» أن تنطوي على حالة منزلة بعد منزلة"[٤].

وأصل "الاستدراج": اغترارُ المستدرَج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا[٥].

و«الاستدراج»: استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة، قال الأعشى[٦]:

لئنْ كُنتَ في جُبٍّ ثمانينَ قَامةً ورُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بسُلَّمِ
ليسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتى تَهرَّهُ وتَعْلَمَ أني عنكُم غير مُفْحَم
وتَشْرق بالأمرِ الذي قد أَذَعْتَه كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ

فقوله: «ليستدرجنك القول» أي: لينزلنك درجة درجة حتى ترى ما تكرهه

ومنه: درج الصبى، إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب: طواه شيئا بعد شيء. ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض [٧].

وفي اشتقاق«الاستدراج»، قولان [٨]:

أحدهما : أنه مشتق من الدرج لانطوائه على شيء بعد شيء .

والثاني : أنه مشتق من الدرجة لانحطاطه من منزلة بعد منزلة.

قال الثعلبي:" قال أهل المعاني: الاستدراج أن ندرج إلى الشيء في خفية قليلا قليلا ولا يباغت ولا يجاهر. يقال: استدرج فلانا حتى تعرف ما صنع أي لا يجاهر ولا يهجم عليه، قال: ولكن استخرج ما عنده قليلا قليلا وأصله من [الدرج] وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة فاستعير [هذا عنه] . ومنه: الكتاب إذا طوى شيئا بعد شيء، ودرج القوم إذا مات بعضهم في دار بعض، ودرج الصبي إذا قارب من خطاه في المشي"[٩].

---

[١] فتح القدير:٣٦٣/٤-٣٦٤.
[٢] الكشاف:١٨٢/٢.
[٣] تفسير السمعاني:٢٣٦/٢.
[٤] النكت والعيون:٢٨٣/٢.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٢٨٧/١٣.
[٦]ديوان الأعشى ص١٨٣.
[٧] انظر: الكشاف:١٨٢/٢، وفتح القدير للشوكاني:٣٦٣/٤.
[٨] انظر: النكت والعيون:٢٨٣/٢.
[٩] تفسير الثعلبي:٣١٢/٤.

قال القرطبي:" قيل لذي النون: ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات، لذلك قال سبحانه وتعالى:{سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر، وأنشدوا[(١)]:

أَحسنتَ ظنَّك بالأيَّام إذْ حَسُنت   ولم تخَفْ سُوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسالَمَتْكَ اللَّيالى فاغتررتَ بها   وعند صفْو الليالى يحدُث الكَدَرُ"[(٢)]

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: عظم خطر التكذيب بالقرآن الكريم حتى أن المكذب ليستدرج حتى يهلك وهو لا يعلم.

٢- ومن الفوائد: أن مكر الله كله محمود، وعدل، وحكمة، هو تعالى يمكر بالكافرين مكرا حقيقيا، ويدبر تدبيرا خفيا، يوصل به العقاب من حيث يُظن الإنعام، وشاهد هذا قوله تعالى {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} [(١٨٢) سورة الأعراف] الاستدراج هذا هو المكر، وقال تعالى: وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران] إملاء الله للكافرين هو من مكره بهم، {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} مما يشتهونه، ويفرحون به {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} أليس هذا مكرا؟

يفتح الله عليهم أبواب المسرات، والنعم، والخيرات، ويصب عليهم ما يشتهون حتى إذا فرحوا بما أوتوا أحل بهم النقمة {أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٤٤ - ٤٥) سورة الأنعام] إي والله مكر، والآن ما تتمتع به أمم الكفر من الحضارة القائمة، والرقي والتقدم المادي، والسلطان والقوة على سائر أمم الأرض، هذا ـ والله ـ من مكر الله بهذه الأمم الطاغية، فهم يعيشون في مكر من الله، فهذه الفتوح المادية أدت بهم إلى الاغترار، والزهو، والغطرسة، والكبرياء، والتسلط، والظلم .. هل انتفعوا بهذه الحضارة؟

لا والله، بل ازدادوا بها إثما، "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"[(٣)].

فالواجب على المسلمين ألا يغتروا بما يعيشه الكفار من مظاهر عز، وتقدم، ورقي، وعلوم، ومعارف، وعلى المسلمين أن يسعوا فيما ينفعهم، لكن من غير أن يعجبوا بالكفار، أو يعظموهم، أو يسيروا في ركابهم، أو يقلدوهم في التوافه، وفيما يضر، ولا ينفع.

المقصود أن هذا من مكر الله، ومن مكر الله بالمنافقين أن شرع قبول علانيتهم، فمن أظهر الإيمان، وأبطن الكفر، فقد أمر الله أن نقبل علانيته، ونترك سريرته، فيظن المنافق أن نفاقه قد راج على الله، وأنه بهذا قد خدع الله {يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ٩][(٤)].

٣- ومن فوائد الآية أن البأساء والضراء، وما يقابلهما من السراء والنعماء مما يتربى ويتهذب به الموفقون من الناس، وإلا كانت النعم أشد وبالا عليهم من النقم وهذا ثابت بالاختبار، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن .

قال الحسن البصري: "من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له. ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم

---

(١) لم اتعرف على القائل، والبيتان في لطائف الإشارات للقشيري:٦٣١/١، وتفسير القرطبي: ٣٢٩/٧، وبصائر وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي:٥٤٥/٣، وغيرها.

(٢) تفسير القرطبي:٣٢٩/٧.

(٣)رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -.

(٤) انظر: توضيح مقاصد العقيدة الواسطية:٩٢-٩٣.

أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون} قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا"[١].

عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره:" { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}[٢]، قال: رخاء الدنيا ويُسْرها، على القرون الأولى"[٣].

وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد على معاصيه ما يحب فاعلم أن ما هو استدراك». رواه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر. وهذا معنى المكر والخديعة ونحو ذلك. ذكره ابن جريرٍ بمعناه.

القرآن

{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)} [الأعراف : ١٨٣]

التفسير:

وأمهل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون، فيزدادوا كفرًا وطغيانًا، وبذلك يتضاعف لهم العذاب. إن كيدي متين، أي: قوي شديد لا يُدْفع بقوة ولا بحيلة.

قوله تعالى:{وَأُمْلِي لَهُمْ} [الأعراف : ١٨٣]، أي:" وأمهل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون، فيزدادوا كفرًا وطغيانًا، وبذلك يتضاعف لهم العذاب"[٤].

قال السمعاني:" أي: أمهل لهم وأؤخر لهم"[٥].

قال ابن كثير:" أي : وسأملي لهم ، أطول لهم ما هم فيه "[٦].

قال القرطبي:" أي: أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم"[٧].

قال البغوي:" أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي"[٨].

قال السعدي:" أي: أُمْهِلُهُم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرا وطغيانا، وشرا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون"[٩].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأُؤخر هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا، ليبلغوا بمعصيتهم ربهم، المقدارَ الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب ثم يقبضهم إليه..وأصل «الإملاء»: من قولهم: مضى عليه مليٌّ، ومِلاوَة ومُلاوَة، ومَلاوة- بالكسر والضم والفتح- من الدهر، وهي الحين، ومنه قيل: انتظرتُك مليًّا"[١٠].

قال الثعلبي:" يعني: أمهلهم وأطيل من الملاواة وهو الدهر، ومنه مليت أي غشت دهرا"[١١].

قال الشوكاني:" عبّر في الفعل الأول بصيغة الجمع للتعظيم قال: {سَنَسْتَدْرِجُهُم} وعبّر في الثاني بهمزة المتكلم {وَأُمْلِي لَهُمْ} ومعنى قوله جل وعلا: {وَأُمْلِي لَهُمْ} أي: سأملي لهم، وأصل مادة (أملى): وأملى يملي أصلها من (المَلاَوَة) بالواو، فلام المادة: واو. والمَلاَوَة: الزمن. ومعنى {وَأُمْلِي لَهُمْ}: أُؤَخِّرهم وأمهلهم مَلاَوَة، أي: زمنًا غير قليل كما هو معروف، فالعرب

---

[١]رواه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير:٢٥٦/٣.

[٢][الأنعام : ٤٤].

[٣] أخرجه الطبري(١٣٢٢٨):ص٣٥٨/١١.

[٤] التفسير الميسر:١٧٤.

[٥] تفسير السمعاني:٢٣٦/٢.

[٦] تفسير ابن كثير:٥١٦/٣.

[٧] تفسير القرطبي:٣٢٩/٧.

[٨] تفسير البغوي:٣٠٨/٣.

[٩] تفسير السعدي:٣١٠.

[١٠] تفسير الطبري:٢٨٧/١٣-٢٨٨.

[١١] تفسير الثعلبي:٣١٢/٤.

تقول: «أمليت له» و «أملى له»: إذا أخَّره مَلاَوَة من الزمن، فأصل الياء مبدلة من واو، والمَلاَوَة: هي الزمن، ومنه قوله تعالى عن أبي إبراهيم: {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم: آية ٤٦] أصل إحدى الياءين واو. أي: زمنًا غير قصير. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المهلهل يرثي أخاه كليبًا[١]:

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجَبَالِ لِفَقْدِهِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ المُرْمِلاتُ مَلِيَّا

أي: مَلاَوَة من الزمن غير قليلة.

ومن هنا كانت العرب تقول لليل والنهار: المَلَوَانِ، ومنه قول تميم بن مقبل[٢]:

أَلاَ يا ديَارَ الحيّ بالسَّبُعَان أملَّ عليها بالبِلَى المَلَوَان

وتقول العرب: «مَلَوُ الليل والنهار» معناه: زمن الليل والنهار، ومنه قوله[٣]:

نَهارٌ ولَيْلٌ دائِمٌ مَلَواهُما على كُلِّ حالِ المَرءِ يَختَلِفَانِ

وتقول العرب: «تمليت العيش» و «تملى فلان العيش» أي: عاش في حياته مَلاَوَة من الزمن، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الأعلم بن جرادة السعدي -أو شاعر آخر من شعراء تيم، أعني تيم الرباب- قوله [٤]:

ألمْ ترَ ما لاقيتُ والدَّهر أعصرٌ ومن يَتَمَلَّ العيش يَرْأَى ويسمعُ

فقوله: {وَأُمْلِي لَهُمْ} أي: أُمهلهم وأُؤخرهم ملاوة من الزمن -والملاوة مثلثة الميم- أي: زمنًا غير قصير، وأنعم عليهم حتى يغتروا بتلك النعم فأُهلكهم وهم في أشد غفلة، هذا معنى: {وَأُمْلِي لَهُمْ}، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم» يعني: يمهله ويؤخره ملاوة من الزمن «حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا رسول الله ﷺ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}"[٥] [هود: آية ١٠٢]"[٦].

قوله تعالى:{إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف : ١٨٣]، أي:"إن أخذي وعقابي قوي شديد"[٧].

قال ابن عباس: "إن مكري شديد"[٨].

قال ابن كثير:" أي : قوي شديد"[٩].

قال السعدي:" أي: قوي بليغ"[١٠].

قال البغوي:" أي: إن أخذي قوي شديد"[١١].

قال الثعلبي:" أي: أخذي قوي مديد، [قيل: نزلت]: في المستهزئين، فقتلهم الله في ليلة واحدة"[١٢].

---

(١) البيت في القرطبي (١١/ ١١١)، البحر المحيط (٦/ ١٩٥)، الدر المصون (٧/ ٦٠٦). وشطره الأول: «فتصدعت صم الجبال لموته».

(٢) البيت في الطبري (٧/ ٤٢١)، اللسان (مادة: ملا) (٣/ ٥٣٢).

(٣) البيت في اللسان، مادة: "ملا:ص (٣/ ٥٣٢).

(٤) البيت في المحتسب (١/ ١٢٩).

(٥) أخرجه البخارى (١٧٢٦/٤، رقم ٤٤٠٩) ، ومسلم (١٩٩٧/٤، رقم ٢٥٨٣) ، والترمذى (٢٨٨/٥، رقم ٣١١٠) وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه (١٣٣٢/٢، رقم ٤٠١٨) . وأخرجه أيضا: النسائى فى الكبرى (٣٦٥/٦، رقم١١٢٤٥) ، والبيهقى (٩٤/٦، رقم ١١٢٨٧) ، والبزار (١٦٢/٨، رقم ٣١٨٣) ، وأبو يعلى (٣٠٧/١٣، رقم ٧٣٢٢).

(٦) فتح القدير:٣٦٤/٤-٣٦٦.

(٧) صفوة التفاسير:٤٤٨/١.

(٨) تفسير البغوي:٣٠٨/٣.

(٩) تفسير ابن كثير:٥١٦/٣.

(١٠) تفسير السعدي:٣١٠.

(١١) تفسير البغوي:٣٠٨/٣.

(١٢) تفسير الثعلبي:٣١٢/٤، وانظر: تفسير البغوي:٣٠٨/٣

قال القرطبي:" أي شديد قوي. وأصله من المتن، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب. قيل: نزلت في المستهزئين من قريش قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة. نظيره: {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً} [الأنعام : ٤٤]"(١).

قال الزمخشري:" سماه «كيدا»، لأنه شبيه بالكيد، من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان"(٢).

قال الطبري:" «الكيد»: هو المكر، وقوله: {متين}، يعني: قويٌّ شديدٌ، ومنه قول الشاعر(٣):

عدلن عدول الناس وأقبح   يَبْتَلِي أَفَانِينَ مِنْ أُلْهُوبِ شَدٍّ مُمَاتِنِ

يعني: سيرًا شديدًا باقيًا لا ينقطع"(٤).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "إن الله سبحانه وتعالى يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غِرّة، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قُبْحَ فيه فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة"(٥).

في حكم الآية قولان:

أحدهما: أنهما محكمة، والمراد بكيده: مجازاة أهل الكيد، والمكر، وهذه خبر.

والثاني: أن معنى الآية الأمر للنبي ﷺ بمتاركتهم، ونسخ معناها بآية السيف(٦).

قال ابن الجوزي:" وهذا قول لا يلتفت إليه"(٧).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للجاحدين بآياته حتى يزدادوا كفرا وطغيانا، فيتضاعف لهم العذاب.

٢- ومن الفوائد: أن «الكيد لأعدائه» صفة فعلية خبرية ثابتة لله عز وجل بالكتاب، ولا يوصف به إلا مقيدا في مقابلة كيد المخلوق، قال تعالى: {كذلك كدنا ليوسف} [يوسف: ٧٦]، وقال تعالى: {إنهم يكيدون كيدا - وأكيد كيدا} [الطارق: ١٦]، وقوله: {وأملي لهم إن كيدي متين} [الأعراف: ١٨٣، القلم: ٤٥]

قال أبو إسحاق الحربي :" الكيد من الله خلافه من الناس، كما أن المكر منه خلافه من الناس"(٨)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رادا على من زعم أن في القرآن مجازا: "وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن؛ كلفظ: «المكر» و «الاستهزاء»، و«السخرية»؛ المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة؛ كانت ظلما له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله؛ كانت عدلا؛ كما قال تعالى: {كذلك كدنا ليوسف} ، فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: {لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا} ، وقال تعالى: {إنهم يكيدون كيدا - وأكيد كيدا}"(٩).

---

(١) تفسير القرطبي:٣٢٩/٧.

(٢) الكشاف:١٨٢/٢.

(٣) لم أعرف قائله، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره:٢٨٨/١٣.

(٤) تفسير الطبري:٢٨٨/١٣.

(٥)التبيان في أقسام القرآن:١٠٧-١٠٨.

(٦)عدها من المنسوخة هبة الله في ناسخه ص: ٤٧.

(٧) نواسخ القرآن:٤٤١/٢.

(٨)غريب الحديث:٩٤/١.

(٩)مجموع الفتاوى:١١١/٧.

وقال في "التدمرية":"وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: {ويمكرون ويمكر الله} ، وقال: {إنهم يكيدون كيدا - وأكيد كيدا} ، وليس المكر كالمكر ولا الكيد كالكيد"(¹) .

وقال الشيخ محمد خليل هراس في عند قوله تعالى: {ومكروا ومكر الله ... } ، وقوله: {إنهم يكيدون كيدا - وأكيد كيدا} ، قال رحمه الله: "تضمنت هذه الآيات إثبات صفتي المكر والكيد، وهما من صفات الفعل الاختيارية، ولكن لا ينبغي أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم، فيقال: ماكر، وكائد، بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين"(²).

القرآن

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)} [الأعراف : ١٨٤]

التفسير:

أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أنه ليس بمحمد جنون؟ ما هو إلا نذير لهم من عقاب الله على كفرهم به إن لم يؤمنوا، ناصح مبين.

سبب النزول:

عن قتادة؛ قال:" ذكر لنا أن نبي الله - ﷺ - كان على الصفا، فدعا قريشاً؛ فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً: يا بني فلان، يا بني فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون؛ بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح؛ فأنزل الله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}"(³). [ضعيف]

قوله تعالى:{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ} [الأعراف : ١٨٤]، أي:" أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أنه ليس بمحمد جنون؟"(⁴).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولَنا الذي أرسلناه إليهم، لا جنَّة به ولا خَبَل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟"(⁵).

قال القرطبي:"{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا} أي: فيما جاءهم به محمد ﷺ. والوقف على{يتفكروا}، حسن. ثم قال:{ما بصاحبهم من جنة}، رد لقولهم: { يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر : ٦]"(⁶).

قال ابن كثير:" يقول تعالى:{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا } هؤلاء المكذبون بآياتنا { مَا بِصَاحِبِهِمْ } يعني محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه { مِنْ جِنَّةٍ } أي : ليس به جنون ، بل هو رسول الله حقًا دعا إلى حق، أي : ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به ، كما قال تعالى : { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير : ٢٢] ، وقال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ : ٤٦] يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياما خالصا لله ، ليس فيه تعصب ولا عناد ، { مَثْنَى

(¹) التدمرية:٢٦.

(²)شرح الواسطية: ١٢٣. وانظر كلام ابن القيم في "مدارج السالكين: ٤١٥/٣، ومختصر الصواعق المرسلة: ٣٤-٣٢/٢.

(³)أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٤٦١):ص٢٨٩/١٣، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٢٤ رقم ٨٥٩٢) من طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦١٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

وقال الحافظ في "الكافي الشاف" (رقم ٤٢): "بإسناد صحيح إلى قتادة"..

(⁴) التفسير الميسر:١٧٤.

(⁵) تفسير الطبري:٢٨٩/١٣.

(⁶) تفسير ابن كثير:٣٣٠/٧.

وَفُرَادَى } أي : مجتمعين ومتفرقين ، { ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله : أبه جنون أم لا ؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك ، بان لكم وظهر أنه رسول الله حقًا وصدقًا"[١].

قال الزمخشري:" {ما بصاحبهم}: محمد ﷺ {من جنة} من جنون، وكانوا يقولون: شاعر مجنون"[٢].

قال السعدي:" أي: أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودله وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر. أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟ أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرءوف الرحيم؟"[٣].

قوله تعالى:{إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأعراف : ١٨٤]، أي:" ما هو إلا نذير لهم من عقاب الله على كفرهم به إن لم يؤمنوا، ناصح مبين"[٤].

قال الطبري: يعني:" ما هو إلا نذيرٌ ينذركم عقاب الله على كفركم به، إن لم تنيبوا إلى الإيمان به، ويعني بقوله: {مبين}، قد أبان لكم، أيها الناس، إنذارُه ما أنذركم به من بأس الله على كفركم به"[٥].

قال السعدي:" أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب"[٦].

الفوائد:

١- ابطال اتهام الرسول ﷺ بالجنون: إذ أن من الحرب النفسية التي شنها المشركون ضدّ الرسالة اتهامهم للنبي ﷺ بالجنون، وقد ذكر القرآن الكريم هذه المقالة عنهم، وكر عليها بالدحض والإبطال، كما أبطل غيرها من المقالات الباطلة، جاء ذلك في كثير من الآيات البينات، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}.

٢- ومن الفوائد أن العقل وسيلة النظر والاعتبار، فأمرهم تعالى بالتفكر، فقال: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ}.

القرآن

{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)} [الأعراف : ١٨٥]

التفسير:

أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله العظيم وسلطانه القاهر في السموات والأرض، وما خلق الله -جلَّ ثناؤه- من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، وينظروا في آجالهم التي عسى أن تكون قَرُبَتْ فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه؟ فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير القرآن يصدقون ويعملون؟

قوله تعالى:{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الأعراف : ١٨٥]، أي:" أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله العظيم وسلطانه القاهر في السموات والأرض وما خلق الله -جلَّ ثناؤه- من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به"[٧].

---

[١] تفسير ابن كثير:٥١٧/٣.
[٢] الكشاف:١٨٢/٢.
[٣] تفسير السعدي:٣١٠.
[٤] التفسير الميسر:١٧٤.
[٥] تفسير الطبري:٢٩٠/١٣.
[٦] تفسير السعدي:٣١٠.
[٧] التفسير الميسر:١٧٤.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمنْ لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان"(١).

قال ابن كثير:" يقول تعالى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا } - هؤلاء المكذبون بآياتنا - في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض ، وفيما خلق الله من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومِنْ فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة. والدين الخالص إلا له. فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه"(٢).

قال الزمخشري:أي:" نظر استدلال، {في ملكوت السماوات والأرض} فيما تدلان عليه من عظم الملك. و«الملكوت»: الملك العظيم، {وما خلق الله من شيء}، وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء، من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف"(٣).

قال القرطبي:" عجب من إعراضهم عن النظر في آياته، ليعرفوا كمال قدرته.. و«الملكوت» من أبنية المبالغة ومعناه: الملك العظيم"(٤).

قال السعدي:" فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال، {و} كذلك لينظروا إلى جميع {مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} فإن جميع أجزاء العالم، يدل أعظم دلالة على الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب"(٥).

قوله تعالى:{وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ} [الأعراف : ١٨٥]، أي:" وينظروا في آجالهم التي عسى أن تكون قَرُبَتْ فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه؟"(٦).

قال السعدي:" أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ، من استدراك الفارط"(٧).

قال الطبري:أي:" ويحذرُوا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه"(٨).

قال ابن كثير:أي: "ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه"(٩).

قال الزمخشري:" المعنى: أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ولعلهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم. قبل

(١) تفسير الطبري:٢٩٠/١٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٥١٧/٣.
(٣) الكشاف:١٨٢/٢.
(٤) تفسير القرطبي:٣٣٠/٧.
(٥) تفسير السعدي:٣١٠.
(٦) التفسير الميسر:١٧٤.
(٧) تفسير السعدي:٣١٠.
(٨) تفسير الطبري:٢٩٠/١٣.
(٩) تفسير ابن كثير:٥١٧/٣.

مغافصة الأجل[1] وحلول العقاب. ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن"[2].

قوله تعالى:{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : ١٨٥]، أي:" فبأي تخويف وتحذير بعد تحذير القرآن يصدقون ويعملون؟"[3].

قال الطبري:" يقول: فبأيّ تخويفٍ وتحذير ترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبِه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه، يصدِّقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى؟"[4].

قال ابن كثير:" يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه ، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه - يصدقون ، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله ، عز وجل ؟!"[5].

قال القرطبي:" أي: بأي قرآن غير ما جاء به محمد -ﷺ - يصدقون. وقيل: «الهاء» للأجل، على معنى :بأي حديث بعد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان، لأن الآخرة ليست بدار تكليف"[6].

قال السعدي:" أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟ أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟ ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته"[7]. هدايته"[7].

قال الزمخشري:" فإن قلت: بم يتعلق قوله :{فبأي حديث بعده يؤمنون}؟ قلت: بقوله {عسى أن يكون قد اقترب أجلهم}، كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا"[8].

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "رأيت ليلة أسري بي ، لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوقي ، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق" ، قال : "وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني ، فإذا أنا برَهج ودخان وأصوات (١) فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين (٢) يُحَرِّفون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب"[9].

الفوائد:

١- أكبر موعظة وهي أن على الإنسان أن يذكر دائما أن أجله قد يكون قريبا وهو لا يدري فيأخذ بالحذر والحيطة حتى لا يؤخذ على غير توبة فيخسر.

٢- استدل بهذه الآية- وما كان مثلها من قوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس : ١٠١]، وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق : ٦]، وقوله: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية : ١٧]، وقوله: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

---

[1] قوله «قبل مغافصة الأجل» أى أخذه إياهم على حين غفلة. من الصحاح.

[2] الكشاف:١٨٢/٢.

[3] التفسير الميسر:١٧٤.

[4] تفسير الطبري:٢٩٠/١٣-٢٩١.

[5] تفسير ابن كثير:٥١٧/٣.

[6] تفسير القرطبي:٣٣٤/٧.

[7] تفسير السعدي:٣١٠.

[8] الكشاف:١٨٢/٢-١٨٣.

[9] المسند (٣٥٣/٢). فيه علي بن زيد بن جدعان، قال ابن كثير في تفسيره:٥١٨/٣: " علي بن زيد بن جدعان له منكرات".

تُبْصِرُونَ} [الذاريات : ٢١] - من قال بوجوب النظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته. قالوا: وقد ذم الله تعالى من لم ينظر، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف : ١٧٩][١].

٣- من لا يتعظ بالقرآن وبما فيه من الزواجر، والعظات والعبر، لا يتعظ بغيره.

٤- ومن الفوائد: أن النظر الوارد الأمر به في الآيات القرآنية واجب، فأما إيجابه على كل أحد فلا نسلم به بل ولا نسلم بأنه أول الواجبات، مع التفريق بين النظر الصحيح - فهو المأمور به -، وبين النظر المفضي إلى الباطل - فلا تدل عليه الآية. فالذي يلاحظ من القرآن هو أن النظر يجب على من لم يحصل له الإيمان إلا به، فمثال ذلك قول الله تعالى: {أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥]، فهذه الآية والتي قبلها جاءت بعد قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ }[الروم: ٨]، فهذه جاءت بعد قوله: {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٥ - ٦].فمن آيتي الأعراف والروم السابقتين يعلم أن النظر واجب على المكذبين والذين لا يعلمون وكل من كان لا يقوم بالواجب عليه من عبادة الله إلا بعد النظر، فظهر من هذا أن هذا الوجوب جاء من جهة أنه واجب على كل من لا يؤدي واجباً إلا به، وعلق شيخ الإسلام على هذا القول بأنه: "أصح الأقوال"[٢].

القرآن

{مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)} [الأعراف : ١٨٦]

التفسير:

مَن يضلله الله عن طريق الرشاد فلا هادي له، ويتركُهم في كفرهم يتحيرون ويترددون.

قوله تعالى:{مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ} [الأعراف : ١٨٦]، أي:" مَن يضلله الله عن طريق الرشاد فلا هادي له"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها، لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبرُوا وتدبَّروا فأبصروا رُشْدهم؛ ولكن الله أضلَّهم، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلا ومن أضلَّه عن الرشاد فلا هادي له إليه"[٤].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : من كُتِب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر ، فإنه لا يجزي عنه شيئا ، { وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } [المائدة : ٤١] قال تعالى : { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } [يونس : ١٠١]"[٥].

---

[١] انظر: تفسير القرطبي:٣٣١/٧.
[٢]درء تعارض العقل والنقل:٨/ ٨.
[٣] التفسير الميسر:١٧٤.
[٤] تفسير الطبري:٢٩١/١٣.
[٥] تفسير ابن كثير:٥١٨/٣.

قوله تعالى:{وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأعراف : ١٨٦]، أي:" ويتركُهم في كفرهم يتحيرون ويترددون"[١].

قال الطبري:أي:" ولكن الله يدعهم في تَمَاديهم في كفرهم، وتمرُّدهم في شركهم، يترددون، ليستوجبوا الغايةَ التي كتبها الله لهم من عُقوبته وأليم نَكاله"[٢].

وقوله تعالى:{ يَعْمَهُونَ}[الأعراف:٨٦]، فيه ثلاثة أقوال:

أحدها : يترددون ، قاله ابن عباس[٣]، ومجاهد[٤]، والربيع[٥]، ومنه قول ابن بري[٦]:

مَتى تَعْمَهْ إلى عُثْمانَ تَعْمَه إلى ضَخْم السُّرادِقِ والقِبابِ

أَي: تُرَدِّدُ النظرَ .

والثاني : معناه يتحيرون، قاله ابن عباس[٧]، ومنه قول رؤية بن العجاج [٨]:

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى بالجاهلين العمه

والثالث : يعمهون عن رشدهم ، فلا يبصرونه ، لأن من عمه عن الشيء كمن كمه عنه ، قال الأعشى[٩] :

أراني قد عمهت وشاب رأسي وهذا اللعب شين للكبير

والرابع: يتمادَوْن. قاله ابن عباس[١٠].

قال الثعلبي:{يعمهون}، أي:" يمضون، يترددون في الضلالة متحيرين، يقال: عمه يعمه عمها وعموها، وعمها فهو عمه، وعامه: إذا كان جائرا عن الحق"[١١]. ثم استشهد بقول رؤبة السابق.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر "«ونذرهم» بالنون والرفع، وقرأ حمزة والكسائى وعاصم-في رواية هبيرة عن حفص-: «ويذرهم» بالياء مع الجزم[١٢].

الفوائد:

١- من أعرض عن كتاب الله مكذبا بما فيه من الهدى فضل، لا ترجى له هداية أبدا.

٢- والآية تدل على خلقه تعالى لأفعال العباد وإرادته لها، وتعداد ذلك يطول وآية واحدة تكفي أولي العقول[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٤.

[٢] تفسير الطبري:٢٩١/١٣.

[٣] أنظر: تفسير الطبري(٣٧٣):ص٣١٠/١. ولفظه:" {يَعْمَهُونَ}، قال : يتردَّدون".

[٤] أنظر: تفسير الطبري(٣٧٥)، و(٣٧٦)، و(٣٧٧)، و(٣٧٨):ص٣١١/١.

[٥] أنظر: تفسير الطبري(٣٧٩):ص٣١١/١.

[٦] البيت ورد في اللسان ١٠/١٨٩: مادة(ع م هـ).

[٧] أنظر: تفسير الطبري(٣٧٤):ص٣١٠/١. ولفظه:" يَعْمَهُونَ " : المتلدِّد".

تلدد للرجل فهو متلدد : إذا لبث في مكانه حائرًا متبلدًا يتلفت يمينًا وشمالا .

[٨]ديوانه ص ١٦٦ واللسان والتهذيب والصحاح:(عنه).

[٩] البيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون: ٧٩/١، والسيوطي في الإتقان: ١٧٤/١، والدر المنثور:٨٠/١.

[١٠] أنظر: تفسير الطبري(٣٧٢):ص٣١٠/١.

[١١] تفسير الثعلبي: ١٥٨/١.

[١٢] انظر: السبعة في القراءات:٢٩٨-٢٩٩.

[١٣]إذا كنا نقول إنَّ الإنسان غير مجبور على الضلال وغير مجبور على الهدى.

فما معنى قوله {يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ}[النحل:٩٣، فاطر:٨.] وهذا من احتجاجات الجبرية؟

ما معنى {وَمَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام:٣٩] ؟

ما معنى {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} [الكهف:١٧] ؟

ما معنى {مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي} [الأعراف:١٧٨] ؟

ما معنى {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُم فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ} [الأعراف:١٨٦] ؟

ونحو ذلك من الآيات التي فيها لفظ الإضلال والاهتداء لله - عز وجل - وفق مشيئته سبحانه وتعالى وإرادته.

وروى اللالكائي أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية (من أرض الشام) فقال في خطبته: {من يضلل الله فلا هادي له}. وكان الجثاليق[1] بين يديه، فقال: إن الله لا يضل أحدا، وعندما كررها عمر بن الخطاب نفض الجثاليق ثوبه ينكر قول عمر. فقال له عمر بعد أن ترجم له كلامه: " كذبت يا عدو الله خلقك الله، والله يضلك، ثم يميتك، فيدخلك النار إن شاء الله ... إن الله خلق الخلق، وقال: حين خلق آدم نثر ذريته في يده، وكتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون، ثم قال: "هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه " فتفرق الناس وما يختلف في القدر اثنان "[2].

٣- من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه.

هذه المسألة ضل فيها الناس ومن أجلها ضَلَّت الجبرية والقدرية، وهي مرتبطة في بيانها بمسألة التوفيق والخذلان، فالله - عز وجل - عَلَّقَ الإضلال بمشيئته وعلق الهداية بمشيئته، ونعلم أنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاء الله - عز وجل - خَلَقَهُ، الذي يشاؤه سبحانه وتعالىأن يكون فإنه يكون، والذي يشاء الله - عز وجل - ألا يكون فإنه لا يكون.

إذا كان كذلك فإنَّ حدوث الهداية وحدوث الضلال نتيجة لأشياء، ولذلك جاء لفظ التوفيق والخذلان في النصوص، جاء لفظ التوفيق في القرآن في قوله تعالى {وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بْاللهِ} [هود:٨٨] ، ونحو ذلك فالله - عز وجل - يوفّق من يشاء ويخذل سبحانه وتعالى من يشاء.

ما معنى وَفَّقَ وخَذَلَ؟ وما صلتها بـ (يهدي الله من يشاء ويضل من يشاء) ؟

إذا تبين لك معنى التوفيق والخذلان فإنه سيَتَبَيَّن لك بوضوح معنى أنَّ الله - عز وجل - يضل من يشاء ويهدي من يشاء سبحانه وتعالى.

والتوفيق: عند أهل السنة والجماعة هو إمداد الله - عز وجل - بعونه، إمداد الله - عز وجل - العبد بعونه -يعني بإعانته- وتسديده وتيسير الأمر وبذل الأسباب المعينة عليه، فإذاً التوفيق فَضْلٌ لأنَّهُ إعانة.

وأما الخذلان: فهو سلب التوفيق، فهو سلب الإعانة، يعني التوفيق إعطَاءٌ، مَنٌّ، كَرَمٌ.

وأما الخذلان فهو عَدْلٌ وسلبٌ، لأنَّ العبد أعطاه الله - عز وجل - القُدَرْ، أعطاه الصفات، أعطاه ما به يُحَصِّلُ الهدى، أعطاه الآلات، يَسَّرَ له، أنزل عليه الكتب، فلذلك هو بالآلات التي معه قامت عليه الحجة، لكِنَّ الله - عز وجل - يُنعم على من يشاء من عباده بالتوفيق فيعينهم ويسدِّدُهُم ويفتح لهم أسباب تحصيل الخير، ويمنع من شاء ذلك فلا يُسَدِّدُهُ ولا يُعِينُهُ ولا يفتح له أسباب الخير بل يتركه ونفسه، وهذا معنى أنه - عز وجل - يخذل؛ يعني لا يُعِين، يترك العبد وشأنه ونفسه، ومعلومٌ أنّ العبد عنده آلات يُحَصِّلُ بها الأشياء لكن هناك أشياء ليست في يده.

هناك أشياء لا يمكن له أن يُحَصِّلَهَا، فهذه بيد الله - عز وجل -، لأنَّ الإنسان مرتبط قَدَرُهْ بأشياء كثيرة من الأسباب التي تفتح له باب الخير، مثل مثلاً أن يكون ذا أصحابٍ أو أن يُيَسَّرَ له أصحاب يعينونه على الخير، مثل أن لا يكون في طبعه الخَلْقِي مزيد شهوة، إما شهوة كِبِرْ من كبائر القلوب أو من كبائر البدن، هذه الأشياء موجودة فيه خَلْقاً، خارجة عن اختياره وتصرفه.

فالله - عز وجل - يُوَفِّقْ بعض العباد بمعنى يعينهم على الأمر الذي يريدونه، إذا انفَتَحَ له بابُ خَيرٍ وأَرَادَهُ فَيُحِسُّ العبد أنه أُعين على ذلك، إذا أَرَادَ فِعْلَ أَمْرٍ ما من الخير يَسَّرَ الله - عز وجل - له أسباباً تعينه فانفتح له طريق الخير.

وآخَرُ حَضَرَتْهُ الشياطين وغلبته على مُرَادِهِ وأَطَاعَهَا؛ لأنه لم يُزَوَّد بِوِقَايَة، بإعانة، بتوفيق يمنعه من ذلك.

فإذاً صار عندنا أنَّ مسألة إضلال الله - عز وجل - مَن يشاء هو بخذلان الله - عز وجل — العباد، وهداية الله - عز وجل - من يشاء بتوفيق الله - عز وجل - بعض العباد، يعني أعان هذا وترك ذاك ونفسه، كونه - عز وجل - أعان هذا هو بمشيئته، فإذاً من يشأ الله يُضْلِلْهُ يعني: يَسْلُبُ عنه التوفيق فيَخْذُلُهُ فينتج من ذلك أنَّ الله - عز وجل - سَلَبَ عنه إعانته، سَلَبَ عنه تسديده، سَلَبَ عنه أسباب الخير، سَلَبَ عنه غَلْقْ أبواب الشر من الكفر وما دونه، فإذاً يكون ضالاً، لاءِ هو بفعل نفسه؛ لأنَّهُ وُكِلَ إلى نفسه، لأنَّ الله - عز وجل - لم يَمُنْ على هذا بمزيد توفيق.

فإذاً مسألة الإضلال في كلام أهل السنة والجماعة عدل، ومسألة الهداية فضْل، ولهذا أعظم الفضل والنعمة والإحسان نعمة التوفيق، الذي هو في الحقيقة نعمة الهداية.[مانظر: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ:ص٢٤٩/ الكتاب مرقم آليا]

[1] جثاليق النصارى: رأسهم ومقدمتهم.

[2] شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٦٥٩/٣.

٤- ومنها: تحذير الإنسان الطاغي أن يغتر بنعم الله عزّ وجلّ؛ فهذه النعم قد تكون استدراجاً من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: { ويمدهم في طغيانهم يعمهون }؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . كما جاء في الحديث[٣].

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيماً على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيماً على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

٥- ومن فوائد الآية: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق، وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ، وفي موضع آخر: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة : ١٥].

القرآن

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)} [الأعراف : ١٨٧]

التفسير:

يسألك -أيها الرسول- كفار «مكة» عن الساعة متى قيامها؟ قل لهم: عِلْمُ قيامها عند الله لا يظهرها إلا هو، ثَقُلَ علمها، وخفي على أهل السموات والأرض، فلا يعلم وقت قيامها ملَك مقرَّب ولا نبي مرسل، لا تجيء الساعة إلا فجأة، يسألك هؤلاء القوم عنها كأنك حريص على العلم بها، مستقص بالسؤال عنها، قل لهم: إنما علمها عند الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "قال حمل بن أبي قشير وسمول بن زيد لرسول الله - ﷺ -: يا محمد! أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول، فإنا نعلم متى هي؟! فأنزل الله -تعالى-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}"[١]. [ضعيف]

والثاني: عن مخارق بن شهاب؛ قال: كان النبي - ﷺ - لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}"[٢]. [ضعيف]

والثالث: عن قتادة؛ قال: قالت قريش لمحمد - ﷺ -: إن بيننا وبينك قرابة؛ فأسر إلينا متى الساعة، فقال الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ

---

[٣] راجع البخاري ص٣٨٩، كتاب التفسيرن باب ٥: قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)، حديث رقم ٤٦٨٦؛ ومسلماً ص١١٣٠، كتاب البر والصلة والأدب، باب ١٥: تحريم الظلم، حديث رقم ٦٥٨١ [٦١] ٢٥٨٣.

[١]أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٥٤٦٣):ص٢٩٢/١٣ -: حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه محمد هذا؛ مجهول تفرد عنه ابن إسحاق.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦١٩) وزاد نسبته لأبي الشيخ.

[٢]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٤٦٤):ص٢٩٢/١٣: ثنا سفيان بن وكيع ثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن مخارق.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ سفيان بن وكيع؛ قال الحافظ: "كان صدوقاً؛ إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه؛ فنصح؛ فلم يقبل؛ فسقط حديثه".

ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}"[١]. [ضعيف]

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن قومًا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، فأنزل الله هذه الآية وجائز أن يكون كانوا من قريش وجائز أن يكونوا كانوا من اليهود؛ ولا خبر بذلك عندنا يجوّز قَطْعَ القول على أيّ ذلك كان"[٢].

قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" يسألونك يا محمد عن القيامة"[٣].

قال الطبري:" يقول : متى قيامها ؟"[٤].

عن قتادة قوله : "{يسألونك عن الساعة أيان مرساها}: متى قيامها؟"[٥].

عن السدي : "{يسألونك عن الساعة أيان مرساها} : يقول: متى قيامها"[٦].

قال السعدي:" يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: {يَسْأَلُونَكَ} أي: المكذبون لك، المتعنتون {عَنِ السَّاعَةِ}"[٧].

قال الزمخشري:" «الساعة» من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق"[٨].

وفي قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [الأعراف : ١٨٧]، وجهان:

أحدهما: أن السائل عنها قريش، قاله الحسن[٩]، وقتادة[١٠].

والثاني: أن السائل عنها اليهود ، قاله ابن عباس[١١].

قال الزمخشري:" قيل: إن قوما من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا، فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانا منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها"[١٢].

قال ابن كثير:القول" الأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة ، استبعادًا لوقوعها ، وتكذيبًا بوجودها ؛ كما قال تعالى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الأنبياء : ٣٨] ، وقال تعالى : { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } [الشورى : ١٨]"[١٣].

قوله تعالى:{أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" متى وقوعها وحدوثها؟"[١٤].

قال السعدي:" أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟"[١٥].

---

[١]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٤٦٢):ص٢٩٢/١٣؛ ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة به.
قلنا: وهذا إسناده صحيح؛ رجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

[٢] تفسير الطبري:٢٩٢/١٣.

[٣] صفوة التفاسير:٤٥١/١.

[٤] تفسير الطبري:٢٩٣/١٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٤٦٦):ص٢٩٤/١٣.

[٦] أخرجه الطبري(١٥٤٦٥):ص٢٩٣/١٣-٢٩٤.

[٧] تفسر السعدي:٣١٠.

[٨] الكشاف:١٨٣/٢.

[٩] انظر: النكت والعيون:٢٨٤/٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٦٢):ص٢٩٢/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٦٣):ص٢٩٢/١٣.

[١٢] الكشاف:١٨٣/٢.

[١٣] تفسير ابن كثير:٥١٨/٣.

[١٤] صفوة التفاسير:٤٥١/١.

[١٥] تفسر السعدي:٣١٠.

قال ابن كثير:" أي: متى محطها ؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟"[١].
الساعة؟"[١].

قال الطبري:" ومعنى {أيان}: «متى»، في كلام العرب ، ومنه قول الراجز[٢]:

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا   أَمَا تَرَى لِنُجْحِهَا إِبَّانَا"[٣].

وفي قوله تعالى:{أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [الأعراف : ١٨٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها : قيامها ، قاله قتادة[٤]، والسدي[٥].

والثاني : منتهاها ، قاله ابن عباس[٦].

والثالث : ظهورها ، قاله الأخفش[٧].

قال الطبري:"ومعنى قوله:{مرساها}، قيامها، من قول القائل: أرساها الله فهي مُرْسَاة، وأرساها القوم، إذا حبسوها ، ورسَت هي، ترسُو رُسُوًّا"[٨].

قال الزمخشري:" المعنى: متى يرسيها الله، [و] {مرساها} إرساؤها، أو وقت إرسائها، أى: إثباتها وإقرارها. وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره. ومنه: رسى الجبل وأرسى السفينة. والمرسى: الأنجر الذي ترسى به، ولا أثقل من الساعة، بدليل قوله :{ثقلت في السماوات والأرض}"[٩].

وقرأ السلمى: «إيان»، بكسر الهمزة[١٠].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه إلا الله"[١١].

قال قتادة:" يقول: علمها عند الله"[١٢].

قال السعدي:" أي: إنه تعالى مختص بعلمها"[١٣].

قال الزمخشري:" أى: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحدا من ملك مقرب ولا نبى مرسل، يكاد يخفيها من نفسه، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت"[١٤].

قال ابن كثير:" أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة ، أن يرُدَّ علمها إلى الله تعالى"[١٥].

قال الفخر:" قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون، كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، / وأزجر عن المعصية"[١٦].

---

[١] تفسير ابن كثير:٥١٨/٣.

[٢] لم أعرف قائله، وانظر البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ٢٣٤ ، وتفسير الطبري:٢٩٣/١٣، واللسان ((أبن) . و ((إبان الشيء)) ، زمنه ووقته الذي يصلح فيه ، أو يكون فيه.

[٣] تفسير الطبري:٢٩٣/١٣.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٦٦):ص٢٩٤/١٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٦٥):ص٢٩٣/١٣-٢٩٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٦٧):ص٢٩٤/١٣.

[٧] انظر: النكت والعيون:٢٨٤/٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري:٢٩٣/١٣.

[٩] الكشاف:١٨٣/٢.

[١٠] انظر: الكشاف:١٨٣/٢.

[١١] صفوة التفاسير:٤٥١/١.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٤٦٨):ص٢٩٤/١٣.

[١٣] تفسر السعدي:٣١٠.

[١٤] الكشاف:١٨٣/٢.

[١٥] تفسير ابن كثير:٥١٨/٣.

[١٦] مفاتيح الغيب:٤٢٣/١٥.

قوله تعالى:{لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه"[١].

قال السعدي:" أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو"[٢].

قال ابن كثير:أي:" فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي : يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، أي: لا يعلم ذلك أحد إلا هو تعالى "[٣].

قال السدي:" يقول: لا يرسلها لوقتها إلا هو"[٤].

عن مجاهد: "{لا يجليها}: لا يأتي بها إلا هو"[٥].

قال قتادة:" ... هو يجليها لوقتها، لا يعلم ذلك إلا الله"[٦].

قال الزمخشري:" أى: لا تزال خفية، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها"[٧].

قوله تعالى:{ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" عظُمت على أهل السماوات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها"[٨].

قال السعدي:" أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضا عليهم، فهم من الساعة مشفقون"[٩].

قال الزمخشري:" أى: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، ويوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه. أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها. أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها"[١٠].

وفي قوله تعالى:{ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف : ١٨٧]، أربعة تأويلات:
أحدها : كبر على أهل السموات والأرض مجيء الساعة ، قاله الحسن[١١].

عن السدي قال: "قال بعض الناس في {ثقلت}: عظمت"[١٢].

والثاني : ثقلت الساعة على أهل السموات والأرض أن يعرفوا وقتها ومجيئها، لخفائها عنهم، واستئثار الله بعلمها. قاله السدي[١٣].

عن معمر، عن بعض أهل التأويل: "{ثقلت في السموات والأرض}، قال: ثقل علمها على أهل السموات وأهل الأرض، إنهم لا يعلمون"[١٤].

والثالث : معناه :عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، وهذا معنى قول ابن جريج.

قال ابن جريج:" إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكوِّرت الشمس، وسُيِّرت الجبال، وكان ما قال الله؛ فذلك ثقلها"[١٥].

والرابع: معنى قوله: {في السموات والأرض}: على السموات والأرض. قاله قتادة[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٥١/١.
[٢] تفسر السعدي:٣١٠.
[٣] تفسير ابن كثير:٥١٨/٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٤٧١):ص٢٩٥/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٤٧٠):ص٢٩٤/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٤٦٨):ص٢٩٤/١٣.
[٧] الكشاف:١٨٣/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٤٥١/١.
[٩] تفسر السعدي:٣١٠.
[١٠] الكشاف:١٨٣/٢-١٨٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٧٤):ص٢٩٦/١٣.
[١٢] أخرجه الطبري(١٥٤٧٦):ص٢٩٦/١٣.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٧٢):ص٢٩٥/١٣.
[١٤] أخرجه الطبري(١٥٤٧٣):ص٢٩٥/١٣.
[١٥] أخرجه الطبري(١٥٤٧٥):ص٢٩٦/١٣.

قال الطبري:" وأولى ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ثقلت الساعة في السموات والأرض على أهلها، أن يعرفوا وقتها وقيامها؛ لأن الله أخفى ذلك عن خلقه، فلم يطلع عليه منهم أحدًا. وذلك أن الله أخبرَ بذلك بعد قوله: {قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو}، وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بغتة، فالذي هو أولى: أن يكون ما بين ذلك أيضًا خبرًا عن خفاء علمها عن الخلق، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك"[٢].

قوله تعالى:{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" لا تجيء الساعة إلا فجأة"[٣].

قال السدي:" يقول: يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة"[٤].

قال الطبري:" يقول: لا تجيء الساعة إلا فجأة، لا تشعرون بمجيئها"[٥].

قال الماوردي:" يعني: على غفلة لأنه لا يعلمها غير الله ، ولم ترد الأخبار عنها من جهة الله فصار مجيئها بغتة وذلك أشد لها"[٦].

قال السعدي:" أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيأوا لقيامها"[٧].

قال الزجاج:" كل ما جاء فجاءة فقد بغت، يقال: قد بغته الأمر يبغته بغتا وبغتة، إذا أتاه فجاءة. قال الشاعر[٨]:

ولكنهم ماتوا ولم أخش بغتة وأفظع شيء حين يفجؤك البغت"[٩].

عن قتادة:"{لا تأتيكم إلا بغتة}، قضى الله أنها لا تأتيكم إلا بغتة. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصْلِح حوضه، والرجلُ يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه"[١٠].

عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقْحَته فلا يَطْعَمُه. ولتقومَنّ الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومَنّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها"[١١].

وعن أبي هريرة: يبلغ به النبي ﷺ قال : "تقوم الساعة والرجل يحلب اللِّقْحَة ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم"[١٢].

قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" يسألك هؤلاء القوم عنها كأنك حريص على العلم بها، مستقص بالسؤال عنها"[١٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٤٧٧):ص٢٩٦/١٣.
(٢) كتفسير الطبري:٢٩٧/١٣.
(٣) التفسير الميسر:١٧٤.
(٤) أخرجه الطبري(١٥٤٧٨):ص٢٩٧/١٣.
(٥) تفسير الطبري:٢٩٧/١٣.
(٦) النكت والعيون:٢٢٨٥.
(٧) تفسر السعدي:٣١٠.
(٨) الشعر ليزيد بن صبة الثقفي في "مجاز القرآن" ١/ ١٩٣، و"الكامل" للمبرد ١/ ١٥١، و"اللسان" ١/ ٣١٧ (بغت)، و"عمدة الحفاظ" ص ٥٦، وبلا نسبة في: "العين" ٤/ ٣٩٧، و"الجمهرة" ١/ ٢٥٥ - ٢/ ١٠٤٣، و"الزاهر" ٢/ ٦، و"البارع" ص ٣٥٦، و"تهذيب اللغة" ١/ ٣٦٤، و"الصحاح" ١/ ٢٤٣، و"المجمل" ١/ ١٣٠، و"مقاييس اللغة" ١/ ٢٧٢ (بغت)، و"تفسير الماوردي" ٢/ ٢٨٥.
(٩) معاني القرآن:٢٤١/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(١٥٤٧٩):ص٢٩٧/١٣.
(١١)صحيح البخاري برقم (٦٥٠٦).
(١٢)صحيح مسلم برقم (٢٩٥٤).
(١٣) التفسير الميسر:١٧٤.

قال السعدي:" أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه"[١].

قال الطبري:يقول:" يسألك هؤلاء القوم عن الساعة، كأنك حَفِيٌّ عنها"[٢].

عن السدي: "{يسألونك كأنك حفي عنها}، كأنك صديق لهم"[٣].

قال الزمخشري:أي:" كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها[٤]، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحكم علمه فيه ورصن[٥] وهذا التركيب معناه المبالغة. ومنه: إحفاء الشارب. واحتفاء البقل: استئصاله. وأحفى في المسألة، إذا ألحف[٦] . وحفى بفلان وتحفى به: بالغ في البر به"[٧].

وفي قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [الأعراف : ١٨٧]، وجوه:

أحدها : معناه عالِمٌ بها، قاله مجاهد[٨]، والضحاك[٩]، وابن زيد[١٠]، وحكاه معمر عن بعضهم[١١].

---

[١] تفسر السعدي:٣١٠.

[٢] تفسير الطبري:٢٩٧/١٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٤٨٥):ص٢٩٨/١٣-٢٩٩.

[٤]قال أحمد وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى إلا في الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها، وذاك وذاك أن المعهود في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بنى على مقصد، واعترض في أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتى وهذا منها، فانه لما ابتدأ الكلام بقوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله قل إنما علمها عند ربي إلى قوله بغتة أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله كأنك حفي عنها وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطري ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم، فمن ثم قيل يسئلونك ولم يذكر المسئول عنه وهو الساعة، اكتفاء بما تقدم، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال قل إنما علمها عند الله ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه. ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله:

عجل لنا هذا وألحقنا بذا ال ... الشحم إنا قد مللناه يجل

أى فقط، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطري ذكرها وأبقى الأولى في مكانها. ومن ثم استدل ابن جنى على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن، قال: ولو كان بيتا واحدا لم يكن عهد الأولى متباعدا، فلم يكن محتاجا إلى تكريرها. ألا ترى أن عبيدا لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات وجعل آخر المصراع الأول أل، لم يعدها أول المصراع الثاني، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيدا، وذلك قوله:

يا خليلي أربعا واستخبرا ال ... منزل الدارس من أهل الحلال

مثل سحق البرد عنى بعدك ال ... قطر مغناه وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتا، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها حتى عدت القريب بعيدا والمتقاصر مديدا، فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية والبيان، والله المستعان.[انظ{: حاشية تفسير الزمخشري:١٨٤/٢].

[٥] رصن، أى: ثبت وتمكن.

[٦]إذا ألحف، أى: ألح وعنف.

[٧] الكشاف:٢/!٨٤.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٦):ص٢٩٩/١٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٨):ص٢٩٩/١٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٦):ص٢٩٩/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٩١):ص٢٩٩/١٣.

والثاني : معنى الكلام: يسألونك عنها كأن حفي بهم، على التقديم والتأخير ، أي: كأنك بينك وبينهم مودة توجب برهم ، من قوله:{إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً} [مريم : ٤٦] قاله ابن عباس[١]، وأبو مالك[٢]، ومجاهد[٣]، وقتادة[٤]، وعكرمة[٥]، والسدي[٦].

عن ابن عباس، قوله: "{يسألونك كأنك حفيّ عنها} ، يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناسُ محمدًا ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع عليها ملكًا ولا رسولا"[٧].

قال قتادة:" قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسِرَّ إلينا متى الساعة! فقال الله: {يسألونك كأنك حفي عنها}"[٨].

والثالث: معناه: كأنك يعجبك سؤالهم إياك. وهذا مروي عن ابن عباس ايضا[٩].

قال الطبري:والصواب "قول من قال: معناه: كأنك حفي بالمسئلة عنها فتعلمها.

فإن قال قائل: وكيف قيل: {حفي عنها}، ولم يُقَل: «حفي بها»، إن كان ذلك تأويل الكلام؟

قيل: إن ذلك قيل كذلك، لأن الحفاوة إنما تكون في المسألة، وهي البشاشة للمسئول عند المسألة، والإكثار من السؤال عنه، والسؤال يوصل بـ«عن» مرة، وبـ«الباء» مرة. فيقال: سألت عنه، وسألت به. فلما وضع قوله: "حفي" موضع السؤال، وصل بأغلب الحرفين اللذين يوصل بهما السؤال، وهو «عن»، كما قال الشاعر[١٠]:

سُؤَالَ حَفِيٍّ عَنْ أَخِيهِ كَأَنَّهُ   بِذِكْرَتِهِ وَسْنَانُ أَوْ مُتَوَاسِنُ"[١١].

وقرأ ابن مسعود: «كأنك حفى بها»، أى: عالم بها بليغ في العلم بها[١٢].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" قل لهم: إنما علمها عند الله الذي يعلم غيب السموات والأرض"[١٣].

قال الطبري:" معناه: قل، يا محمد، لسائليك عن وقت الساعة وحين مجيئها: لا علم لي بذلك، ولا علم به إلا عند الله الذي يعلم غيب السموات والأرض"[١٤].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٩٢):ص٢٩٩/١٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٤):ص٢٩٨/١٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٣):ص٢٩٨/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨١):ص٢٩٨/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٣):ص٢٩٨/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٨٥):ص٢٩٨/١٣-٢٩٩.
[٧] أخرجه الطبري(١٥٤٨٠):ص٢٩٨/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٥٤٨١):ص٢٩٨/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٩٣):ص٣٠٠/١٣.
[١٠] الشعر لمعطل الهذلي، انظر: ديوان الهذليين ٣: ٤٥ من قصيدة له طويلة. وبهذه الرواية التي رواها أبو جعفر ((سؤال حفي)) ، يختل سياق الشعر. وروايته في ديوانه: فإن ترني قصدًا قريبًا، فإنه ... بعيد علي المرء الحجازي أين
بعيد على ذى حاجة، ولو أننى ... إذا نفجت يوماً بها الدار آمن
يقول الذي أمسى إلى الحرز أهله: ... بأي الحشاء أمسى الخليط المباين
سؤال الغني عن أخيه، كأنه ... بذكرته وسنان أو متواسن
و ((الذي أمسى إلى الحرز أهله)) هو الذي صار في مكان حصين آمناً مطمئناً، فهو يسأل عنه ويقول: ((بأي الحشا)) ، بأي النواحي أمسي فلان؟ وهو صاحبه المفارق. ثم يقول: إنه يسأل سؤال غير حفي - لا سؤال حفي - ((سؤال غني عن أخيه)) وأنما يذكره كالنائم أو المتناوم، لقلة حفاوة به.
[١١] تفسير الطبري:٣٠٠/١٣-٣٠١.
[١٢] انظر: الكشاف:١٨٥/٢.
[١٣] التفسير الميسر:١٧٤.
[١٤] تفسير الطبري:٣٠١/١٣.

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف : ١٨٧]، أي:" ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله"[١].

قال الزمخشري:أي:" أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها"[٢].

قال الطبري:" يقول: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله، بل يحسبون أن علم ذلك يوجد عند بعض خلقه"[٣].

قال الصابوني:أي:" لا يعلمون السبب الذي لأجله أُخفْيتْ"[٤].

قال السعدي:" فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه"[٥].

قال ابن كثير:" فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والعاقب والمُقَفَّي ، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد ، رضي الله عنهما : «بعثت أنا والساعة كهاتين»[٦]، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله ، قد أمره الله تعالى أن يَرُد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها ، فقال : { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }"[٧].

عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- قال: بينا نحن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى - ﷺ - فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله - ﷺ -: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرنى عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت، قال فأخبرنى عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرنى عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال أن تلد المرأة ربتها وأن ترى الحفاه العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال يا عمر أتدرى من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"[٨].

وعن على-رضي الله عنه-: "أنه سئل متى الساعة؟ فقال: لقد سألتمونى عن أمر ما يعلمه جبريل ولا ميكائيل ولكن إن شئتم أنبأتكم بأشياء إذا كانت لم يكن للساعة خبر إذا كانت

---

[١] التفسير الميسر:١٧٤.

[٢] الكشاف:١٨٥/٢.

[٣] تفسير الطبري:٣٠١/١٣.

[٤] صفوة التفاسير:٤٥١/١.

[٥] تفسر السعدي:٣١٠.

[٦]أما حديث أنس بن مالك : فأخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٥٠٤) ومسلم في صحيحه برقم (٢٩٥١). وأما حديث سهل بن سعد : فأخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٣٦) ومسلم في صحيحه برقم (٢٩٥٠) .

[٧] تفسير ابن كثير:٥٢٣/٣.

[٨]أخرجه أحمد (٥١/١، رقم ٣٦٧) ، ومسلم (٣٦/١، رقم ٨) ، وأبو داود (٢٢٣/٤، رقم ٤٦٩٥) ، والترمذى (٦/٥، رقم ٢٦١٠) وقال: حسن صحيح. والنسائى فى الكبرى (٥٢٨/٦، رقم ١١٧٢١) ، وابن ماجه (٢٤/١، رقم ٦٣) ، وابن خزيمة (١٢٧/٤، رقم ٢٥٠٤) ، وابن حبان (٣٨٩/١، رقم ١٦٨) . وأخرجه أيضا: الدارقطنى (٢٨٢/٢) ، والبيهقى (٢٠٣/١٠، رقم ٢٠٦٦٠).

الألسن لينة والقلوب تناول ورغب الناس فى الدنيا وظهر البناء على وجه الأرض واختلف الأخوان فصار هواهما شتى وبيع حكم الله بيعا"[١].

أبي يذكر عن حذيفة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : "علمها عند ربي لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ، ولكن سأخبركم بمشاريطها ، وما يكون بين يديها : إن بين يديها فتنة وهرجًا" ، قالوا : يا رسول الله ، الفتنة قد عرفناها ، فالهرج ما هو ؟ قال بلسان الحبشة :«القتل». قال: وَيُلقَى بين الناس التَّنَاكرُ ، فلا يكاد أحد يعرف أحدًا"[٢].

الفوائد:

١- أن مجيء الساعة من مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} [لقمان: ٣٤] وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} [الأعراف: ١٨٧] الآية، وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا - فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا - إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [النازعات: ٤٢ - ٤٤] الآيات، ولما «قال جبريل للنبي ﷺ: فأخبرني عن الساعة. قال: " ما المسئول عنها بأعلم من السائل» [٣] وذكر أماراتها وزاد في رواية: «في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى» ، وتلا الآية السابقة.

٢- أن للساعة أشراط بعضها في الكتاب وبعضها في السنة وليس معنى ذلك أنه تحديد لوقتها وإنما هي مقدمات تدل على قربها فقط.

٣- استأثر الله بعلم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله، ومن علمه الله شيئا منه علم كما علم نبيه ﷺ بعض المغيبات، والمعلم بالشيء لا يقال فيه يعلم الغيب وإنما يقال علمه ربه غيب كذا وكذا فعلمه:

القرآن

{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)} [الأعراف : ١٨٨]

التفسير:

قل -أيها الرسول-: لا أقدرُ على جَلْبِ خير لنفسي ولا دفع شر يحل بها إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تكثِّر لي المصالح والمنافع، ولاتَّقيتُ ما يكون من الشر قبل أن يقع، ما أنا إلا رسول الله أرسلني إليكم، أخوِّف من عقابه، وأبشر بثوابه قومًا يصدقون بأني رسول الله، ويعملون بشرعه.

قوله تعالى:{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} [الأعراف : ١٨٨]، أي:" قل -أيها الرسول-: لا أقدرُ على جَلْبِ خير لنفسي ولا دفع شر يحل بها إلا ما شاء الله"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لسائليك عن الساعة: {أيان مرساها}؟ لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي، ولا دفع ضر يحلّ بها عنها إلا ما شاء الله أن أملكه من ذلك، بأن يقوّيني عليه ويعينني" [٥].

---

[١] أخرجه ابن أبى شيبة (٥٠١/٧، رقم ٣٧٥٤٦) ..

[٢] المسند (٣٨٩/٥) قال الهيثمي في المجمع (٣٠٩/٧) : "رجاله رجال الصحيح". قال ابن كثير في تفسيره:٥٢٣/٣:" لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه".

[٣] رواه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ، ومسلم (الإيمان / ١، ٥).

[٤] التفسير الميسر:١٧٥.

[٥] تفسير الطبري:٣٠١/١٣-٣٠٢.

قال القرطبي:" أي: لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيرا ولا أدفع عنها شرا، فكيف أملك علم الساعة. وقيل: لا أملك لنفسي الهدى والضلال. {إلا ما شاء الله} في موضع نصب بالاستثناء. والمعنى: إلا ما شاء الله أن يملكني يمكنني منه"[١].

قال السعدي:أي:" فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى"[٢].

قال ابن كثير:" أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب ، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } [الجن : ٢٦ ، ٢٧]"[٣].

قال الزمخشري:" {قل لا أملك لنفسي} هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب: أى: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك والعبيد، {إلا ما شاء} ربى ومالكى من النفع لي والدفع عنى"[٤].

قوله تعالى:{وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} [الأعراف : ١٨٨]، أي:" ولو كنت أعلم الغيب لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تكثِّر لي المصالح والمنافع"[٥].

قال الطبري:" يقول: لو كنت أعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد لأعددت الكثير من الخير"[٦].

قال الزمخشري:أي:" ولو كنت أعلم الغيب لكانت حالى على خلاف ما هي عليه، ومن استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسني شيء منها. ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى في الحروب، ورابحا وخاسرا في التجارات، ومصيبا مخطئا في التدابير"[٧].

قال القرطبي:"المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته"[٨].

قال السعدي:" أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} [الأعراف : ١٨٨]، خمسة أقوال:

أحدها : لاستكثرت من العمل الصالح ، قاله الحسن[١٠]، ومجاهد[١١]، وابن جريج[١٢].

قال ابن كثير:" فيه نظر ؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دَيمة. وفي رواية : «كان إذا عمل عملا أثبته»[١٣]، فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله ، عز وجل ، في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك ، والله أعلم"[١٤].

---

[١] تفسير القرطبي:٣٣٦/٧.
[٢] تفسير السعدي:٣١١.
[٣] تفسير ابن كثير:٥٢٣/٣.
[٤] الكشاف:١٨٥/٢.
[٥] التفسير الميسر:١٧٥.
[٦] تفسير الطبري:٣٠٢/١٣.
[٧] الكشاف:١٨٥/٢.
[٨] تفسير القرطبي:٣٣٦/٧.
[٩] تفسير السعدي:٣١١.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٢٨٥/٢.
[١١] انظر: تفير الطبري(١٥٤٩٥):ص٣٠٢/١٣.
[١٢] انظر: تفير الطبري(١٥٤٩٤):ص٣٠٢/١٣.
[١٣]) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٨٣) من حديث عائشة ، رضي الله عنها.
[١٤] تفسير ابن كثير:٥٢٤/٣.

والثاني : معناه: لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر. وهذا قول ابن عباس[١]، ورجحه ابن كثير قائلا:" والأحسن في هذا ما رواه الضحاك ، عن ابن عباس"[٢].

والثالث: لاجتنبت ما يكون من الشرّ واتَّقيته. قاله ابن زيد[٣].

والرابع: لأعددت من السنة المخصبة للسنة المجدبة ، قاله الفراء[٤].

والخامس : لعرفت الغلاء فاستعددت له فى الرخص. ذكره الفراء[٥]، والطبري[٦]. قال الماوردي:"وهو شاذ"[٧].

قال القرطبي:" المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته. وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب. وقال ابن عباس: لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها في زمن الخصب ما يكفيني. وقيل: المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لاشتريتها وقت كسادها. وقيل: المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح، عن الحسن وابن جريج. وقيل: المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه. وكله مراد، والله أعلم"[٨].

قوله تعالى:{وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف : ١٨٨]، أي:" ولاتَّقيتُ ما يكون من الشر قبل أن يقع"[٩].

قال الطبري:" يقول: وما مسني الضر"[١٠].

وفي قوله تعالى:{وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف : ١٨٨]، ثلاثة وجوه[١١]:

أحدهما : ما بي جنون كما زعم المشركون ، قاله الحسن[١٢].

والثاني : ما مسني الفقر لاستكثاري من الخير.

والثالث : ما دخلت على شبهة .

قال السعدي: أي:" ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا علم لي بالغيب"[١٣].

قوله تعالى:{إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : ١٨٨]، أي:" ، ما أنا إلا رسول الله أرسلني إليكم، أخوِّف من عقابه، وأبشر بثوابه قومًا يصدقون بأني رسول الله، ويعملون بشرعه"[١٤].

قال القرطبي:" هذا استئناف كلام، أي ليس بي جنون، لأنهم نسبوه إلى الجنون، وقيل: هو متصل، والمعنى لو علمت الغيب لما مسني سوء ولحذرت"[١٥].

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٦٢٤):ص١٦٢٩/٥.
[٢] تفسير ابن كثير:٥٢٤/٣.
[٣] انظر: تفير الطبري(١٥٤٩٦):ص٣٠٢/١٣.
[٤] انظر: معاني القرآن:٤٠٠/١.
[٥] انظر: معاني القرآن:٤٠٠/١.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٣٠٢/١٣.
[٧] النكت والعيون:٢٨٥/٢.
[٨] تفسير القرطبي:٣٣٦/٧-٣٣٧.
[٩] التفسير الميسر:١٧٥.
[١٠] تفسير الطبري:٣٠٣/١٣.
[١١] انظر: النكت والعيون:٢٨٦/٢.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٢٨٦/٢.
[١٣] تفسير السعدي:٣١١.
[١٤] التفسير الميسر:١٧٥.
[١٥] تفسير القرطبي:٣٣٧/٧.

قال الطبري:" يقول: ما أنا إلا رسولٌ لله أرسلني إليكم، أنذر عقابه مَن عصاه منكم وخالف أمره، وأبشّرَ بثوابه وكرامته من آمن به وأطاعه منكم، وقوله: {لقوم يؤمنون}، يقول: يصدقون بأني لله رسول، ويقرون بحقية ما جئتهم به من عنده"[١].

قال ابن كثير:" ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير ، أي : نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات ، كما قال تعالى : { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا } [مريم : ٩٧]"[٢].

قال الزمخشري:أي:" إن أنا إلا عبد أرسالات نذيرا وبشيرا، وما من شأنى أنى أعلم الغيب لقوم يؤمنون يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعا، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم. أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أى إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون"[٣].

قال السعدي: أي:" {نَذِيرٌ} أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها.

{وَبَشِيرٌ} بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح"[٤].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن معرفة الوقت الذي تكون فيه الساعة لا يعرفه إلا رب العزة، وأنها تأتي بغتة، وأن الرسول ﷺ لا يدري متى هي، والساعة إحدى مفاتح الغيب الخمسة التي هي من مكنونات علم الله {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا هذه الآية (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) " [لقمان: ٣٤]"[٥].

٢- في الآية بيان إشكالات تتعلق بتحديد وقت الساعة، إذ بيّنا فيما سبق أن وقت القيامة غيب لا يعلمه إلا الله، ولكن يشكل على هذا أحاديث ظن بعض الناس أنها تحدد موعدها، وهذه الأحاديث بعضها غير صحيح فلا يلتفت إليها، ولا يجوز أن تعارض بها النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة، ومنها أحاديث صحيحة، ولكن دلالتها على تحديد يوم القيامة غير صريحة.

فمن الأحاديث الباطلة المكذوبة المخالفة لصريح القرآن - كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى - حديث مقدار الدنيا " وأنها سبعة آلاف سنة، ونحن في الألف السابعة ".

يقول ابن القيم: " وهذا من أبين الكذب، لأنه لو كان صحيحاً لكان كل أحد عالماً أنه قد بقي من وقتنا هذا مئتان وواحد وخمسون سنة " أي: في الوقت الذي كان يكتب

---

[١] تفسير الطبري:٣٠٣/١٣.
[٢] تفسير ابن كثير:٥٢٤/٣.
[٣] الكشاف:١٨٥/٢.
[٤] تفسير السعدي:٣١١.
[٥]جامع العلوم والحكم لابن رجب: (٣٧.

فيه الشيخ ابن القيم مؤلفه " والله تعالى يقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ} [الأعراف: ١٨٧]"[١].

أقول: ومما يدل على كذب هذا الحديث قطعاً أن الألف السابعة هذه مضت وانقضت منذ أربعمائة سنة، وكثير من أشراط الساعة لم يقع بعد.

ومن الأحاديث الصحيحة التي لا تدل على تحديد يوم القيامة ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " قبل أن يموت بشهر: " تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ "[٢] .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قال: " أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد "[٣].

إن التأمل في هذين الحديثين يدل دلالة واضحة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرد في أقواله هذه قيام الساعة، وإنما أراد انقضاء القرن الذي هو فيه، أي أنه بعد مائة عام يموت كل من كان حياً عندما قال الرسول ﷺ ما قال، وقد فقه هذا المعنى ابن عمر رضي الله عنه، وفقَّه الناس به عندما ذهبوا مذاهب شتى في فهم معنى قول الرسول ﷺ، ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود بعد سياق عبد الله بن عمر لحديث الرسول ﷺ السابق، قال: " فوهل الناس [٤] في مقالة الرسول ﷺ تلك، فيما يتحدثونه بهذه الأحاديث: نحو مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: " لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد، يريد بذلك: أن ينخرم القرن "[٥] .

وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة، قالت: " كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم، فيقول: إن يعش هذا، إن يدركه الهرم، حتى قامت عليكم الساعة " قال هشام: يعني موتهم[٦] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، " أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أَزْد شَنُوءَة، فقال: إن عُمِّر هذا الغلام، لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة، قال أنس: وذلك الغلام من أترابي يومئذ " [٧].

ومراد الرسول ﷺ في هذين الحديثين ساعة المخاطبين، كما فسر ذلك هشام أحد رواة الحديث الأول: يعني موتهم، فإن ساعة كل إنسان موته، وهذا الجواب من الرسول ﷺ يعرف بجواب الحكيم، فإنه أرشدهم إلى الاستعداد للموت والتأهب له، والموت قريب قريب[٨].

٣- ومن الفوائد: اختصاص علم الغيب بالله، ونفيه عن غيره تعالى من الملائكة والأنبياء، والأولياء، والجن. تدل على ذلك آيات كثيرة أذكر منها بعضها على سبيل المثال:

١ -٢- قوله تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [هود: ١٢٣، النحل: ٧٧] .

---

[١] المنار المنيف، لابن القيم: ص ٨٠..
[٢] جامع الأصول: (٣٨٧/١٠) ، ورقم الحديث: (٧٨٩٠) ومعنى: نفس منفوسة: أي مولودة.
[٣] جامع الأصول: (٣٨٨/١٠) ، ورقم الحديث: (٧٨٩١).
[٤] الوهل: الفزع. أو ذهاب الفكر مذاهب بعيدة عن المراد.
[٥] صحيح الجامع: (٣٨٨/١٠) ، ورقم الحديث: (٧٨٩١).
[٦] جامع الأصول: (٣٨٩/١٠) ، ورقمه: (٧٨٩٢).
[٧] جامع الأصول: (١٠/ ٣٨٩) ، ورقمه: (٧٨٩٣).
[٨] انظر: القيامة الصغرى، عمر بن سليمان الأشقر:١٢٤-١٢٦.

٣ - قوله تعالى: {لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف: ٢٦] .
٤ - قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ٣٣] .
٥ - قوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [فاطر: ٣٨] .
٦ - قوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحجرات: ١٨] .
٧ - قوله سبحانه: {فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ} [يونس: ٢٠] .
٨ - قوله عز وجل: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} ... [الأنعام: ٥٩] .
٩ - قوله عز وجل: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} ... [النمل: ٦٥] .
١٠ - قوله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} ... [لقمان: ٣٤] .
١١ - قوله جل وعلا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} [الأعراف: ١٨٧] .
١٢ - قوله جل وعلا: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: ٦٣] .
١٣ -١٤- قوله جل وعلا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا} [النازعات: ٤٢- ٤٤] .
١٥ -١٨- قوله سبحانه وتعالى: {عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: ١٠٩، ١١٦، التوبة ٧٨، سبأ ٤٨] .
١٩ -٢٨- قوله سبحانه وتعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الأنعام: ٧٣، التوبة: ٩٤، ١٠٥، الرعد: ٩، المؤمنون: ٩٢، السجدة: ٦، الزمر: ٤٦، الحشر: ٢٢، الجمعة: ٨، التغابن: ١٨] .
٢٩ -٣٠-قوله سبحانه وتعالى: {عَالِمِ الْغَيْبِ} [سبأ: ٣، الجن: ٢٦] .
٣١ - قوله تبارك وتعالى عن رسوله نوح عليه الصلاة والسلام: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} [هود: ٣١] .
٣٢ - قوله تعالى آمرا أشرف رسله: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام: ٥٠] .
٣٣ - قوله سبحانه آمرا أفضل أنبيائه: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨] .
٣٤ - وقوله عز وجل: {وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [التوبة: ١٠١] .
٣٥ - وقوله سبحانه آمرا رسوله ﷺ: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأحقاف: ٩] .
٣٦ - وقوله جل وعلا: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١] .
٣٧ -٣٩- وقوله سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ... فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٦٩- ٧٤] .
٤٠ -٤٤- وقوله عز وجل: {وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ} ... {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} [الحجر: ٥١-٥٧] .

٤٥ - ٥٠ - قوله سبحانه: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} ... {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} [الذاريات: ٢٤- ٣١] .

٥١ -٥٥- قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [هود: ٧٧-٨١] .

٥٦ - ٦٠- قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} .... {وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ} ...... {قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الحجر] : ٦١ - ٧١] .

٦١ -٦٣- قوله تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} [النمل: ٢٠-٢٢] .

٦٤ -٦٥- قوله جل وعلا: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} [ص: ٢١- ٢٢] .

٦٦ -٧٤- قوله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} .... {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} .... {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} .... {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} .... {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٦٦- ٨٢] .

٧٥ - قوله تعالى: {قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} [طه: ٢١] .

٧٦ - قوله تعالى: {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} [النمل: ١٠] .

٧٧ - قوله تعالى: {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} [القصص: ٣١] .

٧٨ -٧٩- قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ.... وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ... وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} ... [يوسف: ١٥- ١٨] .

٨٠ - قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: ١١٦] .

٨١ - قوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: ١٠٩] .

٨٢ - قوله سبحانه عن الملائكة: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢] .

٨٣ - قوله تعالى في حق الجن: {فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} [سبأ: ١٤] .

٨٤ - قوله تعالى في حق رسوله الكريم ﷺ: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس: ٦٩].
٨٥ - قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ} ... [البقرة: ٢٥٩] .
٨٦ - قوله تعالى في الأولياء الكرام أصحاب الكهف: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} ... {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} ... [الكهف: ١٩-٢٦] .
٨٧ - قوله تعالى في حق الأموات من الأنبياء والأولياء وغيرهم ممن كان المشركون ينادونهم عند الكربات: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: ٢٠- ٢١] .
٨٨ - قوله تعالى أيضا في حق الأموات من الأنبياء والأولياء وغيرهم ممن كان المشركون ينادونهم عند الكربات ويدعونهم لدفع المضرات وجلب الخيرات: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} ... [فاطر: ١٣-١٤] .
٨٩ - قوله تعالى أيضا في حق الأموات من الأنبياء والأولياء وغيرهم ممن كان المشركون ينادونهم عند الكربات * ويدعونهم لدفع المضرات وجلب الخيرات * ويستغيثون بهم عند إلمام الملمات ونزول البليات *: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف:٥] .
٩٠ -٩١- قوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا} ... {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} ... [آل عمران: ٣٧- ٤٠] .
٩٢ - قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} [مريم: ٨] .
٩٣ - قوله تعالى في حق مريم التي هي من أعظم وليات الله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} ... [آل عمران: ٤٧] .
٩٤ -٩٥- قوله تعالى في حقها: {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} ... [مريم: ١٧-٢٠] .
تنبيه: من الآيات التي تبطل زعم القبورية أن رسول الله ﷺ حاضر وناظر كل حين وآن * وأنه موجود في السماوات والأرض وفي كل مكان وفي كل زمان*.
٩٦ - قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: ٤٤] .
٩٧ - وقوله سبحانه: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [القصص: ٤٤].
٩٨ - وقوله عز وجل: {وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [القصص: ٤٥].
٩٩ - وقوله جل وعلا: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [القصص: ٤٦].
١٠٠ - وقوله سبحانه وتعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف: ١٠٢] .

إلى غيرها من الآيات المباركات؛ ولقد استدل أهل العلم بهذه الآيات وغيرها- على أن علم الغيب صفة مختصة بالله تعالى، وأن الأنبياء عليهم السلام، والأولياء، والملائكة،

والجن، لا يعلمون المغيبات؛ فالله تعالى هو وحده عالم الغيب والشهادة، وهو وحده علام الغيوب، وعنده وحده مفاتيح الغيب، وهو وحده يعلم الأمور الخمسة المذكورة في آخر سورة لقمان؛ وهو وحده يعلم السر وأخفى، وهو وحده يعلم ما في الصدور، وهو وحده لا تخفى عليه خافية، وقد تقدم في هذه الآيات أنه لا يعلم أحد في السماوات والأرض الغيب غير الله تعالى، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب، وأن الأولياء كأصحاب الكهف، ومريم، وغيرهم لم يكونوا يعلمون الغيب، وأن الله تعالى قد ساق في كتابه كثيرا من أخبار أنبيائه وأوليائه دليلا على أنهم لم يكونوا يعلمون الغيب، كقصةِ آدمَ والملائكةِ، وإبراهيمَ، ولوطٍ، ويعقوبَ، ويوسفَ، وزكريا، وعزير، ومريمَ، وأصحابِ الكهفِ، وغيرِها؛ وهي كلها أدلة قاطعة علىأنهم لم يكونوا يعلمون الغيب كله، وهكذا الجن لم يكونوا يعلمون الغيب.

القرآن

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)} [الأعراف : ١٨٩]

التفسير:

هو الذي خلقكم -أيها الناس- من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام وخَلَق منها زوجها، وهي حواء؛ ليأنس بها ويطمئن، فلما جامعها -والمراد جنس الزوجين من ذرية آدم- حملت ماءً خفيفًا، فقامت به وقعدت وأتمت الحمل، فلما قَرُبت ولادتها وأثقلت دعا الزوجان ربهما: لئن أعطيتنا بشرًا سويًا صالحًا لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت لنا من الولد الصالح.

سبب النزول:

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "كانت حواء تلد لآدم، فتعبدهم لله وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبيهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش، فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث؛ ففيه أنزل الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}"[1]. [منكر]

---

[1] أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٥١٥):ص٣١٠/١٣: ثنا ابن حميد ثنا سلمة بن الأبرش عن ابن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس.

قلنا: وهذا حديث منكر؛ فيه علل:

الأولى: رواية داود بن الحصين عن عكرمة خاصة منكرة.

الثانية: ابن إسحاق؛ مدلس، وقد عنعن.

الثالثة: ابن حميد؛ ضعيف، وقد اتهمه بعضهم.

وأخرجه الترمذي في "سننه" (٥/ ٢٦٧ رقم ٣٠٧٧)، وأحمد "مسنده" (٥/ ١١)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ٩٩)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٧/ ٢١٥ رقم ٦٨٩٥)، وابن عدي في "الكامل" (٥/ ١٧٠٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٣١ رقم ٨٦٣٧، ٨٦٤١)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٨٦)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥٤٥)، وابن بشران في "الأمالي" (ق ١٥٨/ ب) من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بنحوه ليس فيه التصريح بسبب النزول.

قلنا: وهذا سند ضعيف، فيه نكارة؛ وفيه علل:

الأولى: الحسن مدلس وقد عنعنه.

الثانيه: عمر هذا؛ أصله صدوق؛ إلا أن روايته عن قتادة خاصة ضعيفة.

قال ابن عدي: "وحديثه عن قتادة خاصة مضطرب، وهو مع ضعفه يكتب حديثه".

ولخصه الحافظ في "التقريب" (٢/ ٥١) بقوله: "صدوق، وفي حديثه عن قتادة ضعف".

قال الإمام الألباني في "الضعيفة" (رقم ٣٤٢): "ضعيف".

وأعله ابن كثير من ثلاثة أوجه تراها في "تفسيره" (٢/ ٢٨٦).

ومما يدلك على نكارة القصة ما ثبت عن الحسن نفسه أنه فسر الآية بغير ذلك فقال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [الأعراف : ١٨٩]، أي:" هو الذي خلقكم -أيها الناس- من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام"[١].

قال الطبري:" يعني بالنفس الواحدة: آدم"[٢].

قال ابن كثير:" ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم ، عليه السلام"[٣].

عن مجاهد: "{خلقكم من نفس واحدة}، قال: آدم عليه السلام"[٤]. وروي عن قتادة مثله[٥].

قال القرطبي:" قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم"[٦].

قوله تعالى:{وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف : ١٨٩]، أي:" وخَلَق منها زوجها، وهي حواء؛ ليأنس بها ويطمئن"[٧].

قال الطبري:يعني:" وجعل من النفس الواحدة، وهو آدم، زوجها حواء، ليأوي إليها لقضاء حاجتة ولذته"[٨].

قال القرطبي:أي:" ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة"[٩].

قال ابن كثير:أي:" وأنه خلق منه زوجه حواء، ليألفها ويسكن بها ، كما قال تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } [الروم : ٢١] فلا ألفة بين زَوْجين أعظم مما بين الزوجين ؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه "[١٠].

قال السعدي:" أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة"[١١].

عن قتادة. "{وجمل منها زوجها}،: حواء، فجعلت من ضلع من أضلاعه، ليسكن إليها"[١٢].

قال الزمخشري:" {ليسكن إليها}، ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال {ليسكن} فذكر بعد ما أنث في قوله: {واحدة}. {منها زوجها}، ذهابا إلى معنى «النفس»، ليبين أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى"[١٣].

قوله تعالى:{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا} [الأعراف : ١٨٩]، أي:" فلما جامعها -والمراد جنس الزوجين من ذرية آدم- حملت ماءً خفيفًا"[١٤].

ذكر ذلك عنه الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٨٦)، ثم قال:
"وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه".

[١] التفسير الميسر:١٧٥.
[٢] تفسير الطبري:٣٠٣/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٥٢٤/٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٤٩٧):ص٣٠٣/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٤٩٨):ص٣٠٤/١٣.
[٦] تفسير القرطبي:٣٣٧/٧.
[٧] التفسير الميسر:١٧٥.
[٨] تفسير الطبري:٣٠٤/١٣.
[٩] تفسير القرطبي:٣٣٧/٧.
[١٠] تفسير ابن كثير:٥٢٤/٣-٥٢٥.
[١١] تفسير السعدي:٣١١.
[١٢] أخرجه الطبري(١٥٤٩٩):ص٣٠٤/١٣.
[١٣] الكشاف:١٨٦/٢.
[١٤] التفسير الميسر:١٧٥.

قال الطبري:يعني:" فلما تدثَّرها لقضاء حاجته منها، فقضى حاجته منها، {حملت حملا خفيفًا}، وفي الكلام محذوف، ترك ذكرُه استغناءً بما ظهر عما حذف، وذلك قوله: (فلما تغشاها حملت) ، وإنما الكلام: فلما تغشاها -فقضى حاجته منها- حملت"[١].

قال ابن كثير:" { فَلَمَّا تَغَشَّاهَا } أي : وطئها { حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا } وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألما ، إنما هي النُّطفة ، ثم العَلَقة ، ثم المُضغة"[٢].

قال السعدي:" {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}، أي: تجللها مجامعا لها قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، وحينئذ {حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا}، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يثقلها"[٣].

قال القرطبي:" ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: {فلما تغشاها} كناية عن الوقاع"[٤].

قال الزمخشري:" و«التغشى»: كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان، {حملت حملا خفيفا} خف عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته"[٥].

عن السدي، قوله: "{حملت حملا خفيفًا}، قال: هي النطفة"[٦].

ويعني بـ«خفة الحمل»: الماء الذي حملته حواء في رَحِمها من آدم، أنه كان حملا خفيفًا، وكذلك هو حملُ المرأة ماءَ الرجل خفيفٌ عليها[٧].

قال أبو السعود:" فإنه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ومن الضعف إلى القوة"[٨].

قوله تعالى:{فَمَرَّتْ بِهِ} [الأعراف : ١٨٩]، أي:" فاستمرت به إلى حين ميلاده"[٩].

قال الفراء:" قامت به وقعدت"[١٠].

قال الطبري:يعني:" يعني: استمرَّت بالماء: قامت به وقعدت، وأتمت الحمل"[١١].

عن مجاهد: "{فمرت به}، قال: استمرّ حملها"[١٢].

قال القرطبي:" يعني: المني، أي استمرت بذلك الحمل الخفيف. يقول: تقوم وتقعد وتقلب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثقل"[١٣].

قال الزمخشري:أي:" فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق"[١٤].

عن أيوب قال: "سألت الحسن عن قوله: {حملت حملا خفيفًا فمرت به}، قال: لو كنت امرءًا عربيًّا لعرفت ما هي؟ إنما هي: فاستمرَّت به"[١٥].

---

(١) تفسير الطبري:٣٠٤/١٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٢٥/٣.
(٣) تفسير السعدي:٣١١.
(٤) تفسير القرطبي:٣٣٧/٧.
(٥) الكشاف:١٨٦/٢.
(٦) أخرجه الطبري(١٥٥٠٣):ص٣٠٥/١٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٣٠٤/١٣.
(٨) تفسير أبي السعود:٣٠٣/٣.
(٩) صفوة التفاسير:٤٥٢/١.
(١٠) معاني القرآن:٤٠٠/١.
(١١) تفسير الطبري:٣٠٤/١٣.
(١٢) أخرجه الطبري(١٥٥٠٢):ص٣٠٥/١٣.
(١٣) تفسير القرطبي:٣٣٧/٧.
(١٤) الكشاف:١٨٦/٢. قوله «من غير إخداج ولا إزلاق» إخداج: أى: نقصان. ولا إزلاق: أى: إسقاط.
(١٥) أخرجه الطبري(١٥٥٠٠):ص٣٠٤/١٣-٣٠٥.

عن قتادة: "{فلما تغشاها حملت حملا خفيًا فمرت به}، استبان حملها"[1].
وروي عن ابن عباس، في قوله: "{فمرت به}، قال: فشكت، أحملت أم لا؟"[2].
وقرأ ابن عباس رضى الله عنه: «فاستمرت به»، وقرأ يحيى بن يعمر: «فمرت به»، بالتخفيف. وقرأ غيره: «فمارت به»، من المرية، كقوله: {أَفَتُمَارُونَهُ } [النجم : ١٢]، وأ فتمرونه. ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل، فارتابت به[3].
قوله تعالى:{فَلَمَّا أَثْقَلَتْ} [الأعراف : ١٨٩]، أي:" فلما قَرُبت ولادتها وأثقلت"[4].
قال الفراء:" دنت ولادتها"[5].
قال الزمخشري: أي:"حان وقت ثقل حملها، كقولك: أقربت"[6].
قال ابن كثير:" أي : صارت ذات ثقل بحملها "[7].
قال الطبري: يعني:" فلما صار ما في بطنها من الحمل الذي كان خفيفًا، ثقيلا ودنت ولادتها"[8].
قال السعدي:" {فَلَمَّا} استمرت به و {أَثْقَلَتْ} به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيا، صحيحا، سالما لا آفة فيه كذلك"[9].
عن السدي: "{فلما أثقلت} ،: كبر الولد في بطنها"[10].
وقرئ: «أثقلت»، على البناء المفعول: أى: أثقلها الحمل[11].
قوله تعالى:{دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف : ١٨٩]، أي:" دعا الزوجان ربهما: لئن أعطيتنا بشرًا سويًا صالحًا لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت لنا من الولد الصالح"[12].
قال الطبري:" يقول: نادى آدم وحواء ربهما وقالا يا ربنا، لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت له من الولد صالحًا"[13].
قال الزمخشري:أي:" دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيقي بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا لئن آتيتنا لئن وهبت لنا صالحا ولدا سويا قد صلح بدنه وبريء[14]. وقيل. ولدا ذكرا، لأن الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير في آتيتنا ولنكونن. لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما[15]"[1].

---

(1) أخرجه الطبري(١٥٥٠١):ص١٣/٣٠٥.
(2) أخرجه الطبري(١٥٥٠٤):ص١٣/٣٠٥.
(3) انظر: الكشاف:٢/١٨٦.
(4) التفسير الميسر:١٧٥.
(5) معاني القرآن:١/٤٠٠.
(6) الكشاف:٢/١٨٦.
(7) تفسير ابن كثير:٣/٥٢٥.
(8) تفسير الطبري:١٣/٣٠٥.
(9) تفسير السعدي:٣١١.
(10) أخرجه الطبري(١٥٥٠٥):ص١٣/٣٠٥.
(11) انظر: الكشاف:٢/١٨٦.
(12) التفسير الميسر:١٧٥.
(13) تفسير الطبري:١٣/٣٠٦-٣٠٨.
(14)وبريء، لعله: وبريء من الآفات.
(15)قال أحمد وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب- والله أعلم- أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المعنى- والله أعلم- خلقكم جنسا واحدا، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت. وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون، لأن المشركين منهم أإذا ما مت لسوف أخرج حيا وقتل الإنسان ما أكفره، إن الإنسان لفي خسر كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع من بعضهم وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصى وعقبه، والمراد البعض، فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة، وجوابه واحد ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأول. ومما ينصرف إلى

قال ابن كثير:" {صَالِحًا }، أي : بشرا سويا "[٢].
قال السعدي:" فدعوا {اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا} ولدا {صَالِحًا} أي: صالح الخلقة تامها، لا نقص فيه {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}"[٣].
واختلف في معنى«الصلاح» هنا، على قولين:
أحدهما: معناه: أن يكون الحمل غلاما. قاله الحسن[٤].
والثاني: معناه: أن يكون المولود بشرًا سويًّا مثلهما، ولا يكون بهيمة، وههذا قول ابن عباس[٥]، وأبي صالح[٦]، وأبي البختري[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، والسدي[٩].
قال سعيد بن جبير: لما هبط آدم وحواء، ألقيت الشهوة في نفسه فأصابها، فليس إلا أن أصابها حملت، فليس إلا أن حملت تحرك في بطنها ولدها، قالت: ما هذا؟ فجاءها إبليس، فقال لها: إنك حملت فتلدين! قالت: ما ألد؟ قال: أترين في الأرض إلا ناقةً أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة، أو بعض ذلك! ويخرج من أنفك، أو من أذنك، أو من عينك. قالت: والله ما مني شيء إلا وهو يضيق عن ذلك! قال: فأطيعيني وسميه «عبد الحارث»-وكان اسمه في الملائكة الحارث- تلدي شبهكما مثلكما! قال: فذكرت ذلك لآدم عليه السلام، فقال: هو صاحبنا الذي قد علمت! فمات، ثم حملت بآخر، فجاءها فقال: أطيعيني وسميه عبد الحارث -وكان اسمه في الملائكة الحارث- وإلا ولدت ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة، أو قتلته، فإني أنا قتلت الأول! قال: فذكرت ذلك لآدم، فكأنه لم يكرهه، فسمته «عبد الحارث»، فذلك قوله: {لئن آتيتنا صالحًا} ، يقول: شبهنا مثلنا {فلما آتاهما صالحًا}، قال: شبههما مثلهما"[١٠].
عن السدي: "{فلما أثقلت}، كبر الولد في بطنها، جاءها إبليس، فخوَّفها وقال لها: ما يدريك ما في بطنك؟ لعله كلب، أو خنزير، أو حمار! وما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيقتلك، أو من قُبُلك، أو ينشق بطنك فيقتلك؟ فذلك حين {دعوا الله ربهما لئن آتينا صالحًا}، يقول: مثلنا {لنكونن من الشاكرين}" [١١].
قال ابن كثير-بعد أن ذكر طرفا من تلك الآثار-:" وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : "إذا حَدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم" ، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها : ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه ، بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا. ومنها : ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون في روايته ، بقوله ، عليه السلام : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حَرج»[١٢]، وهو الذي لا يصدَّق ولا يكذب ، لقوله : «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[١٣]. وهذا الأثر : هل هو من القسم الثاني أو الثالث ؟ فيه نظر. فأما من حدث به من

التأويل الثاني من استبعاد تخصيص قصى بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه وكون المراد بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام في الجنس، والله أعلم.[حاشية الكشاف:١٨٦/٢].
[١] الكشاف:١٨٦/٢.
[٢] تفسير ابن كثير:٥٢٥/٣.
[٣] تفسير السعدي:٣١١.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٠٦):ص٣٠٦/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٥١٠):ص٣٠٦/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٠٩):ص٣٠٦/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٠٧):ص٣٠٦/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٥١١):ص٣٠٧/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٥١٢):ص٣٠٧/١٣-٣٠٨.
[١٠] أخرجه الطبري(١٥٥١١):ص٣٠٧/١٣.
[١١] أخرجه الطبري(١٥٥١٢):ص٣٠٧/١٣-٣٠٨.
[١٢]رواه البخاري ٦ / ٣٦١ في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، والترمذي رقم (٢٦٧١) في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، وانظر شرح الحديث في " الفتح " ١ / ١٨٠ - ١٨١.
[١٣] رواه أحمد: ٤/ ١٣٦،وأبو داود: (٣٦٤٤). وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٧٦٨).

صحَابي أو تابعي ، فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري ، رحمه الله ، في هذا والله أعلم وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال الله : { فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }"[١].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعَوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحًا ليكونان لله من الشاكرين.

و«الصلاح» قد يشمل معاني كثيرة: منها «الصلاح» في استواء الخلق، ومنها "الصلاح" في الدين، و"الصلاح" في العقل والتدبير.

وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني «الصلاح» دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يُعَمَّ كما عمَّه الله، فيقال: إنهما قالا {لئن آتيتنا صالحًا} بجميع معاني «الصلاح»"[٢].

الفوائد:

١- بيان أصل خلق البشر وهو آدم وحواء عليهما السلام، وخلق من آدم زوجه حواء.
٢- بيان السر في كون الزوج من جنس الزوج وهو الألفة والأنس والتعاون.
٣- ومن الفوائد: أن أهم مقاصد الزواج سكن الرجل إلى المرأة وبقاء النوع بالتناسل، وتكثير سواد المسلمين.
٤- ويستفاد من الفائدة السابقة: إبطال زواج المتعة: وجمهور المسلمين على أن العقد لا يصح، لأن المراد به مجرد الاستمتاع دون الولد، وقد ثبت أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نهي عن زواج المتعة، وهو الزواج الذى لا يقصد به إلا الاستمتاع، سواء أعقد بلفظ المتعة أم عقد بغيره.

القرآن

{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)} [الأعراف : ١٩٠]

التفسير:

فلما رزق الله الزوجين ولدًا صالحًا، جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بخلقه فعبَّداه لغير الله، فتعالى الله وتنزه عن كل شرك.

قوله تعالى:{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا} [الأعراف : ١٩٠]، أي:" فلما رزق الله الزوجين ولدًا صالحًا"[٣].

قال السعدي:" {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا} على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه"[٤].

قال الزمخشري:أي:" من الولد الصالح السوى"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلما رزقهما الله ولدًا صالحًا كما سألا"[٦].

قوله تعالى:{جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} [الأعراف : ١٩٠]، أي:" جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بخلقه فعبَّداه لغير الله"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: جعلا له شركاء فيما آتاهما ورزقهما"[٨].

---

[١] تفسير ابن كثير:٥٢٩/٣.
[٢] تفسير الطبري:٣٠٨/١٣.
[٣] التفسير الميسر:١٧٥.
[٤] تفسير السعدي:٣١١.
[٥] الكشاف:١٨٧/٢.
[٦] تفسير الطبري:٣٠٨/١٣.
[٧] التفسير الميسر:١٧٥.
[٨] تفسير الطبري:٣٠٨/١٣.

قال الزمخشري:" أى: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما أى آتى أولادهما، وقد دل على ذلك بقوله {فتعالى الله عما يشركون} حيث جمع الضمير. وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم آل قصى ألا ترى إلى قوله في قوله في قصة أم معبد [١]:

فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فخار لا يبارى وسودد [٢]

---

[١] هذا طرف من حديث أم معبد في هجرة النبي ﷺ. والخبر أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٥٥/٤، وقال في مجمع الزوائد: في إسناده جماعة لم أعرفهم كما أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، ص ٢٨٢، والحاكم في المستدرك: ٩/٣، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه واستدل على صحته بدلائل عقب عليها الذهبي فقال: ما في هذه الطرق شئ على شرط الصحيح وله تخريجات أخرى يرجع إليها في سبل الهدى والرشاد للصالحي: ٣٤٦/٣.

[٢] ونص الحديث:" روى الطبراني وأبو بكر بن عاصم وأبو نعيم، من حديث حرام ابن هشام بن حبيش بن خالد، عن أبيه، عن جده حبيش، قال: «خرج رسول الله - ﷺ - من مكة، ومعه أبو بكر، ومولاه عامر بن فهيرة، ودليلهما عبد الله بن الأريقط الليثي، فمروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت برزة جلدة تحتبي بفناء القبة، ثم تسقى، وتطعم، فسألوها لحما وتمرا يشترونه منها، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، فكان القوم مرملين مسقتين، فنظر رسول الله - ﷺ - إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فقالت: خلفها الجهد عن الغنم. فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لنا أن أحلبها؟ قالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فدعا بها رسول الله - ﷺ - فسمى الله تعالى، ومسح ضرعها [ودعا لها في شاتها] فتفاجت عليه، ودرت، واجترت، ودعا بإناء يربض الرهط، فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت، وسقا أصحابه حتى رووا، ثم شرب آخرهم، ثم حلب [فيه] ثانيا حتى ملأ الإناء، وغادره عندها، ثم بايعها وارتحلوا عنها، فلم يلبث أن قدم زوجها يسوق أعنزا عجافا [يتساوكن هزالا] ، فلما رأى عندها اللبن عجب منه، وقال: من أين هذا اللبن؟ والشاة عازب حيال، ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله [إلا] أنه مر بنا رجل [مبارك شأنه كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه حسن الخلق لم تعبه ثجلة، ولم تزريه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صويه صحل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن ، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر، كأن منطقه خزرات نظم يتحدرن،

ربعة لا تشنؤه من طول ولا تقحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، انظر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر يتبادرون إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند. قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى هذا سبيلا. قال: وأصبح صوت عال بمكة، يسمعون الصوت، ولا يدرون [من] صاحبه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى فاهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا اختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحا ضرة الشاة مزبد
وغادرها رهنا لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

قال: فسمع بذلك حسان بن ثابت - رضي الله عنه - فقال يجاوب الهاتف:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنود مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم: من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا ... عمى وهداة يهتدون بمهتد
وقد نزلت منه على أهل ... يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته: من يسعد الله يسعد".

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصى، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وعبد الدار، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه"[١].

قال الفراء:[فلما]" دنت ولادتها، أتاها إبليس فقال: ماذا في بطنك؟ فقالت: لا أدري. قال: فلعله بهيمة، فما تصنعين لي إن دعوت الله لك حتى يجعله إنسانا؟ قالت: قل، قال: تسمينه باسمي. قالت: وما اسمك؟ قال: الحرث. فسمته عبد الحارث، ولم تعرفه أنه إبليس، وقوله: {جعلا له شركاء } إذ قالت: عبد الحارث، ولا ينبغي أن يكون عبدا إلا لله"[٢].

قال السعدي:" أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فَعَبَّدَاه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ«عبد الحارث» و «عبد العزيز» و «عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرا، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتا موقوتا، تتشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويا صحيحا، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم. أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدا، ويخلصوا له الدين"[٣].

واختلف في «الشركاء» التي جعلاها فيما أوتيا من المولود، على قولين:

أحدهما: جعلا له شركاء في الاسم. وهذا قول ابن عباس[٤]، وسمرة بن جندب[٥]، ومجاهد[٦]، وسعيد بن جبير[٧]، وقتادة[٨]، وعكرمة[٩]، والسدي[١٠].

عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: "كانت حوّاء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه «عبد الحارث»، فعاش لها ولد، فسمته «عبد الحارث»، وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان"[١١].

جامع المسانيد والسنن(٢٠٢٩):ص٣٠٤/٢-٣٠٨.

[١] الكشاف:١٨٧/٢-١٨٨.

[٢] معاني القرآن:٤٠٠/١.

[٣] تفسير السعدي:٣١١.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٥١٥)-(١٥٥١٨):ص٣١٠/١٣-٣١١.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٥١٤):ص٣١٠/١٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٢٢):ص٣١٢/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٢٣):ص٣١٣/١٣.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٢٠):ص٣١٢/١٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٥١٩):ص٣١١/١٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٢٥):ص٣١٣/١٣-٣١٤.

[١١] أخرجه الطبري(١٥٥١٣):ص٣٠٩/١٣. والخبر رواه أحمد في مسنده ٥: ١١، بغير هذا اللفظ، ورواه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرك ٢: ٥٤٥، وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) ، ووافقه الذهبي. وأخرجه الترمذي في تفسير الآية وقال: ((هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة. وقد رواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه)) .

وخرجه ابن كثير في تفسيره ٣: ٦١١، ٦١٢، وأعله من ثلاثة وجوه:

الأول: أن عمر بن إبراهيم لا يحتج به =

الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه غير مرفوع

والثاني: أن المعنيّ بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بني آدم، جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد. وهذا قول الحسن(١).

قال الطبري:" وأولى القولين بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: {فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء} في الاسم لا في العبادة وأن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك"(٢).

وقرئ: «شركاء»، أى: ذوى شرك وهم الشركاء، أو أحدثا الله شركا في الولد(٣).

قوله تعالى:{فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف : ١٩٠]، أي:" فتعالى الله وتنزه عن كل شرك"(٤).

قال الطبري: يقول: "فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان، وقوله: {فتعالى الله عما يشركون}، تنزيه من الله تبارك وتعالى نفسَه، وتعظيم لها عما يقول فيه المبطلون، ويدَّعون معه من الآلهة والأوثان"(٥).

قال الزمخشري:" أى: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما أى آتى أولادهما"(٦).

عن ابن جريج: "{فتعالى الله عما يشركو}، قال: هو الإنكاف، أنكف نفسه جل وعز- يقول: عظَّم نفسه - وأنكفته الملائكة وما سبَّح له"(٧).

عن عيينة قال: "سمعت صدقة يحدِّث عن السدي قال: هذا من الموصول والمفصول، قوله: {جعلا له شركاء فيما آتاهما}، في شأن آدم وحواء، ثم قال الله تبارك وتعالى: {فتعالى الله عما يشركون}، قال: عما يشرك المشركون، ولم يعنهما"(٨).

= الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، وذكر بعض أخبار أبي جعفر بأسانيدها رقم ١٥٥٢٦ - ١٥٥٢٨، ثم قال: ((وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية. ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولاسيما مع تقواه وورعه. فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم)) .

قلت: وسترى أن أبا جعفر قد رجح أن المعني بذلك آدم وحواء، قال: ((لإجماع الحجة من أهل التأويل علي ذلك)) . وإجماع أهل التأويل في مثل هذا، مما لا يقوم الأول: لأن الآية مشكلة، ففيها نسبة الشرك إلى آدم الذي اصطفاه ربه، بنص كتاب الله، وقد أراد أبو جعفر أن يخرج من ذلك، فزعم (ص: ٣١٥) أن القول عن آدم وحواء انقضى عند قوله: ((جعلا له شركاء فيما آتاهما، ثم استأنف قوله: ((فتعالى الله عما يشركون)) ، يعنى عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان.وهذا مخرج ضعيف جداً.

الثاني أن مثل هذا المشكل في أمر آدم وحواء، ونسبة الشرك إليهما، مما لا يقضى به، إلا بحجة يجب التسليم لها من نص كتاب، أو خبر عن رسول الله ﷺ. ولا خبر بذلك، إلا هذا الخبر الضعيف الذي بينا ضعفه، وأنه من رواية عمر بن إبراهيم، عن قتادة. وروايته عن قتادة مضطربة، خالف فيها ما روى عن الحسن، أنه عنى بالآية بعض أهل الملل والمشركون.

هذا، وقد رد هذا القول، جماعة من المفسرين، كابن كثير في تفسيره، والفخر الرازي (٣: ٢٤٣ - ٣٤٥) ، وحاول الزمخشرى في تفسيره أن يرده فلم يحسن، وتعقبه أحمد بن محمد بن المنير في الإنصاف. وغير هؤلاء كثير.

ولكن بعد هذا كله، نجد إن تفسير ألفاظ الآية، ومطابقته للمعنى الصحيح الذي ذهب العلماء إليه في نفي الشرك عن أبينا آدم عليه السلام، وفي أن الآية لا تعنى أبانا آدم وأمنا حواء بقى مبهماً، لم يتناوله أحد ببيان صحيح.

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٢٦)-(١٥٥٢٨):ص١٣/٣١٤-٣١٥.

(٢) تفسير الطبري:١٣/٣١٥.

(٣) انظر: الكشاف:٢/١٨٨.

(٤) التفسير الميسر:١٧٥.

(٥) تفسير الطبري:١٣/٣١٥-٣١٧.[بتصرف]

(٦) الكشاف:٢/١٨٧.

(٧) أخرجه الطبري(١٥٥٣٠):ص١٣/٣١٧.

(٨) أخرجه الطبري(١٥٥٣١):ص١٣/٣١٧.

عن السدي، قوله: {فتعالى الله عما يشركون}، يقول: هذه فصْلٌ من آية آدم، خاصة في آلهة العرب"[1].

وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: «جَعَلا لَهُ شِرْكًا» بكسر الشين، بمعنى :الشَّرِكَة[2].

الفوائد:

١- جحد المشركين بنعمة الله، وتفننهم في تعظيم غير الله وشكره.
٢- بيان خداع إبليس وتضليله للإنسان حيث زين لحواء تسمية ولدها بعبد الحارث وهو عبد الله.
٣- تحريم كل اسم معبّد لغير الله، قال ابن حزم: "اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك - حاشا عبد المطلب –"[3].
٤- الشرك في التسمية شرك خفي معفو عنه وتركه أولى.

القرآن

{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)} [الأعراف : ١٩١]

التفسير:

أيشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله مخلوقاته، وهي لا تقدر على خَلْق شيء، بل هي مخلوقة؟

قوله تعالى:{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا} [الأعراف : ١٩١]، أي:" أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً"[4].

قال الطبري:يقول: " أيشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئًا من خلق الله"[5].

قال ابن كثير:" هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تنصرولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ؛ ولهذا قال : { أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } أي : أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك ، كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج : ٧٣ ، ٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ، ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو أستَلبتهم الذبابة شيئا من حَقير المطاعم وطارت ، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها ، فمن هذه صفته وحاله ، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟"[6].

قوله تعالى:{وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [الأعراف : ١٩١]، أي:" والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله؟"[7].

قال الطبري:أي:"والله يخلقها وينشئها؟ وإنما العبادة الخالصة للخالق لا للمخلوق"[8].

---

[1] أخرجه الطبري(١٥٥٢٩):ص٣١٥/١٣.
[2] انظر: السبعة في القراءات:٢٩٩، و تفسير الطبري:٣١٦/١٣.
[3]مراتب الإجماع:١٥٤.
[4] صفوة التفاسير:٤٥٢/١.
[5] تفسير الطبري:٣١٩/١٣.
[6] تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.
[7] صفوة التفاسير:٤٥٢/١.
[8] تفسير الطبري:٣١٨/١٣.

قال ابن كثير:" أي : بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل:{ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات : ٩٥ ، ٩٦]"(١).

قال القرطبي:" أي: الأصنام مخلوقة. وقال:{يخلقون}، بالواو والنون، لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس، كقوله: { فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء : ٣٣- يس: ٤٠]، وقوله: { يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ} [النمل : ١٨]"(٢).

قال الزمخشري:" أجريت الأصنام مجرى أولى العلم في قوله {وهم يخلقون} بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله، وهم يخلقون؟ لأن الله عز وجل خالقهم. أو لا يقدر على اختلاق شيء، لأنه جماد، وهم يخلقون، لأن عبدتهم يختلقونهم، فهم أعجز من عبدتهم"(٣).

قال ابن زيد: "ولد لآدم وحواء ولد، فسمياه «عبد الله»، فأتاهما إبليس فقال: ما سميتما يا آدم ويا حواء ابنكما؟ قال: وكان وُلد لهما قبل ذلك ولد، فسمياه "عبد الله"، فمات. فقالا سميناه "عبد الله". فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما؟ لا والله، ليذهبن به كما ذهبَ بالآخر! ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما، فسمياه «عبد شمس»! قال: فذلك قول الله تبارك وتعالى: {أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون}، آلشمس تخلق شيئًا حتى يكون لها عبد؟ إنما هي مخلوقة! وقد قال رسول الله ﷺ: «خدعهما مرتين، خدعهما في الجنة، وخدعهما في الأرض»"(٤).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة أن توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها. قال تعالى: {أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون} ، وقال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [النحل : ١٧]، وقال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} [الإسراء : ٤٢](٥).

٢- ويستفاد من الآية {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} بأن العبد غير موجد ولا خالق لأفعاله. لأنه تعالى طعن في ألوهية الأجسام بسبب أنها لا تخلق شيئاً. فهذا يقتضي أن كل ما كان خالقاً كان إلهاً، فلو كان العبد خالقاً لأفعال نفسه لكان إلهاً، ولما كان ذلك باطلاً علمنا أن العبد غير خالق لأفعال نفسه(٦).

٣- ومنها: بيان أن المدعوين من دون الله لا ينفعون ولا يضرون، وسواء في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام، فكل من دعي من دون الله فهذه حاله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج:٧٣-٧٤].

١- ومنها: بيان أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الألوهية، إذ ورد في القرآن أساليب الدعوة إلى توحيد الألوهية، ومن الأساليب في الدعوة إلى توحيد الألوهية التنديد بما يتخذه الكفار من آلهة من دون الله تعالى، وإظهار حالها من العجز: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [الأعراف:١٩١] كأنه يندد بآلهتهم أنها لا تستحق شيئ.

القرآن

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.

(٢) تفسير القرطبي:٣٤١/٧.

(٣) الكشاف:١٨٨/٢.

(٤) أخرجه الطبري(١٥٥٣٢):ص٣١٨/١٣.

(٥) انظر: شرح الطحاوية:٣٨-٣٩.

(٦) .

{وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)} [الأعراف : ١٩٢]

التفسير:

ولا تستطيع أن تنصر عابديها أو تدفع عن نفسها سوءًا، فإذا كانت لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عمن يعبدها، ولا عن نفسها، فكيف تُتَّخذ مع الله آلهة؟ إنْ هذا إلا أظلم الظلم وأسفه السَّفَه.

قوله تعالى:{وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا} [الأعراف : ١٩٢]، أي:" ولا يستطيع هذه الأصنام نصر عابديها"[١].

قال ابن كثير:" أي : لعابديهم"[٢].

قال الزمخشري:أي:"لعبدتهم نصرا"[٣].

قال الطبري:" ولا يستطيع أن ينصرهم إن أراد الله بهم سوءًا، أو أحلّ بهم عقوبة"[٤].

قوله تعالى:{وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف : ١٩٢]، أي:" ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟"[٥].

قال الزمخشري:أي:" فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم"[٦].

قال الطبري:" ولا هو قادر إن أراد به سوءًا نصر نفسه ولا دفع ضر عنها؟ وإنما العابد يعبد ما يعبده لاجتلاب نفع منه أو لدفع ضر منه عن نفسه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلب إلى نفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضرًّا، فهي من نفع غير أنفسها أو دفع الضر عنها أبعدُ؟ يعجِّب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم اللهَ غيرَه"[٧].

قال ابن كثير:" يعني : ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، يكسر أصنام قومه ويهينُها غاية الإهانة ، كما أخبر تعالى عنه في قوله : { فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ } [الصافات : ٩٣] وقال تعالى : { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } [الأنبياء : ٥٨] وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل ، رضي الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ، ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتئوا لأنفسهم ، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيدًا في قومه - كان له صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ، ويلطخانه بالعَذِرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ، ويقول له : «انتصر». ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضا ، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت ، ودلَّياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال[٨]:

تَالله لو كُنتَ إلَها مُسْتَدن   لم تَكُ والكَلْبُ جَمِيعًا في قَرنْ

ثم أسلم فَحسُن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدًا ، رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مأواه"[٩].

الفوائد:

---

[١] صفوة التفاسير:٤٥٢/١.
[٢] تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.
[٣] الكشاف:١٨٨/٢.
[٤] تفسير الطبري:٣١٩/١٣.
[٥] صفوة التفاسير:٤٥٢/١.
[٦] الكشاف:١٨٨/٢.
[٧] تفسير الطبري:٣١٩/١٣.
[٨]) انظر : الرجز في السيرة النبوية لابن هشام (٣٥٤/١).
[٩] تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.

١- بيان ضعف الشركاء ومهانة الآلهة المدعاة.
٢- أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية، فهي مخلوقة لا تخلقُ، ولا تجلب نفعًا لعابديها، ولا تدفع عنهم ضررًا، ولا تملك لهم حياة، ولا موتًا، ولا يملكون شيئًا من السموات، ولا يشاركون فيه.
٣- بيان فساد عقول المشركين وضلالهم وعمى بصائرهم، إذ أخبر تعالى منبهاً على ذلك بالاستفهام الإنكاري أيشركون بالله الذي تفرد بالملك، والحمد، والخلق، والأمر، والعز، والبقاء، والربوبية، والقيومية، والقهر، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والعطاء، والمنع، والنفع، والضر، بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، يفعل ما يشاء ويختار، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لو أن الخلق أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا في صعيد واحد وسألوه فأعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، سبحانه وتعالى بائن عن خلقه غني عما سواه لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ما فوق العرش وتحت الفرش في العلم عنده سواء، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون سبحانه وتعالى عما يشركون.

القرآن
{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)} [الأعراف : ١٩٣]
التفسير:
وإن ندعوا -أيها المشركون- هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى، لا تسمع دعاءكم ولا تتبعكم؛ يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تَهدِي ولا تُهدى.
قوله تعالى:{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ} [الأعراف : ١٩٣]، أي:" وإن ندعوا -أيها المشركون- هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى، لا تسمع دعاءكم ولا تتبعكم"[١].
قال الزمخشري:أي:" وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهدى أى إلى ما هو هدى ورشاد، وإلى أن يهدوكم. والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله، ويدل عليه قوله:{فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف : ١٩٤]"[٢].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره في وصفه وعيبه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربَّهم إياه: ومن صفته أنكم، أيها الناس، إن تدعوهم إلى الطريق المستقيم، والأمر الصحيح السديد لا يتبعوكم، لأنها ليست تعقل شيئًا، فتترك من الطرق ما كان عن القصد منعدلا جائرًا، وتركب ما كان مستقيمًا سديدً، وإنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بذلك من صفتها، تنبيهَهم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم. يقول جل ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد مَنْ إن دُعي إلى الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادًا من ضلالا"[٣].

---
[١] التفسير الميسر:١٧٥.
[٢] الكشاف:١٨٨/٢.
[٣] تفسير الطبري:٣٢٠/١٣.

قال أبو الليث:" قال الكلبي يعني: الآلهة. وإن يدع المشركون آلهتهم إلى أمر لا يتبعوكم يعني: لا يتبعهم آلهتهم"[1].

قال ابن كثير:" يعني : أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها"[2].

قوله تعالى:{سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ} [الأعراف : ١٩٣]، أي:" يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تَهدِي ولا تُهدى"[3].

قال أبو الليث:" سواء عليكم يا أهل مكة أدعوتموهم أم أنتم صامتون لا تعقل شيئا لأنه ليس فيها روح"[4].

قال الطبري:" وكان سواءً دعاءُ داعيه إلى الرشاد وسكوته، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له. يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يُشْكِل عظيمُ جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهًا؟ وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه"[5].

قال ابن كثير:أي:" وسواء لديها من دعاها ومن دحاها ، كما قال إبراهيم : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم : ٤٢] ؟"[6].

قال السعدي:" فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تهدِي ولا تُهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورا مجردا، جزم ببطلان إلهيتها، وسفاهة من عبدها"[7].

قال الزمخشري:أي:" سواء عليكم أدعوتموهم أم صمتم عن دعائهم، في أنه لا فلاح معهم. فإن قلت: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ} [الروم : ٣٣]، فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم"[8].

فعطف بقوله: {صامتون}، وهو اسم على قوله: {أدعوتموهم}، وهو فعل ماض، ولم يقل: أم صمتم، كما قال الشاعر[9]:

سَوَاءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ لَيْلَةً ... بِأَهْلِ الْقِبَابِ مِنْ نُمَيْرِ بنِ عَامِرِ[10]

الفوائد:

١- أن الشرك خرافات وأوهام،و وأن ما اتخذوه الكفار من ىلهة دون الله فهي لا تستحق شيئاً ولا لها تصريف أبداً.

٢- التنديد بالشرك والمشركين، وبيان جهل المشركين وسفههم إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب ولا يتبع.

٣- ضعف وعجز كل ما عبد من دونه.

القرآن

---

[1] بحر العلوم:٥٧٥/١.
[2] تفسير ابن كثير:٥٢٩/٣.
[3] التفسير الميسر:١٧٥.
[4] بحر العلوم:٥٧٥/١.
[5] تفسير الطبري:٣٢٠/١٣.
[6] تفسير ابن كثير:٥٢٩/٣.
[7] تفسير السعدي:٣١١.
[8] الكشاف:١٨٨/٢.
[9] لم أتعرف على قائله والبيت في معاني القرآن للفراء: ١/ ٤٠١، وتفسير الطبري:٣٢٠/١٣.
[10] انظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٤٠١، وتفسير الطبري:٣٢٠/١٣.

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤)} [الأعراف : ١٩٤]

التفسير:

إن الذين تعبدون من غير الله -أيها المشركون- هم مملوكون لربهم كما أنكم مملوكون لربكم، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا فادعوهم فليستجيبوا لكم، فإن استجابوا لكم وحصَّلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون مفترون على الله أعظم الفرية.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأعراف : ١٩٤]، أي:" إن الذين تعبدون من غير الله -أيها المشركون- هم مملوكون لربهم كما أنكم مملوكون لربكم"[١].

قال أبو الليث:" يعني: تعبدون {من دون الله} يعني: الأصنام، {عباد أمثالكم} يعني: مخلوقين مملوكين أشباهكم وليسوا بآلهة فادعوهم"[٢].

قال القرطبي:" حاجهم في عبادة الأصنام، {تدعون} تعبدون. وقيل: تدعونها آلهة، {من دون الله}، أي: من غير الله. وسميت الأوثان عباد الأنها مملوكة لله مسخرة"[٣].

قال ابن كثير:" ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أي : مخلوقات مثلهم ، بل الأناسي أكمل منها ، لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك"[٤]

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبِّخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: {إن الذين تدعون} أيها المشركون، آلهةً {من دون الله}، وتعبدونها، شركًا منكم وكفرًا بالله، {عباد أمثالكم}، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك"[٥].

قال الزمخشري:" أى: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله عباد أمثالكم وقوله {عباد أمثالكم} استهزاء بهم، أى: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم فقال: {ألهم أرجل يمشون بها}، وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم"[٦].

قال السعدي:" وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئا"[٧].

وقرأ سعيد بن جبير: «إن الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم»، بتخفيف «إن» ونصب «عبادا أمثالكم»، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم، على إعمال «إن» النافية عمل «ما» الحجازية[٨].

قوله تعالى:{فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف : ١٩٤]، أي:" فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا فادعوهم فليستجيبوا لكم، فإن استجابوا لكم وحصَّلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون مفترون على الله أعظم الفرية"[٩].

قال الطبري:أي:" فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سُئل سمع مسألة سائله وأعطى

---

(١) التفسير الميسر:١٧٥.
(٢) بحر العلوم:٥٧٥/١.
(٣) تفسير القرطبي:٣٤٢/٧.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٢٩/٣-٥٣٠.
(٥) تفسير الطبري:٣٢١/١٣.
(٦) الكشاف:١٨٩/٢.
(٧) تفسير السعدي:٣١٢.
(٨) انظر: الكشاف:١٨٩/٢.
(٩) التفسير الميسر:١٧٥.

وأفضل، ومن إذا شكي إليه من شيء سمع، فضرّ من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر"[1].

قال أبو الليث:" {إن كنتم صادقين} أنها آلهة"[2].

قال الصابوني:" أمرٌ على جهة التعجيز والتبكيت أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرٍّ إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة"[3].

قال السعدي:" فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى التبيين فيه، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء، فلأي شيء عبدتموها"[4].

الفوائد:

١-

القرآن

{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥)} [الأعراف : ١٩٥]

التفسير:

ألهذه الآلهة والأصنام أرجل يسعَوْن بها معكم في حوائجكم؟ أم لهم أيدٍ يدفعون بها عنكم وينصرونكم على من يريد بكم شرًا ومكروهًا؟ أم لهم أعين ينظرون بها فيعرِّفونكم ما عاينوا وأبصروا مما يغيب عنكم فلا ترونه؟ أم لهم آذان يسمعون بها فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟ فإذا كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات، فما وجه عبادتكم إياها، وهي خالية من هذه الأشياء التي بها يتوصل إلى جلب النفع أو دفع الضر؟ قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا آلهتكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة، ثم اجتمعوا على إيقاع السوء والمكروه بي، فلا تؤخروني وعجِّلوا بذلك، فإني لا أبالي بآلهتكم؛ لاعتمادي على حفظ الله وحده.

قوله تعالى:{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٩٥]، أي:" ألهذه الآلهة والأصنام أرجل يسعَوْن بها معكم في حوائجكم؟"[5].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، معرِّفَهم جهل ما هم عليه مقيمون: ألأصنامكم هذه، أيها القوم {أرجل يمشون بها} ، فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم"[6].

قوله تعالى:{أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٩٥]، أي:" أم لهم أيدٍ يدفعون بها عنكم وينصرونكم على من يريد بكم شرًا ومكروهًا؟"[7].

قال الطبري:" فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشرّ ومكروه"[8].

---

[1] تفسير الطبري:٣٢١/١٣.
[2] بحر العلوم:٥٧٥/١.
[3] صفوة التفاسير:٤٥٢/١.
[4] تفسير السعدي:٣١٢.
[5] التفسير الميسر:١٧٥.
[6] تفسير الطبري:٣٢٢/١٣.
[7] التفسير الميسر:١٧٥.
[8] تفسير الطبري:٣٢٢/١٣.

قوله تعالى:{أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٩٥]، أي:" أم لهم أعين ينظرون بها فيعرِّفونكم ما عاينوا وأبصروا مما يغيب عنكم فلا ترونه؟"[١].

قال الطبري:" فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه"[٢].

قوله تعالى:{أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٩٥]، أي:" أم لهم آذان يسمعون بها فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟"[٣].

قال الطبري:" فيخبروكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟ يقول جل ثناؤه: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتُها، والمعظَّم من الأشياء إنما يعظَّم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟"[٤].

قال الماوردي:" فإن قيل فلم أنكر عبادة من لا رجل له ولا يد ولا عين ؟

قيل عنه جوابان :

أحدهما : أن من عبد جسماً لا ينفع كان ألوم ممن عبد جسماً ينفع .

والثاني : أنه عرفهم أنهم مفضلون عليها ، فكيف يعبدون من هم أفضل منه"[٥].

قال الصابوني:" الغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخسّ الأدون الذي لا يحسُّ منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرّة؟!"[٦].

قوله تعالى:{قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} [الأعراف : ١٩٥]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا آلهتكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة"[٧].

قال الزمخشري:أي:" واستعينوا بهم في عداوتي"[٨].

قال الطبري:" قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا شركاءكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة"[٩].

قال ابن كثير:" أي : استنصروا بها علي ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم!"[١٠].

قال السعدي:" أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي "[١١].

قوله تعالى:{ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ} [الأعراف : ١٩٥]، أي:" ثم اجتمعوا على إيقاع السوء والمكروه بي، فلا تؤخروني وعجِّلوا بذلك، فإني لا أبالي بآلهتكم؛ لاعتمادي على حفظ الله وحده"[١٢].

قال الزمخشري:"{ثم كيدون} جميعا أنتم وشركاؤكم {فلا تنظرون} فإنى لا أبالى بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم

---

[١] التفسير الميسر:١٧٥.
[٢] تفسير الطبري:٣٢٢/١٣.
[٣] التفسير الميسر:١٧٥.
[٤] تفسير الطبري:٣٢٢/١٣.
[٥] النكت والعيون:٢٨٧/٢.
[٦] صفوة التفاسير:٤٥٣/١.
[٧] التفسير الميسر:١٧٥.
[٨] الكشاف:١٨٩/٢.
[٩] تفسير الطبري:٣٢٢/١٣.
[١٠] تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.
[١١] تفسير السعدي:٣١٢.
[١٢] التفسير الميسر:١٧٥.

هود له: إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال لهم: أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون"[١].

قال الطبري:أي: {ثُمَّ كِيدُونِ}" أنتم وهي { فَلَا تُنْظِرُونِ}، يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر، ولكن عجّلوا بذلك. يُعْلِمه جل ثناؤه بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عصمه منهم، ويُعَرِّف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء"[٢].

قال الصابوني: أي:" ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله"[٣].

قال أبو الليث:" يعني: اعملوا بي ما شئتم فلا تنظرون، يعني: لا تمهلون ولا تؤجلون لأنهم خوفوه بآلهتهم"[٤].

الفوائد:

١- فقد الأصنام للسمع والبصر والأطراف، يتضح من الآية إنكار الله على المشركين الذين عبدوا معه الأنداد والأوثان التي هي مخلوقة مربوبة لا تملك من الأمر شيئًا ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ولا تنتصر لعابديها لأنها جماد، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم
٢- إقامة الحجة على المشركين بالكشف عن حقيقة ما يدعون أنها آلهة فإذا بها أصنام لا تسمع ولا تجيب لا أيد لها ولا أرجل ولا آذان ولا أعين.
٣- في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله تعالى هما: السميع، والبصير. وثلاث صفات وهي: السمع، والبصر، ونفي المماثلة. {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} هذه نفي، وهي كمال صفاته من نفي المماثلة، نفي المماثلة يستلزم إثبات كمال ضده وهو كمال صفاته جل وعلا مع صفة السمع وصفة البصر.
٤- أمر الله نبيه محمدًا بقوله: {قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ} فتحدي مشركي قومه وآلهتهم.

وهذا التحدي ورد على لسان كثير من الأنبياء لبيان عجز آلهة المشركين عن إلحاق الضرر بهم، وما كان هذا شأنه فليس إلهًا.

القرآن

{إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)} [الأعراف : ١٩٦]

التفسير:

إن وليِّيَ الله، الذي يتولى حفظي ونصري، هو الذي نزَّل عليَّ القرآن بالحق، وهو يتولى الصالحين مِن عباده، وينصرهم على أعدائهم ولا يخذلهم.

قوله تعالى:{إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ} [الأعراف : ١٩٦]، أي:" إن وليِّيَ الله، الذي يتولى حفظي ونصري، هو الذي نزَّل عليَّ القرآن بالحق"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للمشركين من عبدة الأوثان {إن وليي}، نصيري ومعيني وظهيري عليكم {الله الذي نزل الكتاب} عليّ بالحق"[٦].

قال الزمخشري:" أي: ناصري عليكم الله {الذي نزل الكتاب}، الذي أوحى إلى كتابه وأعزني برسالته"[٧].

---

[١] الكشاف:١٨٩/٢.
[٢] تفسير الطبري:٣٢٢/١٣.
[٣] صفوة التفاسير:٤٥٣/١.
[٤] بحر العلوم:٥٧٥/١.
[٥] التفسير الميسر:١٧٦.
[٦] تفسير الطبري:٣٢٣/١٣.
[٧] الكشاف:١٨٩/٢.

قال السعدي:أي:" الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار، {الَّذِي نزلَ الْكِتَابَ} الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية "[1].

قال ابن كثير:" أي : الله حسبي وكافيّ ، وهو نصيري وعليه متكلي ، وإليه ألجأ ، وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود ، عليه السلام ، لما قال له قومه : { إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [هود : ٥٤ - ٥٦] وكقول الخليل -عليه السلام-: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ *وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : ٧٥ - ٨٠] الآيات ، وكقوله لأبيه وقومه { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الزخرف : ٢٦ - ٢٨]"[2].

وقال الأخفش: "وقرئ:«إن ولي الله الذي نزل الكتاب»، يعني: جبريل- صلى الله عليه وسلم-"[3]. وهي قراءة عاصم الجحدري[4].

قال القرطبي:"والقراءة الأولى أبين، لقوله:{وهو يتولى الصالحين}"[5].

قوله تعالى:{وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف : ١٩٦]، أي:" وهو يتولى الصالحين مِن عباده، وينصرهم على أعدائهم ولا يخذلهم"[6].

قال القرطبي:" أي: يحفظهم"[7].

قال الطبري:أي:" وهو الذي يتولى من صلح عمله بطاعته من خلقه"[8].

قال السعدي:" {الصَّالِحِينَ} الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} فالمؤمنون الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر - تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} "[9].

قال الزمخشري: "ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم"[10].

عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ- يقول جهاراً غير سِرّ: «إن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين». وفي رواية: «إن آل أبي فلان»[11].

الفوائد:

١- وجوب التوكل على الله تعالى، وطرد الخوف من النفس والوقوف أمام الباطل وأهله في شجاعة وصبر وثبات اعتمادا على الله تعالى وولايته إذ هو يتولى الصالحين.

---

[1] تفسير السعدي:٣١٢.
[2] تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.
[3] معاني القرآن للنحاس:١١٧/٣.
[4] انظر: تفسير القرطبي:٣٤٣/٧.
[5] تفسير القرطبي:٣٤٣/٧.
[6] التفسير الميسر:١٧٦.
[7] تفسير القرطبي:٣٤٢/٧.
[8] تفسير الطبري:٣٢٣/١٣.
[9] تفسير السعدي:٣١٢.
[10] الكشاف:١٨٩/٢.
[11] رواه البخاري ١٠ / ٣٥١ - ٣٥٤ في الأدب، باب تبل الرحم ببلالها، ومسلم رقم (٢١٥) في الإيمان، باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم.(صحيح)

٢- نصت الآية هنا على أن الله ولي كل مؤمن، وأنه بفضل هذه الولاية يخرج الله المؤمنين من الظلمات إلى النور، وقال تعالى أيضًا: {إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين} [الأعراف: ١٩٦].
٣- ومن الفوائد: أن الولاية هي من آثار الإيمان، من كان مؤمناً فإنه ولي، والله تعالى هو مولى عباده المؤمنين، {اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد:١١] فهو مولى المؤمنين ووليهم، {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف:١٩٦] ، فمن كان مؤمناً فإنه من أولياء الله، فهما متلازمان[١].
٤- ومن الفوائد: إثبات اسم من اسمائه تعالى، وهو «الولي»: أي:" الناصر. ينصر عباده المؤمنين، كقوله -سبحانه-: { الله وَلِي الذِيْن آمَنوا يخرجهم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النور } [البقرة:٢٥٧]، وكقوله تعالى: { ذلِكَ بِأن الله مَوْلَى الذينَ آمَنوا، وَأن الكَافِرِيْنَ لاَ مَوْلَى لهمْ} [محمد:١١] المعنى: لا ناصر لهم. -والله أعلم-. والولي (٥) أيضا المتولي للأمر والقائم به. كولي اليتيم، وولي المرأة في عقد النكاح عليها، وأصله من الولي؛ وهو القرب"[٢].

القرآن

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)} [الأعراف : ١٩٧]

التفسير:

والذين تدعون -أنتم أيها المشركون- مِن غير الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم، ولا يقدرون على نصرة أنفسهم.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ} [الأعراف : ١٩٧]، أي:" والذين تدعون -أنتم أيها المشركون- مِن غير الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم"[٣].

قال الطبري:" وهذا أيضًا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه أن يقوله للمشركين. يقول له تعالى ذكره: قل لهم، إن الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة، لا يستطيعون نصركم"[٤].

قال مقاتل:" يقول: لا تقدر الآلهة منع السوء إذا نزل بمن يعبدها من كفار مكة"[٥].

قال القرطبي:" قوله تعالى: {والذين تدعون من دونه} كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر"[٦].

قوله تعالى:{وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف : ١٩٧]، أي:" ولا يقدرون على نصرة أنفسهم"[٧].

قال أبو الليث:" يعني: لا يستطيعون أن يمتنعوا مما نزل بهم من العذاب"[٨].

قال الطبري:أي:" ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرون على نصرة أنفسهم، فأي هذين أولى بالعبادة وأحق بالألوهة؟ أمن ينصر وليه ويمنع نفسه ممن أراده، أم من لا يستطيع نصر وليه ويعجز عن منع نفسه ممن أراده وبَغاه بمكروه؟"[٩].

---

[١] انظر: شرح الطحاوية لابن جبرن: الدرس(٦٣):٣٠[مرقم آليا].
[٢] شأن الدعاء:٧٨.
[٣] التفسير الميسر:١٧٦.
[٤] تفسير الطبري:٣٢٣/١٣.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٨٠/٢.
[٦] تفسير القرطبي:٣٤٤/٧.
[٧] التفسير الميسر:١٧٦.
[٨] بحر العلوم:٥٧٥/١.
[٩] تفسير الطبري:٣٢٣/١٣.

قال مقاتل:" يقول: ولا تمنع الآلهة من أراد بها سوءا فكيف تعبدون من هذه منزلته وتتركون عبادة ربكم"[١].

قال الماتريدي:" يذكر سفههم بعبادتهم من عجز عن دفع الضرر عن نفسه، فضلا أن يدفع ذلك عنهم أو يجروا إلى أنفسهم منفعة، وأخبر عن جهلهم أنهم يعبدون من لا يملك دفع ضر ولا جر نفع"[٢].

قال السعدي:" وهذا أيضا في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها"[٣].

الفوائد:

١- بيان عجز تلك الآلهة المزعومة وضعفها، وحقارتها، وقلة شأنها، وأنَّ الإله هو رب واحد لا شريك له، وفي الآية إنكار الله على المشركين الذين عبدوا معه الأنداد والأوثان التي هي مخلوقة مربوبة لا تملك من الأمر شيئًا ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ولا تنتصر لعابديها لأنها جماد، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم.

٢- تمدح الرب تعالى بانفراده في ملكه بآيات من كتابه العزيز، كقوله: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [فاطر:١٣]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: ١٩٤]، وقوله: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف: ١٩٧] ، إلى غير ذلك من الآيات التي لا تستقصي؛ فقوله: {مِنْ دُونِهِ} في هذه الآيات كلها: أي من غيره تعالى، فإنه عام يدخل فيه كل من اعتقد دون الله سبحانه وتعالى.

القرآن

{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)} [الأعراف : ١٩٨]

التفسير:

وإن تدعوا -أيها المشركون- آلهتكم إلى الاستقامة والسداد لا يسمعوا دعاءكم، وترى -أيها الرسول- آلهة هؤلاء المشركين مِن عبدة الأوثان يقابلونك كالناظر إليك وهم لا يبصرون؛ لأنهم لا أبصار لهم ولا بصائر.

قوله تعالى:{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا} [الأعراف : ١٩٨]، أي:" وإن تدعوا -أيها المشركون- آلهتكم إلى الاستقامة والسداد لا يسمعوا دعاءكم"[٤].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا، أيها المشركون، آلهتكم إلى الهدى -وهو الاستقامة إلى السداد- لا يسمعوا دعاءكم"[٥].

قوله تعالى:{وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف : ١٩٨]، أي:" وترى -أيها الرسول- آلهة هؤلاء المشركين مِن عبدة الأوثان يقابلونك كالناظر إليك وهم لا يبصرون؛ لأنهم لا أبصار لهم ولا بصائر"[٦].

قال الطبري:" وهذا خطاب من الله نبيَّه ﷺ. يقول: وترى، يا محمد، آلهتهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، ولذلك وحَّد. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين، لقال: «وترونهم ينظرون إليكم»"[١].

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٨٠.

[٢] تأويلات أهل السنة:٥/١١٨.

[٣] تفسير السعدي:٣١٢.

[٤] التفسير الميسر:١٧٦.

[٥] تفسير الطبري:١٣/٣٢٤.

[٦] التفسير الميسر:١٧٦.

قال ابن كثير:" إنما قال : { يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } أي : يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة ، وهي جماد ؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان ، فقال: { وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } فعبر عنها بضمير من يعقل"[٢].

قال الزمخشري: " {ينظرون إليك} يشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه وهم لا يدركون المرئى "[٣].

وروي عن السدي: "{وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك هم لا يبصرون}، قال: هؤلاء المشركين"[٤].

قال الطبري:" وقد يحتمل قول السدي هذا أن يكون أراد بقوله: "هؤلاء المشركون"، قول الله: {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا} وقد كان مجاهد يقول: «{وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}، ما تدعوهم إلى الهدى»[٥]. وكأنّ مجاهدًا وجّه معنى الكلام إلى أن معناه: وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فهو وجهٌ، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة، فهو بوصفها أشبه"[٦].

وقد روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: "{وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}، ما تدعوهم إلى الهدى. وكأنّ مجاهدًا وجّه معنى الكلام إلى أن معناه: وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فهو وجهٌ، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة، فهو بوصفها أشبه"[٧].

فإن قال قائل: "فما معنى قوله: {وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}؟ وهل يجوز أن يكون شيء ينظر إلى شيء ولا يراه؟

قيل: إن العرب تقول للشيء إذا قابل شيئًا أو حاذاه: هو ينظر إلى كذا، ويقال: منزل فلان ينظر إلى منزلي، إذا قابله. وحكي عنها: إذا أتيتَ موضع كذا وكذا، فنظر إليك الجبل، فخذ يمينًا أو شمالا. وحدثت عن أبي عبيد قال: قال الكسائي: الحائط ينظر إليك، إذا كان قريبًا منك حيث تراه، ومنه قول الشاعر[٨]:

إِذَا نَظَرْتَ بِلادَ بَنِي تَمِيمٍ ... بِعَيْنٍ أَوْ بِلادَ بَنِي صُبَاحِ

يريد: تقابل نبتُها وعُشْبها وتحاذَى"[٩].

قال السعدي:وهذه الأصنام" ليس لها قوة العقل والاستجابة. فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصارا وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا

---

(١) تفسير الطبري:٣٢٤/١٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٣٠/٣.
(٣) الكشاف:١٨٩/٢.
(٤) أخرجه الطبري(١٥٥٣٣):ص٣٢٤/١٣.
(٥) أخرجه الطبري(١٥٥٣٤):ص٣٢٤/١٣-٣٢٥.
(٦) تفسير الطبري:٣٢٤/١٣-٣٢٥.
(٧) أخرجه الطبري(١٥٥٣٤):ص٣٢٤/١٣-٣٢٥.
(٨) لم أتعرف على قائله، وانظر: البيت في تفسير الطبري:٣٢٦/١٣، ونوادر أبي زيد: ١٣١، أساس البلاغة (عين) ، والمقاييس ٤: ٢٠٣، ورواية أبي زيد:

إذا نظرت بلاد بني حبيب ... بعينٍ أو بلاد بني صباح

رميناهم بكل أقب نهدٍ ... وفتيان الغدو مع الرواح

ولا أدري ما ((بنو حبيب)) ، وأما ((بنو صباح)) ، فهم في ضبة، والظاهر أن في غيرهم من العرب أيضاً ((بنو صباح)) . انظر الاشتقاق: ١٢٢. ورواية الزمخشري وابن فارس ((بلاد بني نمير)) ، فلا أدري ما أصح ذلك، حتى يعرف صاحب الشعر، وفيمن قيل. قال الزمخشري قبل استشهاده بالشعر: ((نظرت الأرض بعين أو بعينين)) ، إذا طلع بأرض ما ترعاه الماشية بغير استكمال. وقال ابن فارس: إذا طلع النبت، وكل هذا محمول، واستعارة وتشبيه.[انظر: تفسير الطبري:٣٢٦/١٣].
(٩) تفسير الطبري:٣٢٥/١٣-٣٢٦.

تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، لو اجتمعوا، وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدروا على كيده بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتمى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق"[١].

الفوائد:

١- جواز المبالغة في التنفير من الباطل والشر بذكر العيوب والنقائص.
٢- بيان عدم انتفاع المشركين بآيات الهدى.
٣- ومن الفوائد: أن النظر غير الرؤية، ففي الآية أثبت النظر، ونفي الرؤية. فلو كان أحدهما بمعنى الآخر، لتناقض الكلام، وتنزَّل منزلة قول القائل، يَرَوْنَك ولا يَرَوْنَكَ. وذلك خُلْفٌ من الكلام.
٤- ومنها: أن وظيفة القلب أهم وأسمى من وظيفة الحواس الظاهرة، وأن وظيفة الحواس وسيلة مقصودة إلى تحقيق غاية أسمى من مجرد الإدراك الحسي للأشياء، وإذا لم تتحقق هذه الغاية كانت الوظيفة الحسية للأداة في حكم العدم، وقال سبحانه: {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} [الأعراف: ١٩٨]، ومنه قوله تعالى: {ولَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الأعراف: ١٧٩].

القرآن

{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)} [الأعراف : ١٩٩]

التفسير:

اقْبَلْ -أيها النبي أنت وأمتك- الفضل من أخلاق الناس وأعمالهم، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى لا ينفروا، وأْمر بكل قول حسن وفِعْلٍ جميل، وأعرض عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: عن عبد الله بن الزبير؛ قال: "ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس"[٢]. [صحيح]

والثاني: عن السدي؛ قال: "نزلت هذه الآية: {خُذِ الْعَفْوَ}؛ فكان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه ويتصدق بالفضل، فنسخها الله بالزكاة: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}؛ قال: بالمعروف، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}؛ قال: نزلت هذه الآية قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والقتال، أمره الله بالكف ثم نسخها القتال؛ فأنزل: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج: ٣٩] الآية "[٣]. [ضعيف]

قوله تعالى:{خُذِ الْعَفْوَ} [الأعراف : ١٩٩]، أي:" اقْبَلْ -أيها النبي أنت وأمتك- الفضل من أخلاق الناس وأعمالهم، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى لا ينفروا"[٤].

---

[١] تفسير السعدي:٣١٢.

[٢]أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٥ رقم ٤٦٤٣، ٤٦٤٤)، والنسائي في "تفسيره" (١/ ٥١٢ رقم ٢١٥)، وأبو داود (رقم ٤٧٨٧) وغيرهم.

[٣]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣١) ونسبه لأبي الشيخ.

[٤] التفسير الميسر:١٧٦.

قال القرطبي:" لما أمره بمحاجة المشركين دله على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جر المشركين إلى الإيمان. أي اقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر، تقول: أخذت حقي عفوا صفوا، أي سهلا"[١].

قال الزمخشري: " العفو ضد الجهد: أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا، كقوله ﷺ «يسروا ولا تعسروا»[٢]، قال[٣]:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ولاَ تَنْطِقِي فِي سَوْرَتي حِينَ أغضبُ

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم، وذلك قبل نزول آية الزكاة، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعا أو كرها. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال"[٤].

قال الشنقيطي:"«العفو»: الشيء الزائد الذي لا يُجهد الزائد على قدر الخَلَّة الضرورية على أصح التفسيرين. وهو معنى معروف في كلام العرب، تقول لك: «خذ العفو مني» خذ ما تسهّل لك مني، وما تعصَّى عليك لا تكلِّمني فيه...ومنه قول حسان -رضي الله عنه- يمدح المهاجرين في شعره المشهور الذي فاخر به وفد تميم[٥]:

خُذْ مِنْهُمُ مَا أَتَوْا عَفْوًا إذا غَضِبُوا ولا يكُنْ همُّكَ الأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا

وهذا معني معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر[٦]:

إِذَا مَا بُلْغَةٌ جَاءَتْكَ عَفْوًا فَخُذْهَا فالغِنَى مَرْعًى وَشرْبُ

فعلى هذا {خُذِ الْعَفْوَ} ما تسهَّل لك من أخلاق الناس ووجدت منهم طيبًا بلا كلفة فخذه"[٧].

وفي قوله تعالى:{خُذِ الْعَفْوَ} [الأعراف : ١٩٩]، وجوه:

أحدها: معناه: {خذ العفو} من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم، قاله ابن عمر[٨]، وعروة[٩]، وعبدالله بن الزبير[١٠]، ومجاهد[١١].

والثاني :معناه: خذ العفو من أموال الناس، وهو الفضل. قالوا: وأمر بذلك قبل نزول الزكاة، فلما نزلت الزكاة نُسِخ. وهذا قول ابن عباس[١٢]، والضحاك[١]، والسدي[٢].

---

[١] تفسير القرطبي:٣٤٦/٧.

[٢]أخرجه الطيالسى (ص ٢٨٠، رقم ٢٠٨٦) ، وأحمد (١٣١/٣، رقم ١٢٣٥٥) ، والبخارى (٢٢٦٩/٥، رقم ٥٧٧٤) ومسلم (١٣٥٩/٣، رقم ١٧٣٤) ، والنسائى فى الكبرى (٤٤٩/٣، رقم ٥٨٩٠).

[٣]البيت في تاريخ دمشق (٩/ ٥٧، ٥٨)، شواهد الكشاف ص٩، مع عزوه لأسماء بن خارجة. وذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (٣/ ١١)، (٤/ ٧٧)، وعزاه لأبي الأسود الدؤلي، وذكره ابن القيم في روضة المحبين ص٧١، والشيخ الشنقيطي(رحمه الله) في الأضواء (١/ ٤٦).

خذي العفو منى تستديمى مودتي ... ولا تنطقى في سورتي حين أغضب

فانى رأيت الحب في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

ولا تضربينى مرة بعد مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيب

لأسماء بن خارجة النزاري أحد حكماء العرب يخاطب زوجته حين بنى عليها. والعفو: السهل اليسير. والسورة: شدة الغضب. واجتمعا: شارفا الاجتماع. ويذهب: استئناف وقع جواب سؤال مقدر، والضرب مجاز عن الإيذاء، والمغيب عاقبة الأمر، أى خذي السهل من أخلاقى لئلا يذهب حبى إياك ويذهب فيه رائحة الاضراب، أى بل يذهب.[حاشية الكشاف:٢٦٢/١].

[٤] الكشاف:١٨٩/٢-١٩٠.

[٥]ديوان حسان ص١٥٣.

[٦]البيت لأبي الحسن البصروي، وهو في تاريخ بغداد (٣/ ٢٣٦)، البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٤٤٨).

[٧] العذب المنير:٤٣٨/٤-٤٣٩.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٦٧٥):ص١٦٣٧/٥.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٣٨):ص٣٢٧/١٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٠):ص٣٢٧/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٣٥)، (١٥٥٣٦)، (١٥٥٣٩)، و(١٥٥٤٢):ص٣٢٧/١٣-٣٢٩.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٣):ص٣٢٨/١٣.

قال القرطبي:" وقيل: المراد بقوله:{خذ العفو}، أي: الزكاة، لأنها يسير من كثير. وفيه بعد، لأنه من عفا إذا درس. وقد يقال: خذ العفو منه، أي لا تنقص عليه وسامحه. وسبب النزول يرده، والله أعلم"[٣].

والثالث: أن ذلك أمرٌ من الله نبيَّه ﷺ بالعفو عن المشركين، وترك الغلظة عليهم قبل أن يفرض قتالهم عليه. وهذا قول ابن زيد[٤].

قال ابن زيد:" عفا عن المشركين عشر سنين بمكة"[٥].

وروي : "لما أنزل الله على نبيه ﷺ {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، قال: النبي ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك وتصل من قطعك"[٦].

والرابع: معناه: ما لم يسرفوا. قاله عطاء[٧].

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم وقال: أُمر بذلك نبيّ الله ﷺ في المشركين. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك تعليمَه نبيَّه ﷺ محاجَّته المشركين في الكلام، وذلك قوله: {قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون}، وعقَّبه بقوله: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا} ، فما بين ذلك بأن يكون من تأديبه نبيَّه صلى الله عليه وسلم في عشرتهم به، أشبهُ وأولى من الاعتراض بأمره بأخذ الصدقة من المسلمين"[٨].

قوله تعالى:{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف : ١٩٩]، أي:" وأْمر بكل قول حسن وفِعْلٍ جميل"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف : ١٩٩]، وجهان:

أحدهما: معناه ما روي عن سفيان، عن أَمَيّ قال: "لما أنزل الله على نبيه ﷺ: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} قال النبي ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطيَ من حرمك، وتصل من قطعك"[١٠].

والثاني: معناه: بالمعروف. قاله ابن عباس[١١]، وعروة[١٢]، وقتادة[١٣]، والسدي[١٤]، وسفيان الثوري[١٥].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بالعرف وهو المعروف في كلام العرب، مصدر في معنى: "المعروف". قال: "أوليته عُرْفًا، وعارفًا، وعارفةً" كل ذلك بمعنى: «المعروف» فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن «المعروف» صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٥):ص٣٢٨/١٣.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٤):ص٣٢٨/١٣.

[٣] تفسير القرطبي:٣٤٦/٧.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٦):ص٣٢٨/١٣-٣٢٩.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٨١):ص١٦٣٨/٥.

[٦] أخرجه الطبري(١٥٥٤٧):ص٣٣٠/١٣،وابن أبي حاتم(٨٦٨٢):ص١٦٣٨/٥.

[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٦٨٠):ص١٦٣٨/٥.

[٨] تفسير الطبري:٣٢٩/١٣.

[٩] التفسير الميسر:١٧٦.

[١٠] أخرجه الطبري(١٥٥٤٨):ص٣٣٠/١٣.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٦٨٤):ص١٦٣٨/٥.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٥٤٩):ص٣٣١/١٣.

[١٣] أخرجه الطبري(١٥٥٥١):ص٣٣١/١٣.

[١٤] أخرجه الطبري(١٥٥٥٠):ص٣٣١/١٣.

[١٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:ص١٦٣٨/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.

من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض"[1].

قال القرطبي:" «العرف» و«المعروف» و«العارفة»: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس. قال الشاعر[2]:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدمْ جَوازِيَهُ   لا يَذهبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والنَّاسِ

وقال عطاء:{وأمر بالعرف}، يعني: بلا إله إلا الله"[3].

قوله تعالى:{وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف : ١٩٩]، أي:" وأعرض عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء"[4].

قال الطبري:" أمر من الله تعالى نبيّه ﷺ أن يعرض عمن جهل. وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيَّه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجبَ عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ"[5].

قال الزمخشري:أي:" ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم"[6].

قال القرطبي:" أي: إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانة له عليهم ورفعا لقدره عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطابا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه"[7].

قال الماوردي:" فإن قيل فكيف أمر بالإعراض مع وجوب الإنكار عليهم ؟
قيل : إنما أراد الإعراض عن السفهاء استهانة بهم . وهذا وإن كان خطاباً لنبيِّه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه"[8].

قال قتادة:" قوله: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، أخلاقٌ أمر الله بها نبيه ﷺ، ودلَّه عليها"[9].

وقال قتادة أيضا:" الإعراض عن الناس: أن يكلمك أحد وأنت معرض عنه وتتكبر"[10].

قال ابن زيد:" أمره فأعرض عنهم عشر سنين، ثم أمره بالجهاد"[11].

عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله مر على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال: إن هذا ينهى عنه فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: {وأعرض عن الجاهلين}"[12].

عن ابن عباس:" قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر بن الخطاب فقال عيينة لابن أخيه: هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ فقال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر فلما دخل عليه قال: هيا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا

---

(١) تفسير الطبري:٣٣١/١٣.
(٢)البيت في قواعد الشعر لثعلب ص٧٠، عيار الشعر ص١٨٢، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٤٦)، وهو للحطيئة في في اللسان، مادة"جؤي":ص١٤٣/١٤، و فتح القدير:٥٤٩/١، و٤٣٠/٥.
(٣) تفسير القرطبي:٣٤٦/٧.
(٤) التفسير الميسر:١٧٦.
(٥) تفسير الطبري:٣٣٢/١٣.
(٦) الكشاف:١٩٠/٢.
(٧) تفسير القرطبي:٣٤٦/٧-٣٤٧.
(٨) النكت والعيون:٢٨٨/٢.
(٩) أخرجه الطبري(١٥٥٥٢):ص٣٣٢/١٣.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٨٦):ص١٦٣٩/١٣.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٨٧):ص١٦٣٩/١٣.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٨٨):ص١٦٣٩/١٣.

بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإن هذا من الجاهلين، قال: فو الله ما جوزها حين تلاها وكان وقافا عن كتاب الله"[١].

قال ابن كثير:" وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى ، فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال[٢]:

خُذ العفو وأمر بعُرفٍ كَمَا　　أُمِرتَ وأعْرِض عن الجَاهلينْ
وَلِنْ في الكَلام لكُلِّ الأنام　　فَمُسْتَحْسَن من ذَوِي الجاه لين

وقال بعض العلماء : الناس رجلان : فرجل محسن ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء ، فمره بالمعروف ، فإن تمادى على ضلاله ، واستعصى عليك ، واستمر في جهله ، فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده ، كما قال تعالى : { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى : { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا} أي هذه الوصية { إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فصلت : ٣٤ - ٣٦] وقال في هذه السورة الكريمة أيضا : { وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } فهذه الآيات الثلاث في "الأعراف" و "المؤمنون" و "حم السجدة" ، لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ولهذا قال : { فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان ، فإنه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك"[٣].

وفي حكم قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف : ١٩٩]، قولان:

أحدهما: أنها محكمة، وأن الذي أمر بأخذ العفو هو أخلاق الناس قاله قاله ابن عمر[٤]، وعروة[٥]، وعبدالله بن الزبير[٦]، ومجاهد[٧]،وهو اختيار النحاس[٨]، ومكي بن أبي طالب[٩].
طالب[٩].

والثاني: أنها منسوخة. وفي الذي أمر بالعفو قولان:

القول الأول: أنه الصدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة، ثم نسخت بالزكاة. وهذا قول ابن عباس[١٠]، والضحاك[١١]، والسدي[١٢].

والقول الثاني:أن المراد به مساهلة المشركين والعفو عنهم، ثم نسخ بآية السيف، قاله ابن زيد[١٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٦٨٥):ص١٦٣٩/١٣.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير:٥٣٢/٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٣٢/٣-٥٣٣.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٦٧٥):ص١٦٣٧/٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٣٨):ص٣٢٧/١٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٠):ص٣٢٧/١٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٣٥)، (١٥٥٣٦)، (١٥٥٣٩)، و(١٥٥٤٢):ص٣٢٧/١٣-٣٢٩.
(٨)في ناسخه ص: ١٤٧.
(٩)في الإيضاح ص: ٢٥٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٣):ص٣٢٨/١٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٥):ص٣٢٨/١٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٤):ص٣٢٨/١٣.
(١٣)انظر: تفسير الطبري(١٥٥٤٦):ص٣٢٨/١٣-٣٢٩، وذكره مكي بن أبي طالب في الإيضاح:٢٥٣، عن ابن زيد.

وقوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف : ١٩٩]، فيهم قولان[١]:
أحدهما: أنهم المشركون أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ ذلك بآية السيف[٢].
والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وأن واجب الإنكار عليهم. وعلى هذا تكون الآية محكمة. وهو الصحيح[٣].

قال ابن الجوزي:" هذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم، وطرفيها منسوخان على ما بينا، ونص مكي بن أبي طالب على إحكامها بقوله: «أن معناها: أعرض عن مجالستهم، وهذا لا ينسخ إلا بالأمر بالمجالسة، وهذا لا يجوز»"[٤].

قال السعدي:" هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم.

{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بِرّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه"[٥].

قال القرطبي: تضمنت "هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: {خذ العفو} دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله: {وأمر بالعرف} صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله {وأعرض عن الجاهلين} الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن سليم أبو جري: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال:" وعليك السلام". فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها. قال:" ادن" ثلاثا، فدنوت فقال:" أعد علي" فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى»[٦]. قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده، ما سببت بعده شاة ولا بعيرا..

---

[١] انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٢/٤٤٣.
[٢] ذكره مكي بن أبي طالب ني الإيضاح ص: ٢٥٣، وابن الجوزي في نواسخ القرآن:٢/٤٤٣.
[٣] انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٢/٤٤٣.
[٤] زاد المسير:٢/٤٤٣، وانظر: نواسخ القرآن:٢/٤٤٣.
[٥] تفسير السعدي:٣١٣.
[٦] الحديث:" اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ولا تسبن أحدا وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره وائتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة". أخرجه الطيالسى (ص ١٦٧ رقم ١٢٠٨) ، وأحمد (٥/٦٣، رقم ٢٠٦٥١) ، وأبو

وروى أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:«إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»[1].

وروى سفيان بن عيينة عن الشعبي أنه قال: «إن جبريل نزل على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ:" ما هذا يا جبريل"؟ فقال:" لا أدري حتى أسأل العالم" في رواية" لا أدري حتى أسأل ربي" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال:" إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك»[2]. فنظمه بعض الشعراء فقال[3]:

مكارم الأخلاق في ثلاثة ومن كملت فيه فذلك الفتى

إعطاء من تحرمه ووصل من تقطعه والعفو عمن اعتدى

وقال جعفر الصادق: "أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية"[4].

وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[5]. وقال الشاعر[6]:

كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي

ولو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

وقال سهل بن عبد الله: «كلم الله موسى بطور سيناء. قيل له: بأي شي أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة»[7].

وقد روي عن نبينا محمد أنه قال، «أوصاني خليلي أبو القاسم - ﷺ - بسبع خصال، فلن أدعهن حتى ألقاه: أمرني بحب المساكين ومجالستهم، وأن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، ولا أسأل الناس شيئا، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأن آخذ الحق وإن كان أمر من الصبر، ولا تأخذني في الله لومة لائم، وأن أكثر من قول: لا حوله ولا قوة إلا بالله»[8]"[9].

الفوائد:

١- الأمر بالتزام الآداب والتحلي بأكمل الأخلاق ومن أرقاها العفو عمن ظلم وإعطاء من حرم، وصلة من قطع.

٢- ومن الفوائد: أن الجهل جهلان، مثل قوله تبارك وتعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩]. وهناك جهل غير مكفر، كما في قوله تبارك

داود (٥٦/٤، رقم ٤٠٨٤) ، والنسائى فى الكبرى (٤٨٦/٥، رقم ٩٦٩١) ، والبغوى (٤٦٩/١ رقم ٣٠٧) ، والطبرانى (٦٣/٧، رقم ٦٣٨٤) ، وابن حبان (٢٨١/٢، رقم ٥٢٢) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٥٢/٦، رقم٨٠٥٠) . وأخرجه أيضا: البخارى فى الأدب المفرد

(٤٠٣/١، رقم ١١٨٢) ، والحسين المروزى فى زوائد الزهد (ص ٣٦٠، رقم ١٠٠١٧) .

ومن غريب الحديث: "المخيلة": هى الكبر والعجب.

[1] أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٢٢/٨) ، قال الهيثمى: فيه عبد الله بن سعيد المقبرى وهو ضعيف. أبو نعيم فى الحلية (٢٥/١٠) ، والحاكم (٢١٢/١، رقم ٤٢٧) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٥٣/٦، رقم ٨٠٥٤)

[2] أخرجه الطبري(١٥٥٤٨):ص٣٣٠/١٣.

[3] انظر: تفسير القرطبي:٣٤٥/٧.

[4] انظر: تفسير القرطبي:٣٤٥/٧.

[5] أخرجه البيهقى (١٩١/١٠، رقم ٢٠٥٧١)، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-

[6] انظر: تفسير القرطبي:٣٤٥/٧.

[7] انظر: تفسير القرطبي:٣٤٥/٧.

[8] رواه أبو يعلى الموصلي، انظر: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة(٣٠٠٥ / ٤):ص٤١٤/٣-٤١٥.

[9] تفسير القرطبي:٣٤٤/٧-٣٤٦.[بتصرف بسيط].

وتعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ} [النساء:١٧]، فهنا جهل عملي، مثل قوله عليه الصلاة والسلام في الدعاء إذا خرج من البيت: " اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أجهل أو يجهل على أو أظلم أو أظلم"[١].

٣- في الآية الرد على القائلين بأن الله سبحانه وتعالى كفر الكفار وهم جاهلون، واستدلوا بقوله تعالى: {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩] فكفر الله العرب مع أنه سماهم جاهلين!

وهذا خطأ في فهم كلام الله؛ لأن المقصود هنا بالجهل ترك الرسالة، والاتباع، والاستجابة، فإن الله سبحانه وتعالى قال عن الكفار: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة:١٤٦]، وقال: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} [النمل:١٤] إلى آخر ذلك، فلا شك أنهم كانوا يعرفون الحقائق ويفهمونها.

القرآن

{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)} [الأعراف : ٢٠٠]

التفسير:

وإما يصيبنَّك -أيها النبي- من الشيطان غضب أو تُحِس منه بوسوسة وتثبيط عن الخير أو حث على الشرِّ، فالجأ إلى الله مستعيذًا به، إنه سميع لكل قول، عليم بكل فعل.

سبب النزول:

عن عبد الرحمن بن زيد؛ قال: في قوله: "{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)}؛ قال رسول الله - ﷺ -: "فكيف بالغضب يا رب؟ "، قال: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}"[٢]. [ضعيف جداً]

قوله تعالى:{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ} [الأعراف : ٢٠٠]، أي:" وإما يصيبنَّك - أيها النبي- من الشيطان غضب أو تُحِس منه بوسوسة وتثبيط عن الخير أو حث على الشرّ"[٣].

قال السعدي:" أي: أي وقت، وفي أي حال {يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ} أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه"[٤].

قال الطبري:أي:" وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم"[٥].

قال الزمخشري:أي:" وإما ينخسنك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به... النزغ والنسغ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغا، كما قيل جد جده"[٦].

قال الزجاج:"«النزغ» أدنى حركة تكون، تقوك: قد نزغته إذا حركته، المعنى إن نالك من الشيطان أدنى نزغ، أي: وسوسة"[٧].

قال القرطبي:" ونزغ الشيطان: وساوسه. وفيه لغتان: نزغ ونغز، يقال: إياك والنزاغ والنغاز، وهم المورشون[١]،... قال سعيد بن المسيب: شهدت عثمان وعليا وكان بينهما نزغ من

---

[١]أخرجه الطبرانى فى الكبير (٩/٢٤، رقم ١١) ، وفى الأوسط (٣٤/٣، رقم ٢٣٨٣) . قال الهيثمى (١٢٩/١٠) : فيه أبو بكر الهذلى، وهو ضعيف.

[٢]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٥٥٣):ص٣٣٣/١٣: ثني يونس: نا ابن وهب؛ قال ابن زيد به.
قلنا: وهذا معضل مع ضعف عبد الرحمن، بل إنه اتهم بالكذب.

[٣] التفسير الميسر:١٧٦.

[٤] تفسير السعدي:٣١٣.

[٥] تفسير الطبري:٣٣٢/١٣.

[٦] الكشاف:١٩٠/٢.

[٧] معاني القرآن:٣٩٦/٢.

من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا، ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه. ومعنى {ينزغنك} يصيبنك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل"[٢].
وفي قوله تعالى:{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ} [الأعراف : ٢٠٠]، ثلاثة أقوال:
أحدها : أن النزغ الانزعاج. ذكره الماوردي[٣].
والثاني : الغضب. قاله الطبري[٤]، وهو معنى قول ابن زيد[٥].
قال ابن زيد، في قوله: "{خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، قال رسول الله ﷺ: فكيف بالغضب يا رب؟ قال: {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم}"[٦].
قال الزمخشري:" ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبى بكر رضى الله عنه: «إن لي شيطانا يعتريني»[٧]"[٨].
والثالث : الفتنة ، قاله مقاتل[٩].
قال مقاتل:" يعني: وإما يفتننك من الشيطان فتنة في أمر أبي جهل"[١٠].
وأصل "النزغ": الفساد، يقال: نزغ الشيطان بين القوم، إذا أفسد بينهم وحمّل بعضهم على بعض. ويقال منه: نزغ ينزغ، ونغز ينغز[١١]، قال الله تعالى : { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزغُ بَيْنَهُمْ } [الإسراء : ٥٣] و"العياذ" : الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما "الملاذ" ففي طلب الخير ، كما قال أبو الطيب الحسن بن هانئ المتنبي[١٢]:

يَا مَنْ ألوذُ به فيمَا أؤمِّلُه وَمَنْ أعوذُ به مما أحَاذِرُه
لا يَجْبر الناس عَظمًا أنت كاسرُه ولا يَهِيضُون عَظمًا أنت جَابِرِه[١٣].

قوله تعالى:{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} [الأعراف : ٢٠٠]، أي:" فالجأ إلى الله مستعيذًا به"[١٤].
قال الطبري:أي:" فاستجر بالله من نزغه"[١٥].
قال الزمخشري:أي:" فاستعذ بالله ولا تطعه"[١٦].
قال السعدي:" أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه"[١٧].

---

(١)التوريش: التحريش، يقال: ورش بين القوم وأرش.
(٢) تفسير القرطبي:٣٤٨/٧.
(٣) انظر: النكت والعيون:٢٨٨/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٣٣٢/١٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٥٣):ص٣٣٣/١٣.
(٦) أخرجه الطبري(١٥٥٥٣):ص٣٣٣/١٣.
(٧) أخرجه ابن راهويه، وأبو ذر الهروى فى الجامع [كنز العمال ١٤٠٥٠]، وأخرجه أيضا: عبد الرزاق عن معمر بن راشد فى الجامع (٣٣٦/١١، رقم ٢٠٧٠١).
(٨) الكشاف:١٩٠/٢.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٨٢/٢.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٨٢/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٣٣٣/١٣.
(١٢)) ديوان المتنبي (٢٧٢/٢). قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٧٥/١١) : "وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، رحمه الله ، أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول : إنما يصلح لجناب الله سبحانه وتعالى.
وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم ، رحمه الله ، أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول : ربما قلت هذين البيتين في السجود ، أدعوا الله بما تضمناه من الذل والخضوع".
(١٣) تفسير ابن كثير: ٥٣٣/٣.
(١٤) التفسير الميسر:١٧٦.
(١٥) تفسير الطبري:٣٣٢/١٣.
(١٦) الكشاف:١٩٠/٢.
(١٧) تفسير السعدي:٣١٣.

قوله تعالى:{إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف : ٢٠٠]، أي:" إنه سميع لكل قول، عليم بكل فعل"[١].

قال الطبري:" قول: إن الله الذي تستعيذ به من نزع الشيطان {سميع} لجهل الجاهل عليك، ولاستعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، {عليم} بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه"[٢].

قال السعدي:" فإنه {سَمِيعٌ} لما تقول. {عَلِيمٌ} بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئا حسيرا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه"[٣].

عن قتادة، قوله: "{وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم}، قال: علم الله أن هذا العدوَّ مَنِيع ومَريد"[٤].

قال ابن كثير:" وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبًا ، فقال رسول الله ﷺ : "«إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه الذي يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب ما يجد»، فانطلق إليه رجلٌ فقال له: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال: أترى بي بأسٌ أمجنون أنا؟ اذهب"[٥].

الفوائد:

١- وجوب الاستعاذة بالله عند الشعور بالوسوسة أو الغضب أو تزيين الباطل.
٢- أن الاستعاذة بالله تعالى وحده، جل وعلا، والاستعاذة من العبادة، وتكون مما يحذر ويخاف أمره، واللياذ يكون مما يرغب ويرجى، والمستعاذ هو الذي يعتصم به ويلتجأ إليه مما يخاف وقوعه، والله جل وعلا يقول: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق:١] {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس:١] فأمر جل وعلا أن نستعيذ به، {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} [الأعراف:٢٠٠].
٣- وفي الآية إثبات اسمين من أسماء الله، هما: السميع، والعليم.
- فـ«السَّمِيعُ»: بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة، كقولهم: عليم: من عالم، وقدير: من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى. سواء عنده الجهر، والخفوت، والنطق، والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة.

كقول النبي - ﷺ -: "اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع"[٦]، أي: من دعاء لا يستجاب، ومن هذا قول المصلي:"سمع الله لمن حمده"[١]، معناه: قبل الله حمد من حمده، حمده، وأنشد أبو زيد لشتير بن الحارث الضبي[٢]:

---

[١] التفسير الميسر:١٧٦.
[٢] تفسير الطبري:٣٣٣/١٣.
[٣] تفسير السعدي:٣١٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٥٥٤):ص٣٣٣/١٣.
[٥] أخرجه البخاري (٦٠٤٨)، ومسلم (٢٦١٠)، وانظر: تفسير ابن كثير:٥٣٣/٣.
[٦] .هذاطرف حديث رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٢٤٤٠ موارد، والنسائي ٨/ ٢٦٤،والإمام أحمد ٣/ ١٩٢، ٢٥٥، ٣٨٣،والخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢ من حديث أنس وانظرالكنز ٢/ ٢٠١.

دعوت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول

أي: لا يجيب، ولا يقبل[3].

و{السَّمِيعُ} له معنيان:

أحدهما: بمعنى المجيب. ومثاله قوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، أي: لمجيب الدعاء.

والثاني: بمعنى السامع للصوت، وهوينقسم إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل،وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله، وهو من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثاً، ومثاله: قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى على بعضه"[4].

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، وهو من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب، ومثاله: قوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

الثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد، ومثاله: قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول[5].

- ومن أسمائه «العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، ،فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[6].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه

---

[1]أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم ٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٨٨، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٩،وفيه: "ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه" وبرقم ٣٢٠٣، ٣٢٢٨، ٤٠٦٩، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨.

ومسلم، باب "الصلاة" برقم (٢٥)، (٢٨)، (٥٤)، (٦٢)، (٦٣)، (٧١)، (٧٧)، (٨٦)، (٨٨)، (٨٩)، (١٩٦)، (١٩٨)، (١٩٩)، (٢٠٢)،وفيه: "اللهم ربنا لك الحمد،ملءالسموات، وملءالأرض، وملء ماشئت من شيء بعده". وكذلك روايته برقم (٢٠٣) وكتاب صلاة المسافرين برقم (٢٠٢)، (٢٠٣)،والنسائي (افتتاح) ٢/ ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١١. وابنماجهبرقم ٨٦٢، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ١٠٦١، ١٢٣٨، ١٢٣٩. وغيرهم.

[2]أنشده الطبري في تفسيره، ٥/ ٦ - ٥٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ١٤٤، والقرطبي ٢/ ٣١، وفي الخزانة ٢/ ٣٦٣، مطلع قصيدة من سبعة أبيات في الشاهد السادس والستين بعد الثلاثمائة منسوباً إلى شمير بن الحارث الضبي. وقال: شمير، بضم الشين المعجمة وفتح الميم وآخره راء مهملة، هكذا ضبطه أبو زيد. وقال الأخفش -فيما كتبه عليه- الذي في حفظي سمير -بالسين المهملة وكذا ضبطه الصاغاني في العباب بالمهملة- وقال: هو شاعر جاهلي والله أعلم. اهـ وفي نوادر أبي زيد ص ١٢٤ مع ستة أبيات أخرى. وفي أمالي المرتضى ١/ ٦٠٣، وفي اللسان (سمع) ولم ينسبه. وأنشده الخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢، والزمخشري في الفائق ١/ ٦١٢ كما هنا، إلى شتير. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٢..

[3] انظر: شأن الدعاء للخطابي:٥٩-٦٠.

[4]رواه البخاري معلقاً"الفتح" (١٣١/ ٣٧٢) في كتاب التوحيد/ باب {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}. وقد وصله الإمام أحمد في "المسند" (٦/ ٤٦)،وابنكثير ٤/ ٢٨٦ ، وابن ماجة بهذا اللفظ، ورواه ايضاً بلفظ "تبارك" (٢٠٦٣).

[5] انظر: شر ح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٢٠٦/١-٢٠٧.

[6] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[١].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)} [الأعراف : ٢٠١]

التفسير:

إن الذين اتقوا الله مِن خلقه، فخافوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، إذا أصابهم عارض من وسوسة الشيطان تذكَّروا ما أوجب الله عليهم من طاعته، والتوبة إليه، فإذا هم منتهون عن معصية الله على بصيرة، آخذون بأمر الله، عاصون للشيطان.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا} [الأعراف : ٢٠١]، أي:" إن الذين اتقوا الله مِن خلقه، فخافوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {إن الذين اتقوا}، اللهَ من خلقه، فخافوا عقابه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه"[٣].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر"[٤].

قوله تعالى:{إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ} [الأعراف : ٢٠١]، أي:" إذا أصابهم عارض من وسوسة الشيطان"[٥].

قال أبو عبيدة: "مجازه: لمم، قال [الأعشى] [٦]:

وتصبح عن غب السّرى وكأنّما ... ألمَّ بها من طائف الجنّ أولق

وهو من طفت به أطيف طيفا، قال[٧]:

أنَّى ألمَّ بِكَ الخيالُ يَطِيفُ ... ومطَافُهُ لَكَ ذُكْرَةٌ وشُغُوفُ"[٨]

قال الطبري:" يقول: إذا ألمَّ بهم لَمَمٌ من الشيطان، من غضب أو غيره مما يصدّ عن واجب حق الله عليهم"[٩].

قال ابن كثير:" أي : أصابهم «طيف»"[١٠].

---

(١) شأن الدعاء:٥٧.

(٢) التفسير الميسر:١٧٦.

(٣) تفسير الطبري:٣٣٣/١٣.

(٤) تفسير ابن كثير:٥٣٤/٣.

(٥) التفسير الميسر:١٧٦.

(٦)ديوانه ١٤٧- والجمهرة ١/ ٧٦ واللسان (طيف).

(٧)البيت لكعب بن زهير، فى ديوانه ١١٣- وهو فى الطبري ٩/ ٩٩ واللسان (طيف) وشواهد الكشاف ١٩١/٢. ١٩١/٢.

وأنى: استفهام تعجبي بمعنى كيف، أو من أين. وألم: أى نزل للزيارة. والخيال: ما يراه النائم. وطاف به الخيال يطيف طيفا ومطافا: أقبل عليه. وطاف حوله يطوف طوافا وطوفانا: حام عليه ودار حوله، ويكنى به عن اللمس. وقوله «يطيف» جملة حالية مؤكدة أو مؤسسة. ومطافه: أى طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب، فأقام المسبب مقام السبب، وعبر عن نفسه أولا بضمير الغيبة، وثانيا بالخطاب. على طريق الالتفات فرارا من شبهة التكرار. وروى بك بالخطاب.[حاشية الكشاف:١٩١/٢].

(٨) مجاز القرآن:٣٢٦/١-٣٢٧.

(٩) تفسير الطبري:٣٣٣/١٣-٣٣٤.

(١٠) تفسير ابن كثير:٥٣٤/٣.

قال الزمخشري:" {طائف من الشيطان} لمة منه، مصدر، من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفا...أو هو تخفيف «طيف» فيعل، من طاف يطيف كلين. أو من «طاف يطوف» كهين"[١]

قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة:«طَآئِفٌ»، وقرأ الباقون:«طَيْفٌ»، واختلف في هاتين القراءتين على قولين[٢]:

أحدهما : أن معناهما واحد وإن اختلف اللفظان ، فعلى هذا اختلف في تأويل ذلك على أربعة تأويلات[٣]:

أحدها : أن «الطائف» اللَّمَّة من الشيطان. قاله ابن عباس[٤].

وروي عن السدي: "{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا} ، يقول: إذا زلُّوا تابوا"[٥].

والثاني: أنه الغضب ، قاله مجاهد[٦]، وسعيد بن جبير[٧]، وابن زيد[٨]، وهو مروي عن ابن عباس أيضا[٩].

قال الطبري:" وهذان التأويلان متقاربا المعنى، لأن «الغضب» من استزلال الشيطان، و«اللّمة» من الخطيئة أيضًا منه، وكل ذلك من طائف الشيطان، وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لخصوص معنى منه دون معنى، بل الصواب أن يعم كما عمه جل ثناؤه، فيقال: إن الذين اتقوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشيطان، ما كان ذلك العارض، تذكروا أمر الله وانتهوا إلى أمره"[١٠].

والثالث: أنه الوسوسة ، قاله أبو عمرو بن العلاء[١١].

والرابع ، أنه الفزع ، قاله سعيد بن جبير[١٢].

والقول الثاني : أن معنى الطيف والطائف مختلفان ، فالطيف اللمم ، والطائف كل شيء طاف بالإنسان .

قوله تعالى:{تَذَكَّرُوا} [الأعراف : ٢٠١]، أي:" تذكَّروا ما أوجب الله عليهم من طاعته، والتوبة إليه"[١٣].

قال الطبري:أي:" تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده"[١٤].

قال ابن كثير:" أي : عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا ، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب"[١٥].

قال الصابوني:" أي: تذكروا عقاب الله وثوابه"[١٦].

قال الزجاج:" أي: تفكروا فيما هو أوضح لهم من الحجة"[١].

---

[١] الكشاف:١٩١/٢.
[٢] انظر: السبعة في القراءات:٣٠١، والنكت والعيون:٢٨٩/٢.
[٣] انظر: النكت والعيون:٢٨٩/٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٦٠)، (١٥٥٦١):ص٣٣٦/١٣-٣٣٧.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٥٦٢):ص٣٣٧/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٥٦)-(١٥٥٥٩):ص٣٣٦/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٥٥):ص٣٣٥/١٣-٣٣٦.
[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٤٠/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.
[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٦٩٤):ص١٦٤٠/٥.
[١٠] تفسير الطبري:٣٣٧/١٣.
[١١] انظر: النكت والعيون:٢٨٩/٢.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٢٨٩/٢.
[١٣] التفسير الميسر:١٧٦.
[١٤] تفسير الطبري:٣٣٤/١٣.
[١٥] تفسير ابن كثير:٥٣٤/٣.
[١٦] صفوة التفاسير:٤٥٣/١.

عبد الله بن يسار قال: "سمعت عبد الله بن الزبير يقول: إذا مسهم طائف من الشيطان تأملوا"[٢].

عن الضحاك قوله: "{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان}، بالآلام {تذكروا}، قال: هم بفاحشة ولم يعملها، قال الحر بن جرموز، وقال العلا بن بدر: قد عملها"[٣].

قوله تعالى:{فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف : ٢٠١]، أي:" فإذا هم منتهون عن معصية الله على بصيرة، آخذون بأمر الله، عاصون للشيطان"[٤].

قال الزجاج: أي: "على بصيرة"[٥].

قال الطبري:" يعني: فإذا هم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه، فمنتهون عما دعاهم إليه طائف الشيطان"[٦].

قال ابن كثير:" أي : قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه "[٧].

عن ابن عباس: "{فإذا هم مبصرون}، يقول: إذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله، عاصون للشيطان"[٨].

وفي قوله تعالى:{فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف : ٢٠١]، وجوه[٩]:

أحدها: فإذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله عاصون للشيطان. قاله ابن عباس[١٠].

والثاني: يبصرون ما هم فيه. قاله ابن زيد[١١].

والثالث: فإذا هم مهتدون[١٢].

قال الزمخشري:" وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم: إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم"[١٣].

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يشفيني. فقال : "إن شئت دعوت الله فشفاك ، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك". فقالت : بل أصبر ، ولا حساب علي[١٤].

ورواه غير واحد من أهل السنن ، وعندهم : قالت : يا رسول الله ، إني أصرع وأتكشف ، فادع الله أن يشفيني. فقال :إن شئت دعوت الله أن يشفيك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة ؟" فقالت : بل أصبر ، ولي الجنة ، ولكن : ادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشف[١٥].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه : "أن شابًا كان يتعبد في المسجد ، فهويته امرأة ، فدعته إلى نفسها ، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل ، فذكر هذه الآية : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } فخر مغشيًا عليه ، ثم أفاق فأعادها ، فمات. فجاء عمر فَعزَّى فيه أباه وكان قد دفن ليلا فذهب

---

(١) معاني القرآن:٣٩٦/٢.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٦٩٦):ص١٦٤١/٥.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٦٩٦):ص١٦٤١/٥.

(٤) التفسير الميسر:١٧٦.

(٥) معاني القرآن:٣٩٦/٢.

(٦) تفسير الطبري:٣٣٧/١٣.

(٧) تفسير ابن كثير:٥٣٤/٣.

(٨) أخرجه الطبري(١٥٥٦٣):ص٣٣٧/١٣.

(٩) انظر: النكت والعيون:٢٨٩/٢.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٦٩٩):ص١٦٤١/٥.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٧٠٠):ص١٦٤١/٥.

(١٢) انظر: النكت والعيون:٢٨٩/٢.

(١٣) الكشاف:٩١!/٢.

(١٤) أخرجه ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير:٥٣٤/٥.

(١٥)المستدرك (٢١٨/٤)، وقال:" وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه".

فصلى على قبره بمن معه ، ثم ناداه عمر فقال : يا فتى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : ٤٦] وأجابه الفتى من داخل القبر : يا عمر ، قد أعطانيهما ربي ، عز وجل ، في الجنة مرتين"[١].

الفوائد:

١- فضيلة التقوى وهي فعل الفرائض وترك المحرمات.
٢- أنه من صفات المتقين: إذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان تذكروا، فيبصرون.
٣- أنه إذا ألم بالقلب الموصول بالله من مس الشيطان شيء، فسرعان ما يستيقظ.
٤- أن مما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان، وهذا دأب عباد الله الصالحين.
٥- ومن الفوائد: الالتجاء إلى الله والاحتماء به: فإن خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه، والاستعاذة به من الشيطان، فإنه عليه قادر. فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه

القرآن

{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)} [الأعراف : ٢٠٢]

التفسير:

وإخوان الشياطين، وهم الفجَّار من ضلال الإنس تمدهم الشياطين من الجن في الضلالة والغَواية، ولا تدَّخر شياطين الجن وُسْعًا في مدِّهم شياطين الإنس في الغيِّ، ولا تدَّخر شياطين الإنس وُسْعًا في عمل ما توحي به شياطين الجن.

قوله تعالى:{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} [الأعراف : ٢٠٢]، أي:" وإخوان الشياطين، وهم الفجَّار من ضلال الإنس تمدهم الشياطين من الجن في الضلالة والغَواية"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي، يعني بقوله: {يمدونهم}، يزيدونهم"[٣].

قال ابن كثير:" أي: وإخوان الشياطين من الإنس ، كقوله : { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } [الإسراء : ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم { يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ } أي : تساعدهم الشياطين على فعل المعاصي ، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، [و]«المد»: الزيادة. يعني : يزيدونهم في الغي ، يعني : الجهل والسفه"[٤].

قال الزجاج: { وإخوانهم}، "يعني: الشياطين، لأن الكفار إخوان الشياطين، والغي الجهل، والوقوع
في الحركة"[٥].

قال الزمخشري:" وأما «إخوان الشياطين» الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين {يمدونهم في الغى}، أى: يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم.. قوله وإخوانهم يمدونهم كقوله[٦]:

---

[١]تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤١١ ، ٤١٢) "القسم المخطوط". ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٩/١٩٠ ، ١٩١)، وانظر: تفسير ابن كثير:٥٣٤/٥.

[٢] التفسير الميسر:١٧٦.

[٣] تفسير الطبري:٣٣٧/١٣-٣٣٨.

[٤] تفسير ابن كثير:٥٣٤/٣-٥٣٥.

[٥] معاني القرآن:٣٩٧/٢.

[٦] البيت من شواهد الكشاف:١٩١/٢، والبحر المحيط في التفسير:٢٦٠/٥، والدر المصون:٥٤٨/٥، ولم أعرف أعرف قائله، قال في حاشية الكشاف:" قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها ... فوارس الخيل لا ميل ولا قدم «الخيل» الأفراس. و «الكاثبة» الفرس القربوس، وللبعير الغارب، والرجل الكاهل. والحمار السيسيا.
و «الميل» جمع أميل، وهو الذي لا يثبت على ظهر فرسه. والقدم: جمع أقدم، وهو اللئيم الضعيف. أو جمع قدم بالسكون بمعناه. وضمير «جالوا» للقوم، فجرى الخبر على غير ما هو له. أى إذا الخيل جالوا هم في سروجها

قوم إذا الخيل جالوا فى كواثبها

في أن الخبر جار على ما هو له. ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى {الجاهلين}، فيكون الخبر جاريا على ما هو له، والأول أوجه، لأن {إخوانهم} في مقابلة {الذين اتقوا}. فإن قلت: لم جمع الضمير في {إخوانهم} و{الشيطان} مفرد؟

قلت: المراد به الجنس، كقوله: {أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت} [البقرة : ٢٥٧] "[١].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائى {يمدونهم} بفتح الياء وضم الميم، وقرأ نافع وحده {يمدونهم} بضم الياء وكسر الميم[٢].

قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ} [الأعراف : ٢٠٢]، أي:" ولا تدَّخر شياطين الجن وُسْعًا في مدِّهم شياطين الإنس في الغيِّ، ولا تدَّخر شياطين الإنس وُسْعًا في عمل ما توحي به شياطين الجن"[٣].

قال الزمخشري:أي:" ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا"[٤].

قال ابن كثير:" قيل : معناه إن الشياطين تمد ، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك"[٥].

قال الطبري:أي:" ثم لا ينقصون عما نقص عنه الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان، وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقي الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفَّتهم رهبته عن معاصيه، وردّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم زلَّةً وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًّا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهو أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدِّه منه"[٦].

عن ابن عباس: "{وإخوانهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون}، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تُمْسك عنهم"[٧].

وعن عن ابن عباس، أيضا قوله: "{وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون}، يقول: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ، {ثم لا يقصرون}، يقول: لا يسأمون"[٨].

عن السدي: "{وإخوانهم يمدونهم في الغيّ}، إخوان الشياطين من المشركين، يمدهم الشيطان في الغيّ ، {ثم لا يقصرون}"[٩].

عن ابن جريج :"قال عبد الله بن كثير: وإخوانهم من الجن، يمدون إخوانهم من الإنس {ثم لا يقصرون}، يقول لا يقصر الإنسان. قال: و«المد» الزيادة، يعني: أهل الشرك، يقول: لا يُقصر أهل الشرك، كما يقصر الذين اتقوا، لا يرعَوُون، لا يحجزهم الإيمان ، قال ابن جريج قال مجاهد {وإخوانهم}، من الشياطين {يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون}، استجهالا يمدون أهل

وما يبرز الضمير هكذا، لأن محل وجوبه في الصفة لا الفعل، أو لأمن اللبس، لأن الواو ضمير العقلاء. فان قيل:

إن «إذا» لا تضاف إلا الجملة الفعلية، فالخيل فاعل فعل محذوف. أجيب بمنع أنها لا تضاف إلا للفعلية، وبأن ذلك في الشرطية لا الظرفية كما هنا. وقيل: يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان، وضمير كواثبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل: أى قوم إذا الفرسان جالوا في كواثب الأفراس، فوارس الخيل، ثابتون عليها لا مائلون عن ظهورها، ولا عاجزون كأن أيديهم مغلولة".

[١] الكشاف:٢/!٩١.

[٢] انظر: السبعة في القراءات: ٣٠١.

[٣] التفسير الميسر:١٧٦.

[٤] الكشاف:٢/!٩١.

[٥] تفسير ابن كثير:٥٣٥/٣.

[٦] تفسير الطبري:٣٣٨/١٣.

[٧] أخرجه الطبري(١٥٥٦٤):ص٣٣٨/١٣.

[٨] أخرجه الطبري(١٥٥٦٥):ص٣٣٨/١٣.

[٩] أخرجه الطبري(١٥٥٦٦):ص٣٣٨/١٣.

الشرك ، قال ابن جريج: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ} ، [سورة الأعراف: ١٧٩] . قال: فهؤلاء الإنس. يقول الله: {وإخوانهم يمدونهم في الغي}"[١].

عن مجاهد :"{وإخوانهم} ، من الشياطين. {يمدونهم في الغي}، استجهالا"[٢].

عن قتادة: "لآوإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون} قال: إخوان الشياطين، يمدهم الشياطين في الغيّ {ثمّ لا يقصرون}"[٣].

وروي عن قتادة أيضا، قوله: "{وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون}، عنهم، ولا يرحمونهم"[٤].

فعلى هذا التأويل: " قوله: {ثم لا يقصرون}، بمعنى: ولا الشياطين يقصرون في مدِّهم إخوانَهم من الغيّ"[٥].

قال السعدي:" وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنبا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر"[٦].

الفوائد:

١- شؤم أخوة الشياطين حيث لا يقصر صاحبها بمد الشياطين له عن الغي الذي هو الشر والفساد.
٢- أن الله يتخلى عن الذين كفروا ويخذلهم، فتتلقفهم طواغيت الجن والإنس يتلاعبون بعقولهم وقلوبهم، ويركسونهم في الباطل، {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ}
٣- أن إخوان الشياطين من الكفار، وهم الجاهلون الذين لا يتقون الله، تتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم في غيهم وفسادهم، ويزيدونهم ضلالا، ولا يكفون عن ذلك ولا يقصرون فيه، لأنهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوغ إلى الشر ولا يستعيذون بالله من نزغ الشيطان ومسه[٧].
٤- أن الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

القرآن

{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)} [الأعراف : ٢٠٣]

التفسير:

وإذا لم تجئ -أيها الرسول- هؤلاء المشركين بآية قالوا: هلا أحدَثْتها واختلقتها من عند نفسك، قل لهم -أيها الرسول-: إن هذا ليس لي، ولا يجوز لي فِعْله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إليَّ من عنده، وهو هذا القرآن الذي أتلوه عليكم حججًا وبراهين من ربكم، وبيانًا يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، ورحمة يرحم الله بها عباده المؤمنين.

قوله تعالى:{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ} [الأعراف : ٢٠٣]، أي:" وإذا لم تجئ -أيها الرسول- هؤلاء المشركين بآية "[٨].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٥٦٧):ص٣٣٨/١٣-٣٣٩.
[٢] أخرجه الطبري(١٥٥٦٩):ص٣٣٩/١٣.
[٣] أخرجه الطبري(١٥٥٦٨):ص٣٣٩/١٣.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٥٧٠):ص٣٣٩/١٣.
[٥] تفسير الطبري:٣٣٩/١٣.
[٦] تفسير السعدي:٣١٣.
[٧] انظر: أيسر التفاسير لأسعد حومد:١١٥٧.
[٨] التفسير الميسر:١٧٦.

قال السعدي:أي:" من آيات الاقتراح التي يعينونها"[١].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا لم تأت، يا محمد، هؤلاء المشركين بآية من الله"[٢].
قال ابن كثير:" أي : معجزة ، وخارق ، كما قال تعالى : { إِنْ نَشَأْ نُنزلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : ٤]"[٣].
قوله تعالى:{قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا} [الأعراف : ٢٠٣]، أي:" قالوا: هلا أحدَثْتها واختلقتها من عند نفسك"[٤].
قال الزجاج:" أي: هلا اختلقتها، أي: هلا أتيت بها من نفسك"[٥].
قال الطبري:" يقول: قالوا: هلا اخترتها واصطفيتها"[٦].
قال ابن كثير:" يقولون للرسول ﷺ : ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها "[٧].
قال السعدي:" أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك"[٨].
قال الصابوني:" هو تهكمٌ منهم لعنهم الله"[٩].
وفي قوله تعالى:{قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا} [الأعراف : ٢٠٣]، ثلاثة أقوال:
أحدها : معناه: هلا أتيتنا بها من قبل نفسك، وهذا قول ابن عباس[١٠]، مجاهد[١١]، وقتادة[١٢]، والسدي[١٣]، وابن زيد[١٤].
قال ابن عباس:" يقول: لولا تلقَّيتها ، وقال مرة أخرى: لولا أحدَثتها فأنشأتها"[١٥].
والثاني : معناه: هلا اخترتها لنفسك. حكاه الماوردي[١٦]، وهو معنى قول الفراء[١٧].
وحكي عن الفراء أنه كان يقول: "اجتبيت الكلام واختلقته، وارتجلته: إذا افتعلته من قِبَل نفسك"[١٨].
والثالث: هلا أخذتها من ربك وتقبَّلتها منه؟ وهذا مروي عن ابن عباس[١٩]، وقتادة[٢٠]، والضحاك[٢١].

---

(١) تفسير السعدي:٣١٣.
(٢) تفسير الطبري:٣٤٠/١٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٣.
(٤) التفسير الميسر:١٧٦.
(٥) معاني القرآن:٣٩٧/٢.
(٦) تفسير الطبري:٣٤٠/١٣.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٣.
(٨) تفسير السعدي:٣١٣.
(٩) صفوة التفاسير:٤٥٤/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٤):ص٣٤١/١٣-٣٤٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٢):ص٣٤١/١٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧١):ص٣٤١/١٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٥):ص٣٤٢/١٣.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٣):ص٣٤١/١٣.
(١٥) أخرجه الطبري(١٥٥٧٤):ص٣٤١/١٣-٣٤٢.
(١٦) انظر: النكت والعيون:٢٩٠/٢.
(١٧) انظر: معاني القرآن:٤٠٢/١، قال فيه:" هلا افتعلتها. وهو من كلام العرب جائز أن يقال: اختار الشيء، وهذا اختياره".
(١٨) أخرجه الطبري(١٥٥٨٠):ص٣٤٣/١٣.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٧):ص٣٤٢/١٣.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٨):ص٣٤٢/١٣.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(١٥٥٧٩):ص٣٤٢/١٣.

والراجح-والله أعلم- أن معناه:" هلا أحدثتها من نفسك! لدلالة قول الله: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} ، فبيَّن ذلك أن الله إنما أمر نبيه ﷺ، بأن يجيبهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولا وينشئه فيدعو الناس إليه"(١).

قال الزمخشري:" اجتبى الشيء، بمعنى جباه لنفسه: أى: جمعه، كقولك: اجتمعه، أو جبى إليه فاجتباه: أى أخذه، كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى لولا اجتبيتها هلا اجتمعتها، افتعالا من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: ما هذا إلا إفك مفترى أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة؟"(٢).

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي} [الأعراف : ٢٠٣]، أي:" قل لهم يا محمد ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيءٍ من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امتثل ما يوحيه الله إليَّ"(٣).

قال ابن كثير:" أي : أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي ، فإن بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها ؛ إلا أن يأذن لي في ذلك ، فإنه حكيم عليم "(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: «هلا أحدثتها من قبل نفسك!»: إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إليّ من عنده، فإنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع"(٥).

قال الزمخشري:أي:" لست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها "(٦).

قال السعدي:أي:" فأنا عبد متبع مدبَّر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وطلبتْه حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآنات"(٧).

قوله تعالى:{هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف : ٢٠٣]، أي:" هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة، وبراهين نيّرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصر الحق ويُدرك"(٨).

قال الطبري:" يقول: هذا القرآن والوحي الذي أتلوه عليكم حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم"(٩).

قال الزمخشري:" هذا القرآن {بصائر من ربكم}، أى: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب"(١٠).

قال السعدي:" فـ {هَذَا} القرآن العظيم، والذكر الحكيم {بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون"(١١).

---

(١) تفسير الطبري:١٣/٣٤٢-٣٤٣.
(٢) الكشاف:٢/١٩٢.
(٣) صفوة التفاسير:١/٤٥٤.
(٤) تفسير ابن كثير:٣/٥٣٥.
(٥) تفسير الطبري:١٣/٣٤٣.
(٦) الكشاف:٢/١٩٢.
(٧) تفسير السعدي:٣١٣.
(٨) صفوة التفاسير:١/٤٥٤.
(٩) تفسير الطبري:١٣/٣٤٣.
(١٠) الكشاف:٢/١٩٢.
(١١) تفسير السعدي:٣١٣.

قال ابن كثير:" ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبينات ، فقال : { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }"(١).

قال الزجاج:" أي: هذا القرآن الذي أتيت به بصائر من ربكم، واحدة البصائر بصيرة.

والبصيرة والبصائر طرائق الدم، قال الأشعر الجعفي(٢):

حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

و«البصيرة» الترس، وجمعها «بصائر»، وجميع هذا أيضا معناه ظهور الشيء وبيانه"(٣).

قال أبو عبيدة:" {بصائر}، أي: حجج وبيان وبرهان، واحدتها: «بصيرة»، وقال الجعفىّ(٤):

حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

«البصيرة» الترس، و«البصيرة» الحلقة من حلق الدرع، فيجوز أن يقال للدرع كلها بصيرة، و«البصيرة» من الدم الذي بمنزلة الورق الرّشاش منه: والجديّة(٥) أوسع من البصيرة، و«البصيرة» مثل فرسن البعير فهو بصيرة والجديّة أعظم من ذلك، والإسبأة والأسابىّ فى طول(٦)، قال(٧):

والعاديات أسابىّ الدّماء بها كأنّ أعناقها أنصاب ترجيب"(٨).

قوله تعالى:{وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : ٢٠٣]، أي:" وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمنتفعون من أحكامه"(٩).

قال الطبري:" قوله: {وهدى}، يقول: وبيان يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، {ورحمة}، رحم الله به عباده المؤمنين، فأنقذهم به من الضلالة والهلكة، {لقوم يؤمنون}، يقول: هو بصائر من الله وهدى ورحمة لمن آمن، يقول: لمن صدَّق بالقرآن أنه تنزيل الله ووحيه، وعمل بما فيه، دون من كذب به وجحده وكفر به، بل هو على الذين لا يؤمنون به عمًى وخزي"(١٠).

قال السعدي:" فمن آمن، فهو {هُدًى} له من الضلال {وَرَحْمَةٌ} له من الشقاء، فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة"(١١).

الفوائد:

١- أن القرآن أكبر آية بل هو أعظم من كل الآيات التي أعطيها الرسل عليهم السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٣.

(٢)الأصمعيات: ٢٣ (وطبعة المعارف: ١٥٧) ، والوحشيات رقم: ٥٨، المخصص ١: ١٦٠، اللسان (بصر) (عتد) (وأي) . وغيرها كثير. وهي من قصيدة عير فيها إخوته لأبيه، وذلك أن أباه قتل وهو غلام، فأخذ إخوته لأبيه الدية فأكلوها، فلما شب الأسعر، أدرك بثأر أبيه، وقال قبله:

ولقد عَلِمْتُ، عَلَى تَجَشُّمِيَ الرَّدَى ... أَنَّ الحُصُونَ الخَيْلُ لا مَدَرُ القُرَى

وفسر أصحاب اللغة ((البصيرة)) هنا بأنها الدم ما لم يسل، يعني: دماءهم في أبدانهم، يعير أخوته. وقال غيرهم: ((البصائر)) دم أبيهم، يقول: تركوا دم أبيهم خلفهم ولم يثأروا به، وطلبته أنا. و ((عتد)) (بفتح العين، وفتح التاء أو كسرها) : الفرس الشديد التام الخلق، السريع الوثبة، المعد للجري، ليس فيه اضطراب ولا رخاوة. و ((الوأي)) ، الفرس السريع الطويل المقتدر الخلق.

(٣) معاني القرآن:٣٩٧/٢.

(٤) سبق تخريجه في قول الزجاج.

(٥)والجدية: مالزق بالجسد (اللسان- بصر).

(٦)الإسبة والإسباءة الطريقة من الدم والأسابى الطرق من الدم وأسابى الدماء (اللسان).

(٧) البيت لسلامة بن جندل فى ديوانه ٧- وشرح المفضليات ٢٢٣ والاقتضاب ٣٢٣ واللسان والتاج (سبى) والعيني ٢/ ٢٣٧. - الترجيب: التعظيم (الاقتضاب).

(٨) مجاز القرآن:٢٣٧/١-٢٣٨.

(٩) صفوة التفاسير:٤٥٤/١.

(١٠) تفسير الطبري:٣٤٤/١٣.

(١١) تفسير السعدي:٣١٣.

٢- أن الله قد جعل للهداية والثبات أسباباً، كما جعل للضلال والزيغ أسباباً؛ فمن ذلك أن الله سبحانه أنزل الكتاب، وأرسل الرسول ليبين للناس ما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }، ومنه قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[كالنحل:٦٤]؛ فبإنزال الكتب وإرسال الرسول، قطع العذر وأقام الحجة، كما قال تعالى: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[كالنساء:١٦٥]

٣- ودلت الآية: أنه لا يجوز خلو كتب الله تعالى وسنن أنبيائه عن أمر كبير من مهمات الدين العقلية، فثبت أن ما خلت عنه كتب الله تعالى فليس من مهمات الدين وإن زيادته في الدين محرمة ألا ترى أن رسول الله ﷺ حذر أمته من فتنة الدجال[1] وعظمها وأخبر وأخبر عن الأنبياء كلهم أنهم حذروا أممهم منها مع أن بطلان دعواه معلوم بالعقل لأنه يدعي الربوبية وهو بشر يحتاج إلى الأكل والشرب وينام ويعجز ويجهل ويمرض ويبول ويتغوط وينكح دع عنك كونه جسما مركبا من لحم ودم وعظام وعصب فلم يكلنا ربنا سبحانه وتعالى إلى معرفة عقولنا بحدوث ما كان على هذه الصفات واستحالة ربوبية الحادث بل زاد في البيان على لسان رسوله حتى أبان لنا أنه أعور وأنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه من يكتب ومن لا يكتب فلو كان يجوز عليه الاهمال لكان ذلك أحق ما يهمل لقوله في الاحاديث الصحيحة ما خفي عليكم من شيء فلا يخفى عليكم إن ربكم ليس بأعور لأنه قد تقرر أنه ليس كمثله شيء عقلا وسمعا فيجب أن لا يكون بشرا كاملا فكيف يكون بشرا ناقصا معيبا فدل الحديث على تأكيد ما دل القرآن عليه في الآية.

القرآن

{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)} [الأعراف : ٢٠٤]

التفسير:

وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له أيها الناس وأنصتوا، لتعقلوه رجاء أن يرحمكم الله به.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ "أنه كان يقول -في هذه {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} -: هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد ذلك؛ فإنما هي نافلة، إن نبي الله - ﷺ - قرأ في صلاة مكتوبة وقرأ أصحابه وراءه فخلطوا عليه، قال: فنزل القرآن: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}؛ فهذا في المكتوبة"[2].[حسن]

---

[1]أخرجه أحمد (١٣٩/٦، رقم ٢٥١٣٣) . قال المنذرى (١٩٥/٤) : إسناد صحيح. وأخرجه أيضا: إسحاق بن راهويه (٥٩٤/٢، رقم ١١٧٠).

ونص الحديث:« أما فتنة الدجال فإنه لم يكن نبى إلا قد حذر أمته وسأحذركموه بحديث لم يحذره نبى أمته إنه أعور وإن الله ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن وأما فتنة القبر فبى تفتنون وعنى تسألون فإذا كان الرجل الصالح أجلس فى قبره غير فزع ثم يقال له ما هذا الرجل الذى كان فيكم فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضا فيقال انظر إلى ما وقاك الله ثم يفرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها فيقال له هذا مقعدك منها ويقال على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله وإذا كان الرجل السوء أجلس فى قبره فزعا فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول لا أدرى فيقال لا دريت فيقال ما هذا الرجل الذى كان فيكم فيقول سمعت الناس يقولون قولا فقلت كما قالوا فيفرج له فرجة من قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها فيقال له انظر إلى ما صرف الله عنك ثم يفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضا ويقال هذا مقعدك منها على الشك كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يعذب (أحمد عن عائشة، قال المناوى: بإسناد حسن)»

[2]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٦٠٨):ص٣٥٠/١٣، والبيهقي في "جزء القراءة". (ص ١٠٩ رقم ٢٥٥) من طريقين عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد حسن لذاته، والراوي عن ابن لهيعة عند الطبري ابن المبارك وهو من قدماء أصحابه.

والثاني: أن المشركين كانوا يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى، فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن المسيب[١].[باطل]
والثالث: أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبي ﷺ شيئا، قرأ هو، فنزلت هذه الآية، قاله الزهري[٢].[ضعيف]
والرابع: أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم بحوائجهم أول ما فرضت عليهم؛ فأنزل الله ما تسمعون: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}. قاله قتادة[٣]. [ضعيف].
عن أبي هريرة -رضي الله عنه-؛ قال: "كانوا يتكلمون في الصلاة؛ فنزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ. . .} "[٤]. [صحيح لغيره]

وأخرج الطبري -أيضاً- (١٥٦٠٤):ص٣٤٩/١٣، والبيهقي (ص ١٠٩ رقم ٢٥٤) من طريق عبد الله بن صالح ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس؛ قال: في الصلاة المفروضة.
قلنا: وسنده ضعيف؛ لضعف عبد الله بن صالح.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٤) وزاد نسبته لابن المنذر.
وأخرجه البيهقي في "جزء القراءة" (رقم ٢٥٣)، و"السنن الكبرى" (٢/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٦ رقم ٨٧٣٣) من طريق مسكين بن بكير الحراني عن ثابت بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس؛ قال: المؤمن في سعة من الاستماع إليه؛ إلا في صلاة مفروضة، أو مكتوبة، أو يوم جمعة، أو يوم فطر، أو يوم أضحى بعد قوله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.
قلنا: وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-؛ مسكين هذا وثقه ابن حبان والبزار، وقال أحمد: "لا بأس به"، وقال الذهبي: "صدوق يغرب"، وقال ابن حجر: "صدوق يخطئ"؛ فرجل هذا حاله حديثه حسن ما لم يخالف -والله أعلم-.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٧) وزاد نسبته لأبي الشيخ.
وأخرجه ابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور": عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- في قوله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}؛ قال: نزلت في رفع الأصوات خلف رسول الله - ﷺ - في الصلاة، وفي الخطبة؛ لأنها صلاة، وقال: من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب؛ فلا صلاة له.
[١]باطل. عزاه ابن الجوزي في زاد المسير:٢٨٣/٢ لابن المسيب، ولم أقف عليه، وهو باطل لا يصح عنه، فإن الخطاب في الآية للمؤمنين، وسياق الخبر يدل على أن الخطاب للمشركين!!!.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٨٣):ص٣٤٦/١٣. أخرجه عن الزهري مرسلا، والمرسل من قسم الضعيف. وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ٤٦٥ عن الزهري مرسلا.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٩٨):ص٣٤٨/١٣. ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.
قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد، ويزيد بن زريع روى عن سعيد قبل اختلاطه.
وهو شاهد قوي لحديث أبي هريرة.
ثم أخرجه (١٥٥٩٩):ص٣٤٨/١٣ من طريق محمد بن ثور، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٧) كلاهما عن معمر عن قتادة؛ قال: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم: كم صليتم؟ كم بقي؟ فأنزل الله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.
قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد وأبي الشيخ، وله شاهد من حديث معاوية بن قرة بنحوه:
أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٨٤ رقم ٩٨١ - تكملة) -ومن طريقه البيهقي في "جزء القراءة" (ص ١١٦ رقم ٢٨٣)، و"السنن الكبرى" (٩/ ١٥٥) -، وهو مرسل صحيح الإسناد.
ويشهد له في الجملة ما ثبت في "الصحيحين" من حديث زيد أرقم -وتقدم تخريجه في سورة البقرة- قال: كان أحدنا يكلم صاحبه إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}؛ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

[٤]أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٤٧٨)، وابن المنذر في "الأوسط" (٣/ ١٠٥ رقم ١٣١٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٨)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٥٨٢):ص٣٤٥/١٣، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٢/ ١٥٥)، و"جزء القراءة خلف الإمام" (ص ١١٤ رقم ٢٧٤ - ٢٧٧) من طريق إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة به.
قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه إبراهيم الهجري، وهو لين الحديث: رفع موقوفات؛ كما في "التقريب"، وأبو عياض -اسمه عمرو بن الأسود-؛ ثقة عابد.

والخامس: أنها نزلت تأمر بالإنصات للامام في الخطبة يوم الجمعة، قاله مجاهد(١)، وعزاه ابن الجوزي والماوردي إلى أمّنا عائشة-رضي الله عنها-(٢).

والسادس: قال الكلبي:"كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار؛ فأنزل الله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}"(٣). [موضوع]

قوله تعالى:{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} [الأعراف : ٢٠٤]، أي:" وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له أيها الناس وأنصتوا"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به، المصدقين بكتابه، الذين القرآنُ لهم هدى ورحمة: {إذا قرئ}، عليكم، أيها المؤمنون، أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه {وأنصتوا} إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه"(٥).

قال الصابوني:" أي: وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً"(٦).

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم : { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : ٢٦] ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، من حديث أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : "إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا»(٧)"(٨).

قال الحسن:" إذا جلست إلى القرآن فأنصت له"(٩).

قال الزمخشري: قوله:"{وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}، ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة. وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن. وقيل

لكنه توبع؛ فأخرجه البيهقي في "جزء القراءة خلف الإمام" (ص ١١٤، ١١٥ رقم ٢٧٨) من طريق مؤمل بن إسماعيل نا عبد العزيز بن مسلم القسلمي نا محمد بن زياد عن أبي هريرة به.

قلت: ومؤمل صدوق سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٦)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٥٨٦):ص١٣/٣٤٦-٣٤٧، والدارقطني (١/ ٣٢٦) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٤)، و"الوسيط" (٢/ ٤٤٠) -، والبيهقي في "جزء القراءة" (ص ١١٥ رقم ٢٧٩) من طريق الأوزاعي نا عبد الله بن عامر ثنا زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة به.

قلنا: وعبد الله بن عامر هذا؛ ضعيف، وبه أعله الدارقطني عقبه.

فالحديث بمجموعها صحيح -إن شاء الله-، على أن له شواهد كثيرة يصح بها.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٦) وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن مردويه.[انظر: الاستيعاب في بيان الأسباب:١٧٧/٢].

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٠٩):ص٣٥٠/١٣.

(٢) انظر: زاد المسير:١٨٣/٢، والنكت والعيون:٢٩٠/٢. لم أره عن عائشة، وورد عن بعض التابعين.

(٣)أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٧) من طريق الكلبي به.

قلنا: والكلبي يضع الحديث فكلامه ليس بشيء.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٧) وزاد نسبته لابن المنذر..

(٤) التفسير الميسر:١٧٦.

(٥) تفسير الطبري:٣٤٤/١٣-٣٤٥.

(٦) صفوة التفاسير:٤٥٤/١.

(٧)صحيح مسلم برقم (٤٠٤)، ورواه النسائي في السنن (١٤١/١٢) ، وابن ماجة في السنن برقم (٨٤٦)..

(٨) تفسير ابن كثير:٥٣٦/٣.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٣٧):ص١٦٤٧/١٣.

معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وقيل: معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه"[١].

واختلفوا في موضع هذا الإنصات على أقوال:

أحدها : أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ، وهذا قول أبي هريرة[٢]، وابن عباس[٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥]، والزهري[٦]، والسدي[٧]، وابن زيد[٨]، وعبيد بن عمير[٩]، عمير[٩]، وعطاء[١٠]، ومحمد بن كعب القرظي[١١].

عن الزهري قال:" نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قرأ شيئًا قرأه، فنزلت: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}"[١٢].

وعن بشير بن جابر قال: "صلى ابن مسعود، فسمع ناسًا يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا! أما آن لكم أن تعقلوا؟ {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}، كما أمركم الله"[١٣].

وعن أبي هريرة:" أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : "هل قرأ أحد منكم معي آنفا ؟" قال رجل : نعم يا رسول الله. قال: إني أقول : ما لي أنازع القرآن ؟" قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات (١١) حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ"[١٤].

والثاني : أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم، قاله مجاهد أيضا[١٥].

والثالث: عني بذلك: الإنصات في الصلاة، وفي الخطبة. قاله عطاء[١٦]، وسعيد بن جبير[١٧]، وهو مروي عن مجاهد أيضا[١٨].

والرابع: ما قاله ابن مسعود : "كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، سلام على فلان ، سلام على فلان، فجاء القرآن {وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ}"[١٩] .

عن أبي هريرة قال: "كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: {وإذا قرئ القرآن} ، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات"[٢٠].

---

[١] الكشاف:١٩٢/٢.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٧٢٦):ص١٦٤٥/٥.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٠٤):ص٣٤٩/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٨٩)-(١٥٥٩٥):ص٣٤٧/١٣-٣٤٨.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٩٨):ص٣٤٨/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٠٠):ص٣٤٨/١٣-٣٤٩.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٠٣):ص٣٤٩/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٠٦):ص٣٤٩/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٨٥):ص٣٤٦/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٥٨٥):ص٣٤٦/١٣.
[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٧٢٧):ص١٦٤٥/٥.
[١٢] أخرجه الطبري(١٥٥٨٣):ص٣٤٦/١٣.
[١٣] أخرجه الطبري(١٥٥٨٤):ص٣٤٦/١٣.
[١٤]المسند (٣٠١/٢) وسنن أبي داود برقم (٨٢٦) وسنن الترمذي برقم (٣١٢) وسنن النسائي (١٤٠/٢) وسنن ابن ماجة برقم (٨٤٨).
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٠٩):ص٣٥٠/١٣.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٦١٢):ص٣٥١/١٣.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٦١٦):ص٣٥١/١٣.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٦١١):ص٣٥١/١٣.
[١٩] أخرجه الطبري(١٥٥٨١):ص٣٤٥/١٣.
[٢٠] أخرجه الطبري(١٥٥٨٢):ص٣٤٥/١٣.

والخامس: أنها نزلت في الصلاة وحين ينزل الوحي عن الله عز وجل. قاله ابن عباس في رواية عكرمة عنه[١].

قال الطبري:" أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام، وكان من خلفه ممن يأتمّ به يسمعه، وفي الخطبة، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إذا قرأ الإمام فأنصتوا»[٢]، وإجماع الجميع على أن على من سمع خطبة الإمام ممن عليه الجمعة، الاستماعَ والإنصاتَ لها، مع تتابع الأخبار بالأمر بذلك، عن رسول الله ﷺ، وأنه لا وقت يجب على أحد استماع القرآن والإنصات لسامعه، من قارئه، إلا في هاتين الحالتين، على اختلاف في إحداهما، وهي حالة أن يكون خلف إمام مؤتم به. وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا من قوله: «إذا قرأ الإمام فانصتوا»[٣]، فالإنصات خلفه لقراءته واجب على من كان به مؤتمًّا سامعًا قراءته، بعموم ظاهر ظاهر القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ "[٤].

قال السعدي:" هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا، وإيمانا مستمرا متجددا، وهدى متزايدا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة، وغيرها"[٥].

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف : ٢٠٤]، أي:" رجاء أن يرحمكم الله به"[٦].

قال الطبري:" يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه"[٧].

قال ابن كثير:" قال عبد الله بن المبارك ، عن يونس عن الزهري قال : لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرءون فيما لا يجهر به سرًا في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًا ولا علانية ، فإن الله تعالى قال:{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعي ، وهو القديم كمذهب مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد : يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : لا يجب على المأموم قراءة أصلا في السرية ولا الجهرية ، لما ورد في الحديث : "من كان له إمام فقراءته له قراءة". وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعًا ، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان ، عن جابر موقوفًا ، وهذا أصح.

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٣٦):ص١٦٤٦/٥.
[٢]أخرجه مسلم (٣٠٣/١، رقم ٤٠٤).
[٣]أخرجه مسلم (٣٠٣/١، رقم ٤٠٤).
[٤] تفسير الطبري:٣٥٢/١٣-٣٥٣.
[٥] تفسير السعدي:٣١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٧٦.
[٧] تفسير الطبري:٣٤٥/١٣.

وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفًا على حدة [١] واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضا ، والله أعلم"[٢].

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : "من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة"[٣].

الفوائد:

١- وجوب الإنصات عند تلاوة القرآن وخاصة في خطبة الجمعة على المنبر وعند قراءة الإمام في الصلاة الجهرية.

٢- ومن الفوائد: أن كلام الله مسموع، دليله آيات من الكتاب العزيز. منها قوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} [المائدة:٨٣] {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} [الأحقاف:٢٩] {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً} [الجن:١] {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} [الأحقاف:٣٠] {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ} [الجن: ١٣] {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} [البقرة: ٧٥] {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤] {وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا} [لقمان: ٧] {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦] {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} [طه: ١٣] وقال تعال: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣] {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} [فصلت: ٢٢٦] .

فعلم بهذه الآيات، أن كلام الله مسموع، والمسموع ليس إلا هذه الحروف والأصوات، فتكون هي كلام الله حقيقة، وإذا كانت هي كلام الله حقيقة لا يكون غيرها كلام الله ضرورة لأن كلام الله أحد شيئين، وليس هو ذلك الذي هو غيره فينبغي المصير إلى هذا[٤].

٣- ومنها: أن الإنصات جزء أساسي من أجزاء الفهم، ولا يمكن للإنسان أن يفهم وأن يتأمل إلا إذا أنصت، ولهذا أمر الله عز وجل أن ينصت الإنسان للقرآن: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٢٠٤]، والقرآن هو أساس العلم.

القرآن

{وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)} [الأعراف : ٢٠٥]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- ربك في نفسك تخشعًا وتواضعًا لله خائفًا وجل القلب منه، وادعه متوسطًا بين الجهر والمخافتة في أول النهار وآخره، ولا تكن من الذين يَغْفُلون عن ذكر الله، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم.

قوله تعالى:{وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ} [الأعراف : ٢٠٥]، أي:" واذكر ربك سراً مستحضراً لعظمته وجلاله"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {واذكر} أيُّها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة، {ربك في نفسك}، يقول: اتعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعكه"[١].

---

[١] سماه "جزء القراءة خلف الإمام" مطبوع في مؤسسة الرسالة ببيروت.

[٢] تفسير ابن كثير:٥٣٧/٣.

[٣] المسند (٣٤١/٢) وفي إسناده عباد بن ميسرة وهو ضعيف.

[٤] انظر: جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات، النووي:٦٦.

[٥] صفوة التفاسير:٤٥٤/١.

قال الزمخشري: قوله:" {واذكر ربك في نفسك}، هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك"[٢].

قال السعدي:" الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمدا أصلا وغيره تبعا، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصا خاليا"[٣].

عن عبيد بن عمير، في قوله: "{واذكر ربك في نفسك}، قال: يقول الله إذا ذكرني عبدي في نفسه، ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني عبدي وحده ذكرته وحدي، وإذا ذكرني في ملإٍ ذكرته في أحسنَ منهم وأكرم"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ} [الأعراف : ٢٠٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها : أنه ذكر القرءاة في الصلاة خلف الإمام سراً في نفسه. قاله الحكم ابن عتيبة[٥].

والثاني : أنه ذكر بالقلب باستدامة الفكر حتى لا ينسى نعم الله الموجبة لطاعته[٦].

والثالث : ذكره باللسان إما رغبة إليه في دعائه أو تعظيماً له بالآية[٧].

وفي المخاطب بهذا الذكر قولان :

أحدهما : أنه المستمع للقرآن إما في الصلاة أو الخطبة، قاله ابن زيد[٨]، واختاره الطبري[٩].

قال ابن كثير:" وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به ، ثم المراد بذلك في الصلاة ، كما تقدم ، أو الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرًا أو جهرًا ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين"[١٠].

والثاني : أنه خطاب للنبي -ﷺ- ومعناه عام في جميع المكلفين. ذكره الماوردي[١١].

قوله تعالى:{تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} [الأعراف : ٢٠٥]، أي:" متضرعاً إليه وخائفاً منه"[١٢].

قال الطبري:" يقول: افعل ذلك تخشعًا لله وتواضعًا له، وخوفًا من الله أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاظ به والاعتبار، وغفلة عما بين الله فيه من حدوده"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة "[١٤].

قال الزمخشري:أي: " متضرعا وخائفا"[١٥].

قال السعدي:" {تَضَرُّعًا} أي: متضرعا بلسانك، مكررا لأنواع الذكر، {وَخِيفَةً} في قلبك بأن تكون خائفا من الله، وَجِلَ القلب منه، خوفا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به"[١].

---

(١) تفسير الطبري:٣٥٣/١٣.

(٢) الكشاف:١٩٢/٢.

(٣) تفسير السعدي:٣١٤.

(٤) أخرجه الطبري(١٥٦٢١):ص٣٥٤/١٣.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٧٤١):ص١٦٤٧/٥.

(٦) انظر: النكت والعيون:٢٩٠/٢.

(٧) انظر: النكت والعيون:٢٩٠/٢.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير:٥٣٩/٣. وأخرج الطبري(١٥٦١٩):ص٣٥٤/١٣ عن ابن زيد:" في قوله: (واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول) ، لا يجهر بذلك".

(٩) انظر: تفسير الطبري:٣٥٣/١٣.

(١٠) تفسير ابن كثير:٥٣٩/٣.

(١١) انظر: النكت والعيون:٢٩١/٢.

(١٢) صفوة التفاسير:٤٥٤/١.

(١٣) تفسير الطبري:٣٥٣/١٣.

(١٤) تفسير ابن كثير:٥٣٨/٣.

(١٥) الكشاف:١٩٢/٢.

قال مجاهد:" أمروا أن يذكروه في الصدور تضرعًا وخيفة"[2].

عن ابن جريج، قوله: "{واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة}، قال: يؤمر بالتضرع في الدعاء والاستكانة، ويكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء"[3].

قال أبو عبيدة:{ وَخِيفَةً}" أي: خوفا وذهبت «الواو» بكسرة «الخاء»"[4].

قوله تعالى:{وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الأعراف : ٢٠٥]، أي:" وادعه متوسطًا بين الجهر والمخافتة في أول النهار وآخره"[5].

قال ابن زيد:" لا يجهر بذلك"[6].

وفي رواية أخرى عن ابن زيدعن أبيه قال: "دون الجهر من القول بالغدو والآصال قال: فالآصال لا يجهر فيها"[7].

قال الزمخشري:قوله:"{ودون الجهر}، ومتكلما كلاما دون الجهر، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر، بالغدو والآصال لفضل هذين الوقتين. أو أراد الدوام. ومعنى {بالغدو}: بأوقات الغدو، وهي الغدوات"[8].

قال الطبري:" يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار. يقول: ليكن ذكر الله عند استماعك القرآن في دعاء إن دعوت غير جهار، ولكن في خفاء من القول، وقوله: {بالغدو والآصال}، فإنه يعني بالبُكَر والعشِيَّات"[9].

قال ابن كثير:" وبالقول لا جهرًا، وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء ولا جهرًا بليغًا ؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } [البقرة : ١٨٦][10]، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ، فقال لهم النبي ﷺ : «أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ؛ إن الذي تدعونه سميع قريب»[11]، وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى : { وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا } [الإسراء : ١١٠] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه ، وسبوا من أنزله ، وسبوا من جاء به ؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به ، لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلا بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة : { وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ }"[12].

قال السعدي:" {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} أي: كن متوسطا، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا. {بِالْغُدُوِّ} أول النهار {وَالآصَالِ} آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما"[13].

وفي قوله تعالى:{ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الأعراف : ٢٠٥]، وجهان:

---

(1) تفسير السعدي:٣١٤.
(2) أخرجه الطبري(١٥٦٢٠):ص٣٥٤/١٣.
(3) أخرجه الطبري(١٥٦٢٢):ص٣٥٤/١٣.
(4) مجاز القرآن:٢٣٧/١-٢٣٨.
(5) التفسير الميسر:١٧٦.
(6) أخرجه الطبري(١٥٦١٩):ص٣٥٤/١٣.
(7) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٤٨):ص١٦٤٨/٥.
(8) الكشاف:١٩٢/٢.
(9) تفسير الطبري:٣٥٣/١٣-٣٥٤.
(10)رواه الطبري في تفسيره (٤٨٠/٣) من طريق عبدة السجستاني ، عن الصلت بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده فذكره ، وقد سبق الكلام عليه عند الآية : ١٨٦ من سورة البقرة.
(11)صحيح البخاري برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤).
(12) تفسير ابن كثير:٥٣٨/٣.
(13) تفسير السعدي:٣١٤.

أحدهما : بالبكر والعشيّ. قاله ابن زيد[١].
عن معرّف بن واصل السعدي، قال: "سمعت أبا وائل يقول لغلامه عند مغيب الشمس: آصَلْنا بعدُ؟"[٢].
والثاني : أن الغدو آخر الفجر صلاة الصبح، والآصال آخر العشي صلاة العصر، قاله مجاهد[٣]، ونحوه عن قتادة[٤].
وعن أبي صخر في قوله: {بالغدو والآصال}، {والآصال}، ما بين الظهر والعصر"[٥].
قال ابن كثير:" يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ } [ق : ٣٩] وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، وهذه الآية مكية وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار : { وَالآصَالِ } جمع «أصيل» ، كما أن :الأيمان جمع «يمين»"[٦].
وقرئ:«والإيصال»، من: آصل إذا دخل في الأصيل، كأقصر وأعتم وهو مطابق للغدو[٧].
قوله تعالى:{وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف : ٢٠٥]، أي:" ولا تكن من الذين يَغْفُلون عن ذكر الله، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم"[٨].
قال الطبري:" يقول: ولا تكن من اللاهين إذا قرئ القرآن عن عظاته وعبره، وما فيه من عجائبه، ولكن تدبر ذلك وتفهمه، وأشعره قلبك بذكر الله، وخضوعٍ له، وخوفٍ من قدرة الله عليك، إن أنت غفلت عن ذلك"[٩].
قال الزمخشري:أي:" من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه"[١٠].
عن أسلم قال: "{ولا تكن من الغافلين}، قال: مع الغافلين"[١١].
وفي قوله تعالى:{وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف : ٢٠٥]، وجهان:
أحدهما : عن الذكر. ذكره الماوردي[١٢]، واختاره القرطبي[١٣].
والثاني : عن طاعته في كل أوامره ونواهيه ، حكاه الماوردي عن الجمهور[١٤].
قال السعدي:" {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصا طَرَفَيِ النهار، مخلصا خاشعا متضرعا، متذللا ساكنا، وتواطئا عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه"[١٥].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٢٣):ص٣٥٥/١٣.
[٢] أخرجه الطبري(١٥٦٢٤):ص٣٥٥/١٣. قال المحقق:" أبو وائل)) هو ((شقيق بن سلمة الأسدى)) ، أدرك النبي ﷺ، ولم يره، حجة في العربية. وقوله: ((آصل)) ، أي: دخل في الأصيل".
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٢٥):ي٣٥٦/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٢٧):ي٣٥٧/١٣.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٤٧):ص١٦٤٨/٥.
[٦] تفسير ابن كثير:٥٣٨/٣.
[٧] انظر: الكشاف:١٩٢/٢.
[٨] التفسير الميسر:١٧٦.
[٩] تفسير الطبري:٣٥٥/١٣.
[١٠] الكشاف:١٩٢/٢.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٤٩):ص١٦٤٨/٥.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٢٩١/٢.
[١٣] انظر: تفسير القرطبي:٣٥٦/٧.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٢٩١/٢.
[١٥] تفسير السعدي:٣١٤.

عن بكير بن الأخنس قال: "ما أتى يوم الجمعة على أحد وهو لا يعلم أنه يوم جمعة إلا كتب من الغافلين"[1].

الفوائد:

١- وجوب ذكر الله بالغدو والآصال.

٢- أن الذكر: وحقيقته حضور المذكور في قلب الذاكر على أي نحو من الأنحاء الثابتة له ثم التعبير عن ذلك باللسان وضده الغفلة والنسيان.

والذكر هو أفضل العبادات بل هو الغرض المقصود من العبادات كلها فإنها ما شرعت إلا لتعين على ذكر الله- عز وجل- كما قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [سورة طه، الآية: ١٤].

وقد وعد الله- عز وجل- بذكر من يذكره كما توعد بنسيان من ينساه كما قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: الآية: ١٥٢]. وقال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الحشر، الآية: ١٩].

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥]. فقد أرشدت الآية إلى وجوب أن يكون الذكر مخالفة مع التذلل والخشية فلا يرفع صوته به ولا يذكر الله بأطراف لسانه مع قسوة القلب وغفلته[2].

وفي الحديث عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -:«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى» ، فقال معاذ بن جبل - رضي الله عنه - ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»[3].

٣- بيان آداب الذكر وهي:

أ- السرية.

ب- التضرع والتذلل.

ت- الخوف والخشية.

ث- الإسرار به وعدم رفع الصوت به، ومعنى ذلك أنه أخشع وأخضع، وذلك بحال الداعي أليق وأشبه.

٤- ومن الفوائد: أنه تعالى خص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره لأنها توجب الإدلال والانبساط. وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)} [الأعراف : ٢٠٦]

التفسير:

إن الذين عند ربك من الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل ينقادون لأوامره، ويسبحونه بالليل والنهار، وينزهونه عما لا يليق به، وله وحده -لا شريك له- يسجدون.

---

[1] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٥٠):ص١٦٤٨/٥.

[2]انظر دعوة التوحيد ص / ٤٨ وما بعدها.

[3]أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب ٦جـ / ٥ ص / ٤٢٨ح رقم ٣٣٧٧.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} [الأعراف : ٢٠٦]، أي:" إن الذين عند ربك من الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل ينقادون لأوامره"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لا تستكبر، أيها المستمع المنصت للقرآن، عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع، وذلك هو «العبادة»"[٢].

قال الزمخشري:قوله:" {إن الذين عند ربك}، هم الملائكة صلوات الله عليهم. ومعنى {عند} دنو الزلفة، والقرب من رحمة الله تعالى وفضله، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته"[٣].

قال القرطبي:قوله:"{ إن الذين عند ربك}، يعني: الملائكة بإجماع. وقال:{عند ربك} والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده، عن الزجاج[٤]. وقال غيره لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رسل الله، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم، فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة"[٥].

قال السعدي:" ثم ذكر تعالى أن له عبادا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}، {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} من الملائكة المقربين، وحملة العرش والكروبيين، {لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم"[٦].

قوله تعالى:{وَيُسَبِّحُونَهُ} [الأعراف : ٢٠٦]، أي:" ويسبحونه بالليل والنهار، وينزهونه عما لا يليق به"[٧].

قال السعدي:أي:" الليل والنهار لا يفترون"[٨].

قال الزجاج:" ينزهونه عن السوء"[٩].

قال الطبري:" يقول: ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم"[١٠].

قال الزمخشري:أي:" ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين"[١١].

عن السدي:" «يسبح»، قال: يصلي"[١٢].

قوله تعالى:{وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف : ٢٠٦]، أي:" وله وحده -لا شريك له- يسجدون"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٦.
[٢] تفسير الطبري:٣٥٧/١٣.
[٣] الكشاف:١٩٢/٢.
[٤] انظر: معاني القرآن:٣٩٨/٢، قال:" فإن قال قائل: الله جل ثناؤه في كل مكان، قال الله تعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض}، فمن أين قيل للملائكة: {عند ربك}، فتأويله: إنه من قرب من رحمة الله ومن تفضله وإحسانه".
[٥] تفسير القرطبي:٣٥٦/٧.
[٦] تفسير السعدي:٣١٤.
[٧] التفسير الميسر:١٧٦.
[٨] تفسير السعدي:٣١٤.
[٩] معاني القرىن:٣٩٨/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٣٥٧/١٣.
[١١] الكشاف:١٩٢/٢.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٤٨٥):ص١٦٤٨/٥.
[١٣] التفسير الميسر:١٧٦.

قال القرطبي:" قيل: يصلون. وقيل: يذلون، خلاف أهل المعاصي"[١].

قال الطبري:" يقول: ولله يصلون -وهو سجودهم - فصلوا أنتم أيضًا له، وعظموه بالعبادة، كما يفعله من عنده من ملائكته"[٢].

قال السعدي::" {وَلَهُ} وحده لا شريك له {يَسْجُدُونَ}، فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام"[٣].

قال ابن كثير:" إنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله ، عز وجل ، كما جاء في الحديث : «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ، يتمون الصفوف الأوَل ، ويتَراصُّون في الصف»[٤].

وهذه أول سجدة في القرآن[٥]، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجة ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدات القرآن[٦]"[٧].
القرآن[٦]"[٧].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

٢- بيان شرف وفضل الملائكة، وأن لهم عملهم فى عالم الأرواح، وعمل فى عالم الطبيعة، ولهم صلة خاصة بالإنسان، فمن عملهم فى عالم الأرواح، التسبيح والخضوع التام لله.

٣- مشروعية الأئتساء بالصالحين والإقتداء بهم في فعل الخيرات وترك المنكرات.

٤- عزيمة السجود عند قوله {وله يسجدون} وهذه أول سجدات القرآن ويسجد القارىء والمستمع له، أما السامع فليس عليه سجود، ويستقبل بها القبلة ويكبر عند السجود وعند الرفع منه ولا يسلم وكونه متوضأ أفضل.

٥- وفي الآية الرد على الجهمية، فلو كان الله في الأرض -كما ادعيت الجهمية- ما كان لقوله: {الذين عند ربك} معنى، إذ كل الخلق عنده ومعه في الأرض بمنزلة واحدة، مؤمنهم وكافرهم، ومطيعهم وعاصيهم وأكثر أهل الأرض من لا يسبح بحمده ولا يسجد له. ولو كان في كل مكان ومع كل أحد لم يكن لهذه الآية معنى؛ لأن أكثر من في الأرض لا يؤمن به ولا يسجد له ويستكبر عن عبادته فأي منقبة إذا فيه للملائكة إذ كل الخلق عند الجهمية في معناهم في تفسير هذه الآية[٨].

«آخر تفسير سورة الأعراف، والحمد لله وحده»

---

[١] تفسير القرطبي:٣٥٦/٧.

[٢] تفسير الطبري:٣٥٧/١٣.

[٣] تفسير السعدي:٣١٤.

[٤]رواه مسلم في صحيحه برقم (٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة ، رضي الله عنه.

[٥] قال القرطبي:" والجمهور من العلماء في أن هذا موضع سجود للقارئ. وقد اختلفوا في عدد سجود القرآن، فأقصى ما قيل: خمس عشرة. أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العلق. وهو قول ابن حبيب وابن وهب- في رواية- وإسحاق. ومن العلماء من زاد سجدة الحجر قوله تعالى:{وكن من الساجدين} على ما يأتيبيانه إن شاء الله تعالى. فعلى هذا تكون ست عشرة. وقيل: أربع عشرة، قاله ابن وهب في الرواية الأخرى عنه. فأسقط ثانية الحج. وهو قول أصحاب الرأي والصحيح سقوطها، لأن الحديث لم يصح بثبوتها".[تفسير القرطبي:٣٥٧/٧]

[٦]سنن ابن ماجة برقم (١٠٥٦).

[٧] تفسير ابن كثير:٥٣٩/٣.

[٨] انظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من من التوحيد، الدارمي:ص٥٠٥/١-٥٠٦.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنفال

سورة «الأنفال»: هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف، ووضعت موضع السابعة من السبع الطوال، مع أن آياتها دون المائة، لأنها مع قصرها قدمت على سورة «براءة»، لأنها مشتملة على البسملة، لتكون قطعة منها، وتكون«براءة» لخلوها من البسملة كتتمتها وبقيتها، ولهذا قال جماعة من السلف: إنهما سورة واحدة[1].

ووضعت«براءة» موضعها لمناسبة الكول، فإنه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها.

ولهذا كان جواب عثمان لابن عباس-رضي الله عنهما- عندما سأله: "ما حملكم على أن عمدتم إلى «الأنفال»-وهي من المثاني- وإلى «براءة» -وهي من المئين-ففرقتم بينهما، ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموهما من السبع الطوال؟

فقال عثمان-رضي الله عنه-: كان رسول الله-ﷺ- ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء، دعا من كان يكتب فيقول:«ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا».

وكانت «الأنفال» من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت «براءة» من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله -ﷺ- ولم يبين أنها منها، فمن اجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر: «بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ»، ووضعتها من السبع الطوال"[2].

نزلت بعد نزول سورة «البقرة»، وعدد آياتها: (٧٧) سبع وسبعون عند الشّاميّين، و(٧٥) وخمس وسبعون عند الكوفيّين، وعدد كلماتها (٣٣٢٥) ألف ومائة وخمس وتسعون كلمة،

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير:٣٥٦/٣.

[2] الحديث أخرجه الترمذي رقم (٣٠٨٦) في التفسير، باب ومن سورة التوبة، وأبو داود رقم (٧٨٦) في الصلاة، باب من جهر بها، أي: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي: هو من التابعين من أهل البصرة، قد روى عن ابن عباس غير حديث. نقول: ويزيد الفارسي: لم يوثقه غير ابن حبان، وكذا رواه أحمد والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم من طرق أخر عن عوف الأعرابي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وحروفها(١٤٣١٠) خمسةُ آلاف ومائتان وثمانون أَحرف، والآيات المختلَف فيها ثلاث {يُغْلَبُونَ} [الأنفال : ٣٦]، { بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ٦٢]، { أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} [الأنفال : ٤٢].

ومجموع فواصل آياتها (ن د م ق ط ر ب) يجمعها «نَدِمَ قُطْرُب»، أو «نطق مدبر»، على «الدّال» منها آية واحدة: {لِلْعَبِيدِ} [الأنفال : ٥١]، وعلى «القاف» آية واحدة: {الْحَرِيقِ} [الأنفال : ٥٠]، وعلى «الباءِ» أَربع آيات آخرها {الْعِقَابِ} [الأنفال : ١٣، ٢٥، ٤٨، ٥٢][١].

أسماء السورة:

ولهذه السورة أسماء أشهرها:

أولا:- اسمها التوقيفي: سورة «الأنفال»

«الأنفال»: جمع «نفل»، وهي الغنيمة، والهبة، يقال: نفلّت فلانا تنفيلا: أعطيته نفلا وغنما[٢].

قال ابن عطية:" و«النافلة» في كلام العرب: الزيادة على الواجب وسميت «الغنيمة» نفلا، لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله عزّ وجل"[٣].

واشتهرت سورة «الأنفال» بهذا الاسم في عهد الرسول-ﷺ- في كلام أصحابه-رضوان الله تعالى عليهم- فعن سعد بن أبي وقاص-رضي الله عنه-، قال:" لما كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أمية، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكثيفة، فأعجبني فجئت به إلى النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اذهب فاطرحه في القبض» ، فطرحته ورجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلاحي، وقلت: عسى أن يعطى هذا السيف من لم يبل ببلائي، فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزل الله عز وجل: يسئلونك عن الأنفال الآية. فخفت أن يكون قد نزل في شيء فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قال: «يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخذه فهو لك»"[٤].

وعن سعيد بن جبير، قال:" قلت لابن عباسٍ: سورةُ التَّوبة؟ فقال: بل هي الفَاضِحَةُ، مازالتْ تنزل {ومنهم} ، {ومنهم} حتى ظنُّوا أن لا يبقي أحدٌ إلا ذُكِرَ فيها، قال: قلت: سورةُ الأنفال؟ قال: نَزَلتْ في بَدْرٍ، قال: قلتُ: سورة الْحَشْرِ؟ قال: نزلت في بني النَّضِيرِ.

وفي رواية: قلت لابن عباس: سورةُ الحشرِ؟ قال: قل: سورةَ النَّضير"[٥].

فـ«الأنفال» هو الاسم الذي عرفت به بين المسلمين، وبه كتبت في المصاحف حين كتبت أسماء السور، وكتبت في كتب التفسير والحديث.

وسميت سورة الانفال، لأنها افتتحت بآية ورد فيها اسم «الأنفال» وكررت فيها، ومن أجل أنها ذكر فيها حكم الانفال في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ

---

[١]انظر :بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٢٢.

[٢] انظر: اللسان، مادة "ن ف ل":ص١١/٦٧٠-٦٧١.

[٣]المحرر الوجيز: ٤٩٦/٢.

[٤]صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧٠) وسعيد بن منصور ٢٦٨٩ وأحمد (١/ ١٨٠) والطبري (١٥٦٥٩):ص٣٧٣/١٣، والواحدي في أسباب النزول"سورة الانفال":ص٢٣١، من طرق عن أبي إسحاق الشيباني عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص به، ورجاله ثقات.

وورد من وجه آخر بنحوه من حديث سعد عند مسلم (١٧٤٨)، وأبي داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، والنسائي في «التفسير» (٢١٦).

[٥] صحيح، أخرجه أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة الحشر، حديث(٤٨٨٢): ص٣٦٤/٦، ومسلم، كتاب التفسير، باب"في سورة براءة والأنفال والحشر"، حديث(٣٠٣١):ص٢٣٢٢/٤.

قال الحافظ: قوله: ما زالت تنزل، ومنهم، ومنهم، أي: كقوله: {ومنهم من عاهد الله} ، {ومنهم من يلمزك في الصدقات} ، {ومنهم الذين يؤذون النبي} ، وقوله: قل: سورة النضير، كأنه كره تسميتها بالحشر لئلا يظن أن المراد: يوم القيامة، وإنما المراد به هنا: إخراج بني النضير

وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (٤ / ١٢٠) لأبي عبيد وابن المنذر وابن مردويه، مختصرا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ١]، ولم يرد لفظ«الأنفال» في غيرها من سور القرآن العظيم.

ثانيا: اسماءها الإجتهادية:

ا-سورة«بدر»

ذكرها السيوطي في «الإتقان»[١]، واستدل بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، انه قال له:«سورة الانفال»؟، قال: تلك سورة بدر»[٢].

وذكره الفيروزآبادي وعلل تسميتها بذلك "لأن معظمها في ذكر حرب بدر وما جرى فيها"[٣].

ب-سورة«الجهاد»

سمّاها بذلك البقاعي[٤]، دون ذكر سنده في التسمية، ولعله سماها بذلك لأن معظم ما في السورة هو الجهاد واحكامه.

وهذان الاسمان اجتهاديان ولم يثبت شيء عن رسول الله-ﷺ-، أنه سماها بهذين الاسمين.

مكية السورة ومدنيتها:

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على قولين:

أحدهما: أنها مدنية. وهذا قول ابن عباس[٥]، وابن الزبير[٦]، والحسن[٧]، وعكرمة[٨]، وجابر[٩]، وجابر[٩]، وعطاء[١٠].

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "نزلت في بدر"[١١].

والثاني: انها مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال : ٣٠]، إلى آخر السبع آيات[١٢]. قاله ابن عباس أيضا[١٣].

قال الفيروزآبادي:" هذه السّورة مدَنيّة بالإجماع"[١٤].

قال ابن الجوزي:" وهي مدنية بإجماعهم"[١].

---

[١] انظر الإتقان:١٧٢/١.

[٢] سبق تخريجه في اسمها التوقيفي.

[٣] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:٢٢٢/١.

[٤]انظر: نظم الدرر:٢١٤/٨.

[٥]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣) ونسبه للنحاس في "ناسخه" وأبي الشيخ وابن مردويه.

[٦]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣) ونسبه لابن مردويه.

[٧] انظر: تفسير القرطبي:٣٦٠/٧، والمحرر الوجيز:٤٩٦/٢.

[٨] انظر: تفسير القرطبي:٣٦٠/٧، والمحرر الوجيز:٤٩٦/٢.

[٩] انظر: تفسير القرطبي:٣٦٠/٧، والمحرر الوجيز:٤٩٦/٢.

[١٠] انظر: تفسير القرطبي:٣٦٠/٧، والمحرر الوجيز:٤٩٦/٢.

[١١]أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٦ رقم ٤٦٤٥ - فتح).

[١٢] وهي: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)} [الأنفال : ٦٩ - ٧٥].

[١٣] انظر: زاد المسير:١٨٦/٢، تفسير القرطبي:٣٦٠/٧، والمحرر الوجيز:٤٩٦/٢.

[١٤]بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:٢٢٢/١.

أغراض السورة ومقاصدها:

قررت هذه السورة العديد من المقاصد والأحكام المتعلقة بالقتال والغنائم، وقواعد التشريع، وسنن التكوين والاجتماع، والولاية العامة والخاصة، والعهود، وصلة الأرحام، وأصول الحكم المتعلقة بالأنفس ومكارم الأخلاق والآداب. هذا ما قصدت إليه السورة من حيث الجملة، وتفصيل هذا الإجمال نسوقه على النحو الآتي [٢].

أولاً: كون الأنفال لله والرسول؛ حيث قررت السورة خُمْس الغنائم لله وللرسول. وفي اقتران الرسول في هذا القسمة بالله تشريف له، وإعلاء لمكانته ومنزلته عليه الصلاة والسلام.

ثانياً: أن الإيمان الصادق يقتضي العمل الصالح من تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله. وأن المؤمنين الصادقين الذين يكون لإيمانهم مثل هذه الثمرات الثلاث هم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)} [الأنفال : ٢ - ٣]، التي قصروا أنفسهم عليها.

ثالثاً: أن الله تعالى يبلو المؤمنين بلاء حسناً بمثل النصر والغنيمة، كما يبلوهم أحياناً بلاء شديداً بالبؤس والهزيمة؛ تربية لهم، قال تعالى: {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا } [الأنفال : ١٧]، وبكلا البلاءين يتم تمحيص المؤمنين.

رابعا: إرشاد المؤمنين إلى أن الحياة المعنوية، التي يرتقون بها عن أنواع الحياة الحيوانية، إنما هي فيما يدعوهم إليه الرسول من الإيمان والعمل بكتاب الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال : ٢٤].

خامسا:إرشاد المؤمنين إلى سنة اجتماعية، وهي جعل الأموال والأولاد فتنة، أي: امتحاناً شديد الوقع في النفس، وتحذيراً لهم من الخروج في أموالهم ومصالح أولادهم عن الحق والعدل. فالافتتان بالأموال والأولاد مدعاة لضروب من الفساد، فإن حب المال والولد من الغرائز التي يعرض للناس فيها الإسراف والإفراط، إذا لم تهذب بهداية الدين، ولم تشذب بحسن التربية والتعليم. وهذا أصل عظيم في تربية المؤمن نفسه على التزام الحق، وكسب الحلال، واجتناب الحرام، واتقاء الطمع والدناءة في سبيل جمع المال والادخار للأولاد .

سادسا: تذكير المؤمنين بماضيهم، وما كان من ضعف أمتهم، واستضعاف الشعوب لهم، وخوفهم من تخطف الناس إياهم؛ ليعلموا ما أفادهم الإسلام من عزة وقوة ومَنَعة، وتمكن سلطانه في الأرض. ومعرفة تاريخ الأمة في ماضيها أكبر عون لها على إصلاح حالها، واستعدادها لمستقبلها .

سابعا: إرشاد المؤمنين إلى ما يكتسبون به ملكة الفرقان العلمي الوجداني، وهو تقوى الله، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال : ٢٩] ، فتقوى الله تُكسب صاحبها مَلَكة، يفرق بها بين الحق والباطل، والخير والشر، والمصلحة والمفسدة، فيجري في أعماله على مراعاة ذلك في ترجيح الحق والخير والمصلحة على ما يقابلها من الباطل والشر والفساد.

ثامنا: امتنان الله على رسوله الأعظم، بتأييده وبنصره وبالمؤمنين، وبتأليفه بين قلوبهم، ويا لها من منة عظيمة من مننه تعالى عليهم، ومنقبة هي أعظم مناقبهم، {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)} [الأنفال : ٦٢ - ٦٣].

تاسعا: بيان حال الكفار من المشركين وأهل الكتاب {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} [الأنفال : ١٢] ، أي: عند لقاء المؤمنين في القتال، وما علله به بعده من مشاقتهم لله ولرسوله، وتوعدهم بعذاب النار، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

[١] زاد المسير:١٨٦/٢.

[٢] انظر:مقاصد سورة الأعراف، إسلام ويب، [موقع التكروني].

الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)} [الأنفال : ١٣ - ١٤]، وفي هذا بيان لخذلانه تعالى لهم، وتمكين المؤمنين من قتلهم، وبيان عناية الله تعالى بهم.

عاشرا: وصف حال الكفار بالدواب التي لا تسمع ولا تعقل، {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال : ٢٢]، فوصفهم بتعطيل مشاعرهم ومداركهم الحسية والعقلية، ووصفهم في آية أخرى بعدم الإيمان: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال : ٥٥]

حادي عشر: تقرير العديد من قضايا عالم الغيب، كالبعث والجزاء والملائكة والشياطين؛ فقد ذُكِرَ جزاء المؤمنين، وجزاء الكافرين، وجزاء الفاسقين المرتكبين لكبائر الإثم والفواحش. وذُكِرَ إمداد المؤمنين بالملائكة يثبتونهم في المعركة. وذُكِرَ إذهاب رجز الشيطان ووسوسته عن المؤمنين.

ثاني عشر: فضح موقف الذين كفروا، الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وبيان عاقبة بذلهم للمال في مقاومة الإسلام، أنهم يغلبون في الدنيا، ثم يصيرون في الآخرة إلى عذاب النار.

ثالث عشر: تحذير المؤمنين من سلوك مسلك الكافرين، وهو مسلك البطر وإظهار الكبرياء والعظمة ومراءاة الناس، وهي مقاصد سافلة إفسادية، لا تليق بصفات المؤمنين، الذين إنما يقاتلون لإعلاء كلمة الله، وتقرير الفضيلة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

رابع عشر: تقرير سُنَّة من سنن النفس، وهي تفاوت البشر في الاستعداد للإيمان والكفر، وفي الاستعداد للخير والشر، وبيان أن جزاء الله تعالى لهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، إنما يجري بمقتضى هذا التفاوت.

خامس عشر: تقرير سنة من سنن الاجتماع، وهي كون الظلم في الأمم يقتضي عقابها في الدنيا بالضعف والاختلال، الذي قد يفضي إلى الزوال، أو فَقْدِ الاستقلال، وكون هذا العقاب على الأمة بأسرها، لا على مقترفي الظلم وحدهم منها؛ وذلك أن الفتن في الأمم، والظلم الذي ينتشر فيها، ولا يقوم من أفرادها وجماعاتها من يقاومه، يعم فساده، فكما أن الجسد يتداعى ويتألم كله لما يصيب بعضه، كذلك الأمم.

سادس عشر: تقرير سنة من سنن الاجتماع، وهي كون تغير أحوال الأمم، وتنقلها في الأطوار من نِعَمٍ ونِقَمٍ، وشدة ورخاء أثراً طبيعيًّا فطريًّا لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والمَلكات التي تطبعها في الأنفس العادات، وتترتب عليها الأعمال، قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال : ٥٣].

سابع عشر: تقرير سنة من سنن الاجتماع، وهي كون ولاية الأعداء من دون المؤمنين من أعظم مثارات الفتنة والفساد في الأمة، والاختلال والانحلال في الدولة، كولاية المؤمنين في النصرة والقتال للكافرين الذين يوالي بعضهم بعضاً على المؤمنين في الحروب، فبعد أن بينت الآيات صفات المؤمنين بأنهم يوالي بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، حذرت من ترك هذه الموالاة: {إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال : ٧٣].

ثامن عشر: بيان وجوب إعداد الأمة كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائها؛ وفي مقدمة ذلك المرابطة في ثغور البلاد حماية لها. وهذه المرابطة تشمل المرابطة المادية بالاستعداد العسكري، والمرابطة المعنوية وذلك بالتحصين الثقافي والفكري {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال : ٦٠] .

تاسع عشر: بيان أن القصد الأول من إعداد هذه القوة والمرابطة، إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على الأمة ومصالحها؛ لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، مطمئنة على مصالحها، وهذا ما يُسمى بـ (السلم المسلح)، {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال : ٦٠].

عشرون: بيان أن شريعة الإسلام تفضل السلم على الحرب، إذا جنح العدو لها؛ إيثاراً لها على الحرب، التي لا تُقصد لذاتها، بل هي ضرورة من ضرورات الاجتماع تقدر بقدرها؛ {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال : ٦١].

واحد وعشرون: دعت السورة المؤمنين إلى المحافظة على الوفاء بالعهود، والالتزام بالمواثيق في الحرب والسلم، وتحريم الخيانة فيها سراً أو جهراً، وتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال : ٢٧].

ثاني وعشرون: جعل الغاية من القتال في الإسلام حرية الدين، ومنع فتنة أحد واضطهاده؛ لأجل إرجاعه عن دينه، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال : ٣٩].

ثالث وعشرون: كون الثبات في القتال، وذكر الله عند لقاء العدو، وطاعة الله ورسوله، والصبر في ساحات القتال، كل ذلك من الأسباب المعنوية، التي يحصل بها النصر، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال : ٤٥].

رابع وعشرون: بيان أن الفشل والخسران، وذهاب القوة، مرده إلى التنازع والشقاق، ومن ثم التفرق والتشرذم والضعف، {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال : ٤٦] .

هذه المقاصد لا تعدو كونها إشارات لكثير من المقاصد التي تضمنتها هذه السورة خصوصاً، والقرآن الكريم عموماً.

وجوه المناسبة بين سورة «الأنفال» والتي قبلها:

ومن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة «الأعراف» التي قبلها:

أولا:- في سورة الأعراف :{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف: ١٩٩]، وفي سورة الأنفال: تحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[الأنفال: ٢٥]، قال ابن عباس: "أمر الله المؤمنين ألا يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم فيَعُمَّهم العذاب"[١].

ثانيا: في سورة الأعراف ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، وفي سورة الأنفال ذكر النبي محمدًا ﷺ مع قومه، كما في قوله تعالى:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالى:{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[الأنفال: ٥٢].

ثالثا: ثالثا: وفي أواخر سورة الأعراف :{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }[الأعراف: ٢٠٤].

وفي أوائل سورة الأنفال:{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }[الأنفال: ٢]، إذ تُنَاقِشُ سورة الأعراف قضيةَ الاتّباع لما أنزل الله؛ فقد استُهِلَّت بقوله تعالى :{اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ }[الأعراف: ٣]، وتُبَيِّن موانع الهدى أو أعداء الدعوة، وهي في السورة ثلاثة:

١- الشيطان:

في سورة الأعراف حديث عن الشيطان وجهوده في الدعوة إلى الكفر فيما يقْرُب من عشرين آية، من قوله تعالى :{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ }[الأعراف: ١١]، إلى قوله تعالى :{فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ }[الأعراف: ٣٠].

وفي سورة الأنفال :قال تعالى :{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[الأنفال: ٤٨]، ففي سورة الأعراف بيان جهود الشيطان ومحاولاته في الإغواء والوسوسة، والتغرير بكل الطرق وكافة الأساليب والوسائل

[١] ذكره القرطبي في تفسيره:٣٩١/٧.

الشيطانية؛ كما في قوله تعالى :{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }[الأعراف: ١٦، ١٧]، وفي سورة الأنفال :{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ }[الأنفال: ٤٨]، يقول ابن كثير في تفسير الآية: "حسَّن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال : أنا جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم ، سيد بني مُدْلج ، كبير تلك الناحية ، وكل ذلك منه ، كما قال اللهتعالى عنه : { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا } [النساء : ١٢٠].

قال ابن جريج :قال ابن عباس في هذه الآية : «لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى في قلوب المشركين : أن أحدا لن يغلبكم ، وإني جار لكم. فلما التقوا ، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ، { نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ } قال : رجع مدبرا ، وقال : { إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ } الآية»[1]"[2].

٢- الملأ:

الملأ: هم الكبراء والسادة الذين جعلوا أنفسهم أضدادَ الأنبياء، وهم الذين يملؤون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وتحدثت سورة الأعراف عن جهود الملأ في الدعوة إلى الكفر بالله تعالى وتكذيب الأنبياء واتهامهم بما لا يليق بهم، كما يأتي:

- مع نوح عليه السلام :{قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }[الأعراف: ٦٠].
- مع هود عليه السلام :{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }[الأعراف: ٦٦].
- مع صالح عليه السلام :{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }[الأعراف: ٧٥ - ٧٧].
- ومع شعيب عليه السلام :{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ }[الأعراف: ٨٨].
- وفي قصة موسى عليه السلام :{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ }[الأعراف: ١٢٧].
- وفي سورة الأنفال؛ فإن الملأ من قريش هم الذين قالوا: والله لا نرجِع حتى نَرِدَ بدرًا، فنقيم ثلاثًا، فننحر الجُزُر، ونُطعِم الطعام، ونُسقي الخمر، وتَعْزِف القِيَان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها[3].
- وكما بيَّنَت سورة الأعراف كيف انتقم الله من الملأ، فإنه في غزوة بدر أذن الله تعالى بإهانة الملأ، والانتقام من تلك الغطرسة، وأن تُطرَح في القليب، ووقف رسول الله ﷺ يُخَاطِب الجِيَف المتغطرسة أو التي كانت: " يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا"[4]، ولعل قوله هذا ﷺ يناسب ما جاء في سورة الأعراف :

---

[1] أخرجه الطبري(١٦١٨٨):ص٩/١٣.
[2]تفسير ابن كثير:٧٣/٤.
[3] انظر: زاد المعاد؛ ابن القيم، المطبعة المصرية٢/ ٨٦-٩٠.
[4]أخرجه الحاكم (٢٤٩/٣، رقم ٤٩٩٥) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضا: أحمد (٢٧٦/٦، رقم ٢٦٤٠٤) ، وإسحاق بن راهويه (٥٧٣/٢، رقم ١١٤٨) ، وابن حبان (٥٦٢/١٥، رقم ٧٠٨٨).
ومن غريب الحديث: "القليب": هى البئر التى لم تطو.

{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }[الأعراف: ٤٤].

٣- الهوى.

سُمِّي «الهوى» هوًى؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، وسئل ابن المقَفَّع عن الهوى، فقال: هوانٌ سُرِقَتْ نونه، فأخذه الشاعر وانتظمه، وقال[1]:

نُوْنُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوْقَةٌ فَأَسِيْرُ كُلِّ هَوًى أَسِيْرُ هَوَانِ

وإذا كانت النفس تهوى الغنائم، فإن حكمها لله والرسول، وفي ذلك كبحُ جماح النفس وطمعها، وحبها للمال، وكان الرضا بحكم الله تعالى بعد السؤال، وكمال الإيمان حينما يكون الهوى تبعًا لحكم الله والرسول.

كما أن النفس لا تحب ولا تهوى القتال {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ }[الأنفال: ٥]، لكن التربية الإيمانية تجعل النفس المؤمنة تهوى القتل في سبيل الله، وتحب لقاء الله تعالى، وتعشق التضحية من أجل الإسلام، وتبيع الدنيا وعَرَضَها الزائل؛ طمعًا في الجنة، وقد تجلى ذلك عمليًّا في الغزوة المباركة، ومن ذلك ما ذكره ابن هشام، قال: ثم خرج رسول ﷺ إلى الناس فحَرَّضَهُم، وقال: "والذي نفسُ محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيُقْتَل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غيرَ مُدبِر، إلا أدخله الله الجنة"، فقال عُمَير بن الحُمَام وفي يده تمرات يأكلهن: بَخٍ بَخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذف التمرات، وأخذ سيفه فقاتل القومَ حتى قُتِلَ"[2].

وفي سورة الأعراف مَثَلٌ لمن باع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل، وأخلد إلى الأرض واتَّبَع هواه؛ قال تعالى :{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، وقوله تعالى :{وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}، قال القرطبي: أي: "ما زيَّنَ له الشيطان، وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كل من أوتي القرآن فلم يعملْ به"[3].

وبعد فإن هذه خصائص كتاب الله المجيد وقرآنه الكريم وكلامه القديم، الذى لا يأتيه الباطل ولا يعتريه التعارض؛ بل الإحكام والإتقان، والتناسُق والتناسُب، والتمام والكمال والجمال، وهكذا في كل سورِه ونظْمِه وترتيبه المُعجِز بلفظه ومعناه، والله الموفِّق والمَرجو ثوابه .

فضائل السورة:

وردت عدة أحاديث في فضائل هذه السورة، منها:

أولا:- عن النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فيما جاء عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- أَنَّهُ سئل عن الأنفال، فقال: "فينا معشرَ أصحابِ بدرٍ نزلتْ، حين اختلفنا في النفل، وساءتْ فيهِ أخلاقُنا، فانتزعَهُ الله من أيدينا، وجعلَهُ إلى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فقسَّمه رسول الله -

---

[1] لم أتعرف على قائله، وانظر: البيت في: تفسير الثعلبي: ٨/ ٣٦٢، وتفسير القرطبي: ١٦/ ١٦٨، والتمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ١٠٣.

[2] صحيح، رواه: مسلم، وأحمد، وابن سعد، والحاكم، والبيهقي في ((الدلائل)) ؛ مع اختلاف يسير.
انظر: صحيح مسلم (١٥٠٩/٣ و١٥١٠/رقم١٩٠١- عبد الباقي)، والمسند (١٣٦/٣)، وزاد المعاد: (١٨٢/٣) ، والسيرة النبوية لابن هشام:١٩٨/٢.

[3] تفسير القرطبي:٣٢٣/٧، وانظر: مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف، د. أمين الدميري، شبكة الآلوكة.

صلَّى الله عليه وسلَّم- بين المسلمين"[1]، فكانَ فضلُها واضحًا في تقسيم الغنائم على المسلمين المنتصرين في بدر، قسمةً عادلةً كما أرادها الله تعالى، والله أعلى وأعلم.
ثانيا:- عن أبي بن كعب، عن رسول الله-ﷺ-:" من قرأ سورة الأنفال وبراءة، فأنا له شفيع وشاهد يوم القيامة أنه برئ من النفاق، وأعطي من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة في دار الدنيا عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ويرفع له عشر درجات، وكان العرش وحملته يصلون عليه أيام حياته في دار الدنيا"[2].

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

---

[1] رواه: ابن إسحاق، وابن جرير، وأحمد، وعبد الرزاق، وابن حبان، والواحدي، والحاكم، ومن طريقه البيهقي، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" لعبد بن حميد وأبي الشيخ وابن مردويه؛ من حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه، بألفاظ مختلفة، مطولاً ومختصراً.

انظر: تفسير الطبري:(٣٧٠/١٣)، وصحيح ابن حبان: (١٩٣/١١- شعيب)، واسباب النزول للواحدي (ص٢٦٦) ، والسيرة النبوية: (٣٤٣/٢)، وفقه السيرة: (ص٢٥١، ٢٥٢) ، والدر المنثور: (٥/٤).

[2] أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان:٣٢٤/٤، وانظر: مجمع البيان:٤٢٢/٤، وفضائل القرآن للمستغفري(١١٧٥):ص٧٧٧/٢، وأخرجه الواحدي في التفسير الوسيط(٣٨٤):ص٤٤٣/٢، و رواه الزمخشري في الكشاف : ٢٤٠/٢ مرسلا.

وحديث ابي بن كعب من قرأ سورة كذا، اعطي من الاجر كذا فذكر فضل سور القران سورة سورة وثواب قارئها إلى آخر القرآن، هذا الحديث أخرجه بطوله ابن الشجري في الأمالي الشجرية (١/٧٩) ، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٨٨)، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٤٠)، وقال بعده: "قد فرَّق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، فذكر عند كل سورة منه ما يخصها، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرَّقه على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن، وهو يعلم أنه حديث مُحال".

ثم قال: "حديث فضائل السور مصنوع بلا شك" وقال: "نَفَس الحديث يدل على أنه مصنوع؛ فإنه قد استنفد السور، وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البرودة، لا يناسب كلام رسول الله ﷺ".

قلت: والحديث له طرق كلها تالفة:

الطريق الأولى: تفرد بها أبو الخليل بزيع بن حبان، قال الدارقطني: وهو متروك.

الطريق الثانية: تفرد بها مخلد بن عبد الواحد،قال ابن حبان في «المجروحين»: منكر الحديث جدا ينفرد بأشياء مناكير لا تشبه أحاديث الثقات، فبطل الاحتجاج به.

الطريق الثالثة: تفرد بها ميسرة بن عبد ربه،قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لميسرة بن عبد ربه: من أين جئت بهذه الأحاديث: «من قرأ كذا فله كذا»؟ قال: وضعته أرغب الناس فيه.

الطريق الرابعة: تفرد بها هارون بن كثير، قال ابن عدي: وهارون غير معروف، ولم يحدث به عن زيد بن أسلم غيره، وهذا الحديث غير محفوظ عن زيد.

وروى العقيلي في الضعفاء (١٧٥/١): عن عبد الله بن المبارك قال في حديث أبي بن كعب في فضائل السور: "أظن الزنادقة وضعته".

وقال العجلوني في كشف الخفا (٢/٤١٩): "فضيلة قراءة كل سورة، رووا ذلك وأسندوه إلى أبي بن كعب، ومجموع ذلك مفترى وموضوع بإجماع أهل الحديث".

القرآن

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)} [الأنفال : ١]

التفسير:

يسألك أصحابك -أيها النبي- عن الغنائم يوم «بدر» كيف تقسمها بينهم؟ قل لهم: إنَّ أمرها إلى الله ورسوله، فالرسول يتولى قسمتها بأمر ربه، فاتقوا عقاب الله ولا تُقَدموا على معصيته، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأموال، وأصلحوا الحال بينكم، والتزموا طاعة الله ورسوله إن كنتم مؤمنين؛ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله.[١].

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقوال:

أحدها : ما رواه ابن عباس قال : " قال رسول الله - ﷺ -: "من أتى مكان كذا وكذا أو فعل كذا وكذا؛ فله كذا وكذا" فسارع إليه الشبان، وثبت الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله لهم، جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم، فقال الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فإنما كنا ردءاً لكم؛ فأنزل الله - عزّ وجلّ-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}"[٢]. [صحيح].

الثاني : ما روى محمد بن عبيد بن سعد بن أبي وقاص قال : " لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به نبي الله - ﷺ -؛ فقال: "اذهب فاطرحه في القبض"، فطرحته قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله - ﷺ -: "اذهب فخذ سيفك"[٣].[حسن]

---

[١] التفسير الميسر: ١٧٧.

[٢]أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٦ رقم ١٨٥٠٨)، وأبو داود (رقم ٢٧٣٧ - ٢٧٣٩)، والنسائي في "الكبرى" (٦/ ٣٤٩ رقم ١١١٩٧)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٦٥٠):ص٣٦٧/١٣، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٤٣ - موارد)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ١٣١، ١٣٢، ٢٢١، ٢٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧)، والبيهقي في "الكبرى" (٦/ ٢٩١، ٢٩٢، ٣١٥، ٣١٥ - ٣١٦)، وفي "الدلائل" (٣/ ١٣٥، ١٣٦)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٩٦) من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد صحيح.

وصححه ابن حبان.

وقال الحاكم في "الموضع الأول": "هذا حديث صحيح؛ فقد احتج البخاري بعكرمة، وقد احتج مسلم بداود بن أبي هند ولم يخرجاه".

وتعقبه الذهبي فقال: "هو على شرط البخاري".

قلنا: لم يخرج البخاري في "صحيحه" لداود بن أبي هند؛ فهو صحيح فقط.

وقال الحاكم في "الموضع الثاني والثالث": "هذا حديث صحيح ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ.

[٣]أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (رقم ٢٦٨٩ - ط الأعظمي)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧ رقم ١٤٠٣١)، وأحمد (١/ ١٨٠) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٥) -، والطبري في "جامع البيان" (١٥٦٥٩):ص٣٧٣/١٣، والبزار في "البحر الزخار" (٤/ ٧٢، ٧٣ رقم ١٢٣٩)، وأبو عبيد في "الأموال"

الثالث : أنها نزلت في المهاجرين والأنصار ممن شهد بدراً فاختلفوا، وكانوا أثلاثاً، فنزلت:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ} الآية . فملّكه الله رسوله فقسمه كما أراه الله ، قاله عكرمة[(١)]، والضحاك[(٢)]، وابن جريج[(٣)].

والرابع : أنهم لم يعلموا حكمها وشكّوا في إحلالها لهم مع تحريمها على من كان قبلهم فسألوا عنها ليعلموا حكمها من تحليل أو تحريم فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٤)].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى أخبرَ في هذه الآية عن قوم سألوا رَسول الله ﷺ الأنفال أن يُعطيهموها ، فأخبرهم الله أنها لله ، وأنه جعلها لرسوله.

وإذا كان ذلك معناه ، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيها وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذي ذكرنا عن سعد أنه سأله إياه وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأله قسم ذلك بين الجيش"[(٥)].

قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} [الأنفال : ١]، أي:" يسألك أصحابك -أيها النبي- عن الغنائم يوم «بدر» كيف تقسمها بينهم؟"[(٦)].

وفي هذه «الأنفال» التي سألوه عنها، خمسة أقوال :

أحدها : أنها الغنائم ، وهذا قول ابن عباس[(٧)]، وعكرمة[(٨)]، ومجاهد[(٩)]، وقتادة[(١٠)]، والضحاك[(١١)]، وابن زيد[(١)].

(ص ٣٨٢ - كتاب الخمس) من طريق أبي معاوية نا الشيباني -وهو أبو إسحاق- عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ لانقطاعه بين محمد الثقفي وسعد؛ فإنه لم يدركه.

انظر: "المراسيل" (رقم ٣٢٤).

وقال الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- في "تحقيقه للمسند" (٣/ ٧٨ رقم ١٥٥٦): "إسناده ضعيف؛ لانقطاعه".ا. هـ.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣) وزاد نسبته لابن مردويه.

وأخرج أحمد (١/ ١٧٨)، وأبو داود (رقم ٢٧٤٠)، والترمذي (رقم ٣٠٧٩)، والنسائي في "التفسير" (١/ ٥١٣، ٥١٤ رقم ٢١٦)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٦٥٧):ص٣٧٢/١٣، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٩/ ٨٧٥٥) وأبو يعلى في "المسند" (٢/ ٨٤ رقم ٧٣٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (٨/ ٣١٢)، والحاكم (٢/ ١٣٢)، والبيهقي في "سننه" (٦/ ٢٩١) جميعهم من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن سعد؛ قال: قلت يا رسول الله! قد شفاني الله من المشركين؛ فهب لي هذا السيف، قال: "إن هذا السيف ليس لك ولا لي، ضعه"، قال: فوضعته، ثم رجعت؛ قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لم يبل بلائي، قال: إذ رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل فيَّ شيء، قال: "كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك" قال: وأنزلت هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}.

قلنا: وهذا إسناد حسن.

قال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه.

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧١):ص٣٧٩/١٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٠):ص٣٧٩/١٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٦٨):ص٣٧٨/١٣-٣٧٩.

(٤) انظر: النكت والعيون:٢٩٤/٢.

(٥) تفسير الطبري:٣٧٩/١٣-٣٨٠.

(٦) التفسير الميسر: ١٧٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٣٣)، و(١٥٦٣٤):ص٣٦١/١٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٢٨):ص٣٥٩/١٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٢٩):ص٣٥٩/١٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٣٥):ص٣٦١/١٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٣١):ص٣٦٠/١٣.

الثاني:أنها السرايا التي تتقدم الجيش، حكاه الماوردي عن الحسن[٢].
الثالث : الأنفال ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة أو عبد ، قاله عطاء[٣]، وهو أحد قولي ابن عباس[٤].

الرابع : أن الأنفال الخمس من الفيء والغنائم التي جعلها الله تعالى لأهل الخمس ، وهذا قول مجاهد[٥].
الخامس : أنها زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش لما قد يراه من الصلاح[٦].

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى : «الأنفال»، قولُ من قال : هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم ، إما من سَهْمه على حقوقهم من القسمة ، وإما مما وصل إليه بالنفل ، أو ببعض أسبابه ، ترغيبًا له ، وتحريضًا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين ، أو صلاح أحد الفريقين. وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من أنه الفرس والدرع ونحو ذلك ، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أن ذلك ما عاد من المشركين إلى المسلمين من عبد أو فرس ، لأن ذلك أمره إلى الإمام ، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغلبة وقهر، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام ، وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر"[٧].

و«الأنفال» جمع: نَفَل[٨]، وفي «النفل» قولان[٩]:
أحدهما : أنه العطية ، ومنه قيل للرجل الكثير العطاء : نوفل ، قال الشاعر[١٠]:

أخُو رغائِبَ يُعْطِيها ويُسْألُها   يأبَى الظُّلامَةَ مِنْهُ النّوْفَلُ الزُّفَر

فالنوفل : الكثير العطاء . والزفر : الحمال للأنفال ، ومنه سمي الرجل زفر .
والقول الثاني : أن النفل الزيادة من الخير ومنه صلاة النافلة . قال لبيد بن ربيعة[١١]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٣٦):ص٣٦١/١٣.
(٢) انظر: النكت والعيون:٢٩٢/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٣٩):ص٣٦٣/١٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٤١)-(١٥٦٤٣)، و(١٥٦٤٥)-(١٥٦٤٧):ص٣٦٣/١٣-٣٦٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٤٨)، و(١٥٦٤٩):ص٣٦٥/١٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:٢٩٢/٢.
(٧) تفسير الطبري:٣٦٥/١٣-٣٦٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٣٦٦/١٣-٣٦٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٣٦٦/١٣-٣٦٧، والنكت والعيون:٢٩٤/٢.
(١٠)ورد البيت منسوبًا له في أكثر المصادر التالية: "الأصمعيات" ٩٠، "الكامل" للمبرد: ١/ ٥٧، "معاني القرآن" للزجاج: ١/ ٤٥٢، "جمهرة أشعار العرب" ص٢٥٥، "الأضداد" لابن الأنباري:٢٥٢، "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٦٣٧ (نفل)، "شرح الأبيات المشكلة" ٥٢١، "أمالي المرتضى" ٢/ ٢١، "إعراب القرآن" المنسوب للزجاج: ٢/ ٦٦٥، ٦٦٦، "التنبيه والإيضاح" لابن بري: ٢/ ١٩٢، "زاد المسير" ١/ ٤٣٤، "اللسان" ٣/ ١٨٤٢ (زفر)، ٦/ ٣٧٠١ (قفر)، ٨/ ٤٥١٠ (نفل)، "خزانة الأدب" ١/ ١٨٥، ١٨٦، ١١٩٥ وردت روايته في "الأضداد": (يعطاها) بدلًا من: (يعطيها)، كما وردت روايته كذلك: (ويَسْلُبُها) -بالبناء للمعلوم-، من: (السلب) بدلًا من: (وُيسألُها).
والبيت من قصيدة قالها الشاعر في رثاء أخيه من أمه: المنتشر بن وهب الباهلي. والرغائب: هي العطايا الكثيرة. والمفرد: (رَغِيبة)، وهي: ما يُرغَب فيه من أشياء. والظُّلامَة: هي ما تطلبه عند الظالم، وهي: اسمٌ لما أُخِذَ من الإنسان ظلما. ويقال -كذلك-: (الظليمة)، و (المظلِمة) - بكسر اللام وضمها.
والنوفل: السيد من الرجال الكثير الإعطاء للنوافل، وهي: العطايا. وفي "اللسان" ٨/ ٤٥١٠ (نفل) ينقل عن ابن الأعرابي: (للنوافل: من ينفي عنه الظلم من قومه؛ أي: يدفعه)؛ من (انتقل من الشيء): انتفى وتبرأ منه، و (انتفل)، و (انتفى) بمعنى واحد، كأنه إبدال منه. انظر المرجع السابق.
والزُّفَر: السيد الذي يتحمل بالأموال في الحَمَالات من دَيْن، أو دِيَة، مطيقًا لها. وأصلها من: (ازْدَفَر)؛ أي: حَمَل. والزَّفْرُ: الحَمْل من قولك: (زفَرَ الحِمل، يزفِرُهُ، زفْرا)، و (ازدفَرَهُ) -أيضًا-؛ أي: حمله.
ويقال -كذلك- (زُفَر) للأسد، والجمل الضخم، والرجل الشجاع، والجواد. انظر: (زفر) في "تهذيب اللغة" ٢/ ١٥٣٨، "اللسان" ٣/ ١٨٤١.
(١١)) ديوانه ٢ / ١١ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ٢٤٠، واللسان: "نفل" ، وغيرها كثير ، فاتحة قصيدة له طويلة.

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ   وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

قوله تعالى:{قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال : ١]، أي:" قل لهم: إنَّ أمرها إلى الله ورسوله، فالرسول يتولى قسمتها بأمر ربه"[١].

قوله تعالى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ} [الأنفال : ١]، أي:" فاتقوا عقاب الله ولا تُقَدموا على معصيته، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأموال"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : فخافوا الله أيها القوم ، واتقوه بطاعته واجتناب معاصيه"[٣].

قال ابن كثير:"أي : اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه"[٤].

قوله تعالى:{وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال : ١]، أي:" وأصلحوا الحال بينكم"[٥].

قال ابن كثير:" أي : في قسمه بينكم على ما أراده الله ، فإنه قسمه (٤) كما أمره الله من العدل والإنصاف"[٦].

واختلف في قوله تعالى:{وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال : ١]، على قولين:

أحدهما: أنه أمر من الله الذين غنموا الغنيمة يوم بدر ، وشهدوا الوقعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ اختلفوا في الغنيمة : أن يردَّ ما أصابوا منها بعضُهم على بعض. وهذا قول قتادة[٧]، وابن جريج[٨].

والثاني: أن هذا تحريج من الله على القوم ، ونهيٌ لهم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة وغيره. وهذا قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، والسدي[١١].

قوله تعالى:{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ١]، أي:" والتزموا طاعة الله ورسوله إن كنتم مؤمنين؛ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله"[١٢].

قال الطبري:" معناه : وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال ، إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم ، فقد بين لكم وجوهه وسبله، إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم"[١٣].

عن ابن زيد: " {فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين}، فسلموا لله ولرسوله ، يحكمان فيها بما شاءا ، ويضعانها حيث أرادا"[١٤].

واختلف أهل العلم في نسخ هذه الآية على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى:{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الانفال : ٤١] . الآية ، قاله عكرمة[١٥]، ومجاهد[١٦]، والسدي[١].

---

[١] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٢] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٣] تفسير الطبري:٣٨٣/١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:١٠/٤.
[٥] تفسير الطبري:٣٨٣/١٣.
[٦] تفسير ابن كثير:١٠/٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٨):ص٣٨٣/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٩):ص٣٨٣/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٨١):ص٣٨٤/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٨٠):ص٣٨٤/١٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٨٢):ص٣٨٤/١٣.
[١٢] التفسير الميسر: ١٧٧.
[١٣] تفسير الطبري:٣٨٥/١٣.
[١٤] أخرجه الطبري(١٥٦٨٣):ص٣٨٥/١٣.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٢):ص٣٨٠/١٣.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٤):ص٣٨٠/١٣.

والقول الثاني : أنها ثابتة الحكم ومعنى ذلك ؛ قل الأنفال لله ، وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة ، والرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيها ، قاله ابن زيد [٢].

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه ﷺ ، يُنفِّل من شاء ، فنفَّل القاتل السَّلَب ، وجعل للجيش في البَدْأة الربع ، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس. ونفَّل قومًا بعد سُهْمَانهم بعيرًا بعيرًا في بعض المغازي. فجعل الله تعالى ذكره حكم الأنفال إلى نبيه ﷺ ، ينفِّل على ما يرى مما فيه صلاحُ المسلمين ، وعلى من بعده من الأئمة أن يستنّوا بسُنته في ذلك.

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ ، لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفت. وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ ، إلا بحجة يجب التسليم لها ، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادثُ حكمٍ بخلافه ، ينفيه من كل معانيه ، أو يأتي خبرٌ يوجب الحجةَ أن أحدهما ناسخٌ الآخرَ.

وقد ذكر عن سعيد بن المسيب : أنه كان ينكر أن يكون التنفيل لأحد بعد رسول الله ﷺ ، تأويلا منه لقول الله تعالى : " قل الأنفال لله والرسول "... عن محمد بن عمرو قال : «أرسل سعيد بن المسيب غلامه إلى قوم سألوه عن شيء ، فقال : إنكم أرسلتم إلي تسألوني عن الأنفال ، فلا نَفَل بعد رسول الله ﷺ»[٣].

وقد بينا أن للأئمة أن يتأسَّوْا برسول الله ﷺ في مغازيهم بفعله ، فينفِّلوا على نحو ما كان ينفل ، إذا كان التنفيل صلاحًا للمسلمين"[٤].

الفوائد:

١- الأمر بتقوى الله عز وجل وإصلاح ذات البين.

٢- فضيلة التقوى، تقوى الله: وهي أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقاية من غضبه وسخطه وعذابه، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله[٥]، وأساس تقوى الله خشية الله وذلك من عمل القلب، ولذا أضافها القرآن إليه وقال: " ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}[الحج: ٣٢].

والله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه لتكون حافزاً له على إمتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: ٣٥]، وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}[الأحزاب: ٧٠ - ٧١]، وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: ١١٩]، وقال تعالى:{فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[الأنفال:١].

ويذكر الله في القرآن التقوى أحياناً قبل النواهي، لتكون دافعاً للإنتهاء عنها، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}[البقرة: ٢٧٨ - ٢٨٩]، بل يقص علينا القرآن أن الرسل جميعاً دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، كما نجد في سورة الشعراء نوحاً، وهوداً، وصالحاً ولوطاً، وشعيباً يقول كل منهم لقومه: {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُون}[آل عمران: ٥٠].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٣):ص٣٨٠/١٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٦٧٦):ص٣٨١/١٣.

(٣) أخرجه الطبري(١٥٦٧٧):ص٣٨٢/١٣.

(٤) تفسير الطبري:٣٨١/١٣-٣٨٢.

(٥)فقه النصر والتمكين للصلابي :٢٠٤.

ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ}[النساء: ١٣١]، ولم يكتف القرآن من المؤمنين بمجرد التقوى، بل قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[آل عمران: ١٠٢]، ومعناه: بذل الجهد واستفراغ الوسع في تقواه عز وجل، في حدود الطاقة والاستطاعة، كما قال في الآية الأخرى:{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}[التغابن: ١٦]، وليست هذه الآية ناسخة للآية الأخرى، بل مبينة لها: أن تقوى الله حق تقواه انما تطلب في إطار المقدور للمكلف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

٣- إن من قواعد وأصول أهل السنة والجماعة إصلاح ذات البين وتأليف القلوب واجتماع الكلمة مفارقين في ذلك أهل البدع المختلفين في الكتاب المخالفين للكتاب والمجمعين على مفارقة الكتاب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "تعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، فإن الله يقول: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنهم هم أهل الفرقة"[1].

وقال شيخ الإسلام أيضًا: "ولو اعتصموا بالكتاب والسنة لاتَّفَقُوا كما اتفق أهل السنة والحديث، فإن أئمة السنة والحديث لم يختلفوا في شيء من أصول دينهم، ولهذا لم يقل أحد منهم: إن الله جسم ولا قال: إن الله ليس بجسم. بل أنكروا النفي لما ابتدعته الجهمية من المعتزلة وغيرهم، وأنكروا ما نفته الجهمية من الصفات مع إنكارهم على من شبه صفاته بصفات خلقه، مع أن إنكارهم كان على الجهمية المعطلة أعظم منه على المشبهة؛ لأن مرض التعطيل أعظم من مرض التشبيه"[2].

٤- حث سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة على إصلاح ذات البين، وعلى الإصلاح بين المؤمنين إذا حصل بينهم ما يفرق جماعتهم، وما يكدر عليهم صفو ألفتهم، وما ذلك إلا ليبقى المجتمع المسلم مترابطاً متحاباً متآلفا .

عليه فإنه لا يجوز أن يبقى بين المسلمين ما يعكر صفو هذه الأخوة، لذلك قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم} ، وقال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال:١] .

وقال ﷺ محذراً من بعض الأمور التي تعكر صفو الأخوة الإيمانية، وتضعف الرابطة: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه "[3] كما بيّن الله تعالى، ورسوله ﷺ ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون فيما بينهم لتقوى الرابطة، وتتحقق الأخوة، فمن ذلك قول الله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح:٢٩] .

القرآن

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)} [الأنفال : ٢]

التفسير:

---

[1] انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام "٢٨/٥٠".

[2] انظر: درء تعارض العقل والنقل "٥/٣٦٧"..

[3] متفق عليه: البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، الصحيح مع الفتح ٩٧/٥. ومسلم، كتاب البر ... ، باب تحريم الظلم، ١٩٩٦/٤.

إنما المؤمنون بالله حقًا هم الذين إذا ذُكِر الله فزعت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم إيمانًا مع إيمانهم، لتدبرهم لمعانيه وعلى الله تعالى يتوكلون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه.

قوله تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال : ٢]، أي:" إنما المؤمنون بالله حقًا هم الذين إذا ذُكِر الله فزعت قلوبهم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله ، ويترك اتباعَ ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه ، والانقياد لحكمه ، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وَجِل قلبه ، وانقاد لأمره ، وخضع لذكره ، خوفًا منه ، وفَرَقًا من عقابه"[٢].

وفي قوله تعالى:{ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال : ٢]، وجهان:

أحدهما: فَرِقت. أي : فزعت وخافت. قاله ابن عباس[٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥].

قال ابن كثير:" وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه ، أي : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره. كقوله تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران : ١٣٥]وكقوله تعالى : { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات : ٤٠ ، ٤١] "[٦].

قال سفيان الثوري : "سمعت السدي يقول في قوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال : هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال : يهم بمعصية - فيقال له : اتق الله فَيجل قلبه"[٧].

الثاني : رَقّتْ. ذكره الماوردي[٨].

عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء في قوله : "{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } قالت : الوجل في القلب إحراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى. قالت لي : إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك ، فإن الدعاء يذهب ذلك"[٩].

قوله تعالى:{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال : ٢]، أي:" وإذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم إيمانًا مع إيمانهم، لتدبرهم لمعانيه"[١٠].

قال الطبري:" وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها ، وأيقن أنها من عند الله ، فازداد بتصديقه بذلك ، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك ، تصديقًا. وذلك هو زيادة ما تلى عليهم من آيات الله إيَّاهم إيمانًا"[١١].

وفي قوله تعالى:{ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال : ٢]، قولان:

أحدهما : تصديقاً. قاله ابن عباس[١٢].

الثاني : خشية .قاله الربيع[١٣].

عن مجاهد في قوله: "{زادتهم إيمانا}، قال: الإيمان يزيد وينقص"[١].

---

[١] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٢] تفسير الطبري:٣٨٥/١٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٧٦):ص١٦٥٥/٥.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٨٥):ص٣٨٦/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٩٢):ص٣٨٧/١٣.
[٦] تفسير ابن كثير:١١/٤-١٢.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٧٨):ص١٦٥٥/٥.
[٨] انظر: النكت والعيون:٢٩٥/٢.
[٩] أخرجه الطبري(١٥٦٩١):ص٣٨٦/١٣، وانظر: تفسير ابن كثير:١٢/٤.
[١٠] التفسير الميسر: ١٧٧.
[١١] تفسير الطبري:٣٨٥/١٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٨٤):ص٣٨٦/١٣.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٨٤):ص٣٨٧/١٣.

قوله تعالى:{وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال : ٢]، أي:" وعلى الله تعالى يتوكلون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه"[٢].

قال الطبري:" يقول : وبالله يوقنون ، في أن قضاءه فيهم ماضٍ ، فلا يرجون غيره ، ولا يرهبون سواه"[٣].

قال ابن كثير:" أي : لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك ، وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب"[٤].

عن قتادة :"{وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون}، قال : هذا نعت أهل الإيمان ، فأثبت نَعْتهم ، ووصفهم فأثبت صِفَتهم"[٥].

عن ابن عباس قوله : "{وعلى ربهم يتوكلون}، يقول : لا يرجون غيره"[٦].

قال سعيد بن جبير :"التوكل على الله جماع الإيمان"[٧].

وعن عن سعيد بن جبير أيضا، قال: "التوكل على الله نصف الإيمان"[٨].

الفوائد:

١- في الآية الكريمة: ذكر من مقامات الإيمان: مقام الوجل عند الذكر، وزيادة الإيمان عند سماع القرآن، والتوكل على الله وحده.

٢- من فوائد الآية الكريمة: أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وفيه الرد على المرجئة والكرامية وأهل الزيغ من القدرية وغيرهم[٩]، إذ قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٨٢):ص١٦٥٦/٥.

(٢) التفسير الميسر: ١٧٧.

(٣) تفسير الطبري:٣٨٥/١٤.

(٤) تفسير ابن كثير:١٢/٤.

(٥) أخرجه الطبري(١٥٦٩٤):ص٣٨٧/١٣.

(٦) أخرجه الطبري(١٥٦٨٤):ص٣٨٦/١٣.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٨٤):ص١٦٥٦/٥.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٨٦):ص١٦٥٦/٥.

(٩)بقي أن نبين هنا قول المعتزلة والأشعرية في الزيادة والنقصان، إذ لعله يتوهم المطلع على أقوالهم أنهم يقولون به كما يقول به أهل السنة لتصريحهم بذلك في كتبهم، أما المعتزلة فقد قال عبد الجبار المعتزلي في كتابه متشابه لاقرآن في قوله تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانا ... } الأنفال: من الآية (٢) الآيات، إن هذه الآية تدل على أن الإيمان يزيد زينقص على ما نقول به، لأنه إذا كان عبارة عن هذه الأمور التي يختلف التعبد فيها على المكلفين فيكون اللازم لبعضهم أكثر مما يلزم الغير فتجب صحة الزيادة والنقصان" ص ٣١٢ - ٣١٣ طبع دار النصر.

وقال في المختصر في أصول الدين أيضاً "فإن قال أفتقولون في الإيمان إنه يزيد وينقص قيل له: نعم، لأن الإيمان كل واجب يلزم المكلف القيام به، والواجب على بعض المكلفين أكثر من الواجب على غيره، فهو يزيد وينقص من هذا الوجه"، ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد تحقيق محمد عماره ٢٤٧/١ مؤسسة الهلال فمرادهم بهذا القول أن الزيادة والنقصان تكون من ناحية تكليف البعض بأكثر من البعض الآخر، كمن يملك نصاب الزكاة فإيمانه أكثر ممن لا يملك النصاب فيكون المالك إيمانه أزيد وغير المالك إيمانه أنقص.

وهذا القول لا يتفق مع قول أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لأن أهل السنة يجعلونه من ناحية الطاعات وأولئك يجعلونه من ناحية التكليف.

وما ذكره المعتزلة وجه من أوجه الزيادة والنقصان يذكره أهل السنة ويمثلون له بقول النبي ﷺ في النساء "إنكن ناقصات عقل ودين" وفسر نقصان الدين بترك الصلاة حال الحيض والنفاس، إلا أنه على حسب قول المعتزلة أن النساء لا يمكن أن يكون فيهن من تكون أعلى إيماناً من أي رجل مسلم وهذا باطل، فإن عند أهل السنة أن هذا عام في جنس النساء أنقص إيماناً من جنس الرجال. أما الأفراد فإن في النساء من هن أكمل إيماناً وأرفع من كثير من الرجال، حيث يرتفع إيمانها بالطاعات حتى يغطي هذا النقص، وينقص إيمان كثير من الرجال بسبب المعاصي حتى يصبح أقل إيماناً من كثير من النساء، ومن المثال الواضح على ذلك في النساء أمهات المؤمنين

ينقص وإن إيمان الأنبياء كإيمان سائر العصاة من الخلق. وفيما يأتي نذكر أهم الآثار الواردة على أن الإيمان يزيد وينقص:

- عن إبراهيم عن علقمة أنه كان يقول لأصحابه: "امشوا بنا نزدد إيمانا"[١].
- قال رجل لعلقمة أمؤمن أنت؟ قال أرجو إن شاء الله[٢].
- عن إسحاق بن بهلول قال: "سألت ابن عيينة عن الإيمان، فقال: قول وعمل يزيد وينقص، أما تقرأ {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}"[٣].
- وعن أبي نصر فتح بن المغيرة قال: قيل لسفيان بن عيينة: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرؤون {فزادهم إيمانًا}[٤] {وزدناهم هدًى} [٥] في غير موضع؟ قيل فينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص[٦].
- وعن الحميدي قال: سمعت ابن عيينة يقول: الإيمان يزيد وينقص. فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد لا تقولن: يزيد وينقص فغضب، وقال: اسكت يا صبي بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء[٧].
- وعن محمد بن سليمان لوين، سمعت ابن عيينة غير مرة يقول: الإيمان قول وعمل. قال ابن عيينة: وأخذناه ممن قبلنا، وأنه لا يكون قول إلا بعمل، قيل لابن عيينة: يزيد وينقص، قال: فأي شيء إذا[٨].
- وعن أبي عبد الله قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: إذا سئل أمؤمن أنت؟ إن شاء لم يجبه، وقال: سؤالك إياي بدعة ولا أشك في إيماني ولا يعنف من قال: إن الإيمان ينقص أو إن قال: إن شاء الله ليس يكره وليس بداخل في الشك[٩].
- وعن عبد الرزاق قال: سمعت سفيان الثوري وابن جريج ومالك بن أنس ومعمر بن راشد وسفيان بن عيينة يقولون: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص[١].

ومريم بنت عمران والنساء المشهورات بالديانة والصلاح من الصحابيات وغيرهن، وعلى قول المعتزلة إن أي رجل مسلم يكون أرفع إيماناً من أمهات المؤمنين ومريم بنت عمران وغيرهن وهذا باطل.

أما الأشعرية فإنهم يعرفون الإيمان بأنه التصديق ولا يدخلون العمل في الإيمان، فلهذا الفاسق عندهم مؤمن كامل الإيمان.

ولهم في الزيادة والنقصان بالنسبة للتصديق قولان:

القول الأول: إن التصديق القلبي لا يزيد ولا ينقص، لأنه متى قبل ذلك كان شكاً ومن القائلين بهذا الباقلاني وذكر الرازي أنه قول أكثر الأشعرية. انظر: العقيدة النظامية ص ٩٠ن الموافق في علم الكلام ص ٣٨٨، مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى ص ٣٩٩.

والقول الثاني: إنه يقبل الزيادة والنقصان من حيث الغفلة والذكر ووضوح الأدلة والبراهين، وبه قال الرازي والغزالي والإيجي ونصره في تحفة المريد. انظر: أصول الدين للبغدادي ص ٢٥٢، الموافق في علم الكلام ص ٣٨٨، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ١٤٣ تحفة المريد ص ٥١.

وهذا القول يقول به السلف كما ، وهو أن الزيادة والنقصان تكون في تصديق القلب، وقد ذكر شيخ الإسلام عدة أوجه من التفاضل في تصديق القلب ومعرفته. انظر: الفتاوى ٥٦٤/٧ - ٥٦٦.

[١] ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (١٠٤) والمصنف (٦/ ٣٠٣٦٢/١٦٤) وأصول الاعتقاد (٥/ ١٧٣٠/١٠٢٣).

[٢] السنة لعبد الله (٩٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٠٣٣٤/١٦١ و٣٠٣٧٤) وفي الإيمان (٢٤) وأبو عبيد في الإيمان (١٥) وابن بطة في الإبانة (٢/ ١٢١٨/٨٨٣) والشريعة (١/ ٣١٥/٣٠١).

[٣] السنة للخلال (٣/ ١٠٤٢/٥٩١).

[٤] آل عمران الآية (١٧٣).

[٥] الكهف الآية (١٣).

[٦] الإبانة (٢/ ١١٤٢/٨٥٠) والشريعة (١/ ٢٧١/٢٦٤).

[٧] الإبانة (٢/ ٨٥٤ - ٨٥٥/ ١١٥٥) وأصول الاعتقاد (٥/ ١٧٤٥/١٠٣٢) والشريعة (١/ ٢٦٨/٢٧٢) والإيمان لمحمد بن يحيى العدني (٢٨).

[٨] الإبانة (٢/ ٨٥٥/٧/ ١١٥٧) والشريعة (١/ ٢٦٣/٢٧١) والسنة لعبد الله (٩٩).

[٩] أصول الاعتقاد (٥/ ١٧٩٦/١٠٥٤) والإبانة (٢/ ١٢١٣/٨٨١) وبنحوه في الشريعة (١/ ٣١٨/٣٠٣) والسنة لعبد الله (٨٣).

- ومن الدليل على أن الإيمان يزيد وينقص بالطاعة وينقص بالمعصية ما روي أن النبي ﷺ أنه قال: "لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، والتوبة معروفة"[٢]. والمراد به كمال الإيمان، كقوله: "لا إيمان لمن لا أمانة له"[٣].
- وعن محمد بن علي - رضي الله عنهما - أنه قال: "هذا الإسلام ودور دارة في وسطها أخرى، وقال: هذا الإيمان مقصور في الإسلام، وقال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن" قال: يخرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرج من الإسلام، فإذا تاب تاب الله عليه ورجع إلى الإيمان"[٤].
- وفي وراية أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: " إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأعه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه"[٥].
- وروي عن ابن عباس وأبي هريرة - رضي الله عنهما - أنهما قالا: "الإيمان يزيد وينقص"[٦].
- وكذلك روي عن عمر بن الخطاب - وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء وابن عمرو، وعمار، وحذيفة، وسلمان الفارسي وأبي أمامة، وعبد الله بن رواحة، وجندب بن عبد الله، وعمير بن حبيب وعائشة - رضي الله عنهم - أنهم قالوا: "الإيمان يزيد وينقص"[٧].
- قال ابن أبي مليكة "أدركت كذا وكذا من الصحابة - رضي الله عنهم - ما مات رجل منهم إلا ويخشى على نفسه النفاق"[٨].
- وكذلك روي عن التابعين كعب الأحبار وعروة بن الزبير، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وابن أبي مليكة[٩]، وميمون بن مهران[١٠]، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير،

---

[١]أصول الاعتقاد (٥/ ١٠٢٨ - ١٠٢٩/ ١٧٣٥) والسنة لعبد الله (٩٧) والشريعة (١/ ٢٧٢/٢٦٧) والإبانة (٢/ ١١١٤/٨١٣).

[٢]أخرجه البخاري كتاب المظالم (ب النهب بغير إذن صاحبه) ١١٨/٣، ومسلم كتاب الإيمان (ب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي) ٧٦/١ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

[٣] .

[٤]أخرجه الآجري في الشريعة ص ١١٣، والإمام أحمد في الإيمان ورقة ١٠٢/أ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٣٤٢/١ وابن باطه في الإبانة الكبير ٧١٣/٢.

[٥]رواه الترمذي تعليقاً (٥/ ١٥) وأخرجه موصولاً أبو داود (٤/ ٢٢٢) والطبري في تهذيب الآثار (برقم: ٩١٠) والحاكم (١/ ٢٢) وابن منده في الإيمان (٢/ ٥٧٩) من طريق سعيد بن أبي مريم أنبأ نافع بن يزيد، ثنا ابن الهاد أن سعيد بن أبي سعيد المقبري حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ فذكره.
وقال الحاكم"حديث صحيح على شريط الشيخين" ووافقه الذهبي، وقال الألباني:"وهو كما قالا إلا في نافع فإنما أخرج له البخاري تعليقاً فهو على شرط مسلم وحده""سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٢/ ٢٢) ، وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١٢/ ٦١).

[٦]أخرجه ابن ماحه في المقدمة ٢٨/١، والآجري في الشريعة ص ١١١ عن مجاهد عنهما، كما أخرج الآجري ص ١١١، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٣١٤/١ من طريق عبد الله بن ربيعة الحضرمي عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

[٧]عزا إليهم هذا القول اللالكائي في السنة ٨٩٢/٥، ثم ذكره على التفصيل مسنداً إليهم انظره: في ٩٤١/٥ - ٩٤٨، كما أخرج الآجري ذلك مسنداً إلى عمر بن الخطاب وابن مسعود وعمير بن حبيب - رضي الله عنهم -. الشريعة ١١١ - ١١٢.

[٨]أخرجه عنه اللالكائي في السنة ٩٥٥/٥ وذكره البخاري إلا أنه قال: "أدركت ثلاثين ... "، خ. (ب. خوف المؤمن من أن يحبط عمله) . ١٥/١.

[٩]عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة بن عبد الله بن جدعان. أدرك ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، ثقة فقيه. توفي سنة ١١٧هـ -. التقريب ١٨١.

[١٠]ميمون بن مهران الجزري الكوفي ثقة فقيه، ولي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز، توفي سنة ١١٧هـ -. التقريب ص ٣٥٤.

والحسن والزهري، وقتادة، وابن جريج، وفضيل بن عياض وغيرهم من العلماء الذين لا يستوحش من ذكرهم أنهم قالوا الإيمان يزيد وينقص[١].

- وروي عن جندب أنه قال: "كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة٥ فكان يعلمنا الإيمان قبل أن يعلمنا القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً"[٢].
- وعن أبي سعيد الفريابي[٣] أنه قال: "سألت المزني[٤] في مرضه الذي مات فيه وهو يومئذ يومئذ ثقيل من المرض يغمى عليه مرة ويفيق أخرى، وقد كانوا صرخوا عليه تلك الليلة وظنوا أنه قد مات، فقلت: أنت أمامي بعد كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، وإن الناس قد اختلفوا في الإيمان فمنهم من قال الإيمان قول وعمل يزيد زينقص، ومنهم من قال: هو قول وعمل يزيد ولا ينقص، ومنهم من قال هو قول والعمل شرائعه، فقال مجيباً بلسان ثقيل: من الذي قال إنه قول وعمل يزيد زينقص؟ قلت: مالك، والليث بن سعد وابن جريج فذكرت له جماعة، ثم قال: لا يعجبني ولا أحب أن أكفر أحداً لما قال: تسألني عن الاسم أو معنى الاسم؟ فتعجبت من سؤاله إياي مع ما هو فيه ثم قال: كم أخطأ في الاسم ليس من أخطأ في المعنى، الخطأ في المعنى أصعب، ثم قال: ما يقول هذا فيمن عمل بعض الأعمال هو مثل من جهل - يريد التوحيد كله - ثم قال: هذا باب لم أعمل فيه فكري ولكن انظر لك فيه، ثم أغمي عليه فرجع إليه بعد العصر، فقال ابن أخيه عتيق: إنه سأل عنك وقال: قل له: الإيمان قول وعمل، فقعدت عنده حذاء وجهه ففتح عينيه فتحاً ثقيلاً، ثم قال: الفريابي؟ قلت: نعم قال: لا خلاف بين الناس أن النبي ﷺ طاف بالبيت فقال: إيماناً[٥] وتصديقاً بكتابك". وهذا دليل على أن جميع الأعمال من الإيمان قال: "وهذه آخر مسألة سألت عنها المزني ومات بعدها بثلاثة أيام"[٦].
- وروي أن عبد الله بن مسعود كان يقول في دعائه "اللهم زدني إيماناً ويقيناً وفقهاً"[٧].
- وعن عمير بن حبيب أنه قال: "الإيمان يزيد وينقص. قيل له: ما زيادته ونقصانه قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحانه٥ فذلك زيادته، وإذا أغفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه"[٨].
- وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال لغلمانه: "من أراد منكم الباءة زوجناه، لا يزني منكم زان إلا نزع منه نور الإيمان، فإن شاء أن يرده عليه رده وإن شاء أن يمنعه منعه"[٩].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

---

[١]انظر: الروايات عنهم وعن غيرهم مسندة عند اللالكائي في السنة ٩٥١/٥ - ٩٦٤.

[٢]حزاورة: جمع حزور وهو الغلام إذا اشتد وقوي وخدم، وقيل: هو الذي قارب البلوغ. انظر: اللسان ٨٥٥/٣. ٨٥٥/٣.

[٣]أخرجه ابن ماجه في المقدمة (ب في الإيمان) ٢٣/١، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٣٦٩/١، وابن منده في الإيمان ٣٧٠/٢، واللالكائي في السنة ٩٤٦/٥.

[٤]هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني المصري تلميذ الشافعي. قال الذهبي: "هو قليل الرواية ولكنه كان رأساً في الفقه". توفي سنة ٢٦٤هـ -. سير أعلام النبلاء ٤٩٤/١٢، طبقات الشافعية للسبكي ٩٣/٢.

[٥] انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي (المتوفى: ٥٥٨هـ):٧٧٨/٣. ولم أقف عليه..

[٦]أخرجه اللالكائي في السنة ٨٨٧/٥.

[٧]أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٣٦٩/١.والإيمان للإمام أحمد ورقة ١٠٨/أ.

[٨]أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان ص ٧، والآجري في الشريعة ص ١١١، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة السنة ٣١٤/١.

[٩]أخرجه الآجري في الشريعة - ص ١١٤ وابن أبي شيبة في الإيمان ص ٣٢ وابن بطة في الإبانة الكبير ٧١٥/٢.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: "وما رجا أحد مخلوقا ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه"[1].

والتوكل على الله من أعظم منازل {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ؛ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله - سبحانه، قال الله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} [المزمل، الآية: ٩]، والآيات في الأمر به كثيرة جدّا، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} [الطلاق، الآية: ٣].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - على قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[المائدة، الآية: ٢٣]: "فجعل التوكل على الله شرطا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه"[2].

وكلما قوي إيمان العبد؛ كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان، ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفا؛ كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد.

القرآن

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)} [الأنفال : ٣]

التفسير:

الذين يداومون على أداء الصلوات المفروضة في أوقاتها، ومما رزقناهم من الأموال ينفقون فيما أمرناهم به.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} [الأنفال : ٣]، أي:" الذين يداومون على أداء الصلوات المفروضة في أوقاتها"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها"[4].

قال ابن كثير:" ينبه بذلك على أعمالهم ، بعد ما ذكر اعتقادهم ، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالى"[5].

عن ابن عباس :"{الذين يقيمون الصلاة}، يقول : الصلوات الخمس"[6].

قال قتادة:" إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها وركوعها وسجودها"[7].

ن مقاتل بن حيان: "قوله {يقيمون الصلاة}، إقامتها: المحافظة على موقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها والتشهد، والصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- فهذا إقامتها"[8].

قوله تعالى:{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الأنفال : ٣]، أي:" ومما رزقناهم من الأموال ينفقون فيما أمرناهم به"[9].

قال الطبري: يقول: "وينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله أن ينفقوها فيه ، من زكاة وجهاد وحج وعمرة ونفقةٍ على من تجب عليهم نفقته ، فيؤدُّون حقوقهم"[10].

عن ابن عباس :"{ومما رزقناهم ينفقون}، يقول : زكاة أموالهم "[11].

---

[1] مجموع الفتاوى:٢٥٧/١٠.
[2] مدارج السالكين: ١٢٩/٢.
[3] التفسير الميسر: ١٧٧.
[4] تفسير الطبري:٣٨٨/١٣.
[5] تفسير ابن كثير:١٢/٤.
[6] أخرجه الطبري(١٥٦٩٥):ص٣٨٨/١٣.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٨٩):ص١٦٥٧/٥.
[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٩٠):ص١٦٥٧/٥.
[9] التفسير الميسر: ١٧٧.
[10] تفسير الطبري:٣٨٨/١٣.
[11] أخرجه الطبري(١٥٦٩٥):ص٣٨٨/١٣.

وعن السدي:{ومما رزقناهم ينفقون}، فهي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة"[١].

وعن قتادة :"{ومما رزقناهم ينفقون}، فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها"[٢].

الفوائد:

١- فضيلة إقام الصلاة والإنفاق لوجه الله تعالى.
٢- من صفات أهل الإيمان الكامل ما ورد في الآية إقامة الصلاة، والإنفاق لوجه الله تعالى.
٣- أن الإيمان يشمل الدين كله، الاعتقادات الباطنة والأعمال الظاهرة.

القرآن

{أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)} [الأنفال : ٤]

التفسير:

هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون حقًا ظاهرًا وباطنًا بما أنزل الله عليهم، لهم منازل عالية عند الله، وعفو عن ذنوبهم، ورزق كريم، وهو الجنة.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال : ٤]، أي:" هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون حقًا ظاهرًا وباطنًا بما أنزل الله عليهم"[٣].

قال الطبري:" يقول : هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال {هم المؤمنون}، لا الذين يقولون بألسنتهم : " قد آمنا " وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقًا ، لا يقيمون صلاة ولا يؤدُّون زكاة"[٤].

عن ابن عباس :"{ أولئك هم المؤمنون حقًّا}، يقول : برئوا من الكفر"[٥].

عن قتادة :"{أولئك هم المؤمنون حقًّا}، قال : استحقُّوا الإيمان بحق ، فأحقه الله لهم"[٦].

عن أبي سنان قال: "سئل عمرو بن مرة عن قوله: {أولئك هم المؤمنون حقا}، قال: إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقا وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقا وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقا وفي القوم شعراء"[٧].

قال ابن سلام:" فلم يجعل الله للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعم أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنا حقا وإن لم يكن هناك عمل فهو معاند لكتاب الله والسنة"[٨].

قال أهل العلم:" ثم عقب الله بقوله: {أولئك هم المؤمنون حقاً} ليفيد بأن هناك إيماناً غير حق، إيماناً باطلاً، وستعلم أن هذا الإيمان الباطل. إما أن يكون دعوى بلا دليل عليها، أو أنه التصديق بخرافة ووهم.

وبهذا نفهم أن الإيمان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ له معنيان:

الأول: هو تصديق خبر الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ.

الثاني: هو الالتزام بالأوامر التي أمر الله بها هؤلاء المصدقين"[٩].

قوله تعالى:{لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنفال : ٤]، أي:" لهم منازل عالية عند الله"[١٠].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٩٢):ص١٦٥٧/٥.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٩٣):ص١٦٥٧/٥.
[٣] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٤] تفسير الطبري:٣٨٨/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٦٩٥):ص٣٨٨/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٦٩٦):ص٣٨٩/١٣.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٧٩٦):ص١٦٥٨/٥.
[٨] الإيمان للقاسم بن سلام:٣٢.
[٩] الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف:١٩.
[١٠] التفسير الميسر: ١٧٧.

قال الطبري: يعني:"لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم {درجات}، وهي مراتب رفيعة"[١].

وفي قوله تعالى:{لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنفال : ٤]، وجهان:

أحدهما: أنها هي أعمال رفيعة ، وفضائل قدّموها في أيام حياتهم. قاله مجاهد[٢].

وقال سعيد بن جبير:" فضائل ورحمة"[٣].

والثاني: أن ذلك مراتب في الجنة. قاله ابن محيريز[٤].

وروي عن الضحاك في قوله: "{لهم درجات عند ربهم}، قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد"[٥].

قوله تعالى:{وَمَغْفِرَةٌ} [الأنفال : ٤]، أي:" تكفير لما فرط منهم من الذنوب"[٦].

قال الطبري:"يقول : وعفو عن ذنوبهم ، وتغطية عليها"[٧].

عن قتادة : "{ومغفرة}، قال : لذنوبهم "[٨].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله :"{ومغفرة}، بترك الذنوب"[٩].

قوله تعالى:{وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال : ٤]، أي:" رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم"[١٠].

قال الطبري:" قيل : الجنة وهو عندي : ما أعد الله في الجنة لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش"[١١].

عن قتادة : "{ ورزق كريم}، قال : الجنة "[١٢].

قال محمد بن كعب القرظي: "إذا سمعت الله يقول: «رزق كريم»، فهي الجنة"[١٣].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:"{ ورزق كريم}، قال: الأعمال الصالحة"[١٤].

الفوائد:

١- أنه على العبد أن يحرص على أن يجمع خصال الخير كلها حتى يكون مؤمناً حقاً: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:٤] ، فمن الذين يزهد في هذا الثواب كله؟! فالمؤمن يحرص على أن يكون مؤمناً حقاً حتى يحصل له هذا الثواب.

٢- أن الجنة درجات، لقوله:{ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ }، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: "إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر[١٥] من الأفق من المشرق أو من المغرب لِتَفَاضُلِ ما

---

[١] تفسير الطبري:٣٨٩/١٣.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٩٧):ص٣٨٩/١٣.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٩٧):ص١٦٥٨/٥.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٦٩٨):ص٣٨٩/١٣-٣٩٠.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٧٩٩):ص١٦٥٨/٥.

[٦] صفوة التفاسير:٤٥٩/١.

[٧] تفسير الطبري:٣٩٠/١٣.

[٨] أخرجه الطبري(١٥٦٩٩):ص٣٩٠/١٣.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٠٠):ص١٦٥٨/٥.

[١٠] صفوة التفاسير:٤٥٩/١.

[١١] تفسير الطبري:٣٩٠/١٣.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٦٩٩):ص٣٩٠/١٣.

[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٠١):ص١٦٥٨/٥.

[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٠٢):ص١٦٥٨/٥.

[١٥]الغابر: الذاهب الماشي الذي تدلى للغروب وبعد عن العيون.

بينهم. قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم. قال: بلى والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين"[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم -: "يُقال لصاحب القرآن يوم القيامة إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه"[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - قال: "يُقال لصاحب القرآن: اقرأْ، وارقَ، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها"[(٣)].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال:"من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله! ألا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة"[(٤)].

وأعلى درجات الجنة الوسيلة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ؛ فإنه من صلى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله ليَ الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة"[(٥)]، وسُمّيت درجة النبي - ﷺ - الوسيلة؛ "لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقرب الدرجات إلى الله تعالى فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة"[(٦)].

وأعلى درجات الجنة الوسيلة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع النبي - ﷺ - يقول: " إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة؛ صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة؛ حلت عليه الشفاعة"[(٧)]، وسُمّيت درجة النبي - ﷺ - الوسيلة؛ لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقرب الدرجات إلى الله تعالى.

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم ٣٢٥٦، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء، برقم ٢٨٣١.

(٢)أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، برقم ٣٧٨٠،وأحمد في المسند، ٣/ ٤٠، وأبو يعلى في المسند، برقم ١٠٩٤،وقال الألباني عنه في صحيح ابن ماجه، برقم ٣٧٨٠: ((صحيح)).

(٣)أخرجه أبو داود في كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم ١٤٦٤، والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ١٨، برقم ٢٩١٤، وأحمد، ٢/ ١٩١، وابن حبان كما في الموارد، برقم ١٧٩٠، والحاكم، ١/ ٥٥٢ - ٥٥٣، وصححه، ووافقه الذهبي. وقال أبو عيسى: ((هذا حديث حسن صحيح))، وقال الألباني عنه في صحيح الجامع الصغير، ٢/ ١٠٢٩: ((صحيح)).

(٤)أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، برقم ٢٧٩٠، وفي كتاب التوحيد، باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ}، برقم ٧٤٢٣.

(٥)أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي - ﷺ -، برقم ٣٨٤.

(٦)حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم، ص٩٩.

(٧)رواه مسلم (١/ ٢٨٨ - ٢٨٩/ رقم: ٣٨٤)، وأبو داود (١/ ٨٧)، والترمذي (١٠/ ٨٣ - ٨٤/ ٣٦٩٤)، والنسائي (٢/ ٢٥ - ٢٦)، وفي " عمل اليوم والليلة " (٤٥)، وعنه ابن السني (٩٢)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، والبيهقي (١/ ٤٠٩ - ٤١٠)، وغيرهم عن ابن عمرو مرفوعا، وقال الترمذي: " حسن صحيح ".

القرآن

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)} [الأنفال : ٥]

التفسير:

كما أنكم لما اختلفتم في المغانم فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله ﷺ، كذلك أمرك ربك -أيها النبي- بالخروج من «المدينة» للقاء عِيْر قريش، وذلك بالوحي الذي أتاك به جبريل مع كراهة فريق من المؤمنين للخروج.

في سبب نزول الآية والتي بعدها وجوه:

أحدها: عن أبي أيوب الأنصاري؛ يقول: «قال رسول الله - ﷺ - ونحن بالمدينة: "إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَلَ هذا العير؟ لعل الله يغنمناها"، فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: "ما ترون في القوم، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ "، فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكن أردنا العير، ثم قال: "ما ترون في قتال القوم؟ "، فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد أحبّ إلينا من أن يكون لنا مال عظيم؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ- على رسوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)}؛ ثم أنزل الله-عزّ وجلّ-: {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}، وقال: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}، والشوكة: القوم وغير ذات الشوكة: العير، فلما وعدنا إحدى الطائفتين: إما القوم، وإما العير طابت أنفسنا، ثم إن رسول الله - ﷺ - بعث رجلاً لينظر ما قبل القوم؟ فقال: رأيت سواداً ولا أدري، فقال رسول الله - ﷺ -: "هم هم هلموا أن نتعاد"؛ ففعلنا، فإذا نحن ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا رسول الله بعدتنا، فسره ذلك؛ فحمد الله، وقال: "عدة أصحاب طالوت"، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر رسول الله - ﷺ - إليهم فقال: "معي معي"، ثم إن رسول الله - ﷺ - قال: "اللهم إني أنشدك وعدك"، فقال ابن رواحة: يا رسول الله! إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله - ﷺ - أفضل من يشير عليه، إن الله -عزّ وجلّ- أعظم من أن تنشده وعده، فقال: "يا ابن رواحة! لأنشدن الله وعده؛ فإن الله لا يخلف الميعاد"، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله - ﷺ - في وجوه القوم، فانهزموا؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} فقتلنا وأسرنا، فقال عمر -رضي الله عنه-: يا رسول الله! ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن داعون مولفون، فقلنا: معشر الأنصار! إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله - ﷺ - ثم استيقظ، ثم قال: "ادعوا لي عمر" فدعي له، فقال: "إن الله -عزّ وجلّ- قد أنزل علي: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)}"» [(١)]. [صحيح]

[(١)] أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ١٧٤، ١٧٥ رقم ٤٠٥٦) -وعنه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٩٩) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٥٩ رقم ٨٨٠٥، ص ١٦٦٠، ١٦٦١ رقم ٨٨١٤، ٨٨١٦، ٨٨١٧) من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران عن أبي أيوب به.

قلنا: وهذا سند حسن؛ رجاله ثقات؛ عدا ابن لهيعة، وهو صدوق حسن الحديث قبل اختلاطه واحتراق كتبه، وحديثنا هذا من صحيح حديثه؛ فإن زيد بن الحباب رواه عنه عند ابن أبي حاتم، وزيد سمع منه قبل احتراق كتبه؛ كما قال أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمرى في "النفح الشذي" (٢/ ٨٠٣).

وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٣٧) من طريق يعقوب بن سفيان أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب حدثني أسلم أبو عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال لنا رسول الله - ﷺ – ونحن بالمدينة: "هل لكم أن نخرج فنلقى هذه العير لعل الله يغنينا؟ ". قلنا: نعم، فخرجنا، فلما سرنا يوماً أو

والثاني: عن محمد بن عمرو بن علقمة عن [أبيه] عن جده؛ قال: «خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس، فقال: "كيف ترون؟ "، قال أبو بكر: يا رسول الله! بلغنا أنهم بكذا وكذا، قال: ثم خطب الناس، فقال: "كيف ترون؟ "، فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب فقال: "ما ترون؟ " فقال سعد بن معاذ: إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى من بني إسرائيل: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامضي له؛ فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت؛ فنزل القرآن على قول سعد: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} إلى قوله: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} وإنما خرج رسول الله - ﷺ - يريد غنيمة ما مع أبي سفيان فأحدث الله إليه القتال»[1]. [ضعيف]

والثالث: عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "لما شاور النبي - ﷺ - في لقاء القوم، وقال له سعد بن عبادة ما قال -وذلك يوم بدر-؛ أمر الناس فتعبّوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، وكره ذلك أهل الإيمان؛ فأنزل الله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)}"[2]. [ضعيف جداً]

قوله تعالى:{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ} [الأنفال : ٥]، أي:" كما أنكم لما اختلفتم في المغانم فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله ﷺ، كذلك أمرك ربك -أيها النبي- بالخروج من «المدينة» للقاء عِيْر قريش، وذلك بالوحي الذي أتاك به جبريل"[3].

قال ابن عطية:" إن هذه «الكاف» شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي ﷺ فأخرجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هاهنا للخروج، وحكم الله في النفل بأنه لله وللرسول

يومين أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبي - ﷺ -، فسُرّ بذلك وحمد الله، وقال: "عدة أصحاب طالوت".

قلنا: وهذا إسناد جيد، وهو من صحيح حديث ابن لهيعة؛ لأن سعيد بن أبي مريم سمع من ابن لهيعة قبل اختلاطه واحتراق كتبه؛ كما قال الإمام أحمد.

انظر: "إكمال تهذيب التهذيب" (٨/ ١٤٥).

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٧٢٧):ص٤٠٥/١٣ -مختصراً جداً- من طريق ابن وهب وابن المبارك عن ابن لهيعة به بلفظ: أنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ}، فلما وعدنا إحدى الطائفتين أنها لنا طابت أنفسنا، والطائفتان عير أبي سفيان أو قريش؛ لفظ ابن وهب.

ولفظ ابن المبارك: قالوا: الشوكة: القوم، وغير الشوكة: العير، فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما العير وإما القوم؛ طابت أنفسنا.

قلنا: وهذا إسناد جيد، وهو من صحيح حديث ابن لهيعة؛ لأن ابن وهب وابن المبارك من قدماء أصحابه.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٧٤): "إسناده حسن".

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٥٥، ٣٥٦ رقم ١٨٥٠٧)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٩٩) عن طريق محمد به.

قلنا: وهذا إسناده ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: علقمة بن وقاص الليثي؛ قال عنه الحافظ: "ثقة ثبت من الثانية، أخطأ من زعم أن له صحبة، وقيل: إنه ولد في عهد النبي - ﷺ -"؛ فهو مرسل.

الثانية: عمرو بن علقمة؛ مجهول؛ لم يرو عنه إلا ابنه محمد، وإن وثقه ابن حبان.

[2] أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٧١٢):ص٣٩٥/١٣.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

[3] التفسير الميسر: ١٧٧.

دونهم هو بمثابة إخراجه نبيه ﷺ من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله، وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون قوله {يُجادِلُونَكَ} كلاما مستأنفا يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها، كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان"[١].

عن مجاهد:{كما أخرجك ربك من بيتك بالحق}، كذلك"[٢].

وفي قوله تعالى:{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ} [الأنفال : ٥]، وجهان[٣]:

أحدهما : كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهه فريق من المؤمنين كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق .

والثاني : كما أخرجك ربك من بيتك مِن المدينة إلى بدر بالحق كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق.

عن السدي كما :"{أخرجك ربك من بيتك بالحق}، قال: خروج النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى بدر"[٤].

والثالث: أن مجادلتهم الآن له كما أخرجك ربك من بيتك. قاله الكسائي[٥].

قال ابن قتيبة:"يريد: أن كراهتهم لما فعلته في الغنائم ككراهتهم للخروج معك، كأنه قال: هذا من كراهيتهم كما أخرجك وإيّاهم ربّك وهم كارهون، ومن تتبع هذا من كلام العرب وأشعارها وجده كثيرا، قال الشاعر[٦]:

فلا تدفنوني إنّ دفني محرّم عليكم، ولكن خامري أمّ عامر

يريد: لا تدفنوني ولكن دعوني للتي يقال لها إذا صيدت: خامري أمّ عامر، يعني الضّبع، لتأكلني.

وقال عنترة[٧] :

هل تبلغنّي دارها شدنيّة لعنت بمحروم الشّراب مصرّم

يريد: دعي عليها بأن يحرم ضرعها أن يدرّ فيه لبن، فاستجيب للداعي، فلم تحمل ولم ترضع.

ومثله قول الآخر[٨]:

ملعونة بعقر أو خادج

أي: دعي عليها أن لا تحمل، وإن حملت: أن تلقي ولدها لغير تمام، فإذا لم تحمل الناقة ولم ترضع كان أقوى لها"[٩].

والرابع: أنه قسم، أي: والذي أخرجك من بيتك. قاله أبو عبيدة[١].

---

[١] المحرر الوجيز:٥٠٢/٢.

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٠٣):ص١٦٥٩/٥.

[٣] انظر: النكت والعيون:٢٩٥/٢.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٠٤):ص١٦٥٩/٥.

[٥] انظر: إعراب القرآن للنحاس:٩٠/٢.

[٦]يروى البيت بلفظ:

لا تقبروني إن قبري محرم ... عليكم ولكن أبشري أم عامر

والبيت من الطويل، وهو للشنفرى في ديوانه ص ٤٨، ولسان العرب (عمر) ، ومقاييس اللغة ٢/ ٢١٧، وتاج العروس (عمر) ، والأغاني ٢١/ ٢٠٥، وأمالي المرتضى ٢/ ٧٣، والبرصان والعرجان ص ١٦٦، ٣١١، وتمثال الأمثال ١/ ٣٤٠، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٠٥، والحماسة البصرية ١/ ٩٤، وخزانة الأدب ٣/ ٣٤٧، وديوان المفضليات ص ١٩٧، وذيل الأمالي ص ٣٦، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ٢٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٤٨٧، والشعر والشعراء ١/ ٨٦، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٣٤، وكتاب الصناعتين ص ١٨٣، وتفسير البحر المحيط ٢/ ٣٧٧، ومجمع البيان ١/ ٧٤، والحيوان ٦/ ٤٥٠، والطرائف الأدبية ص ٣٦.

[٧]البيت من الكامل، وهو في ديوان عنترة ص ١٩٩، وخزانة الأدب ٥/ ٣٦٩، ولسان العرب (صرم) ، (لعن) ، وكتاب الجيم ٣/ ٢١٦، وأساس البلاغة (صرم) ، وشرح القصائد العشر ص ١٨٣، وأمالي المرتضى ٣/ ١٥٨.

[٨]قبله:

تخدي بها كل خنوف فاسج". والرجز بلا نسبة في لسان العرب (فسج) ، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٩٦.

[٩] تأويل مشكل القرآن:١٤٠-١٤١.

والخامس:أن «الكاف» في موضع نصب، أي: الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهم كارهون كذلك ننفل من رأيت. قاله أبو إسحاق[2]، وهو معنى قول الفراء[3]، والنحاس[4].

قال الفراء:أي:" على كره منهم، فامض لأمر الله في الغنائم كما مضيت على مخرجك وهم كارهون"[5].

قوله تعالى:{وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال : ٥]، أي:" والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد"[6].

قال السيوطي:" أي: لقتل العدو"[7].

وفي قوله تعالى:{وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال : ٥]، وجهان:

أحدهما : كارهون خروجك لطلب المشركين. قاله السدي[8].

الثاني : كارهون صرف الغنيمة عنهم، لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله دونهم. ذكره الماوردي[9].

الفوائد:

١- في الآية بيان لموافقات عمر للقرآن والسنة، وذلك الاستشارة في الخروج إلى بدر وذلك أنه ﷺ استشار أصحابه في الخروج إلى بدر فأشار عمر بالخروج، فنزل قوله تعالى {كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون}

٢- أن الكره الموجود في هذه الآية وفي مثل قوله تعال: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:٢١٦]، وقوله: {فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا} [النساء:١٩]، كل هذا لا علاقة له بأصل الدين؛ لأن هذه الكراهية قد تكون طبيعية، وليست هي نفس الكراهية المذكورة في مثل قوله تبارك وتعالى: {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف:٧٨]، هذه كراهية في الدين، ولذلك فهي تبطل وتحبط الإيمان؛ لأنها كراهية للحق والتوحيد والأنبياء.

وهذه الكراهية الطبيعة لا يمكن أن تكون مثل الكراهية التي في قوله عز وجل: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٩]، فهذه الكراهية في الدين هي التي تمس أصل الدين والعقيدة وتحبط الإيمان.

٣- الرد على شبه بعض الفرق في طعن الصحابة-رضوان الله عنهم- إذ حملوا الآيات التي ذكرت في المنافقين على الصحابة -رضي الله عنهم-، فمثلاً: قول الله تعالى في قصة بدر: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ}، فهؤلاء جادلوا الرسول كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فهم كفروا بذلك، بينما الله تعالى ما كفرهم به، وإنما سماهم مؤمنين {وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون}، فكيف يكفرونهم والله سماهم مؤمنين؟! نعم كرهوا مقاومة ومقابلة الكفار مخافة أنهم يقضى عليهم وهم عدة من المسلمين، ومعهم الرسول، ومعهم خيار الصحابة، ولكن الله تعالى نصرهم وأيدهم، هذه هي الكراهية والمجادلة، يعني: كأنهم يقولون: لو ذهبنا إلى العير لكان أفضل، فهل يخرجهم ذلك من الإيمان؟ ما يخرجهم.

---

(١) انظر: مجاز القرآن١/٢٤٠.
(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس:٢/٩٠.
(٣) انظر: معاني القرآن:١/٤٠٣.
(٤)انظر: عراب القرآن: ٢/ ٩٠.
(٥) معاني القرآن:١/٤٠٣.
(٦) صفوة التفاسير:١/٤٥٩.
(٧) معترك الأقران:٣/٢٨٤.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٨٠٦):ص٥/١٦٥٩.
(٩) انظر: النكت والعيون:٢/٢٩٥-٢٩٦.

القرآن

{يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)} [الأنفال : ٦]

التفسير:

يجادلك -أيها النبي- فريق من المؤمنين في القتال مِن بعد ما تبيَّن لهم أن ذلك واقع، كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إليه عِيانًا.

قوله تعالى:{يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [الأنفال : ٦]، أي:" يجادلك -أيها النبي- فريق من المؤمنين في القتال مِن بعد ما تبيَّن لهم أن ذلك واقع"[١].

عن مجاهد، قوله: "{يجادلونك في الحق}، القتال"[٢].

وفي المجادل له قولان :

أحدهما : أنهم المشركون ، قاله ابن زيد[٣].

الثاني : أنهم طائفة من المؤمنين وهو قول ابن عباس[٤]، وابن إسحاق[٥]، لأنهم خرجوا لأخذ العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان فلما فاتهم ذلك أمروا بالقتال فجادلوا طلباً للرخصة وقالوا ما تأهبنا في الخروج لقتال العدو ، فأنزل الله تعالى:{كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ}، يعني: كأنهم في قتال عدوهم يساقون إلى الموت ، رعباً وأسفاً لأنه أشد لحال من سيق إلى الموت أن يكون ناظراً له وعالماً به.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق ، من أن ذلك خبرٌ من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو ، وكان جدالهم نبيَّ الله ﷺ أن قالوا : «لم يُعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم ، وإنما خرجنا للعير». ومما يدلّ على صحته قولُه :{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}، ففي ذلك الدليلُ الواضح لمن فهم عن الله ، أن القوم قد كانوا للشوكة كارهين ، وأن جدالهم كان في القتال ، كما قال مجاهد ، كراهيةً منهم له وأنْ لا معنى لما قال ابن زيد ، لأن الذي قبل قوله : {يجادلونك في الحق}، خبرٌ عن أهل الإيمان ، والذي يتلوه خبرٌ عنهم ، فأن يكون خبرًا عنهم ، أولى منه بأن يكون خبرًا عمن لم يجر له ذكرٌ"[٦].

قال ابن كثير:" وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق ، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام"[٧].

وفي قوله تعالى:{ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [الأنفال : ٦]، وجهان:

أحدهما: معناه : بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله. هذا قول السدي[٨].

والثاني: معناه : يجادلونك في القتال بعدما أمرت به. وهذا قول ابن عباس[٩].

قوله تعالى:{كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الأنفال : ٦]، أي:" كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إليه عِيانًا"[١٠].

قال الطبري:" معناه : كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدوّ ، من كراهتهم للقائهم إذا دعوا إلى لقائهم للقتال ،{يساقون إلى الموت}"[١١].

---

(١) التفسير الميسر: ١٧٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٠٧):ص١٦٥٩/٥.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٧١٤):ص٣٩٥/١٣-٣٩٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٧١٢):ص٣٩٥/١٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٧١٣):ص٣٩٥/١٣.
(٦) تفسير الطبري:٣٩٦/١٣-٣٩٧.
(٧)تفسير ابن كثير:١٦/٤ .
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٨١٦):ص٣٩٧/١٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٥٨١٧):ص٣٩٧/١٣.
(١٠) التفسير الميسر: ١٧٧.
(١١) تفسير الطبري:٣٩٧/١٣.

قال ابن إسحاق:" أي: كراهةً للقاء القوم ، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم"[١].
عن السدي قوله: "{كأنما يساقون إلى الموت}، حين قيل هم المشركون"[٢].
وعن ابن زيد:" {يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون} ، قال : هؤلاء المشركون ، جادلوه في الحق {كأنما يساقون إلى الموت} ، حين يدعون إلى الإسلام {وهم ينظرون}، قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر "[٣].

الفوائد:
١- أن كل من جادل في الحق بعد وضوحه وبيانه فقد غالط شرعاً وعقلاً[٤] ، قال المزني رحمه الله: (وحق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل، وأن يقبل منها ما يتبين"[٥].
٢- أنه قد يحرم الدليل لكونه جدالا بالباطل، أو جدالا في الحق بعدما تبين كقوله تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ}، وقوله سبحانه: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [الكهف: ٥٦].

القرآن
{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)} [الأنفال : ٧]

التفسير:
واذكروا -أيها المجادلون- وَعْدَ الله لكم بالظَّفْر بإحدى الطائفتين: العير وما تحمله مِن أرزاق، أو النفير، وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم، وأنتم تحبون الظَّفْر بالعير دون القتال، ويريد الله أن يحق الإسلام، ويُعْليه بأمره إياكم بقتال الكفار، ويستأصل الكافرين بالهلاك.
قوله تعالى:{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ} [الأنفال : ٧]، أي:" واذكروا -أيها المجادلون- وَعْدَ الله لكم بالظَّفْر بإحدى الطائفتين: العير وما تحمله مِن أرزاق، أو النفير، وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم"[٦].
قال الطبري:"يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنع عيرهم، {أنها لكم}، يقول : إن ما معهم غنيمة لكم"[٧].
قوله تعالى:{وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [الأنفال : ٧]، أي:" وأنتم تحبون الظَّفْر بالعير دون القتال"[٨].
قال الطبري:" يقول : وتحبون أن تكون تلك الطائفة التي ليست لها شوكة يقول : ليس لها حدٌّ ، ولا فيها قتال أن تكون لكم. يقول : تودُّون أن تكون لكم العيرُ التي ليس فيها قتال لكم ، دون جماعة قريش الذين جاءوا لمنع عيرهم ، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ"[٩].
قال ابن كثير:" أي : يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال ، تكون لهم وهي العير"[١٠].
وفي الشوكة التي كُني بها عن الحرب وجهان :

---
[١] أخرجه الطبري(١٥٧١٨):ص٣٩٧/١٣.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨١٠):ص١٦٦٠/٥.
[٣] أخرجه الطبري(١٥٧١٤):ص٣٩٥/١٣-٣٩٦، وابن ابي حاتم –مختصرا-(٨٨١١):ص١٦٦٠/٥.
[٤]انظر: درء تعارض العقل والنقل:٧/ ١٧٤، والقواعد الحسان للسعدي: ١٥٨، ١٥٩).
[٥]جامع بيان العلم:٢/ ١٣٢.
[٦] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٧] تفسير الطبري:٣٩٨/١٣.
[٨] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٩] تفسير الطبري:٣٩٨/١٣.
[١٠]تفسير ابن كثير:١٦/٤ .

أحدهما : أنها الشدة فكُني بها عن الحرب لما فيها من الشدة ، وهذا قول قطرب[١].
والثاني : أنها السلاح ، وكُني بها عن الحرب لما فيها من السلاح ، من قولهم رجل شاكٍ في السلاح ، قاله ابن قتيبة[٢].

عن عروة : "أن أبا سفيان أقبل ومن معه من رُكبان قريش مقبلين من الشأم ، فسلكوا طريق الساحل. فلما سمع بهم النبي ﷺ ، ندب أصحابه ، وحدّثهم بما معهم من الأموال ، وبقلة عددهم. فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه ، لا يرونها إلا غنيمة لهم ، لا يظنون أن يكون كبيرُ قتالٍ إذا رأوهم. وهي التي أنزل الله فيها :{وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم}"[٣].

قوله تعالى:{وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [الأنفال : ٧]، أي:" ويريد الله أن يحق الإسلام، ويُعْليه بأمره إياكم بقتال الكفار"[٤].

قال ابن كثير:" أي : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ، ليُظَفِّرَكم بهم ويظهركم عليهم ، ويظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالبا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كما قال تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [البقرة : ٢١٦] "[٥].

قوله تعالى:{وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [الأنفال : ٧]، أي:"ويستأصل الكافرين بالهلاك"[٦].

عن السدي عن أبي مالك قوله:"{ دابر}، يعني: أصل"[٧].

عن ابن إسحاق :{ويقطع دابر الكافرين}، الوقعة التي أوقع الله بقريش يوم بدر"[٨].

عن صفوان بن سليم:"{ويقطع دابر الكافرين}، فأوحى الله إليه القتال"[٩].

عن محمد بن إسحاق :"عن محمد بن مسلم الزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا ، عن عبد الله بن عباس ، كُلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سُقت من حديث بدر ، قالوا : لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشأم ، ندب المسلمين إليهم وقال : هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفِّلكموها! فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعض ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا. وكان أبو سفيان يستيقن حين دنا من الحجاز ويتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، تخوفًا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان : " أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعِيرك " ! فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفاري ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشًا يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة. وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديًا يقال له " ذَفِرَان " ، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه ، نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم ، فاستشار النبي ﷺ الناسَ ، وأخبرهم عن قريش. فقام أبو بكر رضوان الله عليه ، فقال فأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه ، فقال فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض إلى حيث أمرك الله ، فنحن معك ، والله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢/٢٩٧.
[٢] انظر: غريب القرآن:١٧٧.
[٣] أخرجه الطبري(١٥٧١٩):ص١٣/٣٩٨-٣٩٩.
[٤] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٥]تفسير ابن كثير:٤/١٦-١٧.
[٦] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٢٢):ص٥/١٦٦٢.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٢٣):ص٥/١٦٦٢.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٢١):ص٥/١٦٦٢.

قَاعِدُونَ} [سورة المائدة : ٢٤] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! فوالذي بعثك بالحق ، لئن سرت بنا إلى بَرْك الغِمَاد يعني : مدينة الحبشة لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه! فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ، ثم دعا له بخيرٍ ، ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا عليّ أيها الناس! وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عَدَدَ الناس ، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا : " يا رسول الله ، إنا برآء من ذِمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا " ، فكأن رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نُصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم قال : فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، قال له سعد بن معاذ : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل! قال : فقد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضته لخُضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلّ الله أن يريك منا ما تَقَرُّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله! فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدًا"[١].

الفوائد:

١- بيان ضعف الإنسان في رغبته في كل مالا كلفة فيه ولا مشقة.
٢- أن القرآن قد نطق بأن لله كلمات، قال تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ}.
٣- وعد الله سبحانه وتعالى أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويخزي أهل الزيغ والفساد.

القرآن

{لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)} [الأنفال : ٨]

التفسير:

ليعزَّ الله الإسلام وأهله، ويذهب الشرك وأهله، ولو كره المشركون ذلك.

قوله تعالى:{لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ} [الأنفال : ٨]، أي:" ليعزَّ الله الإسلام وأهله، ويذهب الشرك وأهله"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين ، كيما يحق الحق ، كيما يُعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام ، ويعزّ الإسلام ، وذلك هو «تحقيق الحق».. وقيل : إن {الحق} في هذا الموضع ، الله عز وجل"[٣].

قال الزمخشري:" فإن قلت: بم يتعلق قوله {ليحق الحق}؟ قلت: بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك، ما فعله إلا لهما. وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه.

فإن قلت: أليس هذا تكريرا؟ قلت: لا، لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار {ذات الشوكة} على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. ويجب أن يقدر المحذوف متأخرا حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى: وقيل: قد تعلق بـ«يقطع»"[٤].

قوله تعالى:{وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال : ٨]، أي:" ولو كره المشركون ذلك"[٥].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٧٢٠):ص٣٩٩/١٣-٤٠٠.
[٢] التفسير الميسر: ١٧٧.
[٣] تفسير الطبري:٤٩٨/١٣.
[٤] الكشاف:٢٠٠/٢.
[٥] التفسير الميسر: ١٧٧.

قال الطبري:" يقول ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر ، ولو كره ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار"[١].

عن قتادة:"{ ولو كره المجرمون}، هم المشركون"[٢].

الفوائد:

١- إنجاز الله تعالى وعده للمؤمنين إذ أغنمهم طائفة النفير وأعزهم بنصر لم يكونوا مستعدين له.

٢- ذكر نبذة عن وقعة بدر وهي من أشهر الوقائع وأفضلها وأهلها من أفضل الصحابة وخيارهم إذ كانت في حال ضعف المسلمين حيث وقعت في السنة الثانية من الهجرة وهم أقلية والعرب كلهم أعداء لهم وخصوم.

٣- ومن الفوائد: أن السنة لا تزال محفوظة من التغيير والتحريف لأنها من الحق الذي كانت عليه الطائفة المنصورة والحق لا بد أن يكون محفوظاً لقول الله تعالى: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ}.

٤- ذكر الشرباصي أن من اسمائه تعالى:(الأسماء المضافة): "مِحقُّ الحقِّ بكلماته"، و"مبطل الباطل"[٣].

القرآن

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)} [الأنفال : ٩]

التفسير:

اذكروا نعمة الله عليكم يوم «بدر» إذ تطلبون النصر على عدوكم، فاستجاب الله لدعائكم قائلا إني ممدُّكم بألف من الملائكة من السماء، يتبع بعضهم بعضًا.

قوله تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [الأنفال : ٩]، أي:" اذكروا نعمة الله عليكم يوم «بدر» إذ تطلبون النصر على عدوكم"[٤].

قال الطبري:أي:" تستجيرون به من عدوكم ، وتدعونه للنصر عليهم"[٥].

قال السعدي:" أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم"[٦].

عن ابن إسحاق : "{إذ تستغيثون ربكم}، أي : بدعائكم ، حين نظروا إلى كثرة عدوهم وقلة عددهم"[٧].

عن ابن جريج قوله : "{إذ تستغيثون ربكم} ، قال : دعاء النبي ﷺ"[٨].

عن ابن عباس قال : "لما اصطفَّ القوم ، قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره! ورفع رسول الله ﷺ يده فقال : يا رب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا!"[٩].

عن زيد بن يُثَيْع قال : "كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ في العريش ، فجعل النبي ﷺ يدعو يقول : اللهم انصر هذه العصابة ، فإنك إن لم تفعل لن تعبد في الأرض! قال : فقال أبو بكر : بعضَ مناشدتك مُنْجِزَك ما وعدك"[١٠].

---

[١] تفسير الطبري:٤٩٨/١٣.
[٢] أخرجه الطبري(١٥٧٣٣):ص٤٠٨/١٣.
[٣] انظر: معتقد أهل السنة والجماعة:٢٠٥-٢٠٦.
[٤] التفسير الميسر:١٧٨.
[٥] تفسير الطبري:٤٠٩/١٣.
[٦] تفسير السعدي:٣١٦.
[٧] أخرجه الطبري(١٥٧٤٠):ص٤١١/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٥٧٣٩):ص٤١١/١٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٥٧٣٥):ص٤١٠/١٣.
[١٠] أخرجه الطبري(١٥٧٣٧):ص٤١٠/١٣.

قوله تعالى:{فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال : ٩]، أي:" فاستجاب الله لدعائكم قائلا إني ممدُّكم بألف من الملائكة من السماء، يتبع بعضهم بعضًا"(١).

قال الطبري:أي:" فأجاب دعاءكم ، بأني ممدكم بألف من الملائكة يُرْدِف بعضهم بعضًا ، ويتلو بعضهم بعضًا "(٢).

قال السعدي:" {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، وأغاثكم بعدة أمور: منها: أن الله أمدكم {بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} أي: يردف بعضهم بعضا"(٣).

عن ابن إسحاق : "{فاستجاب لكم}، بدعاء رسول الله ﷺ ودعائكم معه"(٤).

قال السدي: "أقبل النبي ﷺ يدعو الله ويستغيثه ويستنصره ، فأنزل الله عليه الملائكة"(٥). الملائكة"(٥).

عن أبي صالح قال : "لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشد النِّشدة يدعو ، فأتاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، بعض نِشْدَتك ، فوالله ليفيَنَّ الله لك بما وعدك! "(٦).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: "أن الرسول ﷺ قال في يوم بدر: ذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة حرب"(٧).

وفي قوله تعالى:{ مُرْدِفِينَ} [الأنفال : ٩]، وجوه:

أحدها : معناه: مع كل ملك ملك، وهو قول ابن عباس(٨)، فتكون الألف ألفين . قال الشاعر(٩):

إذا الجوزاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ... ظَنَنْتُ بآل فاطمةَ الظُّنونا

---

(١) التفسير الميسر:١٧٨.

(٢) تفسير الطبري:٤٠٩/١٣.

(٣) تفسير السعدي:٣١٦.

(٤) أخرجه الطبري(١٥٧٤٠):ص٤١١/١٣.

(٥) أخرجه الطبري(١٥٧٣٨):ص٤١١/١٣.

(٦) أخرجه الطبري(١٥٧٤١):ص٤١١/١٣.

(٧)صحيح البخاري: ٣١٢/٧. ورقمه: ٣٩٩٥.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٧٤٥):ص٤١٢/١٣.

(٩) الشعر خزيمة القضاعي، من قدماء الشعراء الجاهلية، انظر: الأغاني ١٣: ٧٨، معجم ما استعجم: ١٩، سمط سمط اللآلئ: ١٠٠، شرح ديوان أبي ذؤيب: ١٤٥. المعارف لا بن قتيبة: ٣٠٢، الأزمنة والأمكنة ٢: ١٣٠، جمهرة الأمثال: ٣١، الأمثال للميداني ١: ٦٥، اللسان (ردف) ، (قرظ) .

وسبب هذا الشعر: أن حزيمة بن نهد كان مشئومًا فاسدًا متعرضًا للنساء، فعلق فاطمة بنت يذكر ابن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، (وهو أحد القارظين المضروب بهما المثل) ، فاجتمع قومه وقومها في مربع، فلما انقضى الربيع، ارتحلت إلى منازلها فقيل له: يا حزيمة: لقد ارتحلت فاطمة! قال: أما إذا كانت حية ففيها أطمع! ثم قال في ذلك: إِذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ... ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

ظَنَنْتُ بِهَا، وَظَنُّ المرء حُوبٌ ... وَإِنْ أَوْفَى، وَإِنْ سَكَنَ الحَجُونا

وَحَالَتْ دُونَ ذَلِكَ مِنْ هُمُومِي ... هُمُومٌ تُخْرِجُ الشَّجَنَ الدَّفِينَا

أَرَى ابْنَةَ يَذْكُرٍ ظَعَنَتْ فَحَلَّتْ ... جَنُوبَ الْحَزْنِ، يا شَحَطًا مُبِينَا!

فبلغ ذلك ربيعة، فرصدوه، حتى أخذوه فضربوه. فمكث زمانًا، ثم أن حزيمة قال ليذكر ابن عنزة: أحب أن تخرج حتى نأتي بقرظ. فمرا بقليب فاستقيا، فسقطت الدلو، فنزل يذكر ليخرجها. فلما صار إلى البئر، منعه حزيمة الرشاء، وقال: زوجني فاطمة! فقال: على هذه الحال، اقتسارًا! أخرجني أفعل! قال: لا أخرجك! فتركه حتى مات فيها. فلما رجع وليس هو معه، سأله عنه أهله، فقال: فارقني، فلست أدري أين سلك! فاتهمته ربيعة، وكان بينهم وبين قومه قضاعة في ذلك شر، ولم يتحقق أمر فيؤخذ به، حتى قال حزيمة: فَتَاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ العَبِيرِ ... بِفِيهَا، يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجَبِيلُ

قَتَلْتُ أَبَاهَا عَلَى حُبِّهَا، ... فَتَبْخَلُ إنْ بَخِلَتْ أَوْ تُنِيلُ

عندئذ، ثارت الحرب بين قضاعة وربيعة.

قال أبو بكر بن السراج في معنى بيت الشاهد: " إن الجوزاء تردف الثريا في اشتداد الحر، فتتكبد السماء في آخر الليل، وعند ذلك تنقطع المياه وتجف، فيتفرق الناس في طلب المياه، فتغيب عنه محبوبته، فلا يدري أين مضت، ولا أين نزلت ". وانظر أيضًا شرحه في الأزمنة والأمكنة ٢: ١٣٠، ١٣١.

الثاني : معناه: متتابعين ، قاله قتادة[١]،والضحاك[٢]، والسدي[٣]، وابن زيد[٤]، وهو مروي عن عن ابن عباس أيضا[٥]، واختاره ابن قتيبة[٦].
الثالث : معنى مردفين أي: ممدّين ، و«الإرداف» إمداد المسلمين بهم ، قاله مجاهد[٧]، وعبدالله بن كثير[٨].

قرأ نافع وحده {مردفين} بفتح الدال، وقرأ الباقون {مردفين} بكسر الدال، وروى المعلى بن منصور عن أبى بكر عن عاصم {مردفين} بفتح الدال، وروي أبوبكر البغدادي عن الجمال عن أحمد بن يزيد عن القواس بأسناده عن ابن كثير {مردفين} مثل حمزة[٩].

الفوائد:

١- مشروعية الاستغاثة بالله تعالى وهي عبادة فلا يصح أن يستغاث بغير الله تعالى.

والاستغاثة: هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار: طلبُ النصر؛ والاستعانة: طلب العون. والفرق بين الاستغاثة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره؛ فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة[١٠]...

قال حافظ حكمي[١١]:- رحمه الله -: « ومن أنواع العبادة الاستغاثة بالله عز وجل وهي طلب الغوث منه تعالى من جلب خير أو دفع شر قال الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)} [الأنفال: ٩]، وقال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)} [النمل: ٦٢] الآيات ... ، ومن دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم -: "يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا بديع السموات والأرض برحمتك[١٢] أستغيث"[١٣]، وفي الطبراني بإسناده من حديث ثابت بن الضحاك أنه كان في زمن النبي - ﷺ - منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم قوموا بنا نستغيث برسول الله

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٥١):ص٤١٣/١٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٤٨)، و(١٥٧٥٤):ص٤١٣/١٣-٤١٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٥٢):ص٤١٣/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٥٣):ص٤١٤/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٤٣):ص٤١٢/١٣.
[٦] انظر: غريب القرآن:١٧٧.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٥٠):ص٤١٣/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٥٠):ص٤١٣/١٣.
[٩] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٤.
[١٠] انظر: فتح المجيد (ص ١٧٩)، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ١٩٣)، الأصول الثلاثة للشيخ عبد الرحمن البراك (ص ٢٢)، مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٧/ ٢٨)، الجديد في شرح كتاب التوحيد (ص ١٢١)، معارج القبول (٢/ ٤٥٣)، الصواعق المرسلة الشهابية على الشبه الداحضة الشامية لسليمان بن سحمان (ص ٢١٦).
[١١]هو: حافظ بن أحمد بن علي بن أحمد الحكمي، عالم متفنن، سلفي المعتقد، من مؤلفاته: معارج القبول، وأعلام السنة المنشورة، الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة، توفي سنة (١٣٧٧ هـ.
[١٢]الاستغاثة بالصفة: من الأمور الجائزة، فيمكن للإنسان أن يقول "اللهم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله"، وهذا وارد في قول النبي - ﷺ -: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)، وهذه استغاثة بالرحمة وهي صفة من صفات الله. كذلك يجوز للإنسان أن يستعيذ بالصفة، والاستعاذة بالصفة مثل قول النبي - ﷺ -: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) فهذه استعاذة بالعزة والقدرة، ومثل قوله: (أعوذ بكلمات الله التامات) أخرجه مسلم، فهذه استعاذة بالصفة، فتكون الاستعاذة بالصفة جائزة. وكذلك الحلف بالصفة جائز، مثل وعزة الله، وقدرة الله، وجلال الله، وكلام الله، وحياة الله، ولكن لا ينبغي التوسع في هذا الباب.
ينظر: شرح دالية أبي الخطاب الكلوذاني للدكتور: هاني بن عبد الله بن جبير (ص ٤٠).
[١٣]أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء في عقد التسبيح باليد برقم (٣٥٢٤) بلفظ: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)، حسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٧٩٦).

- ﷺ - من هذا المنافق، فقال - ﷺ -: "إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله"[١]...وغير ذلك من الأحاديث»[٢].
٢- من معجزاته عليه السلام إمداد الله له بالملائكة.
٣- تقرير عقيدة أن الملائكة عباد لله يسخرهم في فعل ما يشاء، وقد سخرهم للقتال مع المؤمنين فقاتلوا، ونصروا وثبتوا وذلك بأمر الله تعالى لهم بذلك.
٤- ومن اسماءه: "المستجيبُ"[٣]، ذكره القرطبي والشرباصي[٤]، لقوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}.

القرآن

{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)} [الأنفال : ١٠]

التفسير:

وما جعل الله ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر، ولتسكن به قلوبكم، وتوقنوا بنصر الله لكم، وما النصر إلا من عند الله، لا بشدة بأسكم وقواكم. إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره وشرعه.

قوله تعالى:{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى} [الأنفال : ١٠]، أي:" وما جعل الله ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضًا وتتابعها بالمصير إليكم ، أيها المؤمنون ، مددًا لكم {إلا بشرى} لكم ، أي : بشارة لكم ، تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم"[٦].

قال ابن كثير:" أي : وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى... وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك"[٧].

قال السعدي:" أي: إنزال الملائكة {إلا بُشْرَى} أي: لتستبشر بذلك نفوسكم"[٨].

قال مجاهد:"ما مدّ النبي ﷺ مما ذكر الله غيرُ ألف من الملائكة مردفين ، وذكر «الثلاثة» و«الخمسة» بشرى ، ما مدُّوا بأكثر من هذه الألف الذي ذكر الله عز وجل في «الأنفال» ، وأما «الثلاثة» و«الخمسة»، فكانت بشرَى"[٩].

قوله تعالى:{وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال : ١٠]، أي:" ولتسكن به قلوبكم، وتوقنوا بنصر الله لكم"[١٠].

قال الطبري:" يقول : ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم ، وتوقن بنصرة الله لكم"[١١].

قال السعدي:" وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَد"[١٢].

واختلفوا في قتال الملائكة معهم على قولين[١]:

---

[١]أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣١٧)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٨٧) بغير هذا اللفظ من حديث عبادة عبادة بن الصامت؛ قال ابن تيمية في كتاب الاستغاثة (ص ١٥٢): وهو صالح للاعتضاد ودل على معناه الكتاب والسنة.
[٢]معارج القبول (٢/ ٤٥٣)، ينظر: منهاج السنة النبوية (٨/ ٨١)، مجموع فتاوى ابن باز (٥/ ٣٢٨).
[٣] من الأسماء التى يرجح عدم ثبوتها إمَّالعدم ورود النَّصِّ أولعدم صحة الإطلاق.
[٤] انظر: معتقد أهل السنة والحماعة في أسماء الله الحسنى:٢٤٦.
[٥] التفسير الميسر:١٧٨.
[٦] تفسير الطبري:٤١٧/١٣-٤١٨.
[٧] تفسير ابن كثير:٢١/٤.
[٨] تفسير السعدي:٣١٦.
[٩] أخرجه الطبري(١٥٧٥٧):ص٤١٨/١٣.
[١٠] التفسير الميسر:١٧٨.
[١١] تفسير الطبري:٤١٨/١٣.
[١٢] تفسير السعدي:٣١٦.

أحدهما : لم يقاتلوا وإنما نزلوا بالبشرى لتطمئن به قلوبهم ، وإلا فملك واحد يهلك جميع المشركين كما أهللك جبريل قوم لوط .

الثاني : أن الملائكة قاتلت مع النبي -ﷺ- كما روى ابن مسعود أنه سأله أبو جهل : "من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص ؟ قال :{مِن قِبَلِ الْمَلاَئِكَةِ}، فقال : هم غلبونا لا أنتم"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [الأنفال : ١٠]، أي:" وما النصر إلا من عند الله، لا بشدة بأسكم وقواكم"[٣].

قال الطبري:" يقول : وما تنصرون على عدوكم ، أيها المؤمنون ، إلا أن ينصركم الله عليهم ، لا بشدة بأسكم وقواكم ، بل بنصر الله لكم ، لأن ذلك بيده وإليه ، ينصر من يشاء من خلقه"[٤].

قال الماوردي:" وقوله :{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ}، لئلا يتوهم أن النصر من قبل الملائكة لا من قبل الله تعالى"[٥].

قال ابن كثير:" فهذه حكم شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعادًا الأولى بالدَّبُور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى -عليه السلام- وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليمّ ، ثم أنزل على موسى التوراة ، شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} [القصص : ٤٣]، وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ [وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ] } [التوبة : ١٤ ، ١٥]؛ ولهذا كان قَتلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم ، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى ، أشد إهانة له من أن تعالى : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ [يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} [غافر : ٥١ ، ٥٢]{ حَكِيم } فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم ، بحوله وقوته ، سبحانه وتعالى"[٦].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال : ١٠]، أي:" إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره وشرعه"[٧].

قال الطبري:أي: {عزيز}، لا يقهره شيء ، ولا يغلبه غالب ، بل يقهر كل شيء ويغلبه ، لأنه خلقه، {حكيم}، يقول : حكيم في تدبيره ونصره من نصر ، وخذلانه من خذل من خلقه ، لا يدخل تدبيره وهن ولا خَلل "[٨].

قال ابن كثير:" أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى:{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ } [غافر : ٥١ ، ٥٢]،{ حَكِيم } فيما شرعه من قتال الكفار ، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم ، بحوله وقوته ، سبحانه وتعالى"[٩].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢/٢٩٨-٢٩٩.
[٢] ذكره الماوردي في النكت والعيون:٢/٢٩٩.
[٣] التفسير الميسر:١٧٨.
[٤] تفسير الطبري:١٣/٤١٨.
[٥] النكت والعيون:٢/٢٩٩.
[٦] تفسير ابن كثير:٢/٢١-٢٢.
[٧] التفسير الميسر:١٧٨.
[٨] تفسير الطبري:١٣/٤١٨.
[٩] تفسير ابن كثير:٤/٢٢.

قال السعدي:" {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. {حَكِيمٌ} حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها"[1].

الفوائد:

١- تدخل الملائكة في غزوة بدر التي كانت أول المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام وأعظمها خطرا، وقد سجل القرآن ذلك الحادث الجليل.

٢- أن أن النصر من عند الله لا من عند غيره، لتنيب القلوب إليه، فتعتمد في مهماتها ةعليه، وتستغيث به وحده لا شريك له.

٣- ويستفاد من هذه الآية والتي قبلها: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن يجب أن لا يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه، ثم بين سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النبي - ﷺ - المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولًا وبفضله ومعونته.

القرآن

{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)} [الأنفال : ١١]

التفسير:

إذ يُلْقي الله عليكم النعاس أمانًا منه لكم من خوف عدوكم أن يغلبكم، وينزل عليكم من السحاب ماء طهورًا، ليطهركم به من الأحداث الظاهرة، ويزيل عنكم في الباطن وساوس الشيطان وخواطره، وليشدَّ على قلوبكم بالصبر عند القتال، ويثبت به أقدام المؤمنين بتلبيد الأرض الرملية بالمطر حتى لا تنزلق فيها الأقدام.

قوله تعالى:{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ} [الأنفال : ١١]، أي:" إذ يُلْقي الله عليكم النعاس أمانًا منه لكم من خوف عدوكم أن يغلبكم"[2].

قال الطبري:يقول:" يلقي عليكم النعاس أمانًا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم ، وكذلك النعاس في الحرب أمنة من الله عز وجل"[3].

قال ابن كثير:" يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحُد ، كما قال تعالى : { ثُمَّ أَنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } [آل عمران : ١٥٤]"[4].

قال السعدي:" ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسا {يُغَشِّيكُمُ} [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون {أَمَنَةً} لكم وعلامة على النصر والطمأنينة"[5].

عن ابن إسحاق :"{إذ يغشاكم النعاس أمنة منه}، أي : أنزلت عليكم الأمنة حتى نمتم لا تخافون"[6].

عن مجاهد : "{أمنة منه}، أمانًا من الله عز وجل"[1].

---

[1] تفسير السعدي:٣١٦.
[2] التفسير الميسر:١٧٨.
[3] تفسير الطبري:٤١٩/١٣.
[4] تفسير ابن كثير:٢٢/٤.
[5] تفسير السعدي:٣١٦.
[6] أخرجه الطبري(١٥٧٨٠):ص٤٢٦/١٣.

قال سهل بن عبد الله : "النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب ، والنوم يحل في القلب بعد نزول من الرأس ، فهوَّمَ رسول الله -ﷺ- حتى ناموا فبشر جبريل رسول الله -ﷺ- بالنصر فأخبر به أبا بكر"[٢].

عن أبي رزين ، عن عبد الله قال: "النعاس في القتال ، أمنةٌ من الله عز وجل ، وفي الصلاة من الشيطان"[٣].

قال أبو طلحة :" كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف"[٤].

وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان[٥]:

أحدهما : قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد .

الثاني : أن أمَّنَهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما قال : الأمن منيم ، والخوف مسهر.

قال ابن كثير:" أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد ، وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر ، وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى:{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا } [الشرح : ٥ ، ٦]؛ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق ، رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسما فقال : «أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلو قوله تعالى:{ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } [القمر : ٤٥]"[٦].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «إذ يغشاكم النعاس» رفعا، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى {يغشيكم} بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين و {النعاس} نصبا، وقرأ نافع {يغشيكم} من أغشى خفيفة بغير ألف {النعاس} نصبا[٧].

قوله تعالى:{وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ} [الأنفال : ١١]، أي:" وينزل عليكم من السحاب ماء طهورًا ليطهركم به من الأحداث الظاهرة"[٨].

قال ابن كثير:" أي : من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر"[٩].

قال السعدي:" ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطرا ليطهركم به من الحدث والخبث، وليطهركم به"[١٠].

عن ابن إسحاق :" {وينزل عليكم من السماء ماء}، للمطر الذي أصابهم تلك الليلة، فحبس المشركون أن يسبقوا إلى الماء ، وخلَّي سبيل المؤمنين إليه "[١١].

قال ابن زيد في قوله :"{وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به} ، قال : هذا يوم بدر أنزل عليهم القطر"[١٢].

عن مجاهد في قوله : "{ماء ليطهركم به}، قال: المطر، أنزله عليهم قبل النعاس"[١٣].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٧٦١):ص٤٢٠/١٣.

[٢] ذكره الماوردي في النكت والعيون:٢٩٩/٢.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٧٥٨):ص٤١٩/١٣.

[٤] تفسير ابن كثير:٢٢/٤.

[٥] انظر: النكت والعيون:٢٩٩/٢.

[٦] تفسير ابن كثير:٢٢/٤-٢٣.

[٧] انظر: السبعة في القراءات:٢٨٢.

[٨] التفسير الميسر:١٧٨.

[٩] تفسير ابن كثير:٢٤/٤.

[١٠] تفسير السعدي:٣١٦.

[١١] أخرجه الطبري(١٥٧٨٠):ص٤٢٦/١٣.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٧٧٨):ص٤٢٦/١٣.

[١٣] أخرجه الطبري(١٥٧٧٤):ص٤٢٥/١٣.

عن سعيد بن المسيب : "{ماء ليطهركم به}، قال : طش يوم بدر"[1].

قوله تعالى:{وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} [الأنفال : ١١]، أي:" ويزيل عنكم في الباطن وساوس الشيطان وخواطره"[2].

قال السعدي:أي:" من وساوس الشيطان ورجزه"[3].

قال ابن كثير:" أي : من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة : { عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ } فهذا زينة الظاهر { وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا } [الإنسان : ٢١]أي : مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته"[4].

عن ابن إسحاق :" ليذهب عنهم شك الشيطان ، بتخويفه إياهم عدوهم ، واستجلاد الأرض لهم، حتى انتهوا إلى منزلهم الذي سبق إليه عدوهم"[5].

عن ابن زيد قوله : "{وليذهب عنكم رجز الشيطان}، الذي ألقى في قلوبكم : ليس لكم بهؤلاء طاقة! {وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام}"[6].

عن مجاهد في قوله : "{رجز الشيطان}، قال : وسوسته. قال : فأطفأ بالمطر الغبار ، والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت به أقدامهم "[7].

قال السدي:" ثم ذكر ما ألقى الشيطان في قلوبهم من شأن الجنابة ، وقيامهم يصلون بغير وضوء ، فقال:" إذ يغشيكم النعاسَ أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام " ، حتى تشتدون على الرمل ، وهو كهيئة الأرض"[8].

وأنزل عليهم ماء السماء معونة لهم بثلاثة أمور[9]:

أحدها : الشرب وإن كانوا على ماء .

الثاني : وهو أخص أحواله بهم في ذلك المكان وهو أن الرمل تلبد بالماء حتى أمكن المسلمين القتال عليه .

والثالث : ما وصفه الله تعالى به من حال التطهير.

عن الشعبي وسعيد بن المسيب في هذه الآية :"{ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان}، قالا: طشٌّ كان يوم بدر ، فثبَّت الله به الأقدام"[10].

عن قتادة قوله : " {إذ يغشاكم النعاس أمنة منه}الآية ، ذكر لنا أنهم مُطِروا يومئذ حتى سال الوادي ماءً ، واقتتلوا على كثيب أعفر ، فلبَّده الله بالماء ، وشرب المسلمون وتوضأوا وسقوْا ، وأذهب الله عنهم وسواس الشيطان"[11].

قال ابن عباس:" نزل النبي ﷺ يعني : حين سار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَعْصَة، فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلُّون مُجْنِبين! فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدوابّ ، فساروا إلى القوم ،

---

(١) أخرجه الطبري(١٥٧٦٥):ص٤٢٢/١٣.

(٢) التفسير الميسر:١٧٨.

(٣) تفسير السعدي:٣١٦.

(٤) تفسير ابن كثير:٢٤/٤.

(٥) أخرجه الطبري(١٥٧٨٠):ص٤٢٦/١٣-٤٢٧.

(٦) أخرجه الطبري(١٥٧٧٨):ص٤٢٦/١٣.

(٧) أخرجه الطبري(١٥٧٧٤):ص٤٢٥/١٣.

(٨) أخرجه الطبري(١٥٧٨١):ص٤٢٧/١٣.

(٩) انظر: النكت والعيون:٣٠٠/٢.

(١٠) أخرجه الطبري(١٥٧٦٨):ص٤٢٣/١٣.

(١١) أخرجه الطبري(١٥٧٦٩):ص٤٢٣/١٣.

وأمدّ الله نبيه بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنِّبةً ، وميكائيل في خمسمائة مجنبةً "[١].

قال الطبري:" فإن ذلك مطرٌ أنزله الله من السماء يوم بدر ليطهر به المؤمنين لصلاتهم ، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنِبِين على غير ماء. فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا ، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء ، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر. فذلك ربطه على قلوبهم ، وتقويته أسبابهم ، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم ، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثْاء ، فلبَّدها المطر ، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها ، توطئةً من الله عز وجل لنبيه عليه السلام وأوليائه ، أسبابَ التمكن من عدوهم والظفر بهم، وبمثل الذي قلنا تتابعت الأخبار عن [أصحاب] رسول الله ﷺ وغيره من أهل العلم"[٢].

وفي تطهيرهم به وجهان:

أحدهما : من وساوس الشيطان التي ألقى بها في قلوبهم الرعب ، قاله زيد بن أسلم[٣].

والثاني : من الأحداث والأنجاس التي نالتهم ، حكاه الماوردي عن الجمهور[٤].

قال ابن عطاء : "أنزل عليهم ماءً طهر به ظواهر أبدانهم ، وأنزل عليهم رحمة نقّى بها سرائر قلوبهم"[٥].

قال علي -رضي الله عنه-: "أصابنا من الليل طَشٌ من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه :« اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!»، فلما أن طلع الفجر ، نادى :«الصلاة عبادَ الله!»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلى بنا رسول الله ﷺ ، وحرض على القتال"[٦].

قوله تعالى:{وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [الأنفال : ١١]، أي:" وليشدَّ على قلوبكم بالصبر عند القتال"[٧].

قال ابن كثير:" أي : بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن "[٨].

قال السعدي:" أي: يثبتها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن"[٩].

قوله تعالى:{وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} [الأنفال : ١١]، أي:" ويثبت به أقدام المؤمنين بتلبيد الأرض الرملية بالمطر حتى لا تنزلق فيها الأقدام"[١٠].

قال الطبري:" ويثبت أقدام المؤمنين بتلبيد المطر الرمل حتى لا تسوخ فيه أقدامهم وحوافر دوابِّهم"[١١].

قال ابن كثير:" وهو شجاعة الظاهر"[١٢].

قال السعدي:" فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام"[١٣].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٧٧٠):ص١٣/٤٢٣-٤٢٤.
[٢] تفسير الطبري:١٣/٤٢١.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٧٨):ص١٣/٤٢٦.
[٤] انظر: النكت والعيون:٢/٣٠٠.
[٥] انظر: النكت والعيون:٢/٣٠٠.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٧٦٤):ص١٣/٤٢٢.
[٧] التفسير الميسر:١٧٨.
[٨] تفسير ابن كثير:٤/٢٤.
[٩] تفسير السعدي:٣١٦.
[١٠] التفسير الميسر:١٧٨.
[١١] تفسير الطبري:١٣/٤٢٨.
[١٢] تفسير ابن كثير:٤/٢٤.
[١٣] تفسير السعدي:٣١٦.

الفوائد:

١- تعداد نعم الله تعالى على المؤمنين في غزوة بدر وهي كثيرة.

٢- تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله: إذا أراد وقوع شئ في هذا الوجود هيأ له أسبابه التي يقع بها، وذلك لأنه جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرم وقوانين لا تنخرم إلا بمشيئة الله عز وجل، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب - حقيقة - في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل إذا أراد الله أمراً يسّر أسبابه، ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حيثيات غزوة بدر وملابساتها، حيث هيأ الله تعالى أسباب النصر للمسلمين في هذا اليوم،، ولم يجعل نصرهم - في ظاهر الأمر - من قبيل الخوارق المحضة التي ليس للسبب فيها نصيب، خاصة في مثل هذا الموقف الشديد الذي عانى فيه المسلمون من قلة العدد والعتاد، كل ذلك ليتبين للمسلمين قبل غيرهم أن السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظام الكون لا تتخلف عادة، وقد تجلت هذه الأسباب، وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}.

فإن اغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب[١].

٣- أن المطر الذي أنزله على أرض بدر كان لهم فيه أربع فوائد هي[٢]:

أولا:- تطهيرهم حسياً بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس وشرعياً بالغسل من الجنابة، والوضوء من الحدث الأصغر.

ثانيا:-إذهاب رجس الشيطان عنهم ووسوسته.

ثالثا:- الربط على قلوبهم، أي: توطين النفس على الصبر وتثبيتها كما قال تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} .

رابعا:- تثبيت أقدامهم ذلك أن المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم فقدروا على مناجزة أعدائه من المشركين.

وفي هذه الفوائد الأربع تكريم لأولئك البدريين رضوان الله عليهم أجمعين.

القرآن

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)} [الأنفال : ١٢]

التفسير:

إذ يوحي ربك -أيها النبي- إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المسلمين في غزوة «بدر» أني معكم أُعينكم وأنصركم، فقوُّوا عزائم الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد والذلة والصَّغَار، فاضربوا -أيها المؤمنون- رؤوس الكفار، واضربوا منهم كل طرف ومِفْصل.

قوله تعالى:{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [الأنفال : ١٢]، أي:" إذ يوحي ربك -أيها النبي- إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المسلمين في غزوة «بدر» أني معكم أُعينكم وأنصركم"[٣].

قال الطبري: أي:" أنصركم"[١].

---

[١] انظر: تفسير التحرير والتنوير :٩/ ٢٧٨.

[٢]انظر: زاد المعاد لابن القيم ١٧٥/٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٧٣/٧، تفسير القرآن العظيم لابن كثير كثير ٢٨٩/٣.

[٣] التفسير الميسر:١٧٨.

قال السعدي: ومن إمداده " أن الله أوحى إلى الملائكة {أَنِّي مَعَكُمْ} بالعون والنصر والتأييد فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام"[٢].

قوله تعالى:{فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ١٢]، أي:" فقوُّوا عزائم الذين آمنوا"[٣].

قال السعدي:" أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله"[٤].

قال الطبري:"يقول: قوُّوا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين"[٥].

قال ابن كثير:" وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ، ليشكروه عليها ، وهو أنه - تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين ، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا"[٦].

وفي قوله تعالى:{فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ١٢]، أقوال:

أحدها : فثبوتهم بحضوركم معهم في الحرب[٧].

والثاني : بقتالكم معهم يوم بدر ، حكاه الماوردي عن الحسن[٨].

والثالث : بإخبارهم أنه لا بأس عليهم من عدوهم[٩].

والرابع: معناه: فآزروا الذين آمنوا. قاله ابن إسحاق[١٠].

والخامس: وقيل : كان ذلك بأن الملك يأتي الرجلَ من أصحاب النبي ﷺ يقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن! [١١] فيحدِّث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك ، فتقوى أنفسهم. قالوا : وذلك كان وحي الله إلى ملائكته. حكاه الطبري[١٢].

قوله تعالى:{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} [الأنفال : ١٢]، أي:" سألقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد والذلة والصَّغَار"[١٣].

قال الطبري: يقول:" سَأُرْعِبُ قلوب الذين كفروا بي ، أيها المؤمنون ، منكم ، وأملأها فرقًا حتى ينهزموا عنكم"[١٤].

قال السعدي:" {الرُّعْبَ} الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ومنحهم الله أكتافهم"[١٥].

قال الماوردي:" يعني: الخوف ، ويحتمل أحد وجهين : إما أن يكون إلقاء الرعب بتخاذلهم ، وإما أن يكون بتكثير المسلمين في أعينهم"[١٦].

قوله تعالى:{فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} [الأنفال : ١٢]، أي:" فاضربوا -أيها المؤمنون- رؤوس الكفار"[١٧].

---

[١] تفسير الطبري:٤٢٨/١٣.
[٢] تفسير السعدي:٣١٦.
[٣] التفسير الميسر:١٧٨.
[٤] تفسير السعدي:٣١٦.
[٥] تفسير الطبري:٤٢٨/١٣.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٥/٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري:٤٢٨/١٣، والنكت والعيون:٣٠١/٢.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٠١/٢.
[٩] انظر: النكت والعيون:٣٠١/٢.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٨٣):ص٤٢٨/١٣.
[١١]" الانكشاف " ، الانهزام .
[١٢] انظر: تفسير الطبري:٤٢٨/١٣.
[١٣] التفسير الميسر:١٧٨.
[١٤] تفسير الطبري:٤٢٩/١٣.
[١٥] تفسير السعدي:٣١٦.
[١٦] النكت والعيون:٣٠١/٢.
[١٧] التفسير الميسر:١٧٨.

قال السعدي:" أي: على الرقاب"[1].

قال أبو الليث:" سمعت من حكى عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: أراد الله إلا يلطخ سيوفهم بفرث المشركين، فأمرهم أن يضربوا على الأعناق ولا يضربوا على الوسط ويقال: معناه اضربوا كل شيء استقبلكم من أعضائهم ولا ترحموهم"[2].

وفي قوله تعالى:{فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} [الأنفال : ١٢]، خمسة اقوال:

أحدها : فاضربوا الأعناق ، وفوق صلة زائدة في الكلام ، قاله عطية[3]، والضحاك[4].

قال ابن كثير:"ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : { فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ } [محمد : ٤]"[5].

وقد روى المسعودي عن القاسم قال : قال رسول الله -ﷺ- : عن القاسم ، قال : قال رسول الله ﷺ : إني لم أبعث لأعذِّب بعذاب الله ، إنما بعثت لضرب الأعناق وشدِّ الوَثَاق"[6].

والثاني : معناه واضربوا الرؤوس فوق الأعناق ، قاله عكرمة[7].

والثالث : فاضربوا على الأعناق، لأن : "على" و " فوق " معناهما متقاربان ، فجاز أن يوضع أحدهما مكان الآخر[8].

والرابع : فاضربوا على الأعناق[9].

والخامس : فاضربوا فوق جلدة الأعناق[10].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال : أن الله أمر المؤمنين ، مُعَلِّمَهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف : أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل. وقوله : {فوق الأعناق}، محتمل أن يكون مرادًا به الرؤوس ، ومحتمل أن يكون مرادًا له : من فوق جلدة الأعناق ، فيكون معناه : على الأعناق. وإذا احتمل ذلك ، صح قول من قال ، معناه : الأعناق. وإذا كان الأمر محتملا ما ذكرنا من التأويل ، لم يكن لنا أن نوجِّهه إلى بعض معانيه دون بعض ، إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولا حجة تدلّ على خصوصه ، فالواجب أن يقال : إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم ، أصحابَ نبيه صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه بدرًا"[11].

قوله تعالى:{وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال : ١٢]، أي:" واضربوا منهم كل طرف ومِفْصل"[12].

قال الطبري:" فإن معناه : واضربوا ، أيها المؤمنون ، من عدوكم كل طَرَف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم"[13].

و «البنان»: جمع "بنانة "، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين ، ومن ذلك قول العباس بن مرداس السلمي [14]:

---

[1] تفسير السعدي:٣١٦.

[2] بحر العلوم:١١/٢.

[3] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٨٤):ص٤٢٩/١٣.

[4] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٨٦):ص٤٢٩/١٣.

[5] انظر: تفسير ابن كثير:٢٥/٤.

[6] أخرجه الطبري(١٥٧٨٥):ص٤٢٩/١٣.

[7] انظر: تفسير الطبري(١٥٧٨٧):ص٤٣٠/١٣.

[8] انظر: تفسير الطبري:٤٣٠/١٣.

[9] انظر: النكت والعيون:٣٠٢/٢.

[10] انظر: النكت والعيون:٣٠٢/٢.

[11] تفسير الطبري:٤٣٠/١٣.

[12] التفسير الميسر:١٧٨.

[13] تفسير الطبري:٤٣١/١٣.

[14]مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ٢٤٢ ، اللسان (بنن) ، ولم أجده في مكان آخر . وقال أبو عبيدة بعد البيت : " يعني أبا ضب ، رجلاً من هذيل ، قتل هريم بن مرداس وهو نائم ، وكان جاورهم

أَلا لَيْتَنِي قَطَّعْتُ مِنِّي بَنَانَةً   وَلاقَيْتُهُ فِي الْبَيْتِ يَقْظَانَ حاذِرَا

يعني بـ" البنانة " واحدة " البنان"[١]

قال ابن عباس:" يعني : بالبنان ، الأطراف"[٢].

عن عطية : "{واضربوا منهم كل بنان} ، قال : كل مفصِل"[٣].

عن عكرمة : "{واضربوا منهم كل بنان}، قال : الأطراف. ويقال : كل مفصل"[٤].

عن الضحاك[٥] وابن جريج[٦] قوله: {واضربوا منهم كل بنان}، قالا : الأطراف".

عن الأوزاعي في قوله: "{واضربوا منهم كل بنان}، قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك"[٧].

قال السعدي:" وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة"[٨].

عن الربيع بن أنس قال: "كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضربهم فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به"[٩].

روي الإمام أحمد بإسناده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ... قال: "جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني

بالربيع " .

وقد روى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني ١٣ : ٦٦ (ساسى) ، عن أبي عبيدة أن هريم بن مرداس كان مجاورًا في خزاعة ، في جوار رجل منهم يقال له عامر ، فقتله رجل من خزاعة يقال له خويلد . فالذي قاله أبو عبيدة هنا مضطرب ، وهو زيادة بين قوسين في النسخة المطبوعة ، فأخشى أن لا تكون من قول أبي عبيدة .

و أما " أبو ضب " الرجل من هذيل ، فهو شاعر معروف من بني لحيان ، من هذيل ، له شعر في بقية أشعار الهذليين وأخبار ، انظر رقم : ١٣ ، ١٤ من الشعر . وجاء أيضًا في البقية من شعر هذيل ٤٣ ، ما نصه : " وقال عباس بن مرداس ، وأخواله بنو لحيان " : لا تَأْمَنَنْ بالعَادِ والخِلْفِ بَعْدَهَا ... جِوَارَ أُناسٍ يَبِتْنُونَ الحَصَائِرَاِ ذكر " جوارًا " كان في بني لحيان ، فأجابه رجل من بني لحيان ، يذكر عقوقه أخواله ، ويتهدده بالقتل . جَزَى الله عَبَّاسًا عَلَى نَأْيِ دَارِهِ ... عُقُوقًا كَحَرِّ النَّارِ يأْتِي المَعَاشِرَا فَوَاللهِ لَوْلا أَنْ يُقال : ابْنُ أخْتِهِ ! ... لَفَقَّرْتُهُ ، إنِّي أُصِيبُ المَفاقِرَا فِدًي لأَبِي ضَبٍّ تِلادِي ، فإنَّنَا ... تَكَلْنَا عَلَيْهِ دَاخِلا ومُجَاهِرَا وَمَطْعَنَهُ بالسَّيْفِ أحْشَاءَ مالِكٍ ... بِما كانَ مَنِّي أوْرَدُوهُ الجَرَائِرَا فقد ذكر في هذا الشعر " أبا ضب " ، ومقتله " مالكا " . لم أقف بعد على " مالك " هذا ، ولكني أظن أن شعر عباس هذا ، يدخل في خبر مقتل " مالك " الذي قتله " أبو ضب " ، لا في خبر مقتل أخيه " هريم بن مرداس " ، فذاك خبر معروف رجاله .

وقوله " حاذرا " ، أي : مستعدًا حذرًا متيقظًا .

وقال شمر : " الحاذر " ، المؤدي الشاك السلاح ، وفي شعر العباس بن مرداس ما يشعر بذلك : وَإنِّي حاذِرٌ أَنْمِى سِلاحِي ... إلى أَوْصالِ ذَيَّالٍ مَنِيع

وكان في المطبوعة : " قطعت منه بنانة " ، فأفسد الشعر إفسادًا ، إذ غير الصواب المحض الذي في المخطوطة ، متابعًا خطأ الرواية المحرفة في لسان العرب.[تفسير الطبري:٤٣١/١٣]

[١] انظر: تفسير الطبري:٤٣١/١٣.

[٢] أخرجه الطبري(١٥٧٩٢):ص٤٣٢/١٣.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٧٨٨):ص٤٣٢/١٣.

[٤] أخرجه الطبري(١٥٧٩١):ص٤٣٢/١٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٧٩٤):ص٤٣٢/١٣.

[٦] أخرجه الطبري(١٥٧٩٣):ص٤٣٢/١٣.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٨١):ص١٦٦٨/٥.

[٨] تفسير السعدي:٣١٦.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٧٦):ص١٦٦٨/٥.

لقد أسرني رجل أجلح[1] من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق[2] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، قال: "أسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم"[3].

الفوائد:

١- تعليم الله تعالى عباده كيف يقاتلون ويضربون أعداءهم، وهذا شرف كبير للمؤمنين.

٢- أن هذه الآية مع ما دلت عليه من إثبات إيمان أهل بدر بشهادة الله تعالى، كذلك دلت صراحة على مشاركة الملائكة في قتال أعداء الدين من كفار قريش.

٣- في الآية الرد على الخوارج الذين وذلك أنهم حكموا على طائفة من خيار الأمة بالكفر إذ أن ـ الباري جل وعلا ـ شهد لهم بحقيقة الإيمان.

فعندما يتدبر المسلم نصوص القرآن الكريم التفصيلية يجد شهادة الله تعالى فيه لأصحاب رسول الله ﷺ بالإيمان في مختلف المواقع والمواقف التي تفيد في مجموعها ما تفيده النصوص العامة من الشهادة لمجموعهم بالإيمان وتفيد بدلالتها أيضاً: أن تكفير الخوارج لطائفة منهم هو عين الضلال، وعين المعاندة للأخبار القرآنية الإلهية.

القرآن

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣)} [الأنفال : ١٣]

التفسير:

ذلك الذي حدث للكفار من ضَرْب رؤوسهم وأعناقهم وأطرافهم؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله ورسوله، ومَن يخالف أمر الله ورسوله، فإن الله شديد العقاب له في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال : ١٣]، أي:" ذلك الذي حدث للكفار من ضَرْب رؤوسهم وأعناقهم وأطرافهم؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله ورسوله"[4].

قال الثعلبي:أي:" خالفوا الله رسوله"[5].

قال ابن كثير:" أي : خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق - وهو مأخوذ أيضا من شق العصا ، وهو جعلها فرقتين"[6].

قال الماتريدي:" يعني - والله أعلم -: ذلك الضرب والقتل، {بأنهم شاقوا الله}، أي: حاربوا الله ورسوله، والمشاقة: الخلاف؛ خالفوا الله ورسوله"[7].

قال أبو الليث:" يعني: ذلك الضرب والقتل بسبب أنهم عادوا الله ورسوله، وخالفوا الله ورسوله"[8].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال : ١٣]، أي:" ومَن يخالف أمر الله ورسوله، فإن الله شديد العقاب له في الدنيا والآخرة"[9].

قال ابن كثير:"أي : هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لا يفوته شيء ، ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى ، لا إله غيره ، ولا رب سواه"[10].

قال أبو الليث:" يعني: من يخالف الله ورسوله إن الله شديد العقاب إذا عاقب"[11].

---

[1]قال ابن الأثير: الأجلح من الناس الذي انحسر الشعر عن جانبيه رأسه ٢٨٤/١.

[2]قال في اللسان البلق: الدابة، والبلق سواد وبياض وكذلك البلقة: بالضم ـ ٢٥/١٠.

[3]المسند ١١٧/١.

[4] التفسير الميسر:١٧٨.

[5] الكشف والبيان:٣٣٥/٤.

[6] تفسير ابن كثير:٢٦/٤.

[7] تأويلات أهل السنة:١٦٥/٥.

[8] بحر العلوم:١١/٢.

[9] التفسير الميسر:١٧٨.

[10] تفسير ابن كثير:٢٦/٤.

[11] بحر العلوم:١١/٢.

قال السعدي:" ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم"[١].

عن علي بن زيد قال: "تلا مطرف هذه الآية {شديد العقاب}، قال: لو يعلم الناس قدر عقوبة الله ونقمة الله وبأس الله ونكال الله لما رقى لهم دمع وما قرت أعينهم بشيء"[٢].

الفوائد:

١- أن من شاق الرسول فقد شاق الله، ومن عصى الرسول فقد عصى الله، وفي هذا بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

٢- أن مشاقة الله ورسوله كفر يستوجب صاحبها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

٣- وفي الآية الكريمة: الوعيد الشديد من الله تعالى لأهل الفرقة، إذ قال الله عز وجل متوعدا المفارقين: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ١٣]، فهؤلاء الذين خالفوا الله ورسوله وساروا في شق وتركوا الشرع والإيمان واتباعه في شق، وشقوا العصا وجعلوها فرقتين ... فهؤلاء توعدهم بقوله: {فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

القرآن

{ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)} [الأنفال : ١٤]

التفسير:

ذلكم العذاب الذي عجَّلته لكم -أيها الكافرون المخالفون لأوامر الله ورسوله في الدنيا- فذوقوه في الحياة الدنيا، ولكم في الآخرة عذاب النار.

قوله تعالى:{ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ} [الأنفال : ١٤]، أي:" ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا"[٣].

قال ابن كثير:" هذا خطاب للكفار أي : ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا"[٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره : هذا العقابُ الذي عجلته لكم ، أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله ، في الدنيا ، من الضرب فوق الأعناق منكم ، وضرب كل بنان ، بأيدي أوليائي المؤمنين ، فذوقوه عاجلا"[٥].

قال البغوي:" {ذلكم} أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار ببدر، {فذوقوه} عاجلا"[٦].

قال السمعاني:" إنما قال ذلك مبالغة في التعذيب والانتقام، والعرب تقول للعدو إذا أصابه المكروه: ذق"[٧].

قال أبو حيان: " واستعير لمباشرة العذاب «الذوق»، لأن الذوق من أبلغ أنواع المباشرة، وحاستها متميزة جدا"[٨].

قوله تعالى:{وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} [الأنفال : ١٤]، أي:" مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار"[١].

---

[١] تفسير السعدي:٣١٦.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٢):ص١٦٦٨/٥.
[٣] صفوة التفاسير:٤٦١/١.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٦/٤.
[٥] تفسير الطبري:٤٣٤/١٣.
[٦] تفسير البغوي:٣٣٦/٣.
[٧] تفسير السمعاني:٢٥٣/٢.
[٨]البحر المحيط: ٣/ ٤٥٦.

قال الطبري:أي:" واعلموا أن لكم في الآجل والمعاد عذابَ النار "(٢).
قال ابن كثير:أي:" واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة "(٣).
قال البغوي:" أي: واعلموا وأيقنوا أن للكافرين أجلا في المعاد، {عذاب النار}"(٤).

الفوائد:

١- إثبات عذاب النار، لقوله: {وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ}.
٢- في قوله تعالى: {ذلكم فذوقوه}: ألم نفسي، لأن هذا توبيخ وإهانة، فالأمر هنا للتوبيخ والإهانة.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)} [الأنفال : ١٥]

التفسير:

يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا قابلتم الذين كفروا في القتال متقاربين منكم فلا تُوَلُّوهم ظهوركم، فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم وناصركم عليهم.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ١٥]، أي:" يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"(٥).

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:" ما أنزل الله آية في القرآن يا أيها الذين آمنوا إلا أن عليا شريفها وأميرها وسيدها، وما من أصحاب محمد أحد إلا وقد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه"(٦).

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(٢)(٧).

عن الزهري قال: "إذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا إفعلوا، فالنبي- ﷺ- منهم"(٨).

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن :{يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»"(٩).

قوله تعالى:{إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا} [الأنفال : ١٥]، أي:" إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً"(١٠).

قال الطبري:{زَحْفًا}، أي:"متزاحفًا بعضكم إلى بعض، و«التزاحف»: التداني والتقارب"(١١).

قال ابن كثير:" {زَحْفًا}، أي : تقاربتم منهم ودنوتم إليهم"(١٢).

قال سعيد بن جبير:" يعني: يوم بدر"(١٣).

---

(١) صفوة التفاسير:٤٦١/١.
(٢) تفسير الطبري:٤٣٤/١٣.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٦/٤.
(٤) تفسير البغوي:٣٣٦/٣.
(٥) التفسير الميسر:١٧٨.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٣):ص١٦٦٩/٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.
(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٦):ص١٦٦٩/٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٤):ص١٦٦٩/٥.
(١٠) صفوة التفاسير:٤٦١/١.
(١١) تفسير الطبري:٤٣٥/١٣.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٧/٤.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٦٢٣):ص١٦٦٩/٥.

قوله تعالى:{فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [الأنفال : ١٥]، أي:" فلا تُوَلُّوهم ظهوركم، فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم وناصركم عليهم"[١].

قال الطبري: "يقول : فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم ، ولكن اثبتوا لهم ، فإن الله معكم عليهم "[٢].

قال ابن كثير:" أي : تفروا وتتركوا أصحابكم"[٣].

عن علي- رضي الله عنه- قال: "الفرار من الزحف من الكبائر"[٤].

عن محمد بن عمرو عن ابن سلمة قال: "الموجبات الفرار من الزحف، ثم قرأ {إذا لقيتم الذين كفروا زحفا}"[٥].

قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-:" كنت مع النبي ﷺ يوم حنين فولى الناس عنه، وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين، نكصنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة"[٦].

وفي قوله تعالى:{فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [الأنفال : ١٥]، قولان[٧]:

أحدهما : أن هذا على العموم في تحريم الهزيمة بعد لقاء العدو .

والثاني : مخصوص وهو أن الله تعالى أوجب في أول الإسلام على كل رجل من المسلمين أن يقف بإزاء عشرة من المشركين لا يحل له بعد اللقاء أن ينهزم عنهم وذلك بقوله:{إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} [الأنفال : ٦٥]، وفيه وجهان[٨]:

أحدهما : لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليه من الإسلام .

الثاني : لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليهم من القتال .

قال الماوردي:"ثم نسخ ذلك عنهم بعد كثرتهم واشتداد شوكتهم فأوجب الله تعالى على كل رجل لاقى المشركين محارباً أن يقف بإزاء رجلين بعد أن كان عليه أن يقف بإزاء عشرة تخفيفاً ورخصة وذلك قوله تعالى :{الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وعَلِمَ أَنَّ فِيكُم ضَعْفاً}"[٩].

وفي حكم الآية قولان:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله: {فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} [الأنفال : ٦٦]، فليس للمؤمنين أن يفروا عن مثليهم. وهذا قول عطاء[١٠].

عن قيس بن سعد قال : "سألت عطاء بن أبي رباح عن قوله : {ومن يولهم يومئذ دبره} ، قال : هذه منسوخة بالآية التي في الأنفال : {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} [سورة الأنفال : ٦٦]. قال : وليس لقوم أن يفرُّوا من مثْلَيْهم. قال : ونسخت تلك إلا هذه العِدّة"[١١].

والثاني: أنها محكمة. وهذا اختيار الطبري[١٢]، والنحاس[١٣]، ومكي بن ابي طالب[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٧٨.
[٢] تفسير الطبري:٤٣٥/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٢٧/٤.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٨٧):ص١٦٦٩/٥.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٨٨):ص١٦٦٩/٥.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٨٩٠):ص١٦٧٠/٥.
[٧] انظر: النكت والعيون:٣٠٢/٢.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٠٢/٢.
[٩] النكت والعيون:٣٠٢/٢.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٨١٣):ص٤٣٩/١٣، والناسخ والمنسوخ للنحاس ص: ١٥٣، وذكره مكي بن أبي طالب أيضا عنه في الإيضاح ص: ٢٥٦.
[١١] أخرجه الطبري(١٥٨١٣):ص٤٣٩/١٣.
[١٢] انظر: تفسير الطبري:٤٤٠/١٣-٤٤١.
[١٣] انظر: الناسخ والمنسوخ : ١٥٣.

قال ابن الجوزي:"وهذا هو الصحيح، لأنها محكمة في النهي عن الفرار[٢]. فيحمل النهي على ما إذا كان العدو أعلى من عدد المسلمين وقد ذهب إلى نحو هذا ابن جرير[٣].

قال الطبري:"وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قولُ من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت في أهل بدر ، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين ، وأن الله حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدو ، أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرفٍ القتال ، أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام ، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتالٍ منهزمًا بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما ، فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه. وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره : أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ ، وله في غير النسخ وجه ، إلا بحجة يجب التسليم لها ، من خبر يقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله عز وجل : {ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة}"[٤].

الفوائد:

١- حرمة الفرار من العدو الكافر عند اللقاء، فمن حضر المعركة بين المسلمين والكفار وهو يستطيع القتال فلا يجوز له أن ينصرف، بل يجب عليه أن يقاتل مع المسلمين.
٢- وفي الآية دليل على أن لله أن يفرض على عباده ما لا طاقة لهم به، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} ، ففرض الله على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار على الإطلاق والعموم أي عدد كانوا، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً} وهذا أمر بلفظ الخبر، فأمر الواحد بقتال العشرة ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ} [الأنفال :٦٥- ٦٦]، فخفف الله عنهم وأمر الواحد بقتال الاثنين. والدليل على أنه أمر أن خبر الله لا يكون بخلاف مخبره، وقد يكون الواحد منهم يغلب العشرة منا، وأيضاً فإنه قال: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} والتخفيف لا يكون إلا فيما فرض وألزم[٥].

القرآن

{وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)} [الأنفال : ١٦]

التفسير:

ومن يُوَلِّهم منكم ظهره وقت الزحف إلا منعطفًا لمكيدة الكفار أو منحازًا إلى جماعة المسلمين حاضري الحرب حيث كانوا، فقد استحق الغضب من الله، ومقامه جهنم، وبئس المصير والمنقلب.

قوله تعالى:{وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} [الأنفال : ١٦]، أي:" ومن يُوَلِّهم منكم ظهره وقت الزحف"[٦].

قال الطبري: " يقول : ومن يولهم منكم ظهره"[٧].

قوله تعالى:{إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ} [الأنفال : ١٦]، أي:" إلا منعطفًا لمكيدة الكفار"[١].

---

[١] انظر: الإيضاح: ٢٥٦.

[٢]عن ابن عباس قال : "أكبر الكبائر الشرك بالله ، والفرار من الزحف ، لأن الله عز وجل يقول : {ومن يولهم يومئذ دبره... فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}. اخرجه الطبري(١٥٨١٦):ص١٣/٤٤٠.

[٣] انظر: تفسير الطبري:١٣/٤٤٠-٤٤١.

[٤] تفسير الطبري:١٣/٤٤٠-٤٤١.

[٥] انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار:٢/٤٧٠.

[٦] التفسير الميسر:١٧٨.

[٧] تفسير الطبري:١٣/٤٣٥.

قال الطبري: " يقول : إلا مستطردًا لقتال عدوه ، يطلب عورةً له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه"[2].

قال ابن كثير:" أي : يفر بين يدي قرنه مكيدة ؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه في ذلك "[3].

قال الضحاك:" «المتحرف»، المتقدم من أصحابه ليرى غِرَّة من العدوّ فيصيبها"[4].

قال السدي:" أما«المتحرف» ، يقول : إلا مستطردًا ، يريد العودة"[5].

قوله تعالى:{أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ} [الأنفال : ١٦]، أي:" أو منحازًا إلى جماعة المسلمين حاضري الحرب حيث كانوا"[6].

قال الطبري:يقول: " أو إلا أن يوليهم ظهره متحيزًا إلى فئة ، يقول : صائرًا إلى حَيِّز المؤمنين الذين يفيئون به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعون به معهم إليهم"[7].

قال ابن كثير:" أي : فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك ، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم ، دخل في هذه الرخصة "[8].

قال الضحاك:" «المتحيز»، الفارّ إلى النبي ﷺ وأصحابه. وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه"[9].

قال السدي:" «المتحيز»، إلى الإمام وجنده إن هو كرّ فلم يكن له بهم طاقة ، ولا يُعذَر الناس وإن كثروا أن يُوَلُّوا عن الإمام "[10].

عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : "كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة - وكنت فيمن حاص - فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : "من القوم ؟" فقلنا : نحن الفرارون. فقال : "لا بل أنتم العَكَّارون ، أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين" قال : فأتيناه حتى قَبَّلنا يده"[11].

قوله تعالى:{فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} [الأنفال : ١٦]، أي:" فقد استحق الغضب من الله"[12].

قال سعيد بن جبير:" يعني: فقد أوجب بغضب من الله"[13]. "يقول: استوجبوا سخطا"[14].

---

[1] التفسير الميسر:١٧٨.

[2] تفسير الطبري:٤٣٥/١٣.

[3] تفسير ابن كثير:٢٧/٤.

[4] أخرجه الطبري(١٥٧٩٥):ص٤٣٥/١٣.

[5] أخرجه الطبري(١٥٧٩٦):ص٤٣٦/١٣.

[6] التفسير الميسر:١٧٨.

[7] تفسير الطبري:٤٣٥/١٣.

[8] تفسير ابن كثير:٢٧/٤.

[9] أخرجه الطبري(١٥٧٩٥):ص٤٣٥/١٣.

[10] أخرجه الطبري(١٥٧٩٦):ص٤٣٦/١٣.

[11] المسند (٧٠/٢) وسنن أبي داود برقم (٢٦٤٧) وسنن الترمذي برقم (١٧١٦) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٠٤).

قال ابن كثير:٢٧/٤:" قال أهل العلم : معنى قوله : «العَكَّارون»، أي : العطافون. وكذلك قال عمر بن الخطاب. رضي الله عنه ، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو انحاز إليّ كنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين ، عن عمر".

[12] التفسير الميسر:١٧٨.

[13] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٠١):ص١٦٧١/٥.

[14] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٠٢):ص١٦٧٢/٥.

قال ابن كثير:" { فَقَدْ بَاءَ } أي : رجع"[١].

قوله تعالى:{وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال : ١٦]، أي:" ومقامه جهنم وبئس المصير والمنقلب"[٢].

قال ابن كثير:" أي : مصيره ومنقلبه يوم ميعاده : { جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }"[٣].

قال الضحاك:" وإنما هذا وعيد من الله لأصحاب محمد ﷺ ، أن لا يفروا. وإنما كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام و أصحابه فئتَهم"[٤].

عن عروة بن الزبير:" {فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}، تحريضا لهم على عدوهم لئلا ينكلوا عنهم إذا لقوهم، وقد وعدهم الله ما وعدهم"[٥].

عن سعيد بن جبير :"{فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}، فهذا يوم بدر خاصة، كان الله عز وجل شده على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل فيه المشركين من أهل مكة"[٦].

الفوائد:

١- تحريم الفرار عن الزحف، وقد عدّه الرسول -ﷺ- من الموبقات السبع في حديث مسلم "والتولي يوم الزحف"[٧].
٢- الأمر بالثبات في المعركة، وبمواجهة الكافرين بقلوب مؤمنة، ووفي الآية يحث الله المؤمنين على عدم الفرار وتولية الظهور للأعداء، وإن كان الكافرون أكثر من المؤمنين عددا، لأن الفرار يحدث الوهن في الجيش الإسلامي المقاتل، ولكنه تعالى سمح للمقاتل بحرية الحركة أثناء المعركة، كأن ينتقل من مكان في المعركة إلى مكان آخر، لنصرة فريق من المسلمين، أو لسد ثغرة نفذ منها العدو، فالمهم هو أن يكون هدف المقاتل المسلم النصر أو الشهادة، وإطاعة أمر القيادة.
٣- أن الذين يتركون المعركة فرارا وهربا من الموت، فإن الله تعالى يتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة.

القرآن

{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)} [الأنفال : ١٧]

التفسير:

فلم تقتلوا -أيها المؤمنون- المشركين يوم «بدر» ، ولكن الله قتلهم، حيث أعانكم على ذلك، وما رميت حين رميت -أيها النبي- ولكن الله رمى، حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين؛ وليختبر المؤمنين بالله ورسوله ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعرِّفهم نعمته عليهم، فيشكروا له سبحانه على ذلك. إن الله سميع لدعائكم وأقوالكم ما أسررتم به وما أعلنتم، عليم بما فيه صلاح عباده.

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٧/٤.
[٢] التفسير الميسر:١٧٨.
[٣] تفسير ابن كثير:٢٧/٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٧٩٥):ص٤٣٥/١٣.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٠٣):ص١٦٧٢/٥.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٠٤):ص١٦٧٢/٥.
[٧]عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: "اجتنبوا السبع الموبقات" قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".
أخرجه البخاري برقم "٢٧٦٦" ومسلم برقم "٨٩" وأبو داود برقم "٢٨٧٤".

قوله تعالى:{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال : ١٧]، أي:" فلم تقتلوا -أيها المؤمنون- المشركين يوم «بدر» ، ولكن الله قتلهم، حيث أعانكم على ذلك"[١].

قال ابن كثير:" يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير ؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم ؛ ولهذا قال : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } أي : ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي : بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم كما قال تعالى : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ [فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران : ١٢٣]. وقال تعالى : { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } [التوبة : ٢٥] يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد ، ولا بلبس اللأمة والعدد ، وإنما النصر من عند الله تعالى كما قال : { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : ٢٤٩]"[٢].

وفي قوله تعالى:{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال : ١٧]، وجوه[٣]:

أحدهما : ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم .

والثاني : ولكن الله قتلهم بمعونته لكم حين ألقى في قلوبهم الرعب وفي قلوبكم النصر .

والثالث: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . حكاه الماوردي عن ابن بحر[٤].

والرابع: معناه: فلم تقتلوهم بتدبيركم ولكن الله قتلهم بالنصر. قاله النحاس[٥].

والخامس: وقيل: لم تقتلوهم بقوتكم وسلاحكم ولكن الله قتلهم بخذلانهم وقبض أرماحهم.

قوله تعالى:{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال : ١٧]، أي:" وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب -لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير-، ولكن الله رمى، حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين"[٦].

قال ابن إسحاق:" أي: لم يكن ذلك برميتك، لولا الذي جعل الله فيها من نصرك، وما ألقى في صدور عدوك منها حين هزمهم الله"[٧].

قال الماوردي:" قوله تعالى :{وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}، يعني: بما أرسله من الريح المعينة لسهامهم حتى سددت وأصابت . والمراد بالرمي الإصابة لأن معى الرمي محمول على الإصابة ، فإن لم يصب قيل رمى فأخطأ . وإذا قيل مطلقاً: قد رمى ، لم يعقل منه إلا الإصابة. ألا ترى إلى قول امرىء القيس[٨]:

فَرَمَاهَا في فَرَائصِها [بِإزاءِ الحَوْضِ أو عُقُرِهْ]

فاستغنى بذكر «الرمي» عن وصفه بالإصابة.

وقال ذو الرمة في الرأي[٩]:

رَمَى فَأَخْطَأَ، وَالأقْدَارُ غَالِبَةٌ فانصاع[١٠] وَالْوَيْلُ هِجِّيرَاهُ وَالْحَرَبُ"[١١]

---

[١] التفسير الميسر:١٧٩.

[٢] تفسير ابن كثير:٣٠/٤.

[٣] انظر: النكت والعيون:٣٠٤/٢.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٠٤/٢.

[٥] انظر: إعراب القرآن:٩٣/٢.

[٦] صفوة التفاسير:٤٦١/١، والتفسير الميسر:١٧٩.

[٧] أخرجه الطبري(١٥٧٢٨):ص٤٤٥/١٣.

[٨]البيت له في ديوانه ص ١٢٤؛ ولسان العرب ٤/ ٥٩٦ (عقر)، ١٤/ ٣٣ (أزا)؛ والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٧٣؛ وتاج العروس ١٧/ ٢٢٧ (رهش)، (أزا)؛ وكتاب العين ١١/ ١٥٠؛ وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٢٩٩؛ ومقاييس اللغة ٤/ ٩٤؛ وديوان الأدب ١/ ٢٦٠.

[٩] ديوانه: ١٦.

[١٠] في الديوان:" فَانْصَعْنَ".

[١١] النكت والعيون:٣٠٥/٢.

قال ابن كثير:" ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته ، فرماهم بها وقال : " شاهت الوجوه ". ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ؛ ولهذا قال تعالى: { وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ }، أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، وكبتهم بها لا أنت"[1].

وفي قوله تعالى:{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال : ١٧]، أقوال:

أحدها : ما حكاه ابن عباس[2]، وهشام بن عروة[3]، والسدي[4]، وابن زيد[5]، ومحمد بن قيس[6]، ومحمد بن كعب القرظي[7]: أن النبي -ﷺ- قبض يوم بدر قبضة من تراب رماهم بها وقال:«شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، أي: قبحت، ومنه قول الحطيئة[8]:

أرى ليَ وجهاً شوَّه اللهُ خَلْقَهُ فقُبّح من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

قال الخليل:" وكلُّ شيء من الخلق لا يُوافِقُ بَعْضُه بعضاً فهو مشوه"[9].

فألقى الله تعالى القبضة في أبصارهم حتى شغلتهم بأنفسهم وأظفر الله المسلمين بهم ، فهو معنى قوله تعالى :{ وَمَا رَمَيْتَ إِذَ رَمَيْتَ وَلَكِنَ اللَّهَ رَمَى}.

وعن قتادة:" ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاثة أحجار ورمى بها وجوه الكفار، فهزموا عند الحجر الثالث"[10].

عن ابن زيد في قوله: "{وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}، قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه!»، وانهزموا، فذلك قول الله عز وجل: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}"[11].

قال ابن كثير:" وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقتادة وغير واحد من الأئمة : أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا"[12].

وروي عن حكيم بن حزام قال : "لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتًا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طَسْت، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا"[13].

قال ابن كثير:" غريب من هذا الوجه، وهاهنا قولان آخران غريبان جدا:

أحدهما : .. عبد الرحمن بن جبير: "أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر ، دعا بقوس ، فأتي بقوس طويلة ، وقال : "جيئوني غيرها". فجاؤوا بقوس كبداء ، فرمى النبي ﷺ الحصن ، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق ، وهو في فراشه ، فأنزل الله عز وجل : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }"[14].

---

[1] تفسير ابن كثير:٣٠/٤.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٢٧):ص٤٤٥/١٣.
[3] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٢١):ص٤٤٣/١٣.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٢٥):ص٤٤٥/١٣.
[5] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٢٦):ص٤٤٥/١٣.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٢٣):ص٤٤٤/١٣.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٢٣):ص٤٤٤/١٣.
[8] ديوانه: ٢٨٢.
[9] العين:٦٨/٤.
[10] أخرجه الطبري(١٥٨٢٤):ص٤٤٤/١٣.
[11] أخرجه الطبري(١٥٨٢٦):ص٤٤٥/١٣.
[12] تفسير ابن كثير:٣١/٤.
[13] أخرجه الطبري(١٥٨٢٢):ص٤٤٣/١٣.
[14] تفسير ابن كثير:٣١/٤، و رواه الواحدي في أسباب النزول : ١٧٤، وخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣ : ١٧٥، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

وهذا غريب ، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، ولعله اشتبه عليه ، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله ، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم ، والله أعلم.

والثاني : روى ابن جرير أيضا ، والحاكم في مستدركه ، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا:" أنزلت في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أُبَي بن خلف بالحربة وهو في لأمته ، فخدشه في ترقوته ، فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارا ، حتى كانت وفاته [بها] بعد أيام ، قاسى فيها العذاب الأليم ، موصولا بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة "[١].

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضا جدا ، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها ، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم ، والله أعلم"[٢].

القول الثاني : معناه: وما ظفرت إذ رميت ولكن الله أظفرك ، قاله أبو عبيدة[٣].

الثالث : وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ولكن الله ملأ قلوبهم رعباً. ذكره النحاس[٤].

والرابع : أنه أراد رمى أصحابه بالسهم فأصاب رميهم[٥].

قوله تعالى:{وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا} [الأنفال : ١٧]، أي:" وليختبر المؤمنين بالله ورسوله ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعرِّفهم نعمته عليهم، فيشكروا له سبحانه على ذلك"[٦].

قال الماوردي:" قال أصحاب الخواطر : البلاء الحسن ما يورثك الرضا به والصبر عليه . وقال المفسرون : البلاء الحسن ها هنا النعمة بالظفر والغنيمة"[٧].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال : ١٧]، أي:" . إن الله سميع لدعائكم وأقوالكم ما أسررتم به وما أعلنتم، عليم بما فيه صلاح عباده"[٨].

قال ابن كثير:" أي : سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب"[٩].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ أن الله تعالى خالق كل شيء وأنه خلق العبد وخلق فعله، إذ لما كان العبد مخلوقا وقدرته مخلوقة، ومأمورا ومنهيا ولا يصدر منه فعل ولا قول إلا بإقدار الله تعالى له كان الفاعل الحقيقي هو الله، وما للعبد إلا الكسب بجوارحه وبذلك يجزى الخير بالخير والشر بمثله. عدل الله ورحمته.

قال الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢].

وقال تبارك وتعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧].

وقال الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦].

وقال الله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٣ - ١٤].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣٢/٤، وخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣ : ١٧٥، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

[٢] تفسير ابن كثير:٣١/٤-٣٢.

[٣] انظر: مجاز القرآن:٢٤٤/١.

[٤] انظر: إعراب القرآن:٩٣/٢.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٠٥/٢.

[٦] التفسير الميسر:١٧٩.

[٧] النكت والعيون:٣٠٥/٢.

[٨] التفسير الميسر:١٧٩.

[٩] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[1].

٢- آية وصول حثية التراب من كف الرسول ﷺ إلى أغلب عيون المشركين في المعركة.

٣- إكرام الله تعالى وإبلاؤه لأولياءه البلاء الحسن فله الحمد وله المنة.

٤- ومن الفوائد: إثبات اسمين من أسمائه تعالى:«السميع» و«العليم»:

- فـ«السَّمِيعُ»: بمعنى: السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة، كقولهم: عليم: من عالم، وقدير: من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى. سواء عنده الجهر، والخفوت، والنطق، والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة.

كقول النبي - ﷺ -: "اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع"[2]، أي: من دعاء لا يستجاب، ومن هذا قول المصلي:"سمع الله لمن حمده"[3]، معناه: قبل الله حمد من حمده.

وأنشد أبو زيد لشتير بن الحارث الضبي[4]:

دعوت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول

أي: لا يجيب، ولا يقبل[5].

و{السَّمِيعُ} له معنيان:

أحدهما: بمعنى المجيب. ومثاله قوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، أي: لمجيب الدعاء.

والثاني: بمعنى السامع للصوت، وهوينقسم إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل،وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله، وهو من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثاً، ومثاله: قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى على بعضه"[6].

---

[1] رواه البخاري في خلق أفعال العباد (رقم ١١٧)، والسنة لابن أبي عاصم (رقم ٣٥٨).

[2] .هذاطرف حديث رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٢٤٤٠ موارد، والنسائي ٨/ ٢٦٤،والإمام أحمد ٣/ ١٩٢، ٢٥٥، ٣٨٣،والخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢ من حديث أنس وانظرالكنز ٢/ ٢٠١.

[3]أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم ٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٨٨، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٩،وفيه: "ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه" وبرقم ٣٢٠٣، ٣٢٢٨، ٤٠٦٩، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨.

ومسلم، باب "الصلاة" برقم (٢٥)، (٢٨)، (٥٤)، (٦٢)، (٦٣)، (٧١)، (٧٧)، (٨٦)، (٨٨)، (٨٩)، (١٩٦)، (١٩٨)، (١٩٩)، (٢٠٢)،وفيه: "اللهم ربنا لك الحمد،ملءالسموات، وملءالأرض، وملء ماشئت من شيء بعده". وكذلك روايته برقم (٢٠٣) وكتاب صلاة المسافرين برقم (٢٠٢)، (٢٠٣)،والنسائي (افتتاح) ٢/ ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١١. وابنماجهبرقم ٨٦٢، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ١٠٦١، ١٢٣٨، ١٢٣٩. وغيرهم.

[4]أنشده الطبري في تفسيره، ٥/ ٦ - ٥٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ١٤٤، والقرطبي ٢/ ٣١، وفي الخزانة ٢/ ٣٦٣، مطلع قصيدة من سبعة أبيات في الشاهد السادس والستين بعد الثلاثمائة منسوباً إلى شمير بن الحارث الضبي. وقال: شمير، بضم الشين المعجمة وفتح الميم وآخره راء مهملة، هكذا ضبطه أبو زيد. وقال الأخفش -فيما كتبه عليه- الذي في حفظي سمير -بالسين المهملة وكذا ضبطه الصاغاني في العباب بالمهملة- وقال: هو شاعر جاهلي والله أعلم. اهـ وفي نوادر أبي زيد ص ١٢٤ مع ستة أبيات أخرى. وفي أمالي المرتضى ١/ ٦٠٣، وفي اللسان (سمع) ولم ينسبه. وأنشده الخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢، والزمخشري في الفائق ١/ ٦١٢ كما هنا، إلى شتير. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٢..

[5] انظر: شأن الدعاء للخطابي:٥٩-٦٠.

[6]رواه البخاري معلقاً"الفتح" (١٣١/ ٣٧٢) في كتاب التوحيد/ باب {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}. وقد وصله الإمام الإمام أحمد في "المسند" (٦/ ٤٦)،وابنكثير ٤/ ٢٨٦ ، وابن ماجة بهذا اللفظ، ورواه ايضاً بلفظ "تبارك" (٢٠٦٣).

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، وهو من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب، ومثاله: قوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].
الثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد، ومثاله: قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول[١].

- و«العليم»: من أسمائه -عزّ وجل-، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، ، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٢].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٣].

القرآن

{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)} [الأنفال : ١٨]

التفسير:

هذا الفعل مِن قتل المشركين ورميهم حين انهزموا، والبلاء الحسن بنصر المؤمنين على أعدائهم، هو من الله للمؤمنين، وأن الله -فيما يُسْتقبل- مُضعِف ومُبطِل مكر الكافرين حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحق أو يهلكوا.

قوله تعالى:{ذَلِكُمْ} [الأنفال : ١٨]، أي:" هذا الفعل مِن قتل المشركين ورميهم حين انهزموا، والبلاء الحسن بنصر المؤمنين على أعدائهم، هو من الله للمؤمنين"[٤].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [الأنفال : ١٨]، أي:" وأن الله -فيما يُسْتقبل- مُضعِف ومُبطِل مكر الكافرين حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحق أو يهلكوا"[٥].

قال ابن كثير:" هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر : أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل ، مُصَغِّرًا أمرهم ، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار ، ولله الحمد والمنة"[٦].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو {موهن} بفتح «الواو» وتشديد «الهاء» منونة {كيد} نصب، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم {موهن} ساكنة «الواو» منونة {كيد} نصب، وروى حفص عن عاصم «موهن كيد الكفرين» مضافا خفيفا بتسكين «الواو» وكسر «الهاء» وضم «النون» من غير تنوين وكسر «الدال» من {كيد}[٧].

الفوائد:

١- بيان أن الله تعالى ناصر المؤمنين ومولاهم، وأنه تعالى مضعف ومبطل كيد الكافرين لهم.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٢٠٦/١-٢٠٧.
(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
(٣) شأن الدعاء:٥٧.
(٤) التفسير الميسر:١٧٩.
(٥) التفسير الميسر:١٧٩.
(٦) تفسير ابن كثير:٣٢/٤.
(٧) انظر: السبعة في القراءات:٣٠٥.

٢- ومن اسمائه المضافة: "مُوهِنُ كَيْدِ الكَافرين". دليله قوله قوله تعالى: {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}. ذكره الشرباصي[١].

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى اعتبار الأسماء المضافة وعدِّها من ضمن الأسماء الحسنى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدِّين، وأحسن الخالقين، وجامع النَّاس ليوم لا ريب فيه، ومقلِّب القلوب، وغير ذلك ممَّا ثبت في الكتاب والسنَّة، وثبت في الدُّعاء بها بإجماع المسلمين"[٢]. والعلماء في عدِّهم لهذه الأسماء ما بين مقلٍ ومكثرٍ، فبعض تلك الأسماء التي عدُّوها، إضافتها واضحة في النُّصوص، والبعض منها لا تدلُّ النُّصوص صراحة على إضافتها.

القرآن

{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)} [الأنفال : ١٩]

التفسير:

إن تطلبوا -أيها الكفار- من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين فقد أجاب الله طلبكم، حين أوقع بكم مِن عقابه ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين، فإن تنتهوا -أيها الكفار- عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبيه محمد ﷺ، فهو خير لكم في دنياكم وأخراكم، وإن تعودوا إلى الحرب وقتال محمد ﷺ وقتال أتباعه المؤمنين نَعُدْ بهزيمتكم كما هُزمتم يوم «بدر» ، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئًا، كما لم تغن عنكم يوم «بدر» مع كثرة عددكم وعتادكم وقلة عدد المؤمنين وعدتهم، وأن الله مع المؤمنين بتأييده ونصره.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير؛ قال: "كان المستفتح يوم بدر أبو جهل، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم! أينا كان أقطع للرحم، وآتى لما لا نعرف؛ فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ}"[٣]. [صحيح]

والثاني: عن عطية؛ قال: "قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الفئتين وخير الفئتين؛ فنزلت: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}"[٤]. [ضعيف]

---

[١] انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى:٢٠٨.

[٢]مجموع الفتاوى ٢٢/ ٤٨٥.

[٣]أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" (٢/ ٢٧٠ - ابن هشام)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٥٩، ٣٦٠ رقم ١٨٥٢١)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والطبري في "جامع البيان" (١٥٨٤٧):ص١٣/٤٥٤، والنسائي في "الكبرى" (٦/ ٣٥٠ رقم ١١٢٠١)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١/ ٤٥٤، ٤٥٥ رقم ٦٣١، ٦٣٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٥ رقم ٨٩١٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٧٤) من طريق الزهري عن عبد الله به.

قلنا: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

قلنا: لم يخرج مسلم شيئاً في "صحيحه" عن عبد الله بن ثعلبة الصحابي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٢) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه وابن منده.

وأخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٦٥ رقم ١٨٥٢٨)، والطبري في جامع البيان" (١٥٨٣٧):ص١٣/٤٥١، من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن معمر عن الزهري به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح، والحديث صحيح مرسلاً ومسنداً.

[٤]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٨٤٤):ص١٣/٤٥٣، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٥/ ٨٩٢٠) من طريقين طريقين عن مطرف عن عطية به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه عطية العوفي ضعيف، وهو مع ذلك مرسل.

قوله تعالى:{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} [الأنفال : ١٩]، أي:" إن تطلبوا -أيها الكفار- من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين فقد أجاب الله طلبكم، حين أوقع بكم مِن عقابه ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمشركين الذين حاربوا رسول الله ﷺ ببدر: إن تستحكموا الله على أقطع الحزبين للرحم ، وأظلم الفئتين ، وتستنصروه عليه ، فقد جاءكم حكم الله ، ونصرُه المظلوم على الظالم ، والمحق على المبطل"[٢].

قال ابن كثير:" يقول تعالى للكفار { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا}، أي : تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم"[٣].

قال التستري:" وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصر أفضل الدينين عندك، وأرضاهما لديك، فنزل: {إن تستفتحوا }، يعني: تستنصرون[٤]. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر بفقرائهم[٥]"[٦].

عن ابن عباس قوله : "{إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح} ، يعني بذلك المشركين : إن تستنصروا فقد جاءكم المدد"[٧].

قال ابن كثير:" يقول تعالى للكفار{ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا } أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم"[٨].

عن مجاهد قوله : "{إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، قال : كفار قريش في قولهم : «ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه»! ففُتح بينهم يوم بدر"[٩].

عن الضحاك[١٠]، وعكرمة[١١]: "{إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، قال : إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء".

قال السدي:" كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة ، أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا : " اللهم انصر أعز الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين " ! فقال الله : {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، يقول : نصرت ما قلتم ، وهو محمد ﷺ "[١٢].

قال الزهري:" استفتح أبو جهل بن هشام فقال : " اللهم أيُّنا كان أفجر لك وأقطعَ للرحم ، فأحنه اليوم! " يعني محمدًا عليه الصلاة والسلام ونفسه. قال الله عز وجل : {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، فضربه ابنا عفراء : عوف ومعوّذ ، وأجهزَ عليه ابن مسعود"[١٣].

عن ابن زيد في قوله : "{إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، قال : إن تستفتحوا العذاب ، فعُذِّبوا يوم بدر. قال : وكان استفتاحهم بمكة ، قالوا : {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [سورة الأنفال : ٣٢]. قال : فجاءهم العذاب

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٢) وزاد نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر.

[١] التفسير الميسر:١٧٩.

[٢] تفسير الطبري:٤٥٠/١٣.

[٣] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.

[٤]في السيرة النبوية ٣/ ١٧٦: (قال أبو جهل بن هشام: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة. فكان هو المستفتح) .

[٥]مسند أحمد ٣/ ٩٦ والمعجم الأوسط ٣/ ٣٤٨ وشعب الإيمان ٧/ ٣٣٦.

[٦] تفسير التستري:٧١.

[٧] أخرجه الطبري(١٥٨٣٣):ص٤٥١/١٣.

[٨] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.

[٩] أخرجه الطبري(١٥٨٣٥):ص٤٥١/١٣.

[١٠] أخرجه الطبري(١٥٨٣١):ص٤٥٠/١٣.

[١١] أخرجه الطبري(١٥٨٣٢):ص٤٥١/١٣.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٨٤١):ص٤٥٣/١٣.

[١٣] أخرجه الطبري(١٥٨٣٨):ص٤٥١/١٣-٤٥٢.

يوم بدر. وأخبر عن يوم أحد : {وإن تعودوا نعد ولن نغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين}"[١].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [الأنفال : ١٩]، أي:" فإن تنتهوا -أيها الكفار- عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبيه محمد ﷺ، فهو خير لكم في دنياكم وأخراكم"[٢].

قال الطبري:" يقول : {وإن تنتهوا}، يا معشر قريش ، وجماعة الكفار ، عن الكفر بالله ورسوله ، وقتال نبيه ﷺ والمؤمنين به {فهو خير لكم}، في دنياكم وآخرتكم"[٣].

قال ابن كثير:" أي:عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ، { فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } أي : في الدنيا والآخرة "[٤].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ} [الأنفال : ١٩]، أي:" وإن تعودوا إلى الحرب وقتال محمد ﷺ وقتال أتباعه المؤمنين نَعُدْ بهزيمتكم كما هُزمتم يوم «بدر»"[٥].

قال الطبري:" يقول : وإن تعودوا لحربه وقتاله وقتال اتباعه المؤمنين {نعد}، أي : بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر"[٦].." يقول : وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم"[٧].

قال ابن كثير:"قوله:{ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ } كقوله :{ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا } [الإسراء : ٨]معناه : وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة ، نعد لكم بمثل هذه الواقعة "[٨].

وفي قوله تعالى:{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ} [الأنفال : ١٩]، قولان[٩]:

أحدهما : إن تستنصروا الله ، فالفتح: النصر ، فقد جاءكم فضل الله بنصرنا ، حكاه ابن الأنباري[١٠].

والثاني : معناه إن تستنصروا الله ، والفتح: النصر ، فقد جاءكم نصر الله لنا عليكم ، وفي هذا الخطاب قولان [١١]:

أحدهما : أنه خطاب للمشركين لأنهم استنصروا يوم بدر بأن قالوا : اللهم أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه ، فنصر الله تعالى نبيه والمسلمين عليهم.

ثم قال :{وَإِن تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيرٌ لَّكُمْ}لأن الاستنصار كان عليهم لا لهم، وفي قوله:{وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ}[الأنفال : ١٩]، فيه وجهان :

أحدهما : وإن تعودوا إلى مثل هذا التكذيب نعد إلى مثل هذا التصديق .

والثاني : وإن تعودوا إلى مثل هذا الاستفتاح نعد إلى مثل هذا النصر .

والقول الثاني : أنه خطاب للمؤمنين نصرهم الله تعالى يوم بدر حين استنصروه، وأن قوله: {وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، يعني: عما فعلتموه في الأسرى والغنيمة .

وقوله:{وإن تَعودوا نعد}[الأنفال : ١٩]، فيه وجهان[١٢]:

أحدهما : وإن تعودوا إلى الطمع نعد إلى المؤاخذة .

الثاني : وإن تعودوا إلى مثل ما كان منكم في الأسرى والغنيمة نعد إلى الإنكار عليكم .

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٨٤٣):ص٤٥٣/١٣.
[٢] التفسير الميسر:١٧٩.
[٣] تفسير الطبري:٤٥٥/١٣.
[٤] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.
[٥] التفسير الميسر:١٧٩.
[٦] تفسير الطبري:٤٥٥/١٣.
[٧] تفسير الطبري:٤٥٥/١٣.
[٨] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.
[٩] انظر: النكت والعيون:٣٠٥/٢.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٠٥/٢.
[١١] انظر: النكت والعيون:٣٠٥/٢-٣٠٦.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٠٦/٢.

قوله تعالى:{وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ} [الأنفال : ١٩]، أي:" لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار"[١].

قال الطبري:" يقول : ولن تغني عنكم عند عودي لقتلكم بأيديهم وسَبْيكم وهزمكم {فئتكم شيئًا ولو كثرت}، يعني : جندهم وجماعتهم من المشركين ، كما لم يغنوا عنهم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئًا"[٢].

قال ابن كثير:" أي : ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا ، فإن من كان الله معه فلا غالب له ، فإن الله مع المؤمنين ، وهم الحزب النبوي ، والجناب المصطفوي "[٣].

عن عروة بن الزبير:"{ولن تغني عنكم فئتكم شيئا}، أي وإن كثر عددكم في أنفسكم لم يغن عنكم شيئا"[٤].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ١٩]، أي:" وأن الله مع المؤمنين بتأييده ونصره"[٥].

قال الطبري:" يقول جل ذكره : وأن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم ، ينصرهم عليهم ، أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين"[٦].

عن عروة بن الزبير: "{وأن الله مع المؤمنين}، وأنا مع المؤمنين، أنصرهم على من خالفهم"[٧].

عن السدي:{وأن الله مع المؤمنين}، مع محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم"[٨].

قرأ ابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائى {وأن الله مع المؤمنين} بكسر «الألف»، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم {وأن الله مع المؤمنين} بفتح «الألف»[٩].

الفوائد:

١- ولاية الله للمؤمنين الصادقين هي أسباب نصرهم وكمالهم وإسعادهم.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة:: التهكم في قوله: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ}، لأن الأصح أن يكون الخطاب للمشركين على سبيل التهكم، كقوله: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان : ٤٩]، لأنهم هم الذين وقع بهم الهلاك، والفتح وقع لغيرهم.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)} [الأنفال : ٢٠]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تتركوا طاعة الله وطاعة رسوله، وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم في القرآن من الحجج والبراهين.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ٢٠]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله"[١٠].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٦٢/١.
[٢] تفسير الطبري:٤٥٥/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.
[٤] أخرجه الطبري(٨٩٢٨):ص١٦٧٦/٥.
[٥] التفسير الميسر:١٧٩.
[٦] تفسير الطبري:٤٥٥/١٣.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٢٩):ص١٦٧٦/٥.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٣٠):ص١٦٧٦/٥.
[٩] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٥.
[١٠] التفسير الميسر:١٧٩.

قال ابن عباس-رضي الله عنه-:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[١].

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء، دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[٢].

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قوله تعالى:{أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال : ٢٠]، أي:" أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه"[٣].

قال المراغي:" أي: أطيعوا الله ورسوله فى الإجابة إلى الجهاد وترك المال إذا أمر الله بتركه"[٤].

قال ابن كثير:" يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له "[٥].

قال الشافعي رحمه الله: وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول: فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) الآية"[٦].

قوله تعالى:{وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ} [الأنفال : ٢٠]، أي:" ولا تتركوا طاعة الله وطاعة رسوله"[٧].

قال المراغي:أي:" ولا تعرضوا عن طاعته، وعن قبول قوله، وعن معونته فى الجهاد"[٨].

قال السعدي:" أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله"[٩].

قال ابن كثير:" أي : تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره "[١٠].

قال عروة بن الزبير:" أي: لا تخالفوا أمره وأنتم تسمعون"[١١].

قال الشوكاني:" فالضمير في {عنه} عائد إلى «الرسول»، لأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من طاعة الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعا إلى «الله وإلى رسوله» كما في قوله : {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة : ٦٢]، وقيل: الضمير راجع إلى «»الأمر الذي دل عليه {أطيعوا}"[١٢].

قال الشنقيطي:" قوله جل وعلا: {ولا تولوا عنه} [الأنفال: آية ٢٠]، ولم يقل: «عنهما». ونظيره من كلام العرب قول حسان بن ثابت[١٣]:

([١]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.
([٢]) تفسير ابن عثيمين:٣٣٧/١.
([٢]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.
([٣]) التفسير الميسر:١٧٩.
([٤]) تفسير المراغي:١٨٤/٩.
([٥]) تفسير ابن كثير:٣٢/٤.
([٦]) تفسير الإمام الشافعي:٨٧٠/٢.
([٧]) التفسير الميسر:١٧٩.
([٨]) تفسير المراغي:١٨٤/٩.
([٩]) تفسير السعدي:٣١٨.
([١٠]) تفسير ابن كثير:٣٢/٤.
([١١]) اخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٣١):ص١٦٧٧/٥.
([١٢]) فتح القدير:٣٤٠/٢.
([١٣])ديوان حسان بن ثابت ص٢٤٦.

إنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ والشَّعَرَ الأَسْـ ـوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونَا

ولم يقل: «ما لم يعاصيا».

وقول نابغة ذبيان[1]:

وَقَدْ أَرَانِي وَنُعْمًا لاَهِيَيْنِ بِهَا وَالدَّهْرُ وَالْعَيْشُ لَمْ يَهْمِمْ بِإِمْرَارِ

وقول الأضبط بن قريع ، وقيل كعب بن زهير[2]:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَةْ والمُسْيُ وَالصُّبْحُ لاَ فَلاَحَ مَعَهْ

ولم يقل: «لا فلاح معهما»[3].

قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال : ٢٠]، أي:" وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم في القرآن من الحجج والبراهين"[4].

قال السعدي: أي: " ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال"[5].

قال ابن كثير:" أي : بعد ما علمتم ما دعاكم إليه "[6].

قال القاسمي:" أي: القرآن الناطق بوجوب طاعته، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته"[7].

قال المراغي:أي:" وأنتم تسمعون كلامه الداعي إلى وجوب طاعته وموالاته ونصره، ولا شك أن المراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق بما يسمع، كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة : ٢٨٥]"[8].

الفوائد:

١- الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع.

٢- وجوب طاعته - ﷺ - والحذر من معصيته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ}

والآيات في هذه المعنى كثيرة جداً، لأن السنة بيان للقرآن وتوضح وشرح له وتفسير لمعانيه ومطالبه {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}[الحشر:٧]، {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} [النور:٥٤]، {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣]، {وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب:٧١]، {وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا} [الأحزاب:٣٦]، {وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}[النساء: ١٣-١٤].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله"[9].

---

[1] ديوان النابغة الذبياني ص١٩.

[2] انظر: اللسان (مادة: مسا) (٣/ ٤٨٦)، البيان والتبيين (٣/ ٣٤١)، الأمالي (١/ ١٠٧) ونسبوه للأضبط بن قُريع، وهو في تفسير القرطبي (١/ ٣٧٤)، من غير نسبة.

[3] العذب المنير:٤٩/١.

[4] التفسير الميسر:١٧٩.

[5] تفسير السعدي:٣١٨.

[6] تفسير ابن كثير:٣٢/٤.

[7] محاسن التأويل:٢٧٢/٥.

[8] تفسير المراغي:١٨٤/٩.

[9] أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}، برقم ٧١٣٧، ومسلم ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، برقم ١٨٣٥.

وعنه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -:" كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"(١).

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعِلَ رِزقي تحت ظلِّ رمحي، وجُعِلَ الذِّلُّ والصَّغارُ على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم"(٢).

٣- اتباعه - ﷺ - واتخاذه قدوة في جميع الأمور والاقتداء بهديه، قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[آل عمران:٣١]، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا}[الأحزاب:٢١]،وقال تعالى: {وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[الأعراف:١٥٨]، فيجب السير على هديه والتزام سنته والحذر من مخالفته، قال - ﷺ -: "فمن رغب عن سنتي فليس مني"(٣).

٤- أنه من حقوقه على أمته - ﷺ -:

أ- الإيمان الصادق به - ﷺ - وتصديقه فيما أتى به قال تعالى: {فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[التغابن:٨].

ب- وجوب طاعته - ﷺ -، كما في الآية موضع التفسير.

ت- اتباعه - ﷺ - واتخاذه قدوة والاقتداء بهديه.

محبته - ﷺ - أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، قال الله تعالى: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:٢٤].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"(٤).

وقد ثبت في الحديث أن من ثواب محبته الاجتماع معه في الجنة وذلك عندما سأله رجل عن الساعة فقال: "ما أعددت لها؟ قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صيام، ولا صلاة، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: فأنت مع من أحببت"(٥). قال أنس فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي - ﷺ -: "فإنك مع من أحببت"، فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكر، وعمر. فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم (٦).

ولما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي - ﷺ -: "لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي فقال النبي - ﷺ -: "الآن يا عمر(٧).

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله - ﷺ -،برقم ٧٢٨٠.

(٢)أخرجه أحمد في المسند، ٢/ ٥٠، وأخرج بعضه البخاري معلقاً في كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح، ص ص ٥٦٠، ط بيت الأفكار الدولية، وأخرج الجزء الأخير منه أبو داود في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، برقم ٤٠٣١، وحسنه العلامة ابن باز -رحمه الله-.

(٣)أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم ٥٠٦٣،ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، برقم ١٤٠١.

(٤)أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول - ﷺ - من الإيمان، برقم ١٥، ومسلم في كتاب الإيمان، الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله - ﷺ - أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين، برقم ٤٤.

(٥)أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، برقم ٣٦٨٨، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، برقم ٢٦٣٩.

(٦)مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، برقم ٢٦٣٩/ ١٦٣.

(٧)أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي - ﷺ -، برقم ٦٦٣٢.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله - ﷺ -: "المرء مع من أحب"[١].

وعن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً"[٢].

وقال - ﷺ -: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار"[٣].

ولا شك أن من وفَّقه الله تعالى لذلك ذاق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فيستلذ الطاعة ويتحمل المشاق في رضى الله - عز وجل - ورسوله - ﷺ -، ولا يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ لأنه رضي به رسولاً، وأحبه، ومن أحبه من قلبه صدقاً أطاعه - صلى الله عليه وسلم -؛ ولهذا قال القائل[٤]:

تعصي الإله وأنت تُظهر حُبَّهُ هذا لعمري في القياسِ بديعُ
لو كان حُبَّكَ صادقاً لأطعته إن المحُبَّ لمن يُحبُّ مُطيعُ

وعلامات محبته - ﷺ - تظهر في الاقتداء به - ﷺ -، واتباع سنته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه، في الشدة والرخاء، وفي العسر واليسر، ولا شك أن من أحب شيئاً آثره، وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه ويكون مدّعياً[٥].

ولا شك أن من علامات محبته: النصيحة له؛ لقوله - ﷺ -: "الدين النصيحة" قلنا لمن؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم"[٦]، والنصيحة لرسوله - ﷺ -: التصديق بنبوته، وطاعته فيما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ومُؤازرته، ونصرته وحمايته حياً وميتاً، وإحياء سنته والعمل بها وتعلمها، وتعليمها والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة [٧].

ث- احترامه وتوقيره ونصرته كما قال تعالى: {لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}[الفتح:٩ي، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الحجرات:١]، {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا} [النور:٦٣].
وحرمة النبي - ﷺ - بعد موته، وتوقيره لازم كحال حياته وذلك عند ذكر حديثه، وسنته، وسماع اسمه وسيرته، وتعلم سنته، والدعوة إليها، ونصرتها[٨].

ج- الصلاة عليه - ﷺ - قال الله تعالى: {إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب:٥٦].
وقال - ﷺ -: " .. من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً"[٩].

---

[١]أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، برقم ٣٦٨٨،ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، برقم ٢٦٣٩.

[٢]أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد - ﷺ - رسولاً فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر، برقم ٣٤.

[٣]أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم ١٦، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم ٤٣.

[٤]الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ -، ٢/ ٥٤٩، و ٢/ ٥٦٣.

[٥]انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ -، ٢/ ٥٧١ - ٥٨٢.

[٦]أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم ٥٥.

[٧]الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ - للقاضي عياض، ٢/ ٥٨٢ - ٥٨٤.

[٨]الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ -، ٢/ ٥٩٥، و ٦١٢.

[٩]أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي - ﷺ - ثم يسأل الله له الوسيلة، برقم ٣٨٤.

وقال - ﷺ -: "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم"[1].

وقال - ﷺ -: "البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليّ"[2].

وقال - ﷺ -: "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلّوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم"[3].

وقال - ﷺ -: "إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام"[4].

وقال جبريل - عليه السلام - للنبي - ﷺ -: "رغم أنف عبد - أو بَعُد - ذُكِرتَ عنده فلم يصلّ عليك فقال - ﷺ -: آمين"[5].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -:"ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام"[6].

ويجدر القول أن للصلاة على النبي - ﷺ - مواطن كثيرة ذكر منها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى واحداً وأربعين موطناً، منها على سبيل المثال: الصلاة عليه - ﷺ - عند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وبعد إجابة المؤذن، وعند الإقامة، وعند الدعاء، وفي التشهد في الصلاة، وفي صلاة الجنازة، وفي الصباح والمساء، وفي يوم الجمعة، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم، وفي الخطب: كخطبتي صلاة الجمعة، وعند كتابة اسمه، وفي أثناء صلاة العيدين بين التكبيرات، وآخر دعاء القنوت، وعلى الصفا والمروة، وعند الوقوف على قبره، وعند الهم والشدائد وطلب المغفرة، وعقب الذنب إذا أراد أن يكفر عنه، وغير ذلك من المواطن التي ذكرها رحمه الله في كتابه[7].

ولو لم يرد في فضل الصلاة على النبي - ﷺ - إلا حديث أنس - رضي الله عنه - لكفى "من صلى عليَّ صلاةً واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، [كتب الله له بها عشر حسنات][8] وحط عنه بها عشر سيئات، ورفعه بها عشر درجات"[9].

---

[1] أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور، برقم ٢٠٤٢،وأحمد في المسند،٢/ ٣٦٧، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم ٨٠٢٦،وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود،١/ ٥٧١.

[2] أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب قول رسول الله - ﷺ -: رغم أنف رجل، برقم ٣٥٤٦، وأحمد، ١/ ٢٠١، والحاكم، ١/ ٥٤٩، وأبو يعلى، برقم ٦٧٧٦، وابن حبان كما في الموارد، برقم ٢٣٨٨. وقال أبو عيسى: ((هذا حديث حسن صحيح غريب))، وقال الحاكم: ((صحيح))، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم ٢٨٧٨.

[3] أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، برقم ٣٣٨٠، وأحمد بن حنبل في المسند، ٢/ ٤٤٦، ٤٥٣، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٩٥، وقال أبو عيسى: ((هذا حديث حسن صحيح))، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ٧٤.

[4] أخرجه أحمد في المسند، ١/ ٤٤١، والنسائي في كتاب السهو، باب السلام على النبي - ﷺ -، برقم ١٢٨٠، وابن حبان في صحيحه، برقم ٩١٤، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٤٢١، وقال: ((صحيح ولم يخرجاه))، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم ٢١٧٤.

[5] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم ٦٤٦، وابن خزيمة في صحيحه، برقم ١٨٨٨، وأحمد، ٢/ ٢٥٤، والترمذي في كتاب الدعوات، باب قول رسول الله - ﷺ -: ((رغم أنف رجل))،برقم ٣٥٤٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم ٣٥١٠.

[6] أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور، برقم ٢٠٤١، وأحمد، ٢/ ٥٢٧، والبيهقي في سننه الكبرى، ٥/ ٢٤٥، والطبراني في الأوسط، برقم ٣١١٦، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ٢٢٦٦.

[7] انظر: كتاب جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام - ﷺ - للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.

[8] هذه الزيادة من حديث طلحة في مسند أحمد، ٤/ ٢٩ .

[9] أخرجه أحمد، ٣/ ٢٦١، وابن حبان، برقم ٢٣٩٠ (موارد)، والحاكم، ١/ ٥٥١، وصححه الأرنؤوط في تحقيقه لجلاء الأفهام، ص٦٥.

ح- وجوب التحاكم إليه والرضى بحكمه - ﷺ -، قال الله تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء: ٥٩]، {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}[النساء: ٦٥] ويكون التحاكم إلى سنته وشريعته بعده - ﷺ -.

خ- إنزاله مكانته - ﷺ - بلا غلو ولا تقصير، فهو عبد الله ورسوله، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين، وهو سيد الأولين والآخرين، وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود، ولكنه مع ذلك بشر لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله كما قال تعالى: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ}[الأنعام:٥٠]، وقال تعالى: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ الله وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[الأعراف:١٨٨]، {قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ الله أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا}[الجن:٢١-٢٢]، وقد مات - ﷺ - كغيره من الأنبياء ولكن دينه باقٍ إلى يوم القيامة {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}[الزمر:٣٠]، {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[الأنبياء:٣٤-٣٥]، وبهذا يعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام:١٦٢-١٦٣][(١)].

القرآن

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)} [الأنفال : ٢١]

التفسير:

ولا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة الله ورسوله محمد ﷺ كالمشركين والمنافقين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: سمعنا بآذاننا، وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه.

قوله تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا} [الأنفال : ٢١]، أي:" ولا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة الله ورسوله محمد ﷺ كالمشركين والمنافقين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: سمعنا بآذاننا"[(٢)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ : لا تكونوا ، أيها المؤمنون ، في مخالفة رسول الله ﷺ ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا : {قد سمعنا}، بآذاننا "[(٣)].

قال الزجاج:" يعنى به الذين {قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا} [الأنفال : ٣١]"[(٤)].

قوله تعالى:{وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [الأنفال : ٢١]، أي:" وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه"[(٥)].

قال الطبري:" يقول : وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به ، لإعراضهم عنه ، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم الله ، إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا

---

(١) انظر: عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسُّنَّة - المفهوم، والفضائل، والمعنى، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، والنواقض، د. سعيد بن علي:٦٥/١-٧٤.

(٢) التفسير الميسر:١٧٩.

(٣) تفسير الطبري:٤٥٨/١٣.

(٤) معاني القرآن:٤٠٨/٢.

(٥) التفسير الميسر:١٧٩.

قد سمعوها بأذانهم ، بمنزلة من لم يسمعها. يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكونوا أنتم في الإعراض عن أمر رسول الله ، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعونه بآذانكم ، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم ، ويقولون : {قد سمعنا}، وهم عن الاستماع لها والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمَعُها"[١].

قال الزجاج:" فسماهم الله جل ثناؤه «لا يسمعون»، لأنهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء، فلم يتفهموا، ولم يتفكروا. فكانوا بمنزلة من لم يسمع"[٢].

عن مجاهد في قول الله : "{وهم لا يسمعون}، قال : عاصون"[٣].

عن ابن إسحاق : "{ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}، أي : كالمنافقين الذين يظهرون له الطاعة ، ويُسِرُّون المعصية"[٤].

قال الطبري:"وللذي قال ابن إسحاق وجه ، ولكن قوله : {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}، في سياق قَصَص المشركين ، ويتلوه الخبر عنهم بذمّهم ، وهو قوله : {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}، فلأن يكون ما بينهما خبرًا عنهم ، أولى من أن يكون خبرًا عن غيرهم"[٥].

الفوائد:

١- أن الواجب على العباد إزاء خبر الله ورسوله: التصديق والإيمان به على ما أراد الله ورسوله تصديقاً لا تكذيب معه؛ وإيماناً لا كفر معه، ويقيناً لا شك معه.

٢- أن الواجب على العباد إزاء الطلب: امتثاله على الوجه الذي أراد الله ورسوله من غير غلو ولا تقصير، فيقومون بالمأمور ويجتنبون المحظور.

القرآن

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)} [الأنفال : ٢٢]

التفسير:

إنَّ شر ما دبَّ على الأرض -مِنْ خَلْق الله- عند الله الصمُّ الذين انسدَّت آذانهم عن سماع الحق فلا يسمعون، البكم الذين خرست ألسنتهم عن النطق به فلا ينطقون، هؤلاء هم الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

سبب نزول الآية الكريمة والتي بعدها:

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "هم نفر من بني عبد الدار"[٦]. [صحيح]

وعن قتادة؛ قال: "أنزلت في حي من أحياء العرب من بني عبد الدار"[٧]. [ضعيف]

وعن ابن جريج؛ قال: "نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث[٨] وقومه"[٩]. [ضعيف جداً]

---

[١] تفسير الطبري:٤٥٨/١٣.

[٢] معاني القرآن:٤٠٨/٢.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٨٥٤):ص٤٥٨/١٣-٤٥٩.

[٤] أخرجه الطبري(١٥٨٥٣):ص٤٥٨/١٣.

[٥] تفسير الطبري:٤٥٩/١٣.

[٦] أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٧ رقم ٤٦٤٦)..

[٧] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٣) ونسبه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لإرساله، ويغني عنه ما قبله.

[٨] النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، شيطان قريش وصاحب لواء المشركين ببدر، مشرك مجاهر بالعداوة والأذي لرسول الله - ﷺ -. قتل في بدر سنة ٢ هـ انظر: "سيرة ابن هشام" ٩/ ٣١١، ٣٢٠، ٣٢١، ٢/ ٢٨٦، و"جوامع السير" ص ٥٢، ١٤٧ - ١٤٨، و"الكامل" لابن الأثير ٢/ ٤١٤، و"الأعلام" ٨/ ٣٣.

[٩] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٣) ونسبه لابن المنذر.

قوله تعالى:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ} [الأنفال : ٢٢]، أي:" إنَّ شر ما دبَّ على الأرض -مِنْ خَلْق الله- عند الله"[١].

قال ابن زيد "{الدواب}: الخلق، وقرأ : {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}[٢]، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}[٣]، قال: هذا يدخل في هذا"[٤].

قوله تعالى:{الصُّمُّ الْبُكْمُ} [الأنفال : ٢٢]، أي:" الصمُّ الذين انسدَّت آذانهم عن سماع الحق فلا يسمعون، البكم الذين خرست ألسنتهم عن النطق به فلا ينطقون"[٥].

قال قتادة:" صم عن الحق فهم لا يسمعونه"[٦]، " بكم فهم لا ينطقون به"[٧].

قال ابن زيد:" «الصم» وليس بالصم في الدنيا، ولكن صم القلب"[٨].

قال ابن عباس:" الأبكم: الأخرس"[٩].

قوله تعالى:{الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال : ٢٢]، أي:" هؤلاء هم الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه"[١٠].

عن ابن عباس :{الصم البكم الذين لا يعقلون}، لا يتبعون الحق"[١١].

وعن ابن عباس أيضا:" {الصم البكم الذين لا يعقلون}، نفر من بني عبد الدار"[١٢].

عن عروة بن الزبير:"{إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}، أي: المنافقين لا يعرفون ما عليهم في ذلك من النقمة والتباعة"[١٣].

الفوائد:

١- بيان أن من الناس من هو شر من الكلاب والخنازير فضلا عن الإبل والبقر والغنم أولئك البعض كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا.

٢- أنه قد يطلق السمع ويراد به غير ظاهره، وإنما هو كناية عن الانتفاع بالمسموع، ولهذا ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} [الأنفال:٢٢] وهذا تشبيه للكفار، فإن الكفار صم بكم، أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، ولِمَ وصفوا بهذا الوصف؟

الجواب: هذا كناية عن عدم انتفاعهم بما جاءهم من الآيات والنذر، وأنهم كمن لم يسمع شيئاً.

ولذلك فإن هذه الآية ظاهرها أن الدابة الصماء البكماء تعتبر أخس الدواب كلها، ولهذا شبهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا به؛ لأنه مما ينبغي على المسلم إذا سمع شيئاً وعرف مدلوله أن ينقاد إليه ويعمله، وشبهوا بالبكم بناءً على انقطاع الحجة في المناقشة وفي العجز عن رد الحق الذي وصل إليهم، وهو مما جاءهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولهذا قال رب العزة سبحانه وتعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢٣] مع أن عندهم آذاناً يسمعون ما يقوله

---

[١] التفسير الميسر:١٧٩.
[٢][فاطر : ٤٥].
[٣][هود : ٦].
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٣٥):ص١٦٧٧/٥.
[٥] التفسير الميسر:١٧٩.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٣٧):ص١٦٧٨/٥.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٤٠):ص١٦٧٨/٥.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٣٨):ص١٦٧٨/٥.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٣٩):ص١٦٧٨/٥.
[١٠] التفسير الميسر:١٧٩.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٤٣):ص١٦٧٨/٥.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٣٦):ص١٦٧٧/٥.
[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٤٢):ص١٦٧٨/٥.

الرسول ﷺ، ولكن قصد هنا: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال:٢٣] أي: أن قلوبهم لا تستفيد من الآيات ولا مما جاءهم عن الله ورسوله ﷺ، ولهذا يقول الله: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس:١٠١] .

٣- مخاطبة القرآن للعقل ودعوته للتفكير، والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية.

٤- بيان عظيم ثمرات استخدام العقل، وقد بين القرآن أن من أبرز النتائج التي يحصل عليها العقل المتجرد إذا تفكر وتدبر: التوصل إلى الإيمان بوحدانية الله، والشعور بعظمته سبحانه، ومعرفة الحق الذي خلقت به السموات والأرض، يقول سبحانه {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذي يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار}[آل عمران:١٩٠-١٩١]، لذلك يعقب سبحانه كثيراً بعد ذكر آياته في الأنفس والآفاق بقوله {إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} - وكفى بهذه النتيجة نفعاً وعظمة.

٥- ذم المقلدين الذين ألغو عقولهم، حيث أزرى القرآن الكريم بمن عطلوا تفكيرهم وأغلقوا منافذ الهداية والمعرفة، وأخذوا أمور حياتهم عن طريق التقليد، والتبعية، والوراثة لآبائهم، ولما وجدوا عليه مجتمعاتهم، قال سبحانه {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون}[البقرة:١٧٠-١٧١].

فالله يشبههم بالأنعام التي تسمع صوت المنادي، ولا تفقه ما يقول، كل هذا بسبب جمودهم على ما هم عليه، وتعطيل عقولهم عن التفكر لتبحث عن الحق فتتبعه، فكان نتيجة اهدارهم هذه النعمة التي تميزوا بها عن البهائم أن أصبحوا مثلها، بل أحط منزلة {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}.

القرآن

{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)} [الأنفال : ٢٣]

التفسير:

ولو علم الله في هؤلاء خيرًا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه وبراهينه، ولكنه علم أنه لا خير فيهم وأنهم لا يؤمنون، ولو أسمعهم -على الفرض والتقدير- لتولَّوا عن الإيمان قصدًا وعنادًا بعد فهمهم له، وهم معرضون عنه، لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه.

قوله تعالى:{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال : ٢٣]، أي:" ولو علم الله في هؤلاء خيرًا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه وبراهينه، ولكنه علم أنه لا خير فيهم وأنهم لا يؤمنون"[(١)].

قال الطبري:" ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون"[(٢)].

قال شيخ الإسلام:" أي: أن قلوبهم لا تستفيد من الآيات ولا مما جاءهم عن الله ورسوله ﷺ"[(٣)].

---

(١) التفسير الميسر:١٧٩.
(٢) تفسير الطبري:١٣:٤٦٣.
(٣) شرح لامية ابن تيمية:٣/٦.

واختلف أهل العلم فيمن عني بهذه الآية، على قولين:
أحدهما: عني بها المشركون. وقال: معناه: أنهم لو رزقهم الله الفهم لما أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم، لم يؤمنوا به، لأن الله قد حكم عليهم أنهم لا يؤمنون. وهذا قول ابن جريج[١]، وابن زيد[٢].
والثاني: عني بها المنافقون. قالوا: ومعناه: لأنفذ لهم قولهم الذي قالوه بألسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم، ولو خرجوا معكم لتولوا وهم معرضون، ما وفَوا لكم بشيء مما خرجوا عليه. قاله عروة بن الزبير[٣]، وابن إسحاق[٤].
وذكر الماوردي في قوله تعالى:{لَأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال : ٢٣]، ثلاثة أقوال:
أحدهما : لأسمعهم الحجج والمواعظ سماعَ تفهيم وتعليم ، وهذا معنى قول ابن جريج[٥]، وابن زيد[٦].
وقال شيخ الإسلام:" أي: لأفهمهم ما سمعوه"[٧].
الثاني : لأسمعهم كلام الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره يشهدون بنبوتك. حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين[٨].
والثالث : لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه ، قاله الزجاج[٩].
قوله تعالى:{وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال : ٢٣]، أي:" ولو أسمعهم -على الفرض والتقدير- لتولَّوا عن الإيمان قصدًا وعنادًا بعد فهمهم له، وهم معرضون عنه، لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه"[١٠].
قال الطبري:أي:" ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به"[١١].
قال شيخ الإسلام:" ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها، {لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ}، فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفى عنهم صحة القوة العلمية، وصحة القوة العملية"[١٢].
قال ابن كثير:" أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ، ولا قصد لهم صحيح ، لو فرض أن لهم فهما ، فقال : { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ } أي : لأفهمهم ، وتقدير الكلام : ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم ؛ لأنه يعلم أنه { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ } أي : أفهمهم { لَتَوَلَّوْا } عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ، { وَهُمْ مُعْرِضُونَ } عنه"[١٣].
قال عروة بن الزبير:"{ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} ولو خرجوا معكم لتولوا وهم معرضون ما وفوا لكم بشيء مما خرجوا عليه"[١٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٣):ص٤٦٢/١٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٤):ص٤٦٢/١٣.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٩٤٤):ص١٦٧٨/٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٦):ص٤٦٢/١٣-٤٦٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٣):ص٤٦٢/١٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٤):ص٤٦٢/١٣.
(٧) الإيمان:١٥.
(٨) انظر: النكت والعيون:٣٠٧/٢.
(٩) انظر:معاني القرآن:٤٠٩/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٧٩.
(١١) تفسير الطبري:٤٦٣:١٣.
(١٢) الإيمان:١٥.
(١٣) تفسير ابن كثير:٣٤/٤.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٤٦):ص١٦٧٩/٥.

عن ابن زيد:" {ولو أسمعهم}، بعد إذ يعلم أن لا خير فيهم ما نفعهم بعد أن ينفذ علمهم بأنهم لا ينتفعون به"[١].

الفوائد:

١- أ الله سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة فيمن هدى وأضل لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه المناسب.

٢- أن هدايته جل وعلا مع أنه تفضل منه فهو أيضا وضع لها في الموضع المناسب إذ هذا مقتضى وصفه جل وعلا بالحكمة. قال سبحانه: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام:٥٣].

٣- ومن ضل فإن الله سبحانه لم يظلمه شيئاً ولم يبخسه حقه إنما منعه فضله وهدايته، وذلك أيضاً لحكمة بالغة فإن الضال ليس بمحلٍ للهداية فهدايته وضع لها في غير موضعها قال عزوجل: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}.

٤- أن كل من ضل عن الحق فإنه من هذا الصنف الذين علم الله عزوجل أنه لا خير فيهم ولو علم فيهم خيراً لهداهم.

٥- الآية دليل على أن خبث الكفار لا يزول، قال تعالى:{ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم} فقوله {خيرا}، نكرة في سياق الشرط فهي تعم، فلو كان فيهم خيرا ما، لعلمه الله[٢].

٦- والآية دليل على أن علم الله أحاط بكل شيء، فإن علم الله ما يكون وما وقع، وما لم يقع، وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون، هو ليس موجوداً، لكن لو قدر الله أن يوجد هذا الممكن في الكون أمامنا شاهداً حاضراً فكيف سيكون، وهذا من العلم الممكن، قال الله تعالى عن الكافرين أنهم لا يسمعون سمع إجابة: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢٢ - ٢٣]، إذاً: الله جلا وعلا لم يسمعهم سمع إجابة، ولو أسمعهم الله لعاندوا وتعنتوا، وأعرضوا عن الله جل وعلا، ومن الممكن أيضاً خروج المنافقين في الصف المسلم يعيثون فساداً في الصف المسلم، قال الله تعالى عن المنافقين: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة:٤٧]، فهذا أيضاً علم ما لم يكن لو كان كيف سيكون يعني: لو خرج المنافق مع النبي ﷺ لأفسد في الصفوف الإسلامية، وهذا من الممكن.

كذلك من الممكن في الآخرة عندما يقف أهل الكفر على النار، ويتمنون الرجعة، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا} [الأنعام:٢٧ - ٢٨] يعني: لو قدر الله جل وعلا أن يخلق الدنيا مرة ثانية ويردهم إليها ويبعث إليهم محمداً فلن يؤمنوا له، قال تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام:٢٨]، هذا كله في الممكنات الله يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون، أما في المستحيلات لو كان للكون أكثر من خالق ماذا سيحدث؟! نحن لا نعلم، والله جل وعلا بين لنا أنه لو قدر أن للكون أكثر من خالق لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض ولذلك قال الله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء:٢٢].

إذاً: علم الله جل وعلا علم شمولي أحاط بكل شيء علماً فعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون، أنتم اعتقدتم هذا الاعتقاد الجازم في قلوبكم بأن صفة العلم لله جل وعلا ثابتة أزلية أبدية يعلم بها كل شيء عظيم ودقيق، يعلم ما كان وما م يكن لو كان كيف سيكون، قال الله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد:٣١]، حتى هذه للغاية، ثم يقول لنا: (ولنبلونكم) ربما أنزل الله البلاء لكي يعلم

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٤٥):ص١٦٧٩/٥.

[٢] الإيمان باليوم الآخر، الصلابي:١٨٨.

المجاهدين والصابرين، والله يعلم كل شيء فكيف يقول (حتى نعلم) هنا في الآية؟ الصحيح أن سابق علم الله مكتوب في اللوح المحفوظ، لكن لو أتى الله جل وعلا بالعبد الكافر فقال: إني أعلم قبل أن أخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة أنك كافر، ورماه في النار، فقد تكون له الحجة على الله فيقول: يا رب! لو تركتني لكنت مؤمناً بك، ولذلك قال الله تعالى في الحكمة من إرسال الرسل: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:١٦٥]، حتى لا تكون عندهم حجة {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء:١٥]، فعلم الله جل وعلا يظهره، حتى يكون حجة على الناس، وهذا العلم يسمى علم المحاسبة، سيحاسبك الله عليه وإلا فهو يعلم كل شيء دقيقه وجليله[١].

٧- والآية دليل على ان كلام الله مسموع.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)} [الأنفال : ٢٤]

التفسير:

يا أيها الذين صدِّقوا بالله ربًا وبمحمد نبيًا ورسولا استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم لما يحييكم من الحق، ففي الاستجابة إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة، واعلموا -أيها المؤمنون- أن الله تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء، والقادر على أن يحول بين الإنسان وما يشتهيه قلبه، فهو سبحانه الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعاكم؛ إذ بيده ملكوت كل شيء، واعلموا أنكم تُجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي كلا بما يستحق.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ٢٤]، أي:" يا أيها الذين صدِّقوا بالله ربًا وبمحمد نبيًا ورسولا"[٢].

قوله تعالى:{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال : ٢٤]، أي:" استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم لما يحييكم من الحق، ففي الاستجابة إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة"[٣].

قال الطبري:أي:" استجيبوا لله وللرسول بالطاعة ، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق"[٤].

وفي قوله تعالى:{إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال : ٢٤]، سبعة أقوال:

أحدها : إذا دعاكم إلى الإيمان ، قاله السدي[٥].

والثاني : إذا دعاكم إلى الحق ، قاله مجاهد[٦].

والثالث : إذا دعاكم إلى ما في القرآن ، قاله قتادة[٧].

والرابع : إذا دعاكم إلى الحرب وجهاد العدو ، قاله ابن إسحاق[٨].

والخامس : إذا دعاكم إلى ما فيه دوام حياتكم في الآخرة ، ذكره علي بن عيسى[٩].

والسادس : إذا دعاكم إلى ما فيه إحياء أمركم في الدنيا ، قاله الفراء[١٠].

---

[١] شرح كتاب التوحيد لاين خريمة: الدرس(٦).[مرقم آليا].

[٢] التفسير الميسر:١٧٩.

[٣] التفسير الميسر:١٧٩.

[٤] تفسير الطبري:٤٦٦/١٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٧):ص٤٦٣/١٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٦٨)- (١٥٨٧١):ص٤٦٤/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٧٢):ص٤٦٤/١٣-٤٦٥.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٧٣):ص٤٦٥/١٣.

[٩] انظر: النكت والعيون:٣٠٨/٢.

[١٠] انظر: معاني القرآن:٤٠٧/١.

والسابع : أنه على عموم الدعاء فيما أمرهم به[١].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قولُ من قال : معناه : استجيبوا لله وللرسول بالطاعة ، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق. وذلك أن ذلك إذا كان معناه ، كان داخلا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد ، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن ، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب. أما في الدنيا ، فبقاء الذكر الجميل ، وذلك له فيه حياة. وأما في الآخرة ، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها.

وأما قول من قال : معناه الإسلام ، فقول لا معنى له. لأن الله قد وصفهم بالإيمان بقوله : {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} ، فلا وجه لأن يقال للمؤمن : استجب لله وللرسول إذا دعا إلى الإسلام والإيمان"[٢].

روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : "مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أُبيّ وهو قائم يصلي فصرخ به قال : يَاأُبيّ، قال: فعجل في صلاته ، ثم جاء ، فقال رسول الله -ﷺ- : مَا مَنَعَكَ إِذْ دَعَوتُكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟، قال : يا رسول الله كنت أصلي ، فقال : أَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ:{اسْتَجِيْبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، قال بلى يا رسول الله ، لا أعود"[٣].

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال : ٢٤]، أي:" واعلموا -أيها المؤمنون- أن الله تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء، والقادر على أن يحول بين الإنسان وما يشتهيه قلبه، فهو سبحانه الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعاكم؛ إذ بيده ملكوت كل شيء"[٤].
شيء"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال : ٢٤]، سبعة أقوال:

أحدها : يحول بين الكافر والإيمان ، وبين المؤمن والكفر ، قاله ابن عباس[٥]، وسعيد بن جبير[٦]، والضحاك[٧]، ومجاهد-في أحد قوليه-[٨].

والثاني : يحول بين المرء وعقله، فلا يدري ما يعمل ، قاله مجاهد[٩].

والثالث : يحول بين المرء وقلبه أن يقدر على إيمان أو كفر إلا بإذنه ، قاله السدي[١٠].

والرابع : معناه: أنه قريب من قلبه يحول بينه وبين أن يخفى عليه شيء من سره أو جهره فصار أقرب من حبل الوريد ، وهذا تحذير شديد ، قاله قتادة[١١].

والخامس : معناه: يفرق بين المرء وقلبه بالموت فلا يقدر على استدراك فائت . ذكره علي بن عيسى .

والسادس : يحول بين المرء وما يتمناه بقلبه من البقاء وطول العمر والظفر والنصر ، حكاه ابن الأنباري[١٢].

والسابع : يحول بين المرء وما يوقعه في قلبه من رعب خوف أو قوة وأمن ، فيأمن المؤمن من خوفه ، ويخاف الكافر عذابه[١].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٣٠٨/٢.

[٢] تفسير الطبري:٤٦٥/١٣.

[٣]أخرجه أحمد (٤١٢/٢، رقم ٩٣٣٤) ، والترمذى (١٥٥/٥، رقم ٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٧٤٥/١، رقم ٢٠٥١).

[٤] التفسير الميسر:١٧٩.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٨٠)، و(١٥٨٨١)، و(١٥٨٨٩)، و(١٥٨٩٠):ص٤٦٨/١٣-٤٦٩.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٧٦):ص٤٦٨/١٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٨٢)-(١٥٨٨٨):ص٤٦٨/١٣-٤٦٩.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٩١):ص٤٧٠/١٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٨٩٥)-(١٥٨٩٩):ص٤٧٠/١٣-٤٧١.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٠١):ص٤٧١/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٠٢):ص٤٧١/١٣.

[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٠٨/٢.

قال الطبري:" وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال : إن ذلك خبرٌ من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر ذو قلب أن يُدرك به شيئًا من إيمان أو كفر ، أو أن يَعِي به شيئًا ، أو أن يفهم ، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن " الحول بين الشيء والشيء " ، إنما هو الحجز بينهما ، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه ، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبَه إدراكَه سبيلٌ. وإذا كان ذلك معناه ، دخل في ذلك قول من قال : " يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان " ، وقول من قال : «يحول بينه وبين عقله»، وقول من قال : «يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه»، لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه ، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما مُنِع إدراكه به على ما بيَّنتُ. غير أنه ينبغي أن يقال : إن الله عم بقوله : {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} ، الخبرَ عن أنه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء ، والكلام محتمل كل هذه المعاني ، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له"[2].

قوله تعالى:{وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال : ٢٤]، أي:" واعلموا أنكم تُجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي كلا بما يستحق"[3].

قال الطبري:" معناه : واعلموا ، أيها المؤمنون ، أيضًا ، مع العلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه : أنّ الله الذي يقدر على قلوبكم ، وهو أملك بها منكم ، إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة ، فيوفِّيكم جزاء أعمالكم ، المحسنَ منكم بإحسانه ، والمسيءَ بإساءته ، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم هو ورسوله أن تضيعوه ، وأن لا تستجيبوا لرسوله إذا دعاكم لما يحييكم ، فيوجب ذلك سَخَطَه ، وتستحقوا به أليم عذابه حين تحشرون إليه"[4].

عن مقاتل بن حيان:{وأنه إليه تحشرون}، يعني: إليه ترجعون"[5].

الفوائد:

١- وجب الاستجابة. لنداء الله ورسوله بفعل الأمر وترك النهي لما في ذلك من حياة الفرد المسلم.
٢- تعين اغتنام فرصة الخير قبل فواتها فمتى سنحت للمؤمن تعين عليه اغتنامها.
٣- أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا. فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

إن الدين وحده الذي صاحب البشرية منذ طفولتها، ولم يفارقها في صباها وشبابها وكهولتها، ولم يزل سلطانه مهيمنا عليها هو الذي يحل لغز الوجود، ويفسر سر الحياة والموت، وغير ذلك إنه الدين نحن أحوج ما نكون إليه، والناس بغير دين يكونون كالأموات، كما قال رب الأرض والسماوات: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} [الأنفال: ٢٤] فالحياة مع هذا الدين سيما الحق قال تعالى: {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} [الأنعام: ١٢٢].

---

[1] انظر: النكت والعيون:٣٠٩/٢.
[2] تفسير الطبري:٤٧١/١٣-٤٧٢.
[3] التفسير الميسر:١٧٩.
[4] تفسير الطبري:٤٧٢/١٣.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٥٩):ص١٦٨١/٥.

إن الإنسان بغير دين كالأعرج أو الأعوج غذى جسده، ولم يغذ روحه فلن يجد سعادته، ولن يجد سكينته، وسائر الكفار مع ما أوتوا من نعم الدنيا وزخارفها، لكنهم غفلوا عن الدين، وعن الآخرة؛ فكان الأمر، كما قال الله: {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} [الروم: ٧] فمع هذه الغفلة عن الآخرة، وعن الدين ننظر إليهم، وإلى واقعهم، لقد جربوا كل ضروب السعادة فيما يظنون، وفنون السكينة فيما يزعمون، لكنهم لم يجدوها إلا مع الدين سيما أسلموا لله رب العالمين، واعتنقوا الدين الحق، فالحمد لله رب العالمين.

٤- أن الدعوة الإسلامية دعوة عامة إلى الحياة الحقيقية، فالدين هو الذي يدفع الأمة في اتجاه التقدم، والدين هو صانع الحضارات، ما من حضارة قامت في الشرق أو في الغرب إلا على أساسه، وسيظل هذا شأن الإنسانية في كل زمان ومكان، ولهذا كانت عقيدة المؤمن حياة بعد ممات ورزقا وفرحا بفضل الله، ولم يكن الموت عدما بل هو معبر إلى رضوان، ونعيم مقيم خالد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}.

القرآن

{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)} [الأنفال : ٢٥]

التفسير:

واحذروا -أيها المؤمنون- اختبارًا ومحنة يُعَمُّ بها المسيء وغيره لا يُخَص بها أهل المعاصي ولا مَن باشر الذنب، بل تصيب الصالحين معهم إذا قدروا على إنكار الظلم ولم ينكروه، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ونهيه.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: عن الحسن؛ قال: "نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير -رضي الله عنهم- "[١]. [ضعيف]

والثاني: عن السدي؛ قال: "نزلت في أهل بدر خاصة، وأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا"[٢]. [ضعيف جداً]

والثالث: عن الضحاك؛ قال: "نزلت في أصحاب محمد - ﷺ – خاصة"[٣]. [ضعيف جداً]

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال : ٢٥]، أي:" واحذروا -أيها المؤمنون- اختبارًا ومحنة يُعَمُّ بها المسيء وغيره لا يُخَص بها أهل المعاصي ولا مَن باشر الذنب، بل تصيب الصالحين معهم إذا قدروا على إنكار الظلم ولم ينكروه"[٤].

قال الحافظ الكلبي الغرناطي: "أي: لا تصيب الظالمين، بل تصيب معهم من لم يغير المنكر، ولم ينه عن الظلم، وإن كان لم يظلم"[٥].

---

[١]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٠٣):ص٤٧٣/١٣ بسند صحيح إلى الحسن بن أبي جعفر ثنا داود بن أبي هند عن الحسن.
قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، وضعف الحسن بن أبي جعفر.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٦) وزاد نسبته لابن المنذر.
[٢]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٠٧):ص٤٧٤/١٣ من طريق أسباط عنه به.
قلنا: وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط بن نصر.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٦) وزاد نسبته لأبي الشيخ.
[٣]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (/ ٤٦) وزاد نسبه لعبد بن حميد.
وسنده ضعيف؛ لإعضاله.
[٤] التفسير الميسر:١٧٩.
[٥]كتاب التسهيل:١١٦/٢.

قال ابن عباس:" أمر الله المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم ، فيعمَّهم الله بالعذاب"[١].

عن الضحاك في قوله: "{واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم}، قال: تصيب الصالح والظالم عامة"[٢]. وروي عن حبيب بن أبي ثابت نحو ذلك[٣].

عن مجاهد:"{واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة}، قال:هى أيضًا لكم"[٤].

قال ابن زيد: " «الفتنة»، الضلالة"[٥].

قال عبد الله : "ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله يقول:{ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة الأنفال : ٢٨] ، فليستعذ بالله من مُضِلات الفتن"[٦].

عن الحسن قال : قال الزبير : "لقد خُوِّفنا، بها يعني: قوله :{واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة}"[٧].

قال القرطبي:" قال علماؤنا: فالفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم .. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال : ٢٥]، خمسة أقوال:

أحدها : أنه المنكر ، أمر الله تعالى المؤمنين ألا يقروه بين أظهرهم فيعمهم العذاب. قاله ابن عباس[٩].

والثاني : أنها الفتنة بالأموال والأولاد كما قال تعالى:{إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُم فِتْنَةٌ} [الأنفال : ٢٨]. قاله عبد الله بن مسعود[١٠].

والثالث : أن الفتنة ها هنا البلية التي يبلى الإنسان بها ، وهذا معنى قول الحسن[١١].

والرابع : أنها نزلت في النكاح بغير وليّ ، قاله بشر بن الحارث[١٢].

والخامس : أنها إظهار البدع. افاده الماوردي[١٣].

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال : ٢٥]، أي:" واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ونهيه"[١٤].

قال الطبري:" قوله : {واعلموا أن الله شديد العقاب}، فإنه تحذير من الله ، ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها بقوله : {واتقوا فتنة}، يقول : اعلموا ، أيها المؤمنون ، أن ربكم شديد عقابه لمن افتُتن بظلم نفسه ، وخالف أمره ، فأثم به"[١٥].

---

[١] أخرجه الطبري(١٥٩٠٩):ص٤٧٤/١٣.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٦٥):ص١٦٨٢/٥.
[٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٨٢/٥ . حكاه دون ذكر الإسناد.
[٤] أخرجه الطبري(١٥٩١٠):ص٤٧٥/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٥٩١١):ص٤٧٥/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٥٩١٢):ص٤٧٥/١٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٥٩١٣):ص٤٧٥/١٣.
[٨] تفسير القرطبي:٣٩٢/٧[باختصار].
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٠٩):ص٤٧٤/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٩١٢):ص٤٧٥/١٣.
[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٩٦٠):ص١٦٨١/٥، وانظر نحوه في: تفسير الطبري(١٥٩٠٣)، و(١٥٩٠٥):ص٤٧٣/١٣.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٠٩/٢.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٣٠٩/٢.
[١٤] التفسير الميسر:١٧٩.
[١٥] تفسير الطبري:٤٧٦/١٣.

قال ابن عثيمين: " وسميت المؤاخذة عقاباً؛ لأنها تأتي عقب الذنب" [1].

قال السعدي: " من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم، وتجرأ على ترك الواجبات" [2].

الفوائد:

١- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء للفتن العامة التي يهلك فيها العادل والظالم.

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر به قوام الدين، وحفظ الملة، وتحقيق هوية الأمة، وكذا الأخذ على يد الظالم، وإلا عمّ العقاب الصالح والطالح قال الله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥]، وهو غير محصور بأصحاب الولايات فقط، بل جائز فعله لآحاد المسلمين، بشرط أن لا يجلب ضررًا أشد من ضرر وجود المنكر، وعلى هذا كان تاريخ المسلمين.

٢- أن المسئولية الاجتماعية ليست خاصة بطرف دون آخر، ولا بفرد دون فرد، وإنما هي مسئولية جماعية لأن السفينة واحدة، فإن عرفت غرقت بكل من فيها وإن نجت فإنها تنجو بكل من فيها.

٣- ومنها: إثبات شدة العقاب من الله لمن خالف أمره ونهيه ؛ وهذا من تمام عدله وحكمته.

٤- ومنها: أن العلم بشدة عقوبة الله من أهم العلوم؛ ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى به بخصوصه؛ لأنه يورث الخوف من الله، والهرب من معصيته.

٥- ومنها: أن شدة العقاب من كمال المعاقِب، وبسط قوته، وسلطانه؛ ولا يوصف الله سبحانه وتعالى إلا بالكمال؛ بل أمَرَنا أن نعلم ذلك في قوله تعالى: {واعلموا أن الله شديد العقاب}.

القرآن

{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)} [الأنفال : ٢٦]

التفسير:

واذكروا أيها المؤمنون نِعَم الله عليكم إذ أنتم بـ «مكة» قليلو العدد مقهورون، تخافون أن يأخذكم الكفار بسرعة، فجعل لكم مأوى تأوون إليه وهو «المدينة» ، وقوَّاكم بنصره عليهم يوم «بدر» ، وأطعمكم من الطيبات -التي من جملتها الغنائم-؛ لكي تشكروا له على ما رزقكم وأنعم به عليكم.

قوله تعالى:{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال : ٢٦]، أي:" واذكروا أيها المؤمنون نِعَم الله عليكم إذ أنتم بـ «مكة» قليلو العدد مقهورون" [3].

قال الطبري:" وهذا تذكيرٌ من الله عز وجل أصحابَ رسول الله ﷺ ، ومناصحة. يقول : أطيعوا الله ورسوله ، أيها المؤمنون ، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم ، ولا تخالفوا أمرَه وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة ، فإن الله يهوّنه عليكم بطاعتكم إياه ، ويعجّل لكم منه ما تحبون ، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم ، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم" [4].

---

[1] تفسير ابن عثيمين(سورة البقرة): ٢/ ٣٩٥.

[2] تفسير السعدي: ١/ ٩٠.

[3] التفسير الميسر:١٨٠.

[4] تفسير الطبري:٤٧٦/١٣.

قوله تعالى:{تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ} [الأنفال : ٢٦]، أي:" تخافون أن يأخذكم الكفار بسرعة"[١].

قال الطبري: أي:"تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم"[٢].

قال قتادة:" كان هذا الحي من العرب أذلَّ الناس ذلا وأشقاهُ عيشًا، وأجوعَه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينَه ضلالا مكعومين، على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يوكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرَّ منهم منزلا حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسَّع به في الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس. فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى"[٣].

وفي قوله تعالى:{تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ} [الأنفال : ٢٦]، وجهان:

أحدهما : يعني بالناس كفار قريش ، قاله عكرمة[٤]، وقتادة[٥].

والثاني : فارس والروم ، قاله وهب بن منبه[٦]، وهو مروي عن قتادة أيضا[٧].

قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب ، قولُ من قال: عُني بذلك مشركو قريش، لأن المسلمين لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبل الهجرة من غيرهم ، لأنهم كانوا أدنى الكفار منهم إليهم ، وأشدَّهم عليهم يومئذ ، مع كثرة عددهم ، وقلة عدد المسلمين"[٨].

قوله تعالى:{فَآوَاكُمْ} [الأنفال : ٢٦]، أي:" فجعل لكم مأوى تأوون إليه وهو «المدينة»"[٩].

قال الطبري:" يقول : فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم.. يعني : آواكم المدينة"[١٠].

عن السدي : "{فآواكم}، قال : إلى الأنصار بالمدينة"[١١].

عن عكرمة : "{فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات} ، يعني بالمدينة"[١٢].

قوله تعالى:{وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ} [الأنفال : ٢٦]، أي:" وقوَّاكم بنصره عليهم يوم «بدر»"[١٣].

قال الطبري:" يقول : وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر،"[١٤].

عن السدي : "{وأيدكم بنصره، وهؤلاء أصحابُ محمد ﷺ ، أيدهم بنصره يوم بدر"[١٥].

قوله تعالى:{وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [الأنفال : ٢٦]، أي:" وأطعمكم من الطيبات -التي من جملتها الغنائم-"[١٦].

قال الطبري:" يقول : وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبًا "[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٠.

[٢] تفسير الطبري:١٣/٤٧٦-٤٧٧.

[٣] أخرجه الطبري(١٥٩١٩):ص١٣/٤٧٨-٤٧٩.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٩١٤):ص١٣/٤٧٧.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٩١٦):ص١٣/٤٧٨.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٩١٨):ص١٣/٤٧٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٩١٩):ص١٣/٤٧٨-٤٧٩.

[٨] تفسير الطبري:١٣/٤٧٩.

[٩] التفسير الميسر:١٨٠.

[١٠] تفسير الطبري:١٣/٤٧٧، ٤٧٩.

[١١] أخرجه الطبري(١٥٩٢٠):ص١٣/٤٧٩.

[١٢] أخرجه الطبري(١٥٩٢١):ص١٣/٤٧٩.

[١٣] التفسير الميسر:١٨٠.

[١٤] تفسير الطبري:١٣/٤٧٧.

[١٥] أخرجه الطبري(١٥٩٢٠):ص١٣/٤٧٩.

[١٦] التفسير الميسر:١٨٠.

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال : ٢٦]، أي:" لكي تشكروا له على ما رزقكم وأنعم به عليكم"[٢].

قال الطبري:" يقول : لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم"[٣].

قال ابن كثير:في تفسير الآية:" ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم ، ومستضعفين خائفين فقوّاهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه ، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك ومجوسي ورومي ، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة ، فآواهم إليها ، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم ، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله"[٤].

الفوائد:

١- وجوب ذكر النعم لشكرها بطاعة الله ورسوله ﷺ.

٢- وجوب شكر النعم بحمد الله تعالى والثناء عليه والاعتراف بالنعمة له والتصرف فيها حسب مرضاته.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)} [الأنفال : ٢٧]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تخونوا الله ورسوله بترك ما أوجبه الله عليكم وفِعْل ما نهاكم عنه، ولا تفرطوا فيما ائتمنكم الله عليه، وأنتم تعلمون أنه أمانة يجب الوفاء بها.

في سبب نزول هذه الآية الكريمة والتي بعدها، وجوه:

أحدها: عن جابر: "أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي - ﷺ - فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فقال النبي - ﷺ - لأصحابه: "إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا؛ فاخرجوا إليه واكتموا"، قال: فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: أن محمداً يريدكم؛ فخذوا حذركم؛ فأنزل الله -تعالى-: {لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ}"[٥]. [ضعيف]

والثاني: عن الزهري؛ قوله: {لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ}؛ قال: نزلت في أبي لبابة بعثه رسول الله - ﷺ - فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال الزهري: فقال أبو لبابة: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل: يا أبا لبابة قد تيب عليك، قال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله - ﷺ - هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من توبتي أن

---

[١] تفسير الطبري:٤٧٧/١٣.

[٢] التفسير الميسر:١٨٠.

[٣] تفسير الطبري:٤٧٧/١٣.

[٤] تفسير ابن كثير:٤٠/٤-٤١.

[٥] أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٢٢):ص٤٨٠/١٣: ثنا القاسم بن بشر بن معروف ثنا شبابة بن سوار ثنا محمد بن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر (فذكره).

قلنا: محمد هذا لم نجد له ترجمة بعد طول بحث.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٨) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٣١٣): "هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر".

أهجر دار قومي التي أصبت بها الذنب وأن أنخلع من مالي، قال: يجزئك الثلث أن تصدق به"[١]. [ضعيف]

وعن الكلبي: "أن رسول الله - ﷺ - بعث أبا لبابة -رضي الله عنه- إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأومأ بيده؛ أي: الذبح؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)}، فقال رسول الله - ﷺ - لامرأة أبي لبابة: "أيصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة؟ "، فقالت: إنه ليصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله، فبعث إليه؛ فأتاه فقال: يا رسول الله! والله إني لأصلي وأصوم وأغتسل من الجنابة، وإنما نهست إلى النساء والصبيان فوقعت لهم، فما زالت في قلبي حتى عرفت أني خنت الله ورسوله"[٢]. [موضوع]

وروي عن لبابة بنت أبي لبابة؛ قالت: "كنت أنا صاحبته فكان يقول: شدي وثاق عدو الله الذي خان الله ورسوله، فمر به أبو رفاعة بن عبد المنذر فناداه: يا أخي، هلم أكلمك؟ فقال: لا، والله لا أكلمك أبداً، حتى يرضى الله عنك ورسوله، فسأل عنه رسول الله - ﷺ - فقالوا: هو في المسجد وأخبروه بخبره، فقال: "لو جاءني؛ لكان لي فيه أمر"؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} الآية، ونزلت الآية الأخرى فيه: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ} [التوبة: ١٠٦]"[٣]. [ضعيف]

عن عكرمة؛ قال: "لما كان شأن بني قريظة، بعث إليهم النبي - ﷺ - علياً -رضي الله عنه- فيمن كان عنده من الناس انتهى إليهم؛ وقعوا في رسول الله - ﷺ -، وجاء جبريل -عليه السلام- إلى رسول الله - ﷺ - على فرس أبلق، فقالت عائشة -رضي الله عنها-: فلكأني أنظر إلى رسول الله - ﷺ - مسح الغبار عن وجه جبريل -عليه السلام-، فقلت: هذا دحية يا رسول الله؟ قال: "هذا جبريل"، فقال: يا رسول الله! ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم؟ فقال رسول الله - ﷺ -: "فكيف لي بحصنهم؟ "، فقال جبريل -عليه السلام-: "إني أدخل فرشي هذا عليهم"، فركب رسول الله - ﷺ - فرساً معروراً، فلما رآه علي -رضي الله عنه-، قال: يا رسول الله! لا عليك أن لا تأتيهم؛ فإنهم يشتمونك، فقال: "كلا إنها ستكون تحية"، فأتاهم النبي - ﷺ - فقال: "يا إخوة القردة والخنازير!! "؛ فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً . .؟! فقالوا: لا ننزل على حكم محمد - ﷺ - ولكننا ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا؛ فحكم فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم؛ فقال رسول الله - ﷺ -: "بذلك طرقني الملك سحراً"؛ فنزل فيهم: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)}؛ نزلت في أبي لبابة -رضي الله عنه-، أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، لا تفعلوا؛ فإنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه"[٤]. [ضعيف]

---

[١] أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٢٣):ص١٣/٤٨١-٤٨٢، من طريق سنيد صاحب "التفسير": ثني أبو سفيان عن معمر عن الزهري به.
قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:
الأولى: الإرسال.
الثانية: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف؛ كما تقدم مراراً، ثم إن أبا سفيان هذا لم نعرفه.

[٢] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٨، ٤٩) ونسبه لعبد بن حميد.
قلنا: الكلبي كذاب، وهو مع ذلك معضل.

[٣] أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٦/ ٣٤٣٧، ٣٤٣٨ رقم ٧٨٢٨) من طريق بهلول بن مورق -وفي المطبوع: مرزوق، وهو خطأ؛ فليحرر-: ثنا موسى بن عبيدة عن سعيد بن جبير -وفي المطبوع: جبريل!! - مولى أبي لبابة ويعقوب بن زيد عن لبابة به.
قلنا: وهذا سند ضعيف؛ موسى بن عبيدة ضعيف؛ كما في "التقريب".
وبه أعله الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في "الإصابة" (٤/ ٣٩٩).

[٤] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٩) ونسبه لابن مردويه.
قلنا: وهو ضعيف؛ لإرساله.

وروي عن عبد الله بن أبي قتادة، يقول: "نزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)} في أبي لبابة "[١]. [ضعيف]

والثالث: عن المغيرة بن شعبة؛ قال: "نزلت هذه الآية في قتل عثمان"[٢]. [ضعيف جداً]

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله ، وخيانة أمانته وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة وجائز أن تكون نزلت في غيره ، ولا خبر عندنا بأيّ ذلك كان يجب التسليم له بصحته"[٣].

قال الحافظ ابن كثير :" والصحيح أن الآية عامة ، وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية"[٤].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ٢٧]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[٥].

قوله تعالى:{لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [الأنفال : ٢٧]، أي:" لا تخونوا الله ورسوله بترك ما أوجبه الله عليكم وفِعْل ما نهاكم عنه"[٦].

قال الطبري:يقول:" لا تنقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه ، ولا رسوله من واجب طاعته عليكم ، ولكن أطيعوهما فيما أمراكم به ونهياكم عنه"[٧].

وفي خيانة الله، قولان:

أحدهما: ترك فرائضه. قاله ابن عباس[٨].

والثاني: معصية رسوله.

وفي خيانة الرسول، قولان:

أحدهما: مخالفته في السر بعد طاعته في الظاهر. قاله عروة بن الزبير[٩]، وابن إسحاق[١٠].

والثاني: ترك سنته وارتكاب معصيته. قاله ابن عباس[١١].

وذكر الماوردي في قوله تعالى:{لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [الأنفال : ٢٧]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: لا تخونوا الله سبحانه والرسول عليه السلام كما صنع المنافقون في خيانتهم ، قاله الحسن[١٢]، والسدي[١]، وابن زيد[٢].

---

[١]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٢٤):ص٤٨٢/١٣، وسعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ٢٠٥ رقم ٩٨٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٨٤ رقم ٨٩٧٥) من طريق ابن عيينة ثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت عبد الله بن أبي قتادة به.

قلنا: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٨) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ.

[٢]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٢٥):ص٤٨٢/١٣: ثني الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز بن أبان ثنا يونس بن الحارث الطائفي ثنا محمد بن عبد الله بن عون الثقفي عن المغيرة به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: عبد العزيز بن أبان؛ متروك الحديث، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب".

الثانية: يونس بن الحارث الطائفي؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

الثالثة: محمد بن عبد الله هذا لم نعرفه ولم نجد له ترجمة.

[٣] تفسير الطبري:٤٨٣/١٣.

[٤] تفسير ابن كثير:٤١/٤.

[٥] التفسير الميسر:١٨٠.

[٦] التفسير الميسر:١٨٠.

[٧] تفسير الطبري:٤٨٦/١٣.

[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٧٤):ص١٦٨٣/٥.

[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٧٩):ص١٦٨٤/٥.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٢٩):ص٤٨٤/١٣.

[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٧٨):ص١٦٨٤/٥.

[١٢] انظر: النكت والعيون:٣١٠/٢.

والثاني : لا تخونوا الله والرسول فيما جعله لعباده من أموالكم .
والثالث: أن خيانة الله بمعصية رسوله، وخيانة الرسول ، بمعصية كلماته. أفاده الماوردي[٣].

قوله تعالى:{وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال : ٢٧]، أي:" ولا تفرطوا فيما ائتمنكم الله عليه"[٤].

قال الطبري:أي:" وتنقصوا أديانكم ، وواجب أعمالكم ، ولازمَها لكم"[٥].

قال ابن قتيبة:" يقال لعاصي المسلمين: خائن، لأنّه مؤتمن على دينه. قال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ [الأنفال: ٢٧]. يريد المعاصي، وقال الله تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ١٨٧] أي: رتخونونها بالمعصية"[٦].

وفي المراد بـ«الأمانات»، ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس[٧].
وفي خيانتها قولان: أحدهما: تنقيصها. قاله ابن عباس[٨].
والثاني: تركها[٩].
والقول الثاني: أنها الدين، قاله ابن زيد[١٠]، فيكون المعنى: لا تظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر.
والثالث: أنها عامة في خيانة كل مؤتمن، ويؤكده نزولها في ما جرى لأبي لبابة. أفاده ابن الجوزي[١١].

قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال : ٢٧]، أي:" وأنتم تعلمون أنه أمانة يجب الوفاء بها"[١٢].

قال الطبري:أي:" أنها لازمة عليكم ، وواجبة بالحجج التي قد ثبتت لله عليكم"[١٣].

عن ابن زيد في قول الله :"{وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون}، قال: قد فعل ذلك المنافقون، وهم يعلمون أنهم كفار يظهرون الإيمان"[١٤].

الفوائد:
١- تحريم الخيانة مطلقا وأسوأها ما كان خيانة لله ورسوله.
٢- أن الخيانة في الأمانة من صفات المنافقين، قال ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان"[١٥]، فالخيانة في الأمانة سواء كانت هذه الأمانة مالا أو سرا من الأسرار أو عملا من الأعمال: كموظف وكل إليه أن يقوم بعمل فخان فيه، أو مقاول تعهد بإقامة عمل أو مشروع من المشاريع فخان فيه وغش فيه هذا من الخيانة، فالخيانة قد تكون في الأموال وقد تكون في الأسرار التي يؤتمن عليها، إما من الأفراد وإما من ولاة الأمور.

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٢٧):ص٤٨٣/١٣.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٧٦):ص١٦٨٤/٥.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣١٠/٢.
[٤] التفسير الميسر:١٨٠.
[٥] تفسير الطبري:٤٨٦/١٣.
[٦]تاويل مشكل القرآن: ٢٦٢.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٨٠):ص١٦٨٤/٥.
[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٨٠):ص١٦٨٤/٥.
[٩] انظر: زاد المسير:٢٠٣/٢.
[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٨٩٨١):ص١٦٨٥/٥.
[١١] انظر: زاد المسير:٢٠٣/٢، وانظر: سبب نزول الآية.
[١٢] التفسير الميسر:١٨٠.
[١٣] تفسير الطبري:٤٨٦/١٣.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٨٣):ص١٦٨٥/٥.
[١٥]البخاري: الإيمان (٣٣) ، ومسلم: الإيمان (٥٩) ، والترمذي: الإيمان (٢٦٣١) ، والنسائي: الإيمان وشرائعه وشرائعه (٥٠٢١) ، وأحمد (٣٥٧/٢، ٣٩٧/٢، ٥٣٦/٢).

وكذلك تكون الأمانة أيضا في الأعمال والعهد التي يتعهد بها، فيجب عليه أن يفي بما التزم به وما عهد إليه القيام به، سواء كان عملا وظيفيا أو كان عملا مهنيا، عهد إليه بعمل يقوم به من بناء أو غير ذلك أو مقاولة أو غير ذلك، فيجب أن يكون أمينا فيما اؤتمن عليه، فإن خان فإن الله سبحانه وتعالى توعد الخائنين؛ قال تعالى: {وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} ، قال سبحانه وتعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢٧) } ، {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} ، {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٨) } ، إلى غير ذلك من الآيات التي تعظم من شأن الأمانة، وتأمر بحفظها وأدائها كما تحملها الإنسان.

٣-

٤- أنه من أحب غير الله معظما مستسلما لحكمه منفذا لنظامه منقادا لتشريعه، أو عطل حدود الله ولم يقم بأوامره ويحافظ على شريعته فهو خائن لله ورسوله، ناقض لهذا العهد العظيم.

القرآن

{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)} [الأنفال : ٢٨]

التفسير:

واعلموا -أيها المؤمنون- أن أموالكم التي استخلفكم الله فيها، وأولادكم الذين وهبهم الله لكم اختبار من الله وابتلاء لعباده؛ ليعلم أيشكرونه عليها ويطيعونه فيها، أو ينشغلون بها عنه؟ واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم لمن اتقاه وأطاعه.

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [الأنفال : ٢٨]، أي:" واعلموا -أيها المؤمنون- أن أموالكم التي استخلفكم الله فيها، وأولادكم الذين وهبهم الله لكم اختبار من الله وابتلاء لعباده؛ ليعلم أيشكرونه عليها ويطيعونه فيها، أو ينشغلون بها عنه؟"[١].

قال ابن كثير:"أي:اختبار وامتحان منه لكم ؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه ، وتعتاضون بها منه ؟ كما قال تعالى : { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [التغابن : ١٥] ، وقال : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الأنبياء : ٣٥] ، وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المنافقون : ٩] ، وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ } الآية [التغابن : ١٤]"[٢].

قال الفخر:" لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد. نبه تعالى على أنه يجب على العاقل يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب. فقال: { أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}، لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجابا عن خدمة المولى"[٣].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال : ٢٨]، أي:" واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم لمن اتقاه وأطاعه"[٤].

قال ابن كثير:" أي : ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئا ، والله ، سبحانه ، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة"[٥].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة: " {أجر عظيم}، قال: الجنة" [١]. وروي عن الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة والضحاك وقتادة نحو ذلك[٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٠.

[٢] تفسير ابن كثير:٤٢/٤.

[٣] مفاتيح الغيب:٤٧٥/١٥.

[٤] التفسير الميسر:١٨٠.

[٥] تفسير ابن كثير:٤٢/٤.

قال القرطبي:" وإذا قال الله تعالى: {أجر عظيم}، و {أجر كريم} [يس: ١١]، و {أجر كبير} [هود: ١١]، فمن ذا الذي يقدر قدره؟ "(٣).

وفي الأثر يقول الله تعالى : "ابن آدم ، اطلبني تَجدني ، فإن وَجَدْتَنِي وجَدْتَ كل شيء ، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء"(٤).

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار"(٥).

بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت في الصحيح أنه ، عليه السلام ، قال : "والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين"(٦).

الفوائد:

١- في المال والأولاد فتنة قد تحمل على خيانة الله ورسوله، فيلحذرها المؤمن.
٢- ومنها: كرم الله عز وجل إذ جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه، أجراً لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.
٣- الترغيب بذكر الوعد، قال تعالى: :{وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)} [الأنفال : ٢٩]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه إن تتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فصلا بين الحق والباطل، ويَمحُ عنكم ما سلف من ذنوبكم ويسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها. والله ذو الإحسان والعطاء الكثير الواسع.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ٢٩]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"(٧).

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"(١).

---

(١)تفسير ابن أبي حاتم (٤٥١٥): ص ٣/ ٨١٧.
(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٥١٥): ص ٣/ ٨١٧.
(٣)تفسير القرطبي: ٦/ ١١٠.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٢/٤.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية :" وفي حديث إسرائيلي« يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكلفت برزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني؛ فإن وجدتني وجدت كل شيء؛ وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء». مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥٢/٨.
وكذا ذكره العلامة ابن القيم حيث قال :"وفي الأثر الإلهى: ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم أطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيء وإن فاتك، فاتك كل شيء وأنا أحب اليك من كل شيء ...". الجواب الكافي ١٤٠/١.
(٥)حديث أنس: أخرجه الطيالسى (ص ٢٦٤، رقم ١٩٥٩) ، وأحمد (١٠٣/٣، رقم ١٢٠٢١) ، والبخارى (١٤/١، رقم ١٦) ، ومسلم (٦٦/١، رقم ٤٣) ، والترمذى (١٥/٥، رقم ٢٦٢٤) ، وقال: حسن صحيح. والنسائى فى الكبرى
(٥٢٧/٦، رقم ١١٧١٨) ، وابن ماجه (١٣٣٨/٢، رقم ٤٠٣٣) ، وابن حبان (٤٧٤/١، رقم ٢٣٨) .
حديث أبى أمامة: أخرجه الطبرانى (٢٦٢/٨، رقم ٨٠١٩) ، قال الهيثمى (٥٥/١) : فيه فضال بن جبير لا يحل الاحتجاج به.
(٦)صحيح البخاري برقم (١٤).
(٧) التفسير الميسر:١٨٠.

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء، دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[٢].

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قوله تعالى:{إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال : ٢٩]، أي:" إن تتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فصلا بين الحق والباطل"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، إن تتقوا الله بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وترك خيانته وخيانة رسوله وخيانة أماناتكم {يجعل لكم فرقانًا}، يقول: يجعل لكم فصلا وفرْقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين، بنصره إياكم عليهم، وإعطائكم الظفر بهم"[٤].

وفي قوله تعالى:{إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الأنفال : ٢٩]، خمسة أقوال:

أحدها : معنى {فرقاناً}، أي: هداية وفصلا في قلوبكم، تفرقون بها بين الحق والباطل ، قاله عروة بن الزبير[٥]، وابن زيد[٦]، وابن إسحاق[٧].

قال ابن كثير:" وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله ؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره ، وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا ، وسعادته يوم القيامة ، وتكفير ذنوبه - وهو محوها - وغفرها : سترها عن الناس - سببًا لنيل ثواب الله الجزيل ، كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الحديد : ٢٨]"[٨].

والثاني : يعني: مخرجاً في الدنيا والآخرة ، قاله ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، وعكرمة[١١]، والضحاك[١٢]، واختاره ابن قتيبة[١٣].

والثالث : يعني نجاة ، قاله ابن عباس أيضا[١٤]، ومجاهد أيضا[١٥]، وقتادة[١٦]، وعكرمة[١٧]، والسدي[١٨].

([١]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.
([٢]) تفسير ابن عثيمين:٣٣٧/١.
([٢]) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.
([٣]) التفسير الميسر:١٨٠.
([٤]) تفسير الطبري:٤٨٧/١٣.
([٥]) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٩٠):ص١٦٨٦/٥.
([٦]) انظر: النكت والعيون:٣١١/٢.
([٧]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٥):ص٤٩٠/١٣.
([٨]) تفسير ابن كثير:٤٣/٤.
([٩]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٤٢):ص٤٨٩/١٣.
([١٠]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٣٦)-(١٥٩٤١):ص٤٨٨/١٣-٤٨٩.
([١١]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٤٨):ص٤٨٩/١٣.
([١٢]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٤٥)، و(١٥٩٤٦):ص٤٨٩/١٣.
([١٣]) انظر: غريب القرآن:١٧٨.
([١٤]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٢):ص٤٩٠/١٣.
([١٥]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٠):ص٤٨٩/١٣-٤٩٠.
([١٦]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٣):ص٤٩٠/١٣.
([١٧]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٤٥):ص٤٨٩/١٣.
([١٨]) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥١):ص٤٩٠/١٣.

والرابع : فتحاً ونصراً، ومنه قوله {يوم الفرقان يوم التقى الجمعان}، أي: يوم الفتح والنصر. قاله الفراء[١].

خامساً : يفرق بينكم وبين الكافر في الآخرة . أفاده الماوردي[٢].

قوله تعالى:{وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [الأنفال : ٢٩]، أي:" ويَمحُ عنكم ما سلف من ذنوبكم"[٣].

قال الطبري:" يقول: ويمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم بينكم وبينه"[٤].

قوله تعالى:{وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [الأنفال : ٢٩]، أي:" ويسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها"[٥].

قال الطبري:" يقول: ويغطيها فيسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها"[٦].

عن مجاهد في قوله :"{يغفر} الكثير من الذنوب لمن يشاء"[٧]. وروي عن الثوري مثل ذلك[٨].

قال الشيخ السعدي:" امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}"[٩].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال : ٢٩]، أي:" والله ذو الإحسان والعطاء الكثير الواسع"[١٠].

قال الطبري:" يقول: والله الذي يفعل ذلك بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه بفعله ذلك وفعل أمثاله. وإنّ فعله جزاءٌ منه لعبده على طاعته إياه، لأنه الموفق عبده لطاعته التي اكتسبها، حتى استحقّ من ربه الجزاء الذي وعدَه عليها"[١١].

قال ابن عباس:" إذا قال الله للشيء عظيم فهو عظيم"[١٢].

عن سعيد بن جبير قوله: "{العظيم}، يعني: وافرا"[١٣].

الفوائد:

١- من ثمرات التقوى تكفير السيآت وغفران الذنوب، والفرقان وهو نور في القلب يفرق به المتقى بين الأمور المتشابهات والتي خفي فيها وجه الحق والخير.
٢- أن التقوى يُوفِّقُ صاحبها لإصابة الحق.

---

[١] انظر: معاني القرآن:٤٠٨/١.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣١١/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٨٠.
[٤] تفسير الطبري:٤٨٧/١٣.
[٥] التفسير الميسر:١٨٠.
[٦] تفسير الطبري:٤٨٧/١٣.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٩١):ص١٦٨٦/٥.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٦٨٦/٥ حكاه دون ذكر الإسناد.
[٩] تفسير السعدي:٣١٨.
[١٠] التفسير الميسر:١٨٠.
[١١] تفسير الطبري:٤٨٧/١٣-٤٨٨.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٩٢):ص١٦٨٦/٥.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٨٩٩٣):ص١٦٨٦/٥.

٣- أخبر بالأسباب التي تنال بها هداية الله، ويستحق بها العبد أن يبقى على ضلاله، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً}، وكقوله: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ} [المائدة: ١٦]، وكقوله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]، وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، وقوله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً} [البقرة: ١٠]، وقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠]، وقوله: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف:٣٦]

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر في هداية من يهديه وإضلال من يضله ما شهد لله بكمال الحكمة والحمد.

القرآن

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)} [الأنفال : ٣٠]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- حين يكيد لك مشركو قومك بـ «مكَّة» ؛ ليحبسوك أو يقتلوك أو ينفوك من بلدك. ويكيدون لك، وردَّ الله مكرهم عليهم جزاء لهم، ويمكر الله، والله خير الماكرين.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: عن المطلب بن أبي وداعة: "أن أبا طالب قال لرسول الله - ﷺ -: ما يأتمر به قومك، قال: "يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني"، فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: "ربي"، قال: نعم، الرب ربك فاستوص به خيراً، فقال رسول الله - ﷺ -: "أنا أستوصي به، بل هو يستوصي بي خيراً"؛ فنزلت: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)}"[١]. [حسن]

والثاني: عن معاوية بن قرة: "أن قريشاً اجتمعت في بيت، وقالوا: لا يدخل معكم اليوم إلا من هو منكم، فجاء إبليس فقال له: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، وأنا ابن أختكم، فقالوا: ابن أخت القوم منهم، فقال بعضهم: أوثقوه، فقال: أيرضى بنو هاشم بذلك؟ فقال بعضهم: أخرجوه، فقال: يؤويه غيركم، فقال أبو جهل: ليجتمع من كل بني أبي رجل فيقتلوه، فقال إبليس: هذا الأمر الذي قال الفتى؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)}"[٢].

وفي السياق نفسه روي عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما

---

[١] أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٦٣): ص٤٩٢/١٣، ثني محمد بن إسماعيل البصري ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن المطلب.

قلنا: وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-؛ رجاله ثقات؛ عدا عبد المجيد هذا فيه كلام طويل، ولخصه الحافظ بقوله: "صدوق يخطئ"، وهو أثبت الناس في ابن جريج، وعنعنة ابن جريج عن عطاء خاصة محمولة على الاتصال.

قال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٣١٤): "وذكر أبي طالب في هذا غريب جداً، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمان والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترأوا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه، والدليل على صحة ما قلنا. ." ثم ذكر حديث ابن عباس الواهي الذي ذكرنا آنفاً.

قلنا: حديث المطلب هذا من حيث السند أقوى من حديث ابن عباس جزماً، وإن كان في حديث المطلب بعض النكارة لا نحكم عليه كله؛ تماماً كحديث بحيرة الراهب الذي فيه جملاً مستنكرة ومع ذلك؛ فالمحدثين من أهل العلم صححوه؛ لصحة سنده، وأنكروا بعض ما فيه؛ لمخالفته للصحيح والواقع.

[٢] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥٣) ونسبه لعبد بن حميد.

رأوه؛ قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم؛ فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل أدخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يؤاتيكم في أموركم بأمره، قال: فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء؛ زهير، والنابغة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي، فقال: والله ما هذا لكم رأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا: فانظروا في غير هذا، قال: فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه؛ فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع، وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي؛ ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن عليكم ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق، والله فانظروا رأياً غير هذا، قال: فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعدما أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسطاً شاباً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها؛ فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، قال: فأتى جبريل النبي - ﷺ - فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة الأنفال، يذكره نعمه عليه وبلاءه عنده: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)} وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)} [الطور: ٣٠]، وكان يسمى ذلك اليوم: يوم الزحمة، للذي اجتمعوا عليه من الرأي "[1]. [ضعيف]

قوله تعالى:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ} [الأنفال : ٣٠]، أي:" واذكر -أيها الرسول- حين يكيد لك مشركو قومك بـ «مكَّة» ليحبسوك"[2].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ، مذكِّرَه نعمه عليه : واذكر ، يا محمد ، إذ يمكر بك الذين كفروا من مشركي قومك كي يثبتوك"[3].

قال أبو الليث:" يعني: ليحبسوك في البيت"[4].

---

[1] أخرجه ابن إسحاق في "المغازي والسير" (٢/ ٩٥) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٦٥):ص٤٩٤/١٣-٤٩٥، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (ص ١٥٦، ١٦٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٨٦، ١٦٨٧ رقم ٨٩٩٤)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩) - عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس.

ومن طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

قلنا: وهذا موضوع ، فالكلبي شيخ ابن إسحاق كذاب ونحوه شيخه أبو صالح.

والطريق الأولى لم يصرح ابن إسحاق فيها بالسماع وهو مدلس، ولعله أسقط الكلبي، وفي رواية لأبي نعيم حدثني من لا أتهم.

وفي رواية أخرى عنده: ثني ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

قلنا: وهو وهم ففي الطريق إليه سلمة بن الأبرش وهو صدوق كثير الخطأ، وكذا في الطريق إليه الفضل بن غانم؛ قال ابن معين: ليس بشيء، وقال الدارقطني: ليس بشيء، وضعفه الخطيب؛ كما في "الميزان" (٣/ ٣٥٧).

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥١) وزاد نسبته لابن المنذر.

[2] التفسير الميسر:١٨٠.

[3] تفسير الطبري:٤٩١/١٣.

[4] بحر العلوم:١٨/٢.

قال السعدي:" أي: {و} أذكر أيها الرسول، ما منَّ الله به عليك. {إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا} حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه"[١].

وفي قوله تعالى:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ} [الأنفال : ٣٠]، اقوال:

أحدها : ليثبتوك في الوثاق ، قاله ابن عباس[٢]، والحسن، ومجاهد[٣]، وقتادة[٤]، ومقسم[٥]، والسدي[٦].

والثاني : ليثبتوك في الحبس ، قاله عطاء[٧]، وعبد الله بن كثير[٨]، وابن زيد[٩].

والثالث : الإثبات، هو الحبس والوَثَاق. قاله السدي[١٠].

قال ابن كثير:" وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء"[١١].

والرابع: ليسحروك. روي عن المطلب بن أبي وَداعة : "أن أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يأتمر به قومك ؟ قال : يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني! فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : ربي! قال : نعم الرب ربك ، فاستوص به خيرًا! فقال رسول الله ﷺ : أنا أستوصي به! بل هو يستوصي بي خيرًا" ! فنزلت : {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك}، الآية"[١٢].

والخامس: معنى: يثبتوك، أي: يخرجوك، كما يقال قد أثبته في الحرب إذا أخرجته ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين[١٣].

قوله تعالى:{أَوْ يَقْتُلُوكَ} [الأنفال : ٣٠]، أي:" أو يقتلوك بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين القبائل"[١٤].

قال السعدي:" وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره"[١٥].

قال أبو الليث: يعني: "بالسيف"[١٦].

قال مقاتل:" يعني: أبا جهل"[١٧].

قال الواحدي:أي:" بأجمعهم قتلةَ رجلٍ واحدٍ كما قال اللَّعين أبو جهل"[١٨].

قوله تعالى:{أَوْ يُخْرِجُوكَ} [الأنفال : ٣٠]، أي:" أو ينفوك من بلدك «مكة»"[١٩].

قال السعدي:" وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم"[٢٠].

---

[١] تفسير السعدي:٣١٩.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٦):ص٤٩١/١٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٧):ص٤٩١/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٩):ص٤٩٢/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٦٠):ص٤٩٢/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٥٦):ص٤٩١/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٦١):ص٤٩٢/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٦١):ص٤٩٢/١٣، و تفسير ابن أبي حاتم(٨٩٩٦):ص١٦٨٨/٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٦٢):ص٤٩٢/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٥٩٦٠):ص٤٩٢/١٣.
[١١] تفسير ابن كثير:٤٣/٤.
[١٢] أخرجه الطبري(١٥٩٦٣):ص٤٩٢/١٣.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٣١٢/٢.
[١٤] انظر: صفوة التفاسير:٤٦٥/١.
[١٥] تفسير السعدي:٣١٩.
[١٦] بحر العلوم:١٨/٢.
[١٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١١٢/٢.
[١٨] الوجيز:٤٣٧.
[١٩] انظر: التفسير الميس: ١٨٠، وصفوة التفاسير:٤٦٥/١.
[٢٠] تفسير السعدي:٣١٩.

قال أبو الليث: يعني: " من مكة"[1].

وفي قوله تعالى:{أَوْ يُخْرِجُوكَ} [الأنفال : ٣٠]، وجهان:

أحدهما : أو يخرجوك من مكة إلى طرف من أطراف الأرض كالنفي[2].

قال مقاتل:يعني:"من مكة، يعنى به: هشام ابن عمرو"[3].

والثاني : أو يخرجوك على بعير مطرود حتى تهلك ، أو يأخذك بعض العرب فتقتلك فتريحهم منك ، قاله الفراء[4].

عن مجاهد:" {ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك}، كفار قريش حين أرادوا ذلك بمحمد ﷺ قبل أن يخرج من مكة"[5].

عن عبيد بن عمير" أن أبا طالب قال للنبي ﷺ :هل تدري ما ائتمر فيك قومك؟ قال: نعم، ائتمروا أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني قال: من أخبرك هذا؟ قال: ربي، قال: نعم الرب ربك فاستوص به خيرا، قال: أنا استوصي به أو هو يستوصي بي؟"[6].

قال السعدي:" فكلٌّ أبدى من هذه الآراء رأيا رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفا صارما، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل. فيرضى بنو هاشم [ثَمَّ] بديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه "[7].

قوله تعالى:{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} [الأنفال : ٣٠]، أي:" يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم"[8].

قال أبو الليث: " يعني: ويمكرون بالنبي ﷺ ويريدون به الشر، {ويمكر الله}، يعني: ويريد بهم الهلاك حين أخرجهم إلى بدر فقتلوا"[9].

قال مقاتل:" {ويمكرون} بالنبي- ﷺ- الشر، {ويمكر الله}، بهم حين أخرجهم من مكة فقتلهم ببدر"[10].

وقال الحسن: "فيقولون ويقول الله"[11].

وقال الضحاك: "ويصنعون ويصنع الله"[12].

قال السعدي:"فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذرَّ على رءوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذَرَّ على رءوسكم التراب.

فنفض كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج [ص:٣٢٠] مستخفيا منهم، خائفا على نفسه، فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالب"[13].

---

[1] بحر العلوم:١٨/٢.
[2] انظر: النكت والعيون:٣١٢/٢، والوجيز للواحدي:٤٣٧.
[3] تفسير مقاتل بن سليمان:١١٢/٢.
[4] انظر: معاني القرآن:٤٠٩/١.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٩٧):ص١٦٨٨/٥.
[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٩٨):ص١٦٨٨/٥.
[7] تفسير السعدي:٣١٩.
[8] صفوة التفاسير:٤٦٥/١.
[9] بحر العلوم:١٨/٢.
[10] تفسير مقاتل بن سليمان:١١٢/٢.
[11] الكشف والبيان:٣٥٠/٤.
[12] الكشف والبيان:٣٥٠/٤.
[13] تفسير السعدي:٣١٩.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال : ٣٠]، أي:" مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيرا"(١).

قال مقاتل:أي:" أفضل مكرا منهم"(٢).

قال الثعلبي:أي: " خير من استنقذك منهم وأهلكهم"(٣).

قال الواحدي:أي:" أفضل المجازين بالسيئة العقوبة وذلك أنَّه أهلك هؤلاء الذين دبَّروا لنبيِّه الكيد وخلَّصه منهم"(٤).

قال أبو الليث: " يعني: أصدق الماكرين فعلا، وأفضل الصانعين صنعا، وأعدل العادلين عدلا"(٥).

عن عروة بن الزبير:" {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}، أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم"(٦).

الفوائد:

١- التذكير بنعم الله تعالى على البعد ليجد العبد في نفسه داعية الشكر فيشكر.
٢- بيان مدى ما قاومت به قريش دعوة الإسلام حتى إنها أصدرت حكمها بقتل الرسول ﷺ.
٣- بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية، وأنهم بذلوا كل جهد في سبيل إنهائها والقضاء عليها.
٤- وفي الآية دليل على تشكل الجن ورؤيتهم، إذ أن الشيطان تصور في صورة شيخ نجدي، عندما اجتمعت قريش بدار الندوة، لتمكر بالرسول - ﷺ -، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين}.

ومن الفوائد: أن الجزء بجنس العمل على مستوى الوسائل:

إن أي تدبير أو فعل من العبد مهما بلغ في اتقانه ونسجه فإن الله هو القاهر فوق عباده لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء، وفي هذه الغاية القصوى في استشعار العبد بالمراقبة، ومن ثم الامتثال بالعبودية.

ومن الآيات الدالة على هذه المسألة:

- قوله تعالى:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْيَقْتُلُوكَ أَوْيُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[الأنفال:٣٠].
- وقوله تعالى: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ} [الطور: ٤٢].
- وقال تعالى: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا" (الطارق: ١٥ ـ ١٦].
- وقال تعالى عن صالح ـ عليه السلام ـ وقومه ثمود: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِمَ ما شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}[النمل: ٤٨ ـ ٥١].
- ـ وقال تعالى: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[آل عمران:٥٤ ـ ٥٥].

---

(١) صفوة التفاسير:٤٦٥/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١١٢/٢.
(٣) الكشف والبيان:٣٥٠/٤.
(٤) الوجيز:٤٣٧.
(٥) بحر العلوم:١٨/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٩٩٩):ص١٦٨٨/٥.

وسمي جزاء المكر مكراً، وجزاء الكيد كيداً، تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل[(١)].

القرآن

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)} [الأنفال : ٣١]

التفسير:

وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا بالله آيات القرآن العزيز قالوا جهلا منهم وعنادًا للحق: قد سمعنا هذا من قبل، لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا -أيها الرسول- إلا أكاذيب الأولين.

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير؛ قال: "قتل النبي - ﷺ - يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث، وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله؛ قال المقداد: يا رسول الله! أسيري، فقال رسول الله - ﷺ -: "إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول"، فأمر النبي - ﷺ - بقتله، فقال المقداد: أسيري، فقال رسول الله - ﷺ -: "اللهم أغن المقداد من فضلك"، فقال المقداد: هذا الذي أردت، وفيه أنزلت هذه الآية: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)}"[(٢)]. [ضعيف]

عن ابن جريج؛ قوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا}؛ قال: كان النضر بن الحارث يختلف تاجراً إلى فارس، فيمر بالعباد وهم يقرؤون الإنجيل، ويركعون ويسجدون، فجاء مكة؛ فوجد محمداً - ﷺ - قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد، فقال النضر: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا للذي سمع من العباد؛ فنزلت: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا}، قال: فقص ربنا ما كانوا قالوا بمكة، وقص قولهم إذ قالوا: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ} الآية"[(٣)]. [ضعيف جداً]

عن السدي؛ قال: كان النضر بن الحارث بن علقمة أخو بني عبد الدار يختلف إلى الحيرة، فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلما قدم مكة سمع كلام النبي - ﷺ - والقرآن، فقال: {قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} يقول: أساجيع أهل الحيرة"[(٤)]. [ضعيف [ضعيف جداً]

قوله تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا} [الأنفال : ٣١]، أي:" وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا بالله آيات القرآن العزيز"[(٥)].

عن أبي مالك قوله: "{إذا}، يعني: لم يكن"[(١)].

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم :٢/ ٢٣٣.

(٢)أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٧٩):ص٥٠٤/١٣: ثنا محمد بن بشار بندار حدثنا محمد بن جعفر غندر ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد، رجاله ثقات.

ثم أخرجه من طريق هشيم نا أبو بشر به.

وهذا إسناد صحيح كالشمس؛ لكنه مرسل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥٤) وزاد نسبته لابن مردويه.

(٣)أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٧٧):ص٥٠٤/١٣ -: ثني حجاج قال: قال ابن جريج. . (وذكره).

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف سنيد صاحب "التفسير".

(٤)أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٧٨):ص٥٠٤/١٣، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٨٩ رقم ٩٠٠٢) من طريق أسباط بن نصر عن السدي.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

(٥) التفسير الميسر:١٨٠.

قوله تعالى:{قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا} [الأنفال : ٣١]، أي:" العزيز قالوا جهلا منهم وعنادًا للحق: قد سمعنا هذا من قبل، لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن"[٢].

قال سعيد بن جبير:" هو النضر بن الحارث"[٣].

قوله تعالى:{إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال : ٣١]، أي:" ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا -أيها الرسول- إلا أكاذيب الأولين"[٤].

قال قتادة:" أي: أحاديث الأولين وباطلهم"[٥].

قال السدي:" يقول: أساجيع أهل الحيرة"[٦].

قال السمعاني:" أي: أكاذيب الأولين؛ والأساطير: جمع الأسطورة، وهي المكتوبة.

فإن قيل: إذا كان القرآن معجزا كيف يستقيم قوله: {لو نشاء لقلنا مثل هذا} وهل يقول أحد: لو شئت قلبت الحجر ذهبا والعصا حية وهو عاجز عنه؟

قيل: إن القرآن مطمع ممتنع، فقد يتوهم صفوهم أنه يقول مثله، ويمتنع عليه ذلك فيخطئ ظنه. وقيل: إنه توهم بجهله أنه يمكنه الإتيان بمثله وكان عاجزا"[٧].

قال صاحب تفسير المنار: "وهذا شأن من ينظر إلى الشيء نظراً سطحياً، لا يستنبط منه علماً ولا برهاناً.. وأنّ مثلهم في هذا كمثل الطفل الذي يشاهد ألعاب الصور المتحركة، يديرها قوم لا يعرف لغتهم، وكل حظه مما يرى من المناظر، ومن المكتوبات المفسرة لها، لا يعدو التسلية"[٨].

الفوائد:

١- بيان عناد وظلم المكذبين للرسول -ﷺ-، وقد قد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم، فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

٢- أنه كان مقصود القوم من ذكر قولهم: {إِن هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، القدح في كون القرآن معجزاً، فكأنهم قالوا: إنّ هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة، والقصص المذكورة للأولين، وإذا كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين، وأقاصيص الأقدمين، لم يكن معجزاً خارقاً للعادة[٩].

قال سيد قطب: "وهم يعلمون جيداً أنّ هذا القرآن ليس بأساطير الأولين، ولكنهم إنّما كانوا يجادلون، ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب، ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة، وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصاً عن الرسل وأقوامهم، وعن مصارع الغابرين من المكذبين، فمن باب التمحل والتماس أوهى الأسباب، قالوا عن القصص وعن القرآن كله: {إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}"[١٠].

القرآن

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٠٠):ص١٦٨٩/٥.
[٢] التفسير الميسر:١٨٠.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٠١):ص١٦٨٩/٥.
[٤] التفسير الميسر:١٨٠.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٠٤):ص١٦٨٩/٥.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٠٥):ص١٦٨٩/٥.
[٧] تفسير السمعاني:٢٦١/٢.
[٨] تفسير المنار: ٣٤٨/٧.
[٩] انظر: مفاتيح الغيب:١٨٨/١٢.
[١٠] في ظلال القرآن: ١٧٧/٣.

{وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)} [الأنفال : ٣٢]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- قول المشركين من قومك داعين الله: إن كان ما جاء به محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب شديد موجع.

في سبب نزول الآيات[٣٢-٣٤]، وجوه:

أحدها: أنها نزلت في أبي جهل.

عن أنس؛ قال أبو جهل: "{اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}؛ فنزلت: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)}"[١]. [صحيح]

عن قتادة؛ قال: ذكر لنا أنها نزلت في أبي جهل بن هشام"[٢].

والثاني: أنها نزلت في النضر بن الحارث.

قال السمعاني:" أكثر المفسرين على أن هذا قول النضر بن الحارث"[٣].

عن سعيد بن جبير؛ قال: "نزلت في النضر بن الحارث"[٤]. [ضعيف]

عن مجاهد في قوله: {إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ}؛ قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة "[٥]. [ضعيف]

عن السدي؛ قال: "فقال-يعني: النضر بن الحارث-: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ} ما يقول محمد {هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، قال الله: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ} [المعارج: ١، ٢]"[٦]. [ضعيف جداً]

عن عطاء؛ قال: قال رجل من بني عبد الدار -يقال له: النضر بن كلدة-: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}؛ فقال الله: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)} [ص: ١٦]، وقال: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ٩٤]، وقال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ} [المعارج: ١، ٢]؛ قال عطاء: لقد نزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله"[٧]. [ضعيف]

والثالث: عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، يقولون: لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي - ﷺ -: "قد، قد"، فيقولون: لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك، غفرانك؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

---

[١]أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٨، ٣٠٩ رقم ٤٦٤٨، ٤٦٤٩)، ومسلم (٤/ ٢١٥٤ رقم ٢٧٩٦). وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥٥) ولم يعزه لمسلم؛ فليستدرك عليه.

[٢]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥٥) ونسبه لعبد بن حميد.

[٣] تفسير السمعاني:٢/٢٦١.

[٤]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٨١):ص١٣/٥٠٥، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٨٩ رقم ٩٠٠١) من طريق هشيم وشعبة كلاهما عن أبي بشر عن سعيد بن جبير.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد؛ رجاله ثقات.

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٩٠ رقم ٩٠٠٨، ٩٠١٣) من طريق سفيان الثوري عن الأعمش عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لجهالة الرجل الذي لم يسم.

[٥]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٨٤):ص١٣/٥٠٦، من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

[٦]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٨٦):ص١٣/٥٠٦، من طريق أسباط عنه به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

[٧]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٥٩٨٤):ص١٣/٥٠٦، من طريق طلحة بن عمرو القناد عنه به.

قلنا: وهذا مرسل حسن الإسناد..

وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)}؛ فقال ابن عباس: فيهم أمانان: نبي الله، والاستغفار؛ فذهب النبي - ﷺ -، وبقي الاستغفار: {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)}، قال: فهذا عذاب الآخرة، قال: وذاك عذاب الدنيا"[١]. [ضعيف]

والرابع: عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس؛ قالا: "قالت قريش -بعضها لبعض-: محمد أكرمه الله من بيننا، {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا} الآية، فلما أمسوا؛ ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} إلى قولهم: {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)}"[٢]. [ضعيف جداً]

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} [الأنفال : ٣٢]، أي:" واذكر -أيها الرسول- قول المشركين من قومك داعين الله: إن كان ما جاء به محمد هو الحق مِن عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء"[٣].

قال السدي:" قال النضر بن الحارث: اللهم إن كان ما يقول محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء"[٤].

قال ابن إسحاق:" ثم ذكر غِرَّة قريش واستفتاحهم على أنفسهم ، إذ قالوا : {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك}، أي : ما جاء به محمد، {فأمطر علينا حجارة من السماء}، كما أمطرتها على قوم لوط"[٥].

عن عروة بن الزبير :"{وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك}، أي: ما جاء به محمد ﷺ"[٦].

عن أبي مالك قوله:"{وإذ}، فقد كان"[٧].

قوله تعالى:{أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال : ٣٢]، أي:" أو ائتنا بعذاب شديد موجع"[٨].

عن ابن إسحاق:" {أو ائتنا بعذاب أليم}، أي : ببعض ما عذبت به الأمم قبلنا"[٩].

---

[١]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦٠٠٠):ص٥١١/١٣-٥١٢، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٩١ رقم ٩٠١٧)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٥/ ٤٥، ٤٦) من طريق أبي حذيفة ثنا عكرمة عن أبي زميل عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ أبو حذيفة هذا موسى بن مسعود النهدي؛ صدوق سيئ الحفظ، وكان يصحف.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥٥) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

وقد أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢/ ٨٤٣ رقم ١١٨٥) من طريق النضر بن محمد اليمامي ثنا عكرمة بن عمار ثنا أبو زميل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله - ﷺ -: "ويلكم قد قد". فيقولون: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت.

وأنت ترى أنه ليس فيه التصريح بسبب النزول؛ وهو الصواب.

[٢]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦٠٠١):ص٥١٢/١٣: ثنا الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز عن أبي معشر عن يزيد به.

قلنا: وهذا إسناد واهٍ بمرة؛ فيه علل:

الأولى: عبد العزيز بن أبان؛ متروك الحديث، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب".

الثانية: أبو معشر نجيح السندي؛ ضعيف، أسن واختلط.

الثالثة: الإرسال.

[٣] التفسير الميسر:١٨٠.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٠٩):ص١٦٩٠/٥.

[٥] أخرجه الطبري(١٥٩٨٩):ص٥٠٧/١٣. وأخرجه ابن ابي حاتم(١٤)(٩٠١٢):ص١٦٩٠/٥ عن عروة بن الزبير.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠١١):ص١٦٩٠/٥.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٠٦):ص١٦٨٩/٥.

[٨] التفسير الميسر:١٨٠.

[٩] أخرجه الطبري(١٥٩٨٩):ص٥٠٧/١٣، وأخرجه ابن ابي حاتم(٩٠١٤):ص١٦٩١/٥ عن عروة بن

قال السمعاني:" وهذا يدل على شدة بصيرتهم في الكفر، وأنه لم تكن لهم شبهة وريبة في كذب الرسول؛ لأن العاقل لا يسأل العذاب بمثل هذا متردد في أمره؛ وهذا دليل على أن العارف ليست بضرورته.

وحكى عن معاوية أنه قال لرجل من أهل اليمن: ما أجهل قومك حيث قالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، فقال الرجل وأجهل من قومي قومك؛ حيث قالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم"[1].

قال السعدي:" فمنذ قالوا: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ} الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية"[2].

الفوائد:

١- بيان ما كان عليه المشركون في مكة من بغض للحق وكراهية له حتى سألوا العذاب العام ولا يرون راية الحق تظهر ودين الله ينتصر.

٢- الآية تدل على استقرار الأرض وسكونها إذ أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض مركزاً للأثقال ومستقراً لما ينزل من السماء فلو سقطت السماء لوقعت على الأرض ولو سقط منها شيء لم يستقر إلا في الأرض.

٣- وفي الآية الكريمة نلتمس الآثار الإيمانية لاسم الله «الحليم»، وذلك كما مبين ادناه:

أولا:- إثبات صفة (الحلم) لله عز وجل، وهو الصفح عن العصاة من العباد، وتأجيل عقوبتهم رجاء توبتهم عن معاصيهم.

ثانيا:- وحلم الله سبحانه عن عباده، وتركه المعالجة لهم بالعقوبة، من صفات كماله سبحانه وتعالى، وتأجيل عقوبتهم رجاء توبتهم عن معاصيهم.

ثالثا:- وحلم الله سبحانه عن عباده، وتركه المعاجلة لهم بالعقوبة، من صفات كماله سبحانه وتعالى. فحلمه ليس لعجزه عنهم، وإنما هو صفح وعفو عنهم، أو إمهال لهم مع القدرة، فإن الله لا يعجزه شيء.

قال سبحانه:{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤].

وحلمه أيضاً ليس عن عدم علمه بما يعمل عباده من أعمال، بل هو العليم الحليم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

قال سبحانه وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا [الأحزاب: ٥١].

وحلمه عن خلقه ليس لحاجته إليهم، إذ هو سبحانه يحلم عنهم ويصفح ويغفر مع استغنائه عنهم، قال سبحانه اللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ [البقرة: ٢٣٥].

رابعا:- أن حلم الله عظيم، ويتجلى في صبره سبحانه على خلقه، والصبر داخل تحت الحلم، إذ كل حليم صابر، وقد جاء في السنة وصف الله عز وجل بالصبر، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم"[3].

قال الحليمي في معنى «الحليم»:" الذي لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكن يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه،

الزبير.

[1] تفسير السمعاني:٢٦١/٢.
[2] تفسير السعدي:٣٢٠.
[3] رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

كما يبقي البر التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره، فضلاً عن أن يدعوه، كما يقيها الناسك الذي يسأله، وربما شغلته العبادة عن المسألة"(١).

وقد أخبر تعالى عن تأخيره لعقاب من أذنب من عباده في الدنيا، وأنه لو كان يؤاخذهم بذنوبهم أولاً بأول، لما بقي على ظهر الأرض أحد.

قال سبحانه وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ [النمل: ٦١].

وقال:{ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً} [الكهف: ٥٨].

قال الطبري: "ولو يؤاخذ الله عصاة بني آدم بمعاصيهم {ما ترك عليها}، يعني: الأرض من دابة تدب عليها {ولكن يؤخرهم} يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، {إلى أجل مسمى} يقول: إلى وقتهم الذي وقت لهم، {فإذا جاء أجلهم} يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا آجالهم"(٢).

فتأخير العذاب عنهم إنما هو رحمة بهم، ولكن الناس يغترون بالإمهال، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته، حتى يأخذهم سبحانه بعدله وقوته، عندما يأتي أجلهم الذي ضرب لهم.

ومن العجب! أن يريد الله للناس الرحمة والإمهال، ويرفض الجهال منهم والأجلاف تلك الرحمة وذلك الإمهال، حين يسألون الله أن يعجل لهم العذاب والنقمة!

قال تعالى: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ [يونس: ١١].

وقال :{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ [ص: ١٦].

وقال عن كفار مكة :{وَإِذْ قَالُوا اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢].

وأمثال ذلك مما وقع من المسرفين السفهاء.

تنبيه: تأخير العذاب عن الكفار إنما هو في الدنيا فقط، وأما في الآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.

قال الأقليشي: أما تأخير العقوبة في الدنيا عن الكفرة والفجرة من أهل العصيان، فمشاهد بالعيان، لأنا نراهم يكفرون ويعصون، وهم معافون في نعم الله يتقلبون، وأما رفع العقوبة في الأخرى، فلا يكون مرفوعاً إلا عن بعض من استوجبها من عصاة الموحدين، وأما الكفار فلا مدخل لهم في هذا القسم، ولا لهم في الآخرة حظ من هذا الاسم، وهذا معروف بقواطع الآثار، ومجمع عليه عند أولى الاستبصار"(٣).

القرآن

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)} [الأنفال : ٣٣]

التفسير:

وما كان الله سبحانه وتعالى ليعذِّب هؤلاء المشركين، وأنت -أيها الرسول- بين ظهرانَيْهم، وما كان الله معذِّبهم، وهم يستغفرون من ذنوبهم.

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [الأنفال : ٣٣]، أي:" وما كان الله سبحانه وتعالى ليعذِّب هؤلاء المشركين، وأنت -أيها الرسول- بين ظهرانَيْهم"(٤).

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان)) (١/ ٢٠٠ - ٢٠١)، وانظر: ((الأسماء للبيهقي)) (ص: ٧٢ - ٧٣).

(٢) تفسير الطبري:١٧/ ٢٣٠.

(٣) الكتاب الأسنى. نقلا عن: الموسوعة العقدية- الدرر السنية:٤٠٢/٢

(٤) التفسير الميسر:١٨٠.

قال الضحاك :"يعني النبي -ﷺ-"[1].
وعن الضحاك أيضا: قوله: "{وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قال: المشركون الذين بمكة"[2].
قال ابن عباس يقول: ما كان الله سبحانه ليعذب قوما وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم"[3].
قال السمعاني:{فيهم}" يعني: أهل مكة"[4].
قال الكلبي[5]:" معناه: لو أراد أن يعذبهم أخرجك من بينهم"[6].
قال السعدي:" ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب"[7].
قال نجم الدين:" لأن الأنبياء رحمة، لا عذاب. فلا يعذب من هم فيه. ألا ترى أن لوطا لم يعذب قومه، حتى خرج عنهم، وصالح ونوح وموسى وغيرهم من الأنبياء كذلك. فهكذا. محمد لم يعذب أهل مكة حتى خرج منها"[8].
قال السبكب:" وقال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنته باقية فهو باق، فإذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن"[9].
قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال : ٣٣]، أي:" وما كان الله معذِّبهم، وهم يستغفرون من ذنوبهم"[10].
قال ابن عباس:" يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار فيستغفرون، يعني يصلون يعني بهذا أهل مكة"[11].
قال السعدي:" وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رءوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله [تعالى فلهذا] قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعد ما انعقدت أسبابه"[12].
وفي قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال : ٣٣]، وجوه:
أحدها: أن هذا في قوم من المسلمين بقوا بمكة بعد هجرة الرسول، وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر. وهذا معنى قول الضحاك[13]، وأبو مالك[14]، ومجاهد في أحد قوليه[15].
وروي عن عكرمة :"وهم يدخلون في الإسلام"[16].
عن عطية في قوله:{وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}، يعني: المؤمنين"[1].

---

[1] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١٨):ص١٦٩١/٥.
[2] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠١٩):ص١٦٩١/٥.
[3]أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٢٠):ص١٦٩٢/٥، واللالكائي في السنة ٥٥٧/٣.
[4] تفسير السمعاني:٢٦١/٢.
[5]أبو النصر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث النسابة المفسر، ولد بالكرفة وهو من كلب بن وبرة من قضاعة. وهو ضعيف الحديث، متهم بالرفض. قال النسائي:" حدث عنه ثقات من الناس، ورضوه في التفسير أما في الحديث ففيه مناكير" صنف كتابا في تفسير القرآن توفي بالكوفة سنة ست وأربعين ومائة. [انظر تهذيب التهذيب ٩/ ١٧٨، والأعلام ٦/ ١٣٣].
[6] انظر: الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، نجم الدين٥٥٦/٢. ولم اقف عليه.
[7] تفسير السعدي:٣٢٠.
[8] الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، نجم الدين٥٥٦/٢.
[9] السيف المسلول على من سب الرسول:٤٤٦.
[10] التفسير الميسر:١٨٠.
[11]أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٢٠):ص١٦٩٢/٥.
[12] تفسير السعدي:٣٢٠.
[13] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٦٩٢/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.
[14] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٦٩٢/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.
[15] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٢١):ص١٦٩٢/٥.
[16] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٦٩٢/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.

عن السدي {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}، قال: قال الله تعالى لرسوله، ما كنت معذبهم وهم يستغفرون يقول: لو استغفروا وأقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين"[2].

سئل سعيد بن جبير عن الاستغفار فقال:" قال الله عز وجل: {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}، يقول: يعملون على الغفران، وعلمت أن ناسا سيدخلون جهنم ممن يستغفرون بألسنتهم ممن يدعي الإسلام وسائر الملل"[3].

والثاني: أنه في قوم علم الله تعالى أنهم يؤمنون ويستغفرون من أهل مكة، وذلك مثل: أبي سفيان، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، ونحوهم، فلما كان في علم الله تعالى أنهم لأصحابه يسلمون ويستغفرون؛ عدهم مستغفرين في الحال. ذكره الماوردي[4].

والثالث: أن معناه: وما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر؛ إذ كان لبعضهم أولاد قد أسلموا. ذكره الماوردي[5]، والقرطبي[6].

والرابع: أنه قال: {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} دعوة لهم إلى الإسلام والاستغفار، كالرجل يقول: لا أعاقبك وأنت تطيعني، أي: أطعني حتى لا أعاقبك. ذكره الماوردي[7].

والخامس: قوله:{ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، معناه: يصلون، يعني: بهذا أهل مكة. قاله ابن عباس[8]، ومجاهد في قوله الآخر[9].

وفي الخبر: " أن النبي قال: أنزل الله على أمانين لأمتى : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} [الأنفال: ٣٣] {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣]، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة"[10].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: "من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاثًا غفرت ذنوبه وإن كان فارًّا من الزحف"[11].

قال السمعاني:"واستدل بهذا الأثر من عد الفرار من الزحف من جملة الكبائر"[12].

وفي حكم قوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}[الأنفال : ٣٣]، قولان:

أحدها: نسختها الآية التي بعدها {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ الله} [الأنفال : ٣٤]. وهذا قول ابن عباس[13]، والحسن[14]، وعكرمة[15].

والثاني: أنها محكمة. به قال النحاس[16]، والطبري[17]، ومكي بن ابي طالب[18]، وابن الجوزي[19].

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٢٢):ص١٦٩٢/٥.
(2) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٢٣):ص١٦٩٢/٥.
(3) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٢٤):ص١٦٩٢/٥.
(4) انظر: تفسير السمعاني:٢٦١/٢-٢٦٢.
(5) انظر: تفسير السمعاني:٢٦١/٢-٢٦٢.
(6) انظر: تفسير القرطبي: ٧/ ٣٩٩.
(7) انظر: تفسير السمعاني:٢٦١/٢-٢٦٢.
(8)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٢٠):ص١٦٩٣/٥ .
(9) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٢١):ص١٦٩٢/٥.
(10)أخرجه الترمذى (٢٧٠/٥، رقم ٣٠٨٢) ، وقال: غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف فى الحديث.
(11)أخرجه الحاكم (٦٩٢/١، رقم ١٨٨٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(12) تفسير السمعاني:٢٦٢/٢.
(13) انظر: تفسير الطبري(١٥٩٩٨):ص٥١١/١٣.
(14) انظر: تفسير الطبري(١٦٠١٧):ص٥١٧/١٣.
(15) انظر: تفسير الطبري(١٦٠١٧):ص٥١٧/١٣.
(16)انظر: الناسخ والمنسوخ: ١٥٣.
(17) انظر: تفسير الطبري:٥١٨/١٣.
(18) انظر: الإيضاح: ٢٥٨.
(19) انظر: نواسخ القرآن:٤٤٩/٢.

قال النحاس: "والنسخ هنا محال، لأنه خبر، خبر الله به ولا نعلم أحدا روى عنه إلا الحسن وسائر العلماء على أنها محكمة"[١].

قال ابن الجوزي: " لأن النسخ لا يدخل على الأخبار، وهذه الآية بينت أن كون الرسول فيهم منع نزول العذاب بهم، وكون المؤمنين يستغفرون بينهم منع أيضا والآية التي تليها بينت استحقاقهم العذاب لصدهم عن سبيل الله، غير أن كون الرسول والمؤمنين بينهم منع من تعجيل ذلك، أو عمومه، فالعجب من مدعي النسخ"[٢].

الفوائد:

١- النبي ﷺ أمان أمته من العذاب فلم تصب هذه الأمة بعذاب الاستئصال والإبادة الشاملة.

٢- فضيلة الاستغفار وأنه ينجى من عذاب الدنيا والآخرة.

القرآن

{وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)} [الأنفال : ٣٤]

التفسير:

وكيف لا يستحقُّون عذاب الله، وهم يصدون أولياءه المؤمنين عن الطواف بالكعبة والصلاة في المسجد الحرام؟ وما كانوا أولياء الله، إنْ أولياء الله إلا الذين يتقونه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون؛ فلذلك ادَّعوا لأنفسهم أمرًا، غيرهم أولى به.

قوله تعالى:{وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ} [الأنفال : ٣٤]، أي:" وكيف لا يستحقُّون عذاب"[٣]. عذاب"[٣].

قال السعدي:" أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله"[٤].

قال السمعاني:" فإن قال قائل: كيف التلفيق بين هذا وبين قوله: {وما كان الله ليعذبهم}؟

قيل: أراد بالأول: عذاب الاستئصال، وبهذا: عذاب السيف. وقيل: أراد بالأول: عذاب الدنيا، وبالثاني: عذاب الآخرة. وقيل: المراد به أولئك الذين ترك تعذيبهم؛ لكون النبي بينهم، ومعناه: وما لهم ألا يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم"[٥].

قوله تعالى:{وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الأنفال : ٣٤]، أي:" وهم يصدون أولياءه المؤمنين عن الطواف بالكعبة والصلاة في المسجد الحرام؟"[٦].

قال السمعاني:" أي: يمنعون عنه"[٧].

قال السعدي أي:" وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصا صدهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم"[٨].

قوله تعالى:{وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ} [الأنفال : ٣٤]، أي:" وما كانوا أولياء الله"[٩].

قال السعدي:" أي: المشركون"[١٠].

قال السمعاني:" وذلك أنهم كانوا يدعون: إنا أولياء البيت"[١١].

وفي هاء الكناية في قوله {وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ} قولان[١]:

---

[١] الناسخ والمنسوخ: ١٥٣.

[٢] نواسخ القرآن لابن الجوزي:٤٤٩/٢.

[٣] التفسير الميسر:١٨١.

[٤] تفسير السعدي:٣٢٠.

[٥] تفسير السمعاني:٢٦٢/٢-٢٦٣.

[٦] التفسير الميسر:١٨١.

[٧] تفسير السمعاني:٢٦٣/٢.

[٨] تفسير السعدي:٣٢٠.

[٩] التفسير الميسر:١٨١.

[١٠] تفسير السعدي:٣٢٠.

[١١] تفسير السمعاني:٢٦٣/٢.

أحدهما: أنها ترجع إلى المسجد، وهو قول الجمهور، والمعنى أنّ المشركين قالوا: نحن أولياء المسجد الحرام، فرد الله عليهم بهذا.
والثاني: أنها تعود إلى الله عز وجل.

قوله تعالى:{إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ} [الأنفال : ٣٤]، أي:" إنْ أولياء الله إلا الذين يتقونه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه"[٢].

قال السدي:" هم أصحاب رسول الله ﷺ"[٣].

قال السمعاني:" يعني: المؤمنين"[٤].

قال الطبري: "يقول: ما أولياء الله {إلا المتقون}، يعني: الذين يتقون الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه"[٥].

قال السعدي:" وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين"[٦].

عن مجاهد، في قول الله: "{إن أولياؤه إلا المتقون}، مَن كانوا، وحيث كانوا"[٧].

عن ابن إسحاق: "{وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون}، الذين يحرمون حرمته، ويقيمون الصلاة عنده، أي: أنت- يعني النبي ﷺ- ومن آمن بك"[٨].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأنفال : ٣٤]، أي:" ولكن أكثر الكفار لا يعلمون؛ فلذلك ادَّعوا لأنفسهم أمرًا، غيرهم أولى به"[٩].

قال الطبري: " يقول: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون، بل يحسبون أنهم أولياء الله"[١٠].

قال السعدي:" فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا غيرهم أولى به"[١١].

الفوائد:

١- بيان عظم جرم من يصد عن المسجد الحرام للعبادة الشرعية فيه.
٢- بيان أولياء الله تعالى والذين يحق لهم أن يلوا المسجد الحرام وهو المتقون.
٣- ومن هذا يتبين لنا أنّ ولي الله هو المؤمن التقي الصالح، المؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ، المطيع فيما يأمرُ به، المجتنب لما ينهى عنه.
٤- أن المظاهر وحدها لا تدلّ على الولاية، ونحن لا يمكننا أن نقطعَ لأحد بالولاية والتقوى، وإنّما يمكن أنْ نَحْكُم بإسلام شخص من خلال ما يظهر لنا من أحواله وسيرته على القاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام يعمل فيها بالظاهر، "والله يتولى السرائر"[١٢].

أمّا القطع بولاية شخص وتقواه، فهذا مردّه إلى الذي يعلم سرائر العباد، سبحانه وتعالى، قال عز وجل: {وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}[النساء:٢٥].

القرآن

---

[١] انظر: زاد المسير:٣٥٢/٣.
[٢] التفسير الميسر:١٨١.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٠١٨):ص٥٢٠/١٣.
[٤] تفسير السمعاني:٢٦٣/٢.
[٥] تفسيرالطبري:٥٢٠/١٣.
[٦] تفسير السعدي:٣٢٠.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٠١٩):ص٥٢٠/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٠٢١):ص٥٢٠/١٣.
[٩] التفسير الميسر:١٨١.
[١٠] تفسيرالطبري:٥٢٠/١٣.
[١١] تفسير السعدي:٣٢٠.
[١٢] انظر: شرح النووي: ٢/ ٤٦٦.

{وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)} [الأنفال : ٣٥]

التفسير:

وما كان صلاتهم عند المسجد الحرام إلا صفيرًا وتصفيقًا. فذوقوا عذاب القتل والأسر يوم «بدر» ؛ بسبب جحودكم وأفعالكم التي لا يُقْدم عليها إلا الكفرة، الجاحدون توحيد ربهم ورسالة نبيهم.

سبب النزول:

عن سعيد بن جبير؛ قال: "كانت قريش يعارضون النبي - ﷺ - في الطواف، يستهزئون به، ويصفرون ويصفقون؛ فنزلت: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)}"[١]. [ضعيف]

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "كانوا يطوفون بالبيب عراة؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)}؛ قال: والمكاء: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير، والتصدية: التصفيق، وأنزل فيهم: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ} [الأعراف: ٣٢]"[٢]. [ضعيف]

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-؛ قال: "كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون، ووصف الصفق بيده، ويصفرون، ووصف صفرهم، ويضعون خدودهم بالأرض؛ فنزلت هذه الآية"[٣]. [ضعيف]

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} [الأنفال : ٣٥]، أي:" وما كان صلاتهم عند المسجد الحرام إلا صفيرًا وتصفيقًا"[٤].

قال الطبري: يقول:"{وما كان صلاتهم عند البيت} ، يعني : بيت الله العتيق {إلا مُكاء} ، وهو الصفير، {وَتَصْدِيَةً}، أي: التصفيق"[٥].

عن ابن عباس قال : "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفّرون ويصفقون ، فأنزل الله : {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} [سورة الأعراف : ٣٢] ، فأمروا بالثياب"[٦].

وفي «المكاء»، ثلاثة أقوال :

---

[١] أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦٠٣٥):ص٥٢٤/١٣: ثنا المثنى ثنا عبد الحميد الحماني ثنا شريك عن سالم الأفطس عن سعيد به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: شريك القاضي؛ ضعيف.

الثالثة: الحماني؛ حافظ متهم.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦١) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٩٦ رقم ٩٠٤٥)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٤/ ٦١) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ١١٧، ١١٨ رقم ١١٦) - من طريق جعفر بن أبي المغيرة القمي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وسنده حسن في الشواهد والمتابعات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦١) وزاد نسبته لأبي الشيخ.

[٣] أخرجه الواحدي في "تفسيره" (ص ١٥٨) من طريق قرة عن عطية العوفي عن ابن عمر.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لضعف عطية وتدليسه.

وقد أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦٠٢٥)-(١٦٠٢٩):ص٥٢٣/١٣، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٩٥ رقم ٩٠٤٠)، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٤/ ٦٢) مختصراً ليس فيه ذكر سبب النزول.

[٤] التفسير الميسر:١٨١.

[٥] تفسير الطبري:١٣/٥٢١-٥٢٢[بتصرف بسيط].

[٦] أخرجه الطبري(١٦٠٣٤):ص٥٢٤/١٣.

أحدها : أنه إدخال أصابعهم في أفواههم ، قاله مجاهد[١].
والثاني :أنه التصفيق بالأيدي. قاله قتادة[٢].
والثالث: أن «المكاء» هو التصفير. وهذا قول ابن عباس[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، ومجاهد[٥]، والضحاك[٦]، وقتادة[٧]، والسدي[٨]، وابن زيد[٩]، وحجر بن عنبس [١٠]، ومنه قول عنترة[١١]:
عنترة[١١]:

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلا   تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الأعْلَمِ

أي: تصفر بالريح لما طعنته[١٢].
قال الأصمعي: "قلت لمنتجع بن نبهان[١٣]: ما تمكو فريصته؟ فشبك أصابعه وجعلها على فمه ونفخ فيها [١٤]، وأراد بالأعلم: البعير"[١٥].
عن سعيد بن جبير في قوله : " {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية}، قال : " المكاء " ، كانوا يشبِّكون بين أصابعهم ويصفرون بها ، فذلك " المكاء " [١٦].
وقال السدي:" «المكاء»، الصفير ، على نحو طير أبيض يقال له «المكَّاء»، يكون بأرض الحجاز "[١٧].
وأما «التصدية»، ففيها أقوال :
أحدهما : أنه التصفيق ، قاله ابن عباس[١٨]، وابن عمر[١٩]، والحسن[٢٠]، ومجاهد[٢١]، وقتادة[٢٢]، عطية[٢٣]، والضحاك[٢٤]، والسدي[٢٥]، وحجر بن عنبس [٢٦]، وأبو سلمة بن عبد الرحمن[٢٧]، ومنه قول عمرو بن الإطنابة[١]:

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٣٧):ص٥٢٥/١٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٥):ص٥٢٦/١٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢٣):ص٥٢٢/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤١):ص٥٢٥/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٣٦):ص٥٢٤/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٣):ص٥٢٦/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٦):ص٥٢٦/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٧):ص٥٢٦/١٣.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٨):ص٥٢٦/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢٢):ص٥٢٢/١٣.
[١١] ديوانه: ٢٠٧، وسيرة بن هشام ٢ / ٣٢٦ ، والمعاني الكبير : ٩٨١ ، واللسان "مكا".
[١٢] انظر: تفسير الطبري:٥٢١/١٣.
[١٣]هو: المنتجع بن نبهان الأعرابي، وهو من بني نبهان من طيّئ، لغوي أخذ عنه علماء زمانه، وأكثر عنه الأصمعي.
انظر: "طبقات النحويين واللغويين" ص ١٥٧، و"إنباه الرواة" ٣/ ٣٢٣.
[١٤]انظر: "شرح القصائد السبع الطوال" ص ٣٤١.
[١٥] التفسير البسيط للواحدي:١٣٦/١٠.
[١٦] أخرجه الطبري(١٦٠٤١):ص٥٢٥/١٣.
[١٧] أخرجه الطبري(١٦٠٤٧):ص٥٢٦/١٣.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢٣):ص٥٢٢/١٣.
[١٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢٦)-(١٦٠٢٩):ص٥٢٣/١٣.
[٢٠] انظر: النكت والعيون:٣١٥/٢.
[٢١] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٣٦):ص٥٢٤/١٣.
[٢٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٦):ص٥٢٦/١٣.
[٢٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢٥):ص٥٢٣/١٣.
[٢٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٣):ص٥٢٦/١٣.
[٢٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٧):ص٥٢٦/١٣.
[٢٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٢٢):ص٥٢٢/١٣.
[٢٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٢):ص٥٢٥/١٣-٥٢٦.

وظلوا جميعاً لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

روي عن جعفر بن ربيعة قال : "سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف يقول في قول الله : {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية}، قال بكر : فجمع لي جعفر كفيه ، ثم نفخ فيهما صفيرًا ، كما قال له أبو سلمة"[٢].

والثاني : أنه الصد عن البيت الحرام ، قاله سعيد بن جبير[٣]، وابن زيد[٤].

قال الطبري:" وقد قيل في «التصدية»: إنها الصد عن بيت الله الحرام ، وذلك قول لا وجه له ، لأن«التصدية»، مصدر من قول القائل :صدّيت تصدية، وأما «الصدّ» فلا يقال منه : صدَّيت، إنما يقال منه :صدَدْت، فإن شدَّدت منها الدال على معنى تكرير الفعل قيل: صدَّدْتَ تصديدًا، إلا أن يكون صاحب هذا القول وجَّه «التصدية» إلى أنه من «صَدَّدت»، ثم قلبت إحدى داليه ياء ، كما يقال : تظنَّيْتُ من «ظننت»، وكما قال الراجز [٥]:

تَقَضِّيَ البَازِي إذَا البَازِي كَسَرْ

يعني : تقضُّض البازي ، فقلب إحدى ضاديه ياء ، فيكون ذلك وجهًا يوجَّه إليه"[٦].

والثالث :أنه نوع من الصياح، كانوا يعارضون به القرآن. قاله قتادة[٧].

والرابع: أن يتصدى بعضهم لبعض ليفعل مثل فعله ، ويصفر له إن غفل عنه ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين[٨].

والخامس : أنها «تفعلة» من: صد يصد ، وهو الضجيج ، حكاه الماوردي عن أبي عبيدة[٩] .

ومنه قوله تعالى :{إِذَا قَومُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ} [الزخرف : ٥٧] أي: يضجون .

والسادس : أنه الصدى الذي يجيب الصائح فيرد عليه مثل قوله ، قاله ابن بحر[١٠].

فإن قيل : فلم سمَّى الله تعالى ما كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية صلاة وليس منها ؟

قيل عن ذلك جوابان[١١]:

---

(١) انظر: النكت والعيون:٣١٥/٢.

في القاموس وشرحه:" والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القيس بن جسر بن قضاعة، وعمرو ابنها شاعر مشهور، واسم أبيه زيد مناة"..

(٢) أخرجه الطبري(١٦٠٣٠):ص٥٢٣/١٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٩):ص٥٢٧/١٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٥١):ص٥٢٧/١٣.

(٥) الشعر للعجاج، انظر: ديوانه: ١٧، وهو من قصيدة جيدة يذكر فيها مآثر عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وقد ولي الولايات العظيمة، وفتح الفتوح الكثيرة، وقاتل الخوارج. والضمير في قوله: "داني" يعود إلى متأخر، وهو"البازي" المذكور في البيت بعده. فإن قبله، ذكر عمر بن عبيد الله وكتائبه من حوله: حول ابن غراء حصان إن وتر ... فات، وإن طالب بالوغم اقتدر

إذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر ... داني جناحيه.........

يريد: "ابتدر منقضا انقضاض البازي من الطور، داني جناحيه. . فمر" فقدم وأخر. وهو من جيد التقديم والتأخير. وقوله: "داني" أي ضم جناحيه وقر بهما وضيق ما بينهما تأهبا للانقضاض من ذروة الجبل. ومر: أسرع إسراعا شديدا. وقوله: "تقضي" أصلها"تقضض"، فقلب الضاد الأخيرة ياء، استثقل ثلاث ضادات، كما فعلوا في"ظنن""وتظني" على التحويل. وتقضض الطائر: هوى في طيرانه يريد الوقوع. والبازي: ضرب من الصقور، شديد. وكسر الطائر جناحيه: ضم منهما شيئا - أي قليلا- وهو يريد السقوط.

(٦) تفسير الطبري:٥٢٧/١٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١٦٠٤٥):ص٥٢٦/١٣.

(٨) انظر: النكت والعيون:٣١٥/٢.

(٩) انظر: النكت والعيون:٣١٥/٢. قال أبو عبيدة في مجاز القرآن:٢٤٦/١:" «وَتَصْدِيَةً» أي تصفيق بالأكف، قال: تصدية بالكف أي تصفيق، التصفيق والتصفيح والتصدية شيء واحد".

(١٠) انظر: النكت والعيون:٣١٥/٢.

(١١) انظر: النكت والعيون:٣١٦/٢.

أحدهما : أنهم كانوا يقيمون التصفيق والصفير مقام الدعاء والتسبيح فجعلوا ذلك صلاة وإن لم يكن في حكم الشرع صلاة .
والثاني : أنهم كانوا يعملون كعمل الصلاة .
عن أبى بكر عن عاصم أنه قرأ {وما كان صلاتهم} نصبا، {عند البيت إلا مكاء وتصدية} رفعا جميعا[(١)].
قوله تعالى:{فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنفال : ٣٥]، أي:" فذوقوا عذاب القتل والأسر يوم «بدر» ؛ بسبب جحودكم وأفعالكم التي لا يُقْدم عليها إلا الكفرة، الجاحدون توحيد ربهم ورسالة نبيهم"[(٢)].
قال الطبري:" قوله : {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}، فإنه يعني العذابَ الذي وعدهم به بالسيف يوم بدر. يقول للمشركين الذين قالوا : " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء " الآية ، حين أتاهم بما استعجلوه من العذاب«ذوقوا»، أي اطعموا ، وليس بذوق بفم ، ولكنه ذوق بالحسِّ ، ووجود طعم ألمه بالقلوب. يقول لهم : فذوقوا العذابَ بما كنتم تجحدون أن الله معذبكم به على جحودكم توحيدَ ربكم ، ورسالةَ نبيكم ﷺ "[(٣)].
قال أبو عبيدة:"{ فَذُوقُوا }، مجازه: فجرّبوا وليس من ذوق الفم"[(٤)].
عن ابن إسحاق : "{فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}، أي : ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل"[(٥)].
عن الضحاك:" {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}، يعني أهل بدر ، عذبهم الله يوم بدر بالقتل والأسر"[(٦)].
عن ابن جريج : " {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}، قال : هؤلاء أهل بدر ، يوم عذبهم الله"[(٧)].
الفوائد:
١- كراهية الصفير والتصفيق، وبطلان الرقص في التعبد.
٢- أن التصفيق محرم على الرجال مطلقاً، وعلى النساء مقيداً بغير حالة التنبيه في الصلاة، ويدل على ذلك أمور:
- منها - أنه من عادات قوم لوط التي بها أُهلكوا، فقال الله سبحانه ذاما للكفار {وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً}.
- ومنها - أن التصفيق من شأن النساء، وقد نهي الرجال عن التشبه بالنساء، ولما فعلها الصحابة رضي الله عنهم في الصلاة أنكرها الرسول صلى الله عليه وسلم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ولا يصفق بكف بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال (التصفيق للنساء والتسبيح للرجال" و "لعن المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء) ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مخنثا ويسمون الرجال المغنين مخانيثا وهذا مشهور في كلامهم"[(٨)].

---

(١) انظر: السبعة في القراءات:٣٠٥.
(٢) التفسير الميسر:١٨١.
(٣) تفسير الطبري:٥٢٨/١٣.
(٤) مجاز القرن:٢٤٦/١.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٠٥٣):ص٥٢٨/١٣.
(٦) أخرجه الطبري(١٦٠٥٥):ص٥٢٨/١٣.
(٧) أخرجه الطبري(١٦٠٥٤):ص٥٢٨/١٣.
(٨) مجموع الفتاوى: ١١/ ٥٦٥.

- ومنها - أنه مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فإنه لم ينقل عنهم مطلقا أنهم كانوا إذا استحسنوا شيئا صفقوا، بل إما أن يعبروا عن استحسانهم للشيء بالقول، أو بالتكبير وذكر الله.
- وأما بالنسبة للنساء فلا يجوز في غير المواضع التي سمح بها الشرع (كالتنبيه في الصلاة)؛ لعموم الأدلة الأخرى المحرمة للتصفيق[١].
- وأما «الرقص»، فقال الإمام القرطبي:"قال الإمام أبو بكر الطرطوشي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص، والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار، قاموا يرقصون حواليه، ويتواجدون، فهو دين الكفار، وعباد العجل"[٢].

وقال الشنقيطي: "استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: {وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا} [الإسراء/ ٣٧]، [لقمان / ١٨] على منع الرقص وتعاطيه؛ لأن فاعله ممن يمشي مرحاً"[٣].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)} [الأنفال : ٣٦]

التفسير:

إن الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ينفقون أموالهم فيعطونها أمثالهم من المشركين وأهل الضلال، ليصدوا عن سبيل الله ويمنعوا المؤمنين عن الإيمان بالله ورسوله، فينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون عاقبة نفقتهم تلك ندامة وحسرة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأمُلون مِن إطفاء نور الله والصد عن سبيله، ثم يهزمهم المؤمنون آخر الأمر. والذين كفروا إلى جهنم يحشرون فيعذبون فيها.

اختلفوا فيمن نزلت الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في المطعمين ببدر، وكانوا اثني عشر رجلا يطعمون الناس الطعام، كل رجل يطعم يوما، وهم: عتبة وشيبة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري، والنضر بن الحارث، وأبو جهل وأخوه الحارث، وحكيم بن حزام وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس[٤].

والثاني: أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش لقتال رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب، قاله سعيد بن جبير[٥]، ومقاتل[٦]، والكلبي[٧].

وقال مجاهد: "نزلت في نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد"[٨].

والثالث: أنها نزلت في أهل بدر، وبه قال الضحاك[١].

---

[١]وانظر فتاوى اللجنة الدائمة (٦/ ٣٠٧)، ومقال الشيخ: ناصر بن حمد الفهد سماه: " التحقيق في مسألة التصفيق".

[٢]تفسير القرطبي:١٠/ ٣١٨.

[٣]أضواء البيان: ٣/ ٥٣٨.

[٤]عزاه ابن الجوزي لأبي صالح عن ابن عباس، وراوية أبي صالح هو الكلبي، وقد كذبه غير واحد. انظر: زاد زاد المسير:٢٠٩/٢.

[٥]ورد من وجوه متعددة مرسلة. أخرجه الطبري(١٦٠٥٦):ص٥٣٠/١٣ عن سعيد بن جبير مرسلا. وكرره (١٦٠٥٧):ص٥٣٠/١٣ عن ابن أبزى مرسلا. وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ٤٨٢ عن سعيد بن جبير وابن أبزى مرسلا.

[٦]ذكره الواحدي في أسباب النزول: ٤٨١. ومقاتل يضع الحديث.

[٧]ذكره الواحدي في أسباب النزول: ٤٨١. والكلبي يضع الحديث.

[٨]مرسل. أخرجه الطبري(١٦٠٦١)،((١٦٠٦٢)):٥٣١/١٣-٥٣٢ عن مجاهد مرسلا. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٤٨٢- ٤٨٣ بنحوه.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي، هو أن يقال: إن الله أخبر عن الذين كفروا به من مشركي قريش، أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله لم يخبرنا بأي أولئك عنى غير أنه عم بالخبر {الذين كفروا} . وجائز أن يكون عنى المنافقين أموالهم لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وجائز أن يكون عنى المنافقين منهم يوم بدر، وجائز أن يكون عنى الفريقين، وإذا كان ذلك كذلك. فالصواب في ذلك أن يعم كما عم جل ثناؤه الذين كفروا من قريش"[٢].

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال : ٣٦]، أي:" إن الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ينفقون أموالهم فيعطونها أمثالهم من المشركين وأهل الضلال، ليصدوا عن سبيل الله ويمنعوا المؤمنين عن الإيمان بالله ورسوله"[٣].

قال الزمخشري:" أى: كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو {سبيل الله}، وإن لم يكن عندهم كذلك"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره:إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم ، فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقوَّوا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به ، ليصدّوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله"[٥].

وفي قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال : ٣٦]، قولان:

أحدهما : أنها نفقة قريش في قتال رسول الله -ﷺ- يوم بدر ، قاله الضحاك[٦].

والثاني : أنه أبو سفيان استأجر معه يوم أُحد ألفين من الأحابيش ومنه كنانة ليقاتل بهم رسول الله -ﷺ- ، سوى من انحاز إليه من العرب ، قاله سعيد بن جبير[٧]، ومجاهد[٨]، والحكم بن عيينة[٩]، وابن أبزى[١٠]، والسدي[١١]، وفي ذلك يقول كعب بن مالك[١٢]:

وَجِئْنَا إلَى مَوْجٍ مِنَ البَحْرِ وَسْطَه ... أَحَابِيشُ ، مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعُ
ثَلاثَةُ آلافٍ ، ونَحْنُ نَصِيَّةٌ ... ثَلاثُ مِئِينَ إن كَثُرْنَ ، فَأَرْبَعُ

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي ما قلنا ، وهو أن يقال : إن الله أخبرَ عن الذين كفروا به من مشركي قريش ، أنهم ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله. لم يخبرنا بأيّ أولئك عَنى ، غير أنه عم بالخبر {الذين كفروا}، وجائز أن يكون عَنَى المنفقين أموالهم لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد وجائز أن يكون عنى المنفقين منهم ذلك ببدر وجائز أن يكون

---

[١]مرسل. أخرجه الطبري(١٦٠٦٦):ص٥٣٣/١٣ عن الضحاك مرسلا.
[٢] تفسير الطبري:٥٣٤/١٣.
[٣] التفسير الميسر:١٨١.
[٤] الكشاف:٢١٩/٢.
[٥] تفسير الطبري:٥٢٩/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٦٦):ص٥٣٣/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٥٦):ص٥٣٠/١٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٦١):ص٥٣١/١٣-٥٣٢.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٥٨):ص٥٣١/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٥٧):ص٥٣٠/١٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٦٠):ص٥٣١/١٣.
[١٢] انظر: سيرة ابن هشام ٣ : ١٤١ ، طبقات فحول الشعراء : ١٨٣ ، نسب قريش : ٩ وغيرها. ويعني بقوله : " فجئنا إلى موج " ، جيش الكفار يوم أحد ، يموج موجه . وكان عدة المشركين بأحد ثلاثة آلاف . و " الحاسر " ، الذي لا درع له ، ولا بيضة على رأسه . و " المقنع " ، الدارع الذي ليس لبس سلاحه ، ووضع البيضة على رأسه.
و"نصية" ، أي : خيار أشراف ، أهل جلد وقتال . يقال : " انتصى الشيء " ، اختار ناصيته ، أي أكرم ما فيه .

عنى الفريقين. وإذا كان ذلك كذلك ، فالصواب في ذلك أن يعمّ كما عم جل ثناؤه الذين كفروا من قريش"[(١)].

قوله تعالى:{فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} [الأنفال : ٣٦]، أي:" فينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون عاقبة نفقتهم تلك ندامة وحسرة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأمُلون مِن إطفاء نور الله والصد عن سبيله"[(٢)].

قال البغوي:" يريد: ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة"[(٣)].

قال الزمخشري:" أى: تكون عاقبة إنفاقها ندما وحسرة، فكأن ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة"[(٤)].

قال الطبري:أي:" فسينفقون أموالهم في ذلك ، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم {حسرة}، يقول : تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب ، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله ، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله ، لأن الله مُعْلي كلمته ، وجاعل كلمة الكفر السفلى"[(٥)].

عن السدي :"{فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة}، يقول: ندامة يوم القيامة"[(٦)].

قوله تعالى:{ثُمَّ يُغْلَبُونَ} [الأنفال : ٣٦]، أي:" ثم يهزمهم المؤمنون آخر الأمر"[(٧)].

قال الطبري:أي:" ثم يغلبهم المؤمنون "[(٨)].

قال مقاتل:"ثم يهزمون"[(٩)].

قال الزمخشري:يعني" آخر الأمر، وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا قبل ذلك فيرجعون طلقاء [(١٠)]{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١] "[(١١)].

عن خلف أبي الفضل القرشي عن كتاب عمر بن عبد العزيز قال: "قول الله: {يغلبون} فأخبرهم بعذابهم بالقتل في الدنيا والآخرة بالنار"[(١٢)].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال : ٣٦]، أي:" والذين كفروا إلى جهنم يحشرون فيعذبون فيها"[(١٣)].

قال السعدي:" أي: يجمعون إليها، ليذوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء"[(١٤)].

قال البغوي:" خص الكفار، لأن منهم من أسلم"[(١٥)].

قال مقاتل:" ثم أخبر بمنزلتهم في الآخرة فقال: {والذين كفروا} بتوحيد الله {إلى جهنم} في الآخرة {يحشرون}"[(١٦)].

قال ابن عباس: "هم الكفار الذين خلقهم الله للنار وخلق النار لهم فألت عنهم الدنيا، وحرمت عليهم الجنة"[(١٧)].

---

(١) تفسير الطبري:٥٣٤/١٣.
(٢) التفسير الميسر:١٨١.
(٣) تفسير البغوي:٣٥٦/٣.
(٤) الكشاف:٢١٩/٢.
(٥) تفسير الطبري:٥٢٩/١٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٥٧):ص١٦٩٨/٥.
(٧) التفسير الميسر:١٨١.
(٨) تفسير الطبري:٥٢٩/١٣.
(٩) تفسير مقاتب بن سليمان:١١٤/٢.
(١٠)قوله «فيرجعون طلقاء» في الصحاح «الطليق» الأسير الذي أطلق عنه إساره وخلى سبيله..
(١١) الكشاف:٢١٩/٢.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٥٨):ص١٦٩٨/٥.
(١٣) التفسير الميسر:١٨١.
(١٤) تفسير السعدي:٣٢٠.
(١٥) تفسير البغوي:٣٥٦/٣.
(١٦) تفسير مقاتب بن سليمان:١١٤/٢.
(١٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٥٩):ص١٦٩٨/٥.

قال الطبري:أي:" ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم ، فيعذبون فيها ، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحيّ ، فحُرِب ماله وذهبَ باطلا في غير دَرَك نفع ، ورجع مغلوبًا مقهورًا محروبًا مسلوبًا، وأما الهالك ، فقتل وسُلب ، وعُجِّل به إلى نار الله يخلُد فيها ، نعوذ بالله من غضبه. وكان الذي تولَّى النفقةَ التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذُكر ، أبا سفيان"[1].

عن يحيى بن عباد بن عبد اله بن الزبير عن أبيه عباد :"{والذين كفروا إلى جهنم يحشرون}، يعني: النفر الذين مشوا إلى أبي سفيان وإلى من كان لهم مال من قريش في تلك التجارة فسألوهم أن يقووهم بها على حرب رسول الله ﷺ ففعلوا"[2].

الفوائد:

١- كل نفقة ينفقها العبد للصد عن سبيل الله بأي وجه من الوجوه تكون عليه حسرة عظيمة يوم القيامة.

٢- التحذير من الحملات التنصيرية، إذ أنفق النصارى أموالاً طائلة وجهوداً كبيرة في سبيل تحقيق أحلامهم في تنصير العالم عموماً، والمسلمين على وجه الخصوص، لكن حالهم كما قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٣٦] قد عقدوا من أجل هذه الغاية مؤتمرات عدة إقليمية وعالمية منذ قرن من الزمان وإلى الآن، توافد إليها المنصرون العاملون من كل مكان؛ لتبادل الآراء والمقترحات حول أنجع الوسائل وأهم النتائج، ورسموا لذلك الخطط، ووضعوا البرامج، فكان من وسائلهم[3]:

- - إرسال البعثات التنصيرية إلى بلدان العالم الإسلامي، والدعوة إلى النصرانية من خلال توزيع المطبوعات من كتب ونشرات تعرف بالنصرانية، وترجمات للإنجيل، ومطبوعات للتشكيك في الإسلام والهجوم عليه، وتشويه صورته أمام العالم.
- ثم اتجهوا أيضاً إلى التنصير بطرق مغلفة وأساليب غير مباشرة، ولعل من أخطر هذه الأساليب ما كان: عبر التطبيب: وتقديم الرعاية الصحية للإنسان، وقد ساهم في تأثير هذا الأسلوب، عامل الحاجة إلى العلاج، وكثرة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة في البيئات الإسلامية، خصوصاً، مع مرور زمن فيه ندرة الأطباء المسلمين، بل فقدانهم أصلاً في بعض البلاد الإسلامية.
- ومن تلك الأساليب أيضاً: التنصير عن طريق التعليم: وذلك إما بإنشاء المدارس والجامعات النصرانية صراحة، أو بفتح مدارس صبغة تعليمية بحتة في الظاهر، وكيد نصراني في الباطن، مما جعل فئاماً من المسلمين يلقون بأبنائهم في تلك المدارس، رغبة في تعلم لغة أجنبية، أو مواد خاصة أخرى، ولا تَسَلْ بعد ذلك عن حجم الفرصة التي يمنحها المسلمون للنصارى حين يهدونهم فلذات أكبادهم في سن الطفولة والمراهقة، حيث الفراغ العقلي والقابلية للتلقي، أيًّا كان الملْقي!! وأيًّا كان المُلقَى!!
- ومن أساليبهم كذلك: التنصير عبر وسائل الإعلام: وذلك من خلال الإذاعات الموجهة للعالم الإسلامي، إضافة إلى طوفان البث المرئي عبر القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة، فضلاً عن الصحف والمجدلات والنشرات الصادرة بأعداد هائلة. . وهذه الوسائل الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة كلها تشترك في دفع عجلة التنصير من خلال مسالك عدة:

أ- الدعوة إلى النصرانية بإظهار مزاياها الموهومة والرحمة والشفقة بالعالم أجمع.

ب- إلقاء الشبهات على المسلمين في عقيدتهم وشعائرهم وعلاقاتهم الدينية.

---

[1] تفسير الطبري:٥٢٩/١٣.

[2] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٦٠):ص١٦٩٩/٥.

[3] .

جـ- نشر العري والخلاعة وتهييج الشهوات، بغية الوصول إلى انحلال المشاهدين، وهدم أخلاقهم، ودك عفتهم، وذهاب حيائهم، وتحويل هؤلاء المنحلين إلى عُبَّاد شهوات وطلاب متع رخيصة، فيسهل بعد ذلك دعوتهم إلى أي شيء، حتى لو كان إلى الردة والكفر بالله- والعياذ بالله- وذلك بعد أن خبت جذوة الإيمان في القلوب، وانهار حاجز الوازع الديني في النفوس.

وهناك وسائل أخرى للتنصير، وهذا مكرهم لإضلال المسلمين!! فما واجب المسلمين تجاه ذلك؟ وكيف يكون التصدي لتلك الهجمات الشرسة على الإسلام والمسلمين؟

لاشك أن المسئولية كبيرة ومشتركة بين المسلمين، أفراداً وجماعات، حكومات وشعوباً؛ للوقوف أمام هذا الزحف المسموم الذي يستهدف كل فرد من أفراد هذه الأمة المسلمة، كبيراً كان أو صغيراً، ذكراً أو أنثى، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ويمكننا القول في ما يجب أداؤه على سبيل الإجمال- مع التسليم بأن لكل حال وواقع ما يناسبه من الإجراءات والتدابير الشرعية- ما يلي:

١ - تأصيل العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين من خلال مناهج التعليم وبرامج التربية بصفة عامة، مع التركيز على ترسيخها في قلوب الناشئة خاصة، في المدارس ودور التعليم الرسمية والأهلية.

٢ - بث الوعي الديني الصحيح في طبقات الأمة جميعاً، وشحن النفوس بالغيرة على الدين وحرماته ومقدساته.

٣ - التأكيد على المنافذ التي يدخل منها النتاج التنصيري من أفلام ونشرات ومجلات وغيرها، بعدم السماح لها بالدخول، ومعاقبة كل من يخالف ذلك بالعقوبات الرادعة.

٤ - تبصير الناس وتوعيتهم بمخاطر التنصير وأساليب المنصرين، وطرائقهم؛ للحذر منها، وتجنب الوقوف في شباكها.

٥ - الاهتمام بجميع الجوانب الأساسية في حياة الإنسان المسلم، ومنها: الجانب الصحي والتعليمي على وجه الخصوص، إذ دلت الأحداث أنهما أخطر منفذين عَبَرَ من خلالهما النصارى إلى قلوب الناس وعقولهم.

٦ - أن يتمسك كل مسلم في أي مكان على وجه الأرض بدينه وعقيدته مهما كان الظروف والأحوال، وأن يقيم شعائر الإسلام في نفسه ومن تحت يده حسب قدرته واستطاعته، وأن يكون أهل بيته محصنين تحصيناً ذاتياً لمقاومة كل غزو ضدهم يستهدف عقيدتهم وأخلاقهم.

٧ - الحذر من قبل كل فرد وأسرة من السفر إلى بلاد الكفار، إلا لحاجة شديدة كعلاج أو علم ضروري لا يوجد في البلاد الإسلامية، مع الاستعداد لدفع الشبهات والفتنة في الدين الموجهة للمسلمين.

٨ - تنشيط التكافل الاجتماعي بين المسلمين والتعاون بينهم، فيراعي الأثرياء حقوق الفقراء، ويبسطوا أيديهم بالخيرات والمشاريع النافعة؛ لسد حاجات المسلمين، حتى لا تمتد إليهم أيدي النصارى الملوثة، مستغلة حاجتهم وفاقتهم.

نسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجمع شمل المسلمين، وأن يؤلف قلوبهم، ويصلح ذات بينهم، ويهديهم إلى سبل السلام، وأن يحميهم من مكائد الأعداء، ويعيذهم من شرورهم، ويجنبهم الفواحش والفتن، ما ظهر منها وما بطن، إنه أرحم الراحمين، اللهم من أراد الإسلام والمسلمين بسوء فأشغله بنفسه، واردد كيده في نحره، وأدِرُ عليه دائرة السوء، إنك على كل شيء قدير.

القرآن

{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)} [الأنفال : ٣٧]

التفسير:

يحشر الله ويخزي هؤلاء الذين كفروا بربهم، وأنفقوا أموالهم لمنع الناس عن الإيمان بالله والصد عن سبيله؛ ليميز الله تعالى الخبيث من الطيب، ويجعل الله المال الحرام الذي أُنفق للصدِّ عن دين الله بعضه فوق بعض متراكمًا متراكبًا، فيجعله في نار جهنم، هؤلاء الكفار هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [الأنفال : ٣٧]، أي:" يحشر الله ويخزي هؤلاء الذين كفروا بربهم، وأنفقوا أموالهم لمنع الناس عن الإيمان بالله والصد عن سبيله؛ ليميز الله تعالى الخبيث من الطيب"[١].

قال الزجاج:" أي: ليميز ما أنفقه المؤمنون في طاعة الله مما أنفقه المشركون في معصية الله"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : يحشر الله هؤلاء الذين كفروا بربهم ، وينفقون أموالهم للصدّ عن سبيل الله ، إلى جهنم ، ليفرق بينهم وهم أهل الخبث ، كما قال وسماهم {الخبيث} وبين المؤمنين بالله وبرسوله ، وهم «الطيبون» ، كما سماهم جل ثناؤه. فميَّز جل ثناؤه بينهم بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جناته ، وأنزل أهل الكفر نارَه"[٣].

عن ابن عباس قوله : " {ليميز الله الخبيث من الطيب}، فميَّز أهل السعادة من أهل الشقاوة"[٤].

قال السدي:" ثم ذكر المشركين ، وما يصنع بهم يوم القيامة ، فقال : {ليميز الله الخبيث من الطيب}، يقول : يميز المؤمن من الكافر ، فيجعل الخبيث بعضه على بعض"[٥].

قال التستري:" «الخبيث» على ضروب: الكفر والنفاق والكبائر، و«الطيب» على ضروب: وهو الإيمان، فيه درجة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فأخبر الله تعالى أنه يميز بينهما، ثم يجعل الخبيث بعضه على بعض على مقدار ذنوبهم طبقة طبقة، كما قال: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار} [النساء: ١٤٥]"[٦].

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو {ليميز} بفتح «الياء» خفيفا، وقرأ حمزة والكسائى {ليميز} بضم «الياء» والتشديد[٧].

قوله تعالى:{وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ} [الأنفال : ٣٧]، أي:" يجعل الكفار بعضهم فوق بعض"[٨].

قال الطبري:يعني:" فيحمل الكفار بعضهم فوق بعض"[٩].

قوله تعالى:{فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا} [الأنفال : ٣٧]، أي:" يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام"[١٠].

قال الطبري:" يقول : فيجعلهم ركامًا ، وهو أن يجمع بعضهم إلى بعض حتى يكثروا ، كما قال جل ثناؤه في صفة السحاب : {ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا} [سورة النور : ٤٣] ، أي مجتمعًا كثيفًا"[١١].

عن ابن زيد:"{فيركمه جميعًا}، قال : فيجمعه جميعًا بعضه على بعض"[١٢].

---

(١) التفسير الميسر:١٨١.
(٢) معاني القرآن:٤١٢/٢.
(٣) تفسير الطبري:٥٣٤/١٣.
(٤) أخرجه الطبري(١٦٠٦٧):ص٥٣٤/١٣-٥٣٥.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٠٦٨):ص٥٣٥/١٣.
(٦) تفسير التستري:٧١.
(٧) انظر: السبعة في القراءات:٣٠٦.
(٨) صفوة التفاسير:٤٦٧/١.
(٩) تفسير الطبري:٥٣٥/١٣.
(١٠) صفوة التفاسير:٤٦٧/١.
(١١) تفسير الطبري:٥٣٥/١٣.
(١٢) أخرجه الطبري(١٦٠٦٩):ص٥٣٥/١٣.

قال الزجاج:" «الركم»، أن يجعل بعض الشيء على بعض، ويقال: ركمت الشيء أركمه ركما، و«الركام»: الاسم"[1].

قوله تعالى:{فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ} [الأنفال : ٣٧]، أي:" فيجعله في نار جهنم"[2].

قال الزجاج:" أي: يجعل بعض ما أنفقه المشركون على بعض، ويجعل عليهم في النار، فيكون مما يعذبون به، كما قال جل وعز: {فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُم} [التوبة : ٣٥]"[3].

قال الطبري:" يقول : فيجعل الخبيث جميعًا في جهنم فوحَّد الخبر عنهم لتوحيد قوله : {ليميز الله الخبيث}"[4].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأنفال : ٣٧]، أي:" هؤلاء الكفار هم الخاسرون في الدنيا والآخرة"[5].

قال الطبري:" هؤلاء الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله {هم الخاسرون}، ويعني بقوله: {الخاسرون}، الذين غُبنت صفقتهم ، وخسرت تجارتهم، وذلك أنهم شَرَوْا بأموالهم عذابَ الله في الآخرة ، وتعجَّلوا بإنفاقهم إياها فيما أنفقوا من قتال نبيّ الله والمؤمنين به ، الخزيَ والذلَّ"[6].

الفوائد:

١- كل كافر خبيث وكل مؤمن طيب.

٢- صدق وعد الله تعالى لرسوله والمؤمنين بهزيمة المشركين وغلبتهم وحسرتهم على ما أنفقوا في حرب الإسلام وضياع ذلك كله وخيبتهم فيه.

القرآن

{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)} [الأنفال : ٣٨]

التفسير:

قل -أيها الرسول- للذين جحدوا وحدانية الله مِن مشركي قومك: إن ينزجروا عن الكفر وعداوة النبي ﷺ، ويرجعوا إلى الإيمان بالله وحده وعدم قتال الرسول والمؤمنين، يغفر الله لهم ما سبق من الذنوب، فالإسلام يجُبُّ ما قبله. وإن يَعُدْ هؤلاء المشركون لقتالك -أيها الرسول- بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم «بدر» فقد سبقت طريقة الأولين، وهي أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أننا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

سبب النزول:

قال ابن عباس : "نزلت هذه الآية في أهل مكة بعد أن دخلها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عام الفتح وقال لهم : ما ظَنُّكُم بِي وَمَا الَّذِي تَرَونَ أَنِّي صَانِعُ بِكُم ؟، قالوا : ابن عم كريم فإن تعف فذاك الظن بك وإن تنتقم فقد أسأنا ، فقال -ﷺ- : أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ : {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف : ٩٢]، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[7].

---

[1] معاني القرآن:٤١٣/٢.
[2] التفسير الميسر:١٨١.
[3] معاني القرآن:٤١٣/٢.
[4] تفسير الطبري:٥٣٥/١٣.
[5] التفسير الميسر:١٨١.
[6] تفسير الطبري:٥٣٥/١٣.
[7] انظر: النكت والعيون:٣١٨/٢.

قوله تعالى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال : ٣٨]، أي:" قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ :{قل}، يا محمد ، {للذين كفروا}، من مشركي قومك {إن ينتهوا}، عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله ، وقتالك وقتال المؤمنين ، فينيبوا إلى الإيمان يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم"[٢].

وفي قوله تعالى:{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال : ٣٨]، وجهان[٣]:

أحدهما : إن ينتهوا عن المحاربة إلى الموادعة يغفر لهم ما قد سلف من المؤاخذة والمعاقبة .

والثاني : إن ينتهوا عن الكفر بالإسلام يغفر لهم ما قد سلف من الآثام .

قوله تعالى:{وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال : ٣٨]، أي:" وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي، فكذلك نفعل بهم"[٤].

قال الطبري:" يقول : وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر فقد مضت سنتي في الأولين منهم ببدر ، ومن غيرهم من القرون الخالية ، إذ طغوا وكذبوا رسلي ولم يقبلوا نصحهم ، من إحلال عاجل النِّقَم بهم ، فأحلّ بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك ، مثل الذي أحللت بهم"[٥].

عن مجاهد قوله: "{فقد مضت سنت الأولين}، في قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك"[٦].

عن أبي مالك قوله: "{مضت}، يعني: خلت"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال : ٣٨]، وجهان:

أحدهما: وإن يعودوا إلى المحاربة فقد مضت سنة الأولين فيمن قتل يوم بدر وأسر، قاله الحسن ومجاهد[٨]، وسفيان[٩]، والسدي[١٠]، وابن إسحاق[١١]، ورواه يحيى بن عباد عن ابيه[١٢].

والثاني : فقد مضت سنة الأولين من الأمم السالفة فيما أخذهم الله به في الدنيا من عذاب الاستئصال[١٣].

قال الصابوني:" وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد"[١٤].

قال مالك: "لا يؤخذ كافر بشيء صنعه في كفره إذا أسلم وذلك أن الله تعالى يقول: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين}"[١٥].

الفوائد:

---

[١] صفوة التفاسير:٤٦٧/١.

[٢] تفسير الطبري:٥٣٦/١٣.

[٣] انظر: النكت والعيون:٣١٨/٢.

[٤] صفوة التفاسير:٤٦٧/١.

[٥] تفسير الطبري:٥٣٦/١٣.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٧٠):ص١٧٠٠/٥.

[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٦٩):ص١٧٠٠/٥.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٧٠)-(١٦٠٧٣):ص٥٣٦/١٣-٥٣٧.

[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٧١):ص١٧٠٠/٥.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٧٥):ص٥٣٧/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٧٤):ص٥٣٧/١٣.

[١٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٠٦٨):ص١٧٠٠/٥.

[١٣] انظر: النكت والعيون:٣١٨/٢.

[١٤] صفوة التفاسير:٤٦٧/١.

[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٦٦):ص١٧٠٠/٥.

١- بيان سعة فضل الله ورحمته.
٢- الإسلام يجب أي يقطع ما قبله، فيغفر لمن أسلم كل ذنب قارفه من الكفر وغيره.
٣- بيان سنة الله في الظالمين وهي إهلاكهم وإن طالت مدة الإملاء والإنظار.

القرآن

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩)} [الأنفال : ٣٩]

التفسير:

وقاتلوا -أيها المؤمنون- المشركين حتى لا يكون شِرْكٌ وصدٌّ عن سبيل الله؛ ولا يُعْبَدَ إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله في الأرض، وحتى يكون الدين والطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره، فإن انزجروا عن فتنة المؤمنين وعن الشرك بالله وصاروا إلى الدين الحق معكم، فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في الإسلام.

قوله تعالى:{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [الأنفال : ٣٩]، أي:" وقاتلوا -أيها المؤمنون- المشركين حتى لا يكون شِرْكٌ وصدٌّ عن سبيل الله؛ ولا يُعْبَدَ إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله في الأرض"[١].

قال الزجاج:" أي: حتى لا يفتن الناس فتنة كفر، ويدل على معنى فتنة كفر قوله عز وجل: {ويكون الدين كله لله}"[٢].

قال ابن عباس:: "يعني: حتى لا يكون شرك بالله"[٣]. وروي عن أبي العالية- ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم نحوذلك[٤].

وقال محمد بن إسحاق: "بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء أنه أنزل عليه {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}، أي: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه"[٥].

عن أبي ظبيان قال: "جاء رجل إلى سعد فقال له: ألا تخرج تقاتل مع الناس حتى لا تكون فتنة؟ فقال سعد: قد قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى لم تكن فتنة، فأما أنت وذا البطين تريدون أن أقاتل حتى تكون فتنة"[٦]. وروي عن ابن عمر مثل ذلك[٧].

قوله تعالى:{وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال : ٣٩]، أي:" وحتى يكون الدين والطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره"[٨].

قال ابن عباس:" يخلص التوحيد لله عز وجل"[٩].

عن قتادة: {ويكون الدين كله لله}، قال: لا إله إلا الله"[١٠].

قال ابن زيد:" حتى لا يكون كفر، {ويكون الدين كله لله}، لا يكون مع دينكم كفر"[١١].

قال ابن جريج:"أي: لا يفتن مؤمن عن دينه، ويكون التوحيد لله خالصًا ليس فيه شرك، ويُخلع ما دونه من الأنداد"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٨١.
[٢] معاني القرآن:٤١٣/٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٧٣):ص١٧٠٠/٥-١٧٠١.
[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٧٠١/٥. حكاه دون ذكر الإسناد
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٧٤):ص١٧٠١/٥.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٧٢):ص١٧٠٠/٥-١٧٠١.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٧٠١/٥. حكاه دون ذكر الإسناد
[٨] التفسير الميسر:١٨١.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٧٥):ص١٧٠١/٥.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٧٦):ص١٧٠١/٥.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٠٨٢):ص٥٣٩/١٣.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦٠٨١):ص٥٣٩/١٣.

قال الآلوسي:" وتضمحل الأديان الباطلة كلها إما بهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل، قيل: لم يجىء تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدي فإنه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلا على ما روي عن أبي عبد الله رضي الله عنه"(١).

قوله تعالى:{فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال : ٣٩]، أي:" فإن انزجروا عن فتنة المؤمنين وعن الشرك بالله وصاروا إلى الدين الحق معكم، فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون مِن ترك الكفر والدخول في الإسلام"(٢).

عن مقاتل بن حيان قوله: "{فإن انتهوا}، عن قتالكم وأسلموا"(٣).

وعن مجاهد قوله: "{فإن انتهوا}، قال: فإن تابوا"(٤).

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: "أن عبد الملك بن مروان كتبَ إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: "سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعم النبيُّ! ونعم السيد! ونعم العشيرة! فجزاه الله خيرًا، وعرّفنا وجهه في الجنة، وأحيانًا على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليها. وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يَبْعُدوا منه أوّلَ ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم. وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك ناسٌ، واشتدّوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةً شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له "النجاشي"، لا يُظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك صلاح، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يَتْجَرون فيها، ومساكن لتِجَارهم يجدون فيها رَفاغًا من الرزق وأمنًا ومَتْجَرًا حسنًا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة، وخاف عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث ذلك سنوات يشتدُّون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومَنَعتهم. فلما رأوا ذلك، استرخوْا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه. وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قِبَل أرض الحبشة، مخافتَها، وفرارًا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال. فلما استُرْخي عنهم، ودخل في الإسلام من دخل منهم، تُحُدِّث باسترخائهم عنهم. فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه قد استُرْخِيَ عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون. فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون، ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة. فلما رأت ذلك قريش ذلك، تذامرَتْ على أن يفتنوهم ويشتدّوا عليهم، فأخذوهم، وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جَهْدٌ شديد. وكانت الفتنة الآخرة. فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم رسول الله ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها= وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم على أنّا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا. فاشتدت عليهم قريش عند ذلك. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى

---

(١) روح المعاني:١٩٤/٥.

(٢) التفسير الميسر:١٨١.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم:ص١٧٠١/٥.[الخبر غير مرقم]

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٧٧):ص١٧٠١/٥.

المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله فيها: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}"(١).

الفوائد:

١- وجوب قتال المشركين على المسلمين ما بقي في الأرض مشرك.

٢- أن النبي صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم ظهر على أناسٍ متفرقين في عبادتهم؛ منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر وقاتلهم رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم ولم يفرق بينهم، والدليل قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}.

٣- الحذر من قتال المسملين بعضهم بعضا، إذ ان الغاية من الجهاد حتى لا تكون فتنة، في حين أن قتال المسلمين بعضهم بعضا هو الفتنة، وفي هذا المعنى روي عن ابن سيرين؛ قال: " قيل لسعد بن أبى وقاص ألا تقاتل فإنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك، فقال: لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان ولسان وشفتان، يعرف المؤمن من الكافر، فقد هاجرت وأنا أعرف الجهاد"(٢).

وقد روى أبو نعيم في الحلية من طريق أيوب السختياني قال :"اجتمع سعد وابن مسعود وابن عمر وعمار بن ياسر، فذكروا الفتنة، فقال سعد: أما أنا فأجلس في بيتي ولا أدخل فيها"(٣).

عن عمر بن سعد، عن أبيه: "أنه جاءه ابنه عامر فقال: أى بنى أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسا؟ لا والله حتى أعطى سيفا: إن ضربت به مؤمنا نبا عنه، وإن ضربت به كافرا قتله، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن الله يحب الغنى الخفى التقى"(٤).

وأما ابن عمر فإنه كذلك اعتزل في الفتن بعد موت عثمان فقد روى أبو نعيم من طريق نافع قال: "قيل لابن عمر زمن ابن الزبير والخوارج والخشبية أتصلي مع هؤلاء وهؤلاء وبعضهم يقتل بعضاً فقال: من قال حي على الصلاة أجبته ومن قال حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله! قلت: لا"(٥).

ومن طريق عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عمر قال:" إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان وعلى هذه الدنيا ما أبالي أن لا يكون لي ما يقتل بعضهم بعضاً بنعلي هاتين الجرداوين"(٦).

وعن إسماعيل بن أبي خالد: " قال مروان بن الحكم لأيمن بن خريم ، ألا تخرج فتقاتل معنا؟ فقال: إن أبي وعمي شهدا بدرا مع رسول الله -ﷺ- فعهدا إلي أن لا أقاتل أحدا يشهد أن لا إله إلا الله، فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك، قال: اذهب فلا حاجة لنا فيك".

وفي رواية أبي يعلي من طريق عامر الشعبي:" قال: لما قاتل مروان الضحاك بن قيس، أرسل إلى أيمن بن خريم الأسدي فقال: إنا نحب أن تقاتل معنا، فقال: إن أبي وعمي شهدا بدرا فعهدا إلي أن لا أقاتل أحدا يشهد أن لا إله إلا الله، فإن جئتني ببراءة قاتلت معك، قال: اذهب، ووقع في نفسه وشتمه، فأنشأ أيمن ابن خريم يقول:

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٠٨٣):ص٥٣٩/١٣-٥٤٠.
قال ابن كثير٥٨/٤:" وهذا صحيح إلى عروة ، رحمه الله".

(٢)أخرجه أبو نعيم (٩٤/١).

(٣) تخريج احاديث إحياء علوم الدين(٣٨٥٩):ص٢٤٣٩/٦.

(٤)من حديث سعد بن أبى وقاص فى المسند: ١٧٧/١، وانظر: جامع المسانيد والنن(٣٩٨٨):ص٣٦٧/٣، وتخريج احاديث إحياء علوم الدين(٣٨٥٩):ص٢٤٣٩/٦.

(٥)تخريج احاديث إحياء علوم الدين(٣٨٥٩):ص٢٤٣٩/٦..

(٦)تخريج احاديث إحياء علوم الدين(٣٨٥٩):ص٢٤٣٩/٦..

"لست بقاتل رجلا يصلي على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي إثمي معاذ الله من جهل وطيش
أأقتل مسلما في غير شيء فلست بنافعي ما عشت عيشي"[١]

٤- ومن أسمائه تعالى: {الْبَصِيرُ}، "هو المبصر. «فعيل» بمعنى «»مفعل». كقولهم، أليم: بمعنى: مؤلم، وكقول عمرو بن معد يكرب[٢]:

أمن ريحانة الداعي السميع

يريد: المسمع. ويقال: البصير: العالم بخفيات الأمور"[٣].

قال ابن عثيمين:" «البصير»، يعني: المدرك لجميع المبصرات"[٤].

القرآن

{وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)} [الأنفال : ٤٠]

التفسير:

وإن أعرض هؤلاء المشركون عمَّا دعوتموهم إليه -أيها المؤمنون- من الإيمان بالله ورسوله وترك قتالكم، وأبَوْا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم، فأيقِنوا أن الله معينكم وناصركم عليهم. نِعْمَ المعين والناصر لكم ولأوليائه على أعدائكم.

قوله تعالى:{وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ} [الأنفال : ٤٠]، أي:" وإن أعرض هؤلاء المشركون عمَّا دعوتموهم إليه -أيها المؤمنون- من الإيمان بالله ورسوله وترك قتالكم، وأبَوْا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم، فأيقِنوا أن الله معينكم وناصركم عليهم"[٥].

---

[١]ذكره البوصيري في الإتحاف (١/ ق ٢١ أ) وقال: أيمن بن خزيم مختلف في صحبته.
وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩٩) وعزاه إلى أبي يعلى والطبراني: ورجاله رجال الصحيح غير زكريا بن يحيي رحمويه وهو ثقة.
وللحديث طريقان طريق ابن أبي عمر وهي منقطعة لأن إسماعيل لم يدرك مروان.
والثانية طريق أبي يعلى وهي موصولة. وإنما جمعت بين الطريقين لأنهما في الحقيقة طريق واحدة لأن إسماعيل بن أبي خالد أرسل عن الشعبي إن لم يكن سقوط الشعبي من الناسخ لدليل أن ابن عبد البر روى الحديث من طريق ابن أبي عمر فرواه موصولا في ترجمة أيمن بن خزيم (١/ ٨٩).
ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٦٧: ٨٥٢) من طريق عبد الله بن أبان، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، به بنحوه وذكر البيتين الأولين دون الثالث.
ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٨٩) من طريق أبي معاوية الضرير عن إسماعيل ابن أبي خالد، به بمعناه.
تخريج طريق مطرف عن الشعبي التي أخرجها أبو يعلى.
هو في مسند أبي يعلى (٢/ ٢٤٥: ٩٤٧).
ومن طريق أبي يعلى رواه ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ١٨٩).
ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٦٧: ٨٥١) من طريق شعبة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن مطرف، به بمعناه واقتصر على البيتين الأولين.
الحكم عليه:
هذا الأثر له طرق عن الشعبي أصحها طريق أبو يعلى، ورجالها رجال الصحيح غير زكريا بن يحيي وهو ثقة.[المطالب العلية: ٢٧٣/١٢]

[٢]هذا صدر بيت، عجزه: يؤرقني وأصحابي هجوع.
وهو مطلع الأصمعية رقم (٦١)، وأبياتها (٣٧) بيتا لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وفي الكامل ١/ ١٧٢، وأمالي ابن الشجري ١/ ٦٤ و ٢/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١/ ١٢٣، وتهذيب الأزهري ٢/ ١٢٤، والشريشي ٢/ ٢٥٨، وسرح العيون ٢٧١، وأورده ابن فارس في الصاحبي ص ٢٠١، شاهدا على السميع بمعنى: مسمع، وضعهم فعيل بمعنى مفعل، وروح المعاني ١/ ١٥٠، والشطرة في غريب القرآن ص ١٧ وانظر تفسير أسماء الله الحسنى ص ٤٣.

[٣] شان الدعاء:٦٠-٦١.

[٤] انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٢٠٨/١.

[٥] التفسير الميسر:١٨١.

قال الزجاج:" المعنى: فإن أقاموا على كفرهم وعداوتهم فاعلموا أن الله مولاكم، أي: هو المولى لكم، فلا تضركم معاداتهم"[1].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن أدبر هؤلاء المشركون عما دعوتموهم إليه، أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله، وترك قتالكم على كفرهم، فأبوا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم، فقاتلوهم، وأيقنوا أنّ الله معينكم عليهم وناصركم"[2].

قال ابن كثير:" أي : وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ، { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ } سيدكم وناصركم على أعدائكم"[3].

عن ابن عباس :"{وإن تولوا}، يعني: الكفار، تولوا عن النبي ﷺ"[4].

يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه :"{وإن تولوا}، عن أمرك إلى ما هم عليه من كفرهم"[5].

عن ابن إسحاق :"{فاعلموا أن الله مولاكم}، الذي أعزكم في اليوم الذي كان قبله، يعني: بدرا"[6].

قوله تعالى:{نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الأنفال : ٤٠]، أي:" نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغلب من نصره الله"[7].

قال الطبري:أي: " {نعم المولى}، هو لكم، يقول: نعم المعين لكم ولأوليائه، {ونعم النصير}، وهو الناصر"[8].

قال ابن إسحاق :"ومولاكم {نعم المولى ونعم النصير}"[9].

عن الأعمش عن شقيق قال: "قال لي: يا سليمان نعم الرب ربنا لو أطعناه ما عصانا"[10].

الفوائد:

١- نعم المولى الله ﷻ لمن تولاه، ونعم النصير لمن نصره.
٢- ومن الفوائد اثبات اسمان من اسمائه تعالى، وهما: «المولى» و«النصير»:
فـ«المولى»[11]: أي:" الناصر: والمعين"[12].
و«النصير»: هو الموثوق منه بأن لا يسلم وليه ولا يخذله"[13].

القرآن

---

[1] معاني القرآن:٤١٣/٢.
[2] تفسير الطبري:٥٤٤/١٣.
[3] تفسير ابن كثير:٥٧/٤.
[4] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٧٨):ص١٧٠١/٥.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٧٩):ص١٧٠٢/٥.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٨١):ص١٧٠٢/٥.
[7] صفوة التفاسير:٤٦٨/١.
[8] تفسير الطبري:٥٤٤/١٣.
[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٨١):ص١٧٠٢/٥.
[10] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٠٨٠):ص١٧٠٢/٥.
[11] لأن «المولى» في معنى«الولي»: وهو:" الناصر. ينصر عباده المؤمنين، كقوله -سبحانه-: { اللهُ وَلِي الذِيْن آمَنوا يخرجهم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النور } [البقرة:٢٥٧]، وكقوله تعالى: { ذلِكَ بِأن الله مَوْلَى الذينَ آمَنوا، وَأن الكَافِرِيْنَ لاَ مَوْلَى لهمْ} [محمد:١١] المعنى: لا ناصر لهم. -والله أعلم-. والولي أيضا المتولي للأمر والقائم به. كولي اليتيم، وولي المرأة في عقد النكاح عليها، وأصله من الولي؛ وهو القرب".[شأن الدعاء:٧٨].
[12] شأن الدعاء:١٠١.
[13] الأسماء والصفات للبيهقي:٩١.

{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)} [الأنفال : ٤١]

التفسير:

واعلموا -أيها المؤمنون- أن ما ظَفِرتم به مِن عدوكم بالجهاد في سبيل الله فأربعة أخماسه للمقاتلين الذين حضروا المعركة، والخمس الباقي يجزَّأ خمسة أقسام: الأول لله وللرسول، فيجعل في مصالح المسلمين العامة، والثاني لذوي قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، جُعِل لهم الخمس مكان الصدقة فإنها لا تحلُّ لهم، والثالث لليتامى، والرابع للمساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم، والخامس للمسافر الذي انقطعت به النفقة، إن كنتم مقرّين بتوحيد الله مطيعين له، مؤمنين بما أنزل على عبده محمد ﷺ من الآيات والمدد والنصر يوم فَرَق بين الحق والباطل بـ «بدر» ، يوم التقى جَمْعُ المؤمنين وجَمْعُ المشركين. والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنفال : ٤١]، أي:" اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتوه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيرا"(١).

قال السعدي:" أي: أخذتم من مال الكفار قهرا بحق، قليلا كان أو كثيرا"(٢).

قال الماوردي:" وقوله تعالى:{مِّن شَيْءٍ}، يريد جميع ما وقع عليه اسم شيء مباح حواه المسلمون من أموال المشركين"(٣).

قال ابن كثير:" وقوله تعالى:{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط ، قال الله تعالى : { وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [آل عمران : ١٦١]"(٤).

عن سعيد بن جبير في قول الله :"{واعلموا أنما غنمتم من شيء}، يعني: من المشركين"(٥).

عن مجاهد أنما غنمتم من شيء قال: المخيط من الشيء"(٦).

قوله تعالى:{فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال : ٤١]، أي:" فحكمه أن لله خمسه"(٧).

قال المراغي:" ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة للإسلام، وإقامة شعائره وعمارة الكعبة وكسوتها"(٨).

قال الصابوني:" قال المفسرون: تقسم الغنيمة خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين"(٩).

عن ابن جريج: "{فأن لله خمسه}، قال: أربعة أخماس لمن حضر البأس، والخمس الباقي لله والرسول، خمسه يضعه حيث رأى، وخمسه لذوي القربى، وخمسه لليتامى، وخمسة للمساكين، ولابن السبيل خمسه"(١٠).

قال الشافعي:" وسن رسول الله - ﷺ - أن أربعة أخماسه لمن أوجف على الغنيمة، للفارس من ذلك ثلاثة أسهم، وللراجل سهم، فلم نعلم رسول الله - ﷺ - فضل الفارس ذا الغناء

---

(١) صفوة التفاسير:٤٧٠/١.
(٢) تفسير السعدي:٣٢١.
(٣) النكت والعيون:٣١٩/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٩/٤.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٨٣):ص١٧٠٢/٥.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٠٨٤):ص١٧٠٢/٥.
(٧) .مفاتيح الغيب:٦٧٦/٣٠
(٨) تفسير المراغي:٤/١٠.
(٩) صفوة التفاسير:٤٧٠/١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٦١٠٩):ص٥٥٣/١٣.

العظيم على الفارس الذي ليس مثله، ولم نعلم المسلمين إلا سووا بين الفارسين، حتى قالوا: لو كان فارس أعظم الناس غناء، وآخر جبان سووا بينهما، وكذلك قالوا في الرجالة"[١].

وفي قوله تعالى:{فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال : ٤١]، قولان:

أحدهما : أنه استفتاح كلام ، فلله الدنيا والآخرة وما فيهما ، ومعنى الكلام فأن للرسول خمسه ، قاله الحسن[٢]، وعطاء[٣]، وقتادة[٤]، وإبراهيم[٥]، والشافعي، واختاره الطبري[٦].

قال الحسن:" هذا مفتاح كلامٍ، لله الدنيا والآخرة"[٧].

وروى نهشل عن الضحاك عن ابن عباس قال : "كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خمَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة. ثم قرأ: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول}. قال: وقوله: {فأن لله خمسه}، مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل الله سهم الله وسهم الرسول واحدًا"[٨].

قال الفخر:" أضاف السهم الذي يأخذه الرسول إلى نفسه"[٩].

قال ابن كثير:" ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن شقيق ، عن رجل من بلقين قال : «أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرى ، وهو يعرض فرسًا ، فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : "لله خمسها ، وأربعة أخماس للجيش". قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : " لا ولا السهم تستخرجه من جنبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم»[١٠]"[١١].

والثاني : أن سهم الله مستحق لبيته ، ومعناه: فإن لبيت الله خمسه وللرسول.

وقد روى الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي قال : " كان رسول الله ﷺ، يؤتَى بالغنيمة، فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة، وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل"[١٢].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: قوله: {فأن لله خمسه}، «افتتاح كلام»، وذلك لإجماع الحجة على أنّ الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم، ولو كان لله فيه سهم، كما قال أبو العالية، لوجب أن يكون خمس الغنيمة مقسومًا على ستة أسهم. وإنما اختلف أهل العلم في قسمه على خمسة فما دونها، فأما على أكثر من ذلك، فما لا نعلم قائلا قاله غير الذي ذكرنا من الخبر عن أبي العالية. وفي إجماع من ذكرت، الدلالةُ الواضحةُ على صحة ما اخترنا"[١٣].

قوله تعالى:{وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال : ٤١]، أي:" سهم من الخمس يعطى للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم-"[١٤].

---

[١] تفسير الإمام الشافعي:٨٧٧/٢.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٩٣)، و(١٦٠٩٤):ص٥٤٨/١٣
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦١٠٠):ص٥٥٠/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٩٨):ص٥٤٩/١٣-٥٥٠.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٠٩٦):ص٥٤٩/١٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٥٥٢/١٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٠٩٣):ص٥٤٨/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٠٩٥):ص٥٤٩/١٣.
[٩] مفاتيح الغيب:٣٠٣/٢.
[١٠] السنن الكبرى (٣٢٤/٦).
[١١] تفسير ابن كثير:٦٠/٤.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦١-٢):ص٥٥٠/١٣-٥٥١.
[١٣] تفسير الطبري:٥٥٢/١٣.
[١٤] صفوة التفاسير:٤٧٠/١.

قال المراغي:أي:" ثم أعطوا للرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة"[١].

وفي قوله تعالى:{وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال : ٤١]، قولان:

أحدهما : أنه مفتاح كلام اقترن بذكر الله وليس للرسول من ذلك شيء كما لم يكن لله من ذلك شيء، وأن الخمس مقسوم على أربعة أسهم ، وهذا قول ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة[٢].

والثاني : أن ذلك للرسول. حكاه الماوردي عن الجمهور[٣].

عن موسى بن أبي عائشة قال: "سألت يحيى بن الجزار عن سهم النبي ﷺ، فقال: هو خُمْس الخمس"[٤].

واختلفوا في سهم رسول الله -ﷺ- بعده على خمسة أقوال[٥]:

أحدها : أنه للخليفة بعده ، قاله قتادة[٦].

قال ابن كثير:" فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده. روى هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة جماعة ، وجاء فيه حديث مرفوع"[٧].

والثاني : أنه لقرابة النبي -ﷺ- إرثاً ، وهذا قول من جعل النبي موروثاً .

والثالث : أن سهم الرسول -ﷺ- مردود على السهام الباقية ويقسم الخمس على أربعة .

والرابع : أنه مصروف في مصالح المسلمين العامة ، قاله الشافعي[٨].

قال ابن كثير:" وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء. وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية ، رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف ، وهو أصح الأقوال"[٩].

والخامس : أن ذلك مصروف في الكراع والسلاح ، وروي أن ذلك فعل أبي بكر وعمر ، رواه النخعي[١٠].

قوله تعالى:{وَلِذِي الْقُرْبَى} [الأنفال : ٤١]، أي:" ولذوي قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، جُعِل لهم الخمس مكان الصدقة فإنها لا تحلُّ لهم"[١١].

قال المراغي:" ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته نسبا وولاء، وقد خص الرسول ﷺ ذلك ببني هاشم وبنى أخيه المطلب المسلمين، دون بنى عبد شمس ونوفل"[١٢].

واختلف في قوله تعالى:{وَلِذِي الْقُرْبَى} [الأنفال : ٤١]، على ثلاثة أقوال:

أحدها : أنهم بنو هاشم ، قاله مجاهد[١٣].

عن أبي الديلم قال: "قال علي بن الحسين، رحمة الله عليه، لرجل من أهل الشأم: أما قرأت في «الأنفال»: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول} الآية؟ قال: نعم! قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم!"[١].

---

[١] تفسير المراغي:٤/١٠.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦١٠٤):ص٥٥١/١٣.

[٣] انظر: النكت والعيون:٣٢٠/٢.

[٤] أخرجه الطبري(١٦١٠٦):ص٥٥٣/١٣.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٢٠/٢، وتفسير ابن كثير:٦٢/٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦١١٨):ص٥٥٥/١٣، والنكت والعيون:٣٢٠/٢.

[٧] تفسير ابن كثير:٦٢/٤. والحديث: رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣٠٣/٦) من طريق الوليد بن جميع عن أبي الطفيل : لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إذا أطعم الله نبيا طعمة ثم قبضه كانت للذي يلي بعده" فلما وليت رأيت أن أرده على المسلمين.

[٨] انظر: النكت والعيون:٣٢٠/٢.

[٩] تفسير ابن كثير:٦٢/٤.

[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٢٠/٢.

[١١] التفسير الميسر:١٨٢.

[١٢] تفسير المراغي:٤/١٠-٥.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٦١١٠):ص٥٥٣/١٣.

عن ابن عباس: "أن نَجْدة كتب إليه يسأله عن ذوي القربى، فكتب إليه كتابًا: نزعم أنا نحن هم، فأبى ذلك علينا قومنا"[٢].

والثاني : أنهم قريش كلها ، روى سعيد المقري قال : "كتب نجدة إلى ابن عباس يسأله عن ذي القربى قال: فكتب إليه ابن عباس: "قد كنا نقول: إنّا هم، فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى"[٣].

الثالث : أنهم بنو هاشم وبنو المطلب ، قاله الشافعي[٤]، والطبري[٥].

قال ابن كثير:" وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب ؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له : مسلمهم طاعة لله ولرسوله ، وكافرهم حَمِيَّة للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم ونابذوهم ، ومالئوا بطون قريش على حرب الرسول ؛ ولهذا كان ذَمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم ، لشدة قربهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته [٦]:

جَزَى الله عَنَّا عبدَ شمس ونَوفلا ... عُقُوبة شرٍّ عاجل غير آجلِ
بميزانِ قسْط لا يَخيس شَعِيرة ... لهُ شَاهدٌ مِنْ نَفْسه غير عائلِ
لقد سَفُهت أحلامُ قوم تَبَدَّلوا ... بني خَلَف قَيْضا بنا والغَيَاطِلِ
ونحنُ الصَّميم من ذؤابة هاشم ... وآل قُصَى في الخُطُوب الأوائلِ"[٧].

واختلفوا في سهمهم اليوم على أقوال[٨]:

أحدها : أنه لهم أبداً كما كان لهم من قبل ، قاله الشافعي .

والثاني : أنه جعل لوليّ أمر المسلمين. قاله علي-رضي الله عنه-[٩]، وقتادة[١٠].

عن قتادة: "أنه سئل عن سهم ذي القربى فقال: كان طُعْمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حيًّا، فلما توفي جُعل لوليّ الأمر من بعده"[١١].

والثالث : يُصرفان في معونة الإسلام وأهله. قاله ابن عباس[١٢]، والحسن[١٣]، وقتادة[١٤]، وإبراهيم[١٥].

قال ابن كثير:" وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء ، رحمهم الله"[١٦].

قال ابن عباس:" فكانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس: أربعة بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة: لله وللرسول ولذي القربى- يعني: قرابة النبي ﷺ - فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئًا. فلما قبض الله رسوله صلى

---

[١] أخرجه الطبري(١٦١١٣):ص٥٥٤/١٣.
[٢] أخرجه الطبري(١٦١١٥):ص٥٥٤/١٣.
[٣] أخرجه الطبري(١٦١١٧):ص٥٥٥/١٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦١١٩):ص٥٥٦/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٥٥٦/١٣.
[٦] الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٧/١).
[٧] تفسير ابن كثير:٦٢/٤.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٢٠/٢-٣٢١.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦١٢٦):ص٥٥٨/١٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦١١٨):ص٥٥٥/١٣.
[١١] أخرجه الطبري(١٦١١٨):ص٥٥٥/١٣.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦١٢٠):ص٥٥٦/١٣-٥٥٧.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٦١٢١):ص٥٥٧/١٣.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٦١٢٥):ص٥٥٨/١٣.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٦١٢٣):ص٥٥٧/١٣.
[١٦] تفسير ابن كثير:٦٢/٤.

الله عليه وسلم ردّ أبو بكر رضي الله عنه نصيبَ القرابة في المسلمين، فجعل يحمل به في سبيل الله، لأن رسول الله ﷺ قال: لا نورث، ما تركنا صدقا"[1].

عن قتادة: "أنه سئل عن سهم ذي القربى فقال: كان طعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما تُوُفي، حمل عليه أبو بكر وعمر في سبيل الله، صدقةً على رسول الله ﷺ"[2].

عن الأعمش، عن إبراهيم قال: "كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبي ﷺ في الكُرَاع والسلاح. فقلت لإبراهيم: ما كان علي رضي الله عنه يقول فيه؟ قال: كان عليٌّ أشدَّهم فيه"[3].

والرابع: أنه إلى الإمام يضعه حيث شاء. حكاه الماوردي[4].

والخامس: أن سهمهم وسهم رسول الله -ﷺ- مردود على باقي السهام وهي ثلاثة ، قاله أبو حنيفة[5]، ونسبه الطبري إلى جماعة من أهل العراق[6].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا، أن سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مردودٌ في الخمس، والخمس مقسوم على أربعة أسهم، على ما روي عن ابن عباس: للقرابة سهم، ولليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأن الله أوجبَ الخمس لأقوام موصوفين بصفات، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين. وقد أجمعوا أنّ حق الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم. فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم، كما غير جائز أن تخرج بعض السهمان التي جعلها الله لمن سماه في كتابه بفقد بعض من يستحقه، إلى غير أهل السهمان الأخَر"[7].

وروي المنهال بن عمرو قال: "سألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين عن الخمس فقالا هو لنا. فقلت لعلي: إن الله يقول: "واليتامى والمساكين وابن السبيل"، فقالا يتامانَا ومساكيننا"[8].

قوله تعالى:{وَالْيَتَامَى} [الأنفال : ٤١]، أي:" ولأطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم"[9].

قال ابن كثير:" أي : يتامى المسلمين"[10].

قال الطبري:" فهم أطفال المسلمين الذين قد هلك آباؤهم"[11].

وقوله تعالى:{وَالْيَتَامَى} [الأنفال : ٤١]، هم من اجتمعت فيهم أربعة شروط [12]:

أحدها : موت الأب وإن كانت الأم باقية، لأن يتم الآدميين بموت الآباء دون الأمهات ويتم البهائم بموت الأمهات دون الآباء .

والثاني : الصغر ، لقول رسول الله -ﷺ- : « لا يتم بعد احتلام»[13].

والثالث : الإسلام لأنه مال المسلمين .

والرابع : الحاجة لأنه معد للمصالح .

ثم فيهم قولان[14]:

---

[1] أخرجه الطبري(١٦١٢٤):ص١٣/٥٥٧-٥٥٨.

[2] أخرجه الطبري(١٦١٢٥):ص١٣/٥٥٨.

[3] أخرجه الطبري(١٦١٢٣):ص١٣/٥٥٧.

[4] انظر: النكت والعيون:٢/٣٢٠-٣٢١.

[5] انظر: النكت والعيون:٢/٣٢٠-٣٢١.

[6] انظر: تفسير الطبري:١٣/٥٥٩.

[7] تفسير الطبري:١٣/٥٥٩.

[8] أخرجه الطبري(١٦١٢٨):ص١٣/٥٥٩.

[9] أوضح التفاسير:١/٢١٥.

[10] تفسير ابن كثير:٤/٦٥.

[11] تفسير الطبري:١٣/٥٦٠.

[12] انظر: النكتو العيون:٢/٣٢١.

[13]أخرجه ابن قانع (٢٠٤/١) ، والطبرانى (١٤/٤، رقم ٣٥٠٢) ، وقال الهيثمى (٢٢٦/٤) : رجاله ثقات.

[14] انظر: النكتو العيون:٢/٣٢١.

أحدهما : أنه لأيتام أهل الفيء خاصة .
والثاني : أنه لجميع الأيتام .
قوله تعالى:{وَالْمَسَاكِينِ} [الأنفال : ٤١]، أي:" وللمساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم"[١].
قال الطبري:" هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين"[٢].
قال ابن كثير:" هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم"[٣].
قوله تعالى:{وَابْنِ السَّبِيلِ} [الأنفال : ٤١]، أي:" وللمسافر الذي انقطعت به النفقة"[٤].
قال الطبري:" المجتاز سفرًا قد انقُطِع به"[٥].
قال ابن كثير:" هو المسافر ، أو المريد للسفر ، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك"[٦].
عن ابن عباس قال: "الخمس الرابع لابن السبيل، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين"[٧].
قال المراغي:" والحكمة فى تقسيم الخمس على هذا النحو- أن الدولة التي تدير سياسة الأمة لا بد لها من الملل لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين والدفاع عن الأمة، وهو ما جعل لله فى الآية، ثم نفقة رئيس حكومتها، وهو سهم الرسول فيها، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلا لشرفه وكرامته وهو سهم ذوى القربى، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة، وهم الباقون.
ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولا به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة، فالمال الذي يرصد للمصالح العامة يدخل فى موازين الوزارات المختلفة ما بين جهرية وسرية، ولا سيما الأمور الحربية، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك أو رئيس جمهورية منه ما هو خاص بشخصه، ومنه ما هو لأسرته وعياله، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوهما"[٨].
قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ} [الأنفال : ٤١]، أي:" إن كنتم مقرِّين بتوحيد الله مطيعين له"[٩].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أيقنوا أيها المؤمنون، أنما غنمتم من شيء فمقسوم القسم الذي بينته، وصدِّقوا به إن كنتم أقررتم بوحدانية الله"[١٠].
قال ابن كثير:" أي : امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر"[١١].
قوله تعالى:{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [الأنفال : ٤١]، أي:" وبما أنزلنا على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[١٢].
قال الطبري:أي:" وبما أنزل الله على عبده محمد ﷺ"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٢.
[٢] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٦٥/٤.
[٤] التفسير الميسر:١٨٢.
[٥] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.
[٦] تفسير ابن كثير:٦٥/٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦١٢٩):ص٥٦٠/١٣.
[٨] تفسير المراغي:٥/١٠.
[٩] التفسير الميسر:١٨٢.
[١٠] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.
[١١] تفسير ابن كثير:٦٥/٤.
[١٢] صفوة التفاسير:٤٧٠/١.
[١٣] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.

جاء في الصحيحين ، من حديث عبد الله بن عباس ، في حديث وفد عبد القيس : أن رسول الله ﷺ قال لهم : "وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم.."[١].

قال ابن كثير:" فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان"[٢].

قوله تعالى:{يَوْمَ الْفُرْقَانِ} [الأنفال : ٤١]، أي:" يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل"[٣].

قال الطبري:أي:" يوم فَرَق بين الحق والباطل ببدر، فأبان فَلَج المؤمنين وظهورَهم على عدوهم"[٤].

قال ابن عباس:" يعني: بـ{الفرقان}، يوم بدر، فرَق الله فيه بين الحق والباطل"[٥].

عن ابن إسحاق: "{وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان}، أي: يوم فرقت بين الحق والباطل بقدرتي"[٦].

قوله تعالى:{يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [الأنفال : ٤١]، أي:" يوم التقى جَمْعُ المؤمنين وجَمْعُ المشركين"[٧].

قال الطبري:أي:" جمعُ المؤمنين وجمعُ المشركين"[٨].

عبد الله بن حبيب قال: "قال الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت ليلة {الفرقان يوم التقى الجمعان}، لسبع عشرة من شهر رمضان"[٩].

عن ابن إسحاق: " يوم التقى الجمعان منكم ومنهم"[١٠].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنفال : ٤١]، أي:" والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء"[١١].

قال الطبري:أي:" والله على إهلاك أهل الكفر وإذلالهم بأيدي المؤمنين، وعلى غير ذلك مما يشاء {قدير}، لا يمتنع عليه شيء أراده"[١٢].

الفوائد:

١- بيان قسمة الغنائم على الوجه الذي رضيه الله تعالى.
٢- التذكير بالإيمان، إذ هو الطاقة الموجهة باعتبار أن المؤمن حي بإيمانه يقدر على الفعل والترك، والكافر ميت فلا يكلف.
٣- ومن اسمائه تعالى:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"[١٣].

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"[١٤].

---

[١]صحيح البخاري برقم (٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٧).
[٢] تفسير ابن كثير:٦٥/٤.
[٣] صفوة التفاسير:٤٧٠/١.
[٤] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٦١٣٠):٥٦١/١٣
[٦] أخرجه الطبري(١٦١٣٧):٥٦٢/١٣
[٧] التفسير الميسر:١٨٢.
[٨] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٦١٣٥).:٥٦٢/١٣
[١٠] أخرجه الطبري(١٦١٣٧):٥٦٢/١٣
[١١] التفسير الميسر:١٨٢.
[١٢] تفسير الطبري:٥٦٠/١٣.
[١٣] شأن الدعاء للخطابي:٨٥.
[١٤] الاسما والصفات:١١١/٢.

القرآن

{إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)} [الأنفال : ٤٢]

التفسير:

واذكروا حينما كنتم على جانب الوادي الأقرب إلى «المدينة» ، وعدوكم نازل بجانب الوادي الأقصى، وعِير التجارة في مكان أسفل منكم إلى ساحل «البحر الأحمر» ، ولو حاولتم أن تضعوا موعدًا لهذا اللقاء لاختلفتم، ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعاد؛ ليقضي أمرًا كان مفعولا بنصر أوليائه، وخِذْلان أعدائه بالقتل والأسر؛ وذلك ليهلك من هلك منهم عن حجة لله ثبتت له فعاينها وقطعت عذره، وليحيا مَن حيَّ عن حجة لله قد ثبتت وظهرت له. وإن الله لسميع لأقوال الفريقين، لا يخفى عليه شيء، عليم بنيَّاتهم.

قوله تعالى:{إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} [الأنفال : ٤٢]، أي:" واذكروا حينما كنتم على جانب الوادي الأقرب إلى «المدينة»"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : أيقنوا ، أيها المؤمنون ، واعلموا أن قسم الغنيمة على ما بيَّنه لكم ربكم ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده يوم بدر ، إذ فرق بين الحق والباطل من نصر رسوله{إذ أنتم}، حينئذ ،{بالعدوة الدنيا}، يقول : بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة"[٢].

قال الزجاج:" و«العدوة» شفير الوادي، يقال: عدوة، وعدوة، وعدى الوادي مقصور، فالمعنى: إذ أنتم بالعدوة الدنيا، أي: بشفير الوادى الذي يلي المدينة"[٣].

وقال الأخفش : "عدوه الوادي، هو ملطاط شفيره الذي هو أعلى من أسفله ، وأسفل من أعلاه"[٤].

عن قتادة : " {إذ أنتم بالعدوة الدنيا}، قال : شفير الوادي الأدنى"[٥].

قوله تعالى:{وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} [الأنفال : ٤٢]، أي:" وعدوكم نازل بجانب الوادي الأقصى"[٦].

قال قتادة : " وهم بشفير الوادي الأقصى "[٧].

قال الزجاج:أي:" بشفير الوادي الذي يلي مكة"[٨].

قال الطبري:" يقول:وعدوكم من المشركين نزولٌ بشَفير الوادي الأقصى إلى مكة"[٩].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو {بالعدوة} و{بالعدوة}، «العين» فيهما مكسورة، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى بضم «العين» فيهما[١٠].

قوله تعالى:{وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} [الأنفال : ٤٢]، أي:" وعِير التجارة في مكان أسفل منكم إلى ساحل «البحر الأحمر»"[١١].

قال الطبري:" يقول : والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٢.
[٢] تفسير الطبري:٥٦٣/١٣.
[٣] معاني القرآن:٤١٧/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٢٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٦١٣٩):ص٥٦٣/١٣.
[٦] التفسير الميسر:١٨٢.
[٧] أخرجه الطبري(١٦١٣٩):ص٥٦٣/١٣.
[٨] معاني القرآن:٤١٧/٢.
[٩] تفسير الطبري:٥٦٣/١٣.
[١٠] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٦.
[١١] التفسير الميسر:١٨٢.

قال الزجاج:" الركب: العير التي كان فيها أبو سفيان على شاطئ البحر. فأعلم الله جل وعز أن نصر المؤمنين وهم في هذا الموضع فرقان"[٢].

عن قتادة : "{والركب أسفل منكم}، قال : أبو سفيان وأصحابه ، أسفلَ منهم "[٣].

وفي رواية أخرى عن قتادة:" يعني : أبا سفيان ، [انحدر بالعير على حوزته]، حتى قدم بها مكة"[٤].

عن مجاهد قوله :"{والركب أسفل منكم}، قال : أبو سفيان وأصحابه ، مقبلون من الشأم تجارًا ، لم يشعروا بأصحاب بدر ، ولم يشعر محمد ﷺ بكفار قريش ، ولا كفار قريش بمحمد وأصحابه ، حتى التقى على ماء بدر من يسقي لهم كلهم، فاقتتلوا، فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأسروهم"[٥].

قال السدي:" ذكر منازل القوم والعير فقال :{إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى}، و«الركب»: هو أبو سفيان، {أسفل منكم}، على شاطئ البحر"[٦].

قوله تعالى:{وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ} [الأنفال : ٤٢]، أي:" ولو حاولتم أن تضعوا موعدًا لهذا اللقاء لاختلفتم، ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعاد"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ} [الأنفال : ٤٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها : ولو تواعدتم أن تتفقوا مجتمعين لاختلفتم في الميعاد ، بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان من غير قصد لذلك .

والثاني : ولو تواعدتم ثم بلغكم كثرة عدوكم مع قلة عددكم لتأخرتم فنقضتم الميعاد ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : ولو تواعدتم ثم بلغكم كثرة عدوكم من غير معونة الله لكم لأخلفتم بالقواطع والعوائق في الميعاد .

قوله تعالى:{وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} [الأنفال : ٤٢]، أي:" ليقضي أمرًا كان مفعولا بنصر أوليائه، وخِذْلان أعدائه بالقتل والأسر"[٨].

قوله تعالى:{لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال : ٤٢]، أي:" وذلك ليهلك من هلك منهم عن حجة لله ثبتت له فعاينها وقطعت عذره"[٩].

وفي قوله تعالى:{لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال : ٤٢]، وجهان[١٠]:

أحدهما : ليقتل ببدر من قتل من مشركي قريش عن حجة ، وليبقى من بقي عن قدرة .

والثاني : ليكفر من قريش من كفر بعد الحجة ببيان ما وعدوا ، ويؤمن من آمن بعد العلم بصحة إيمانهم .

قوله تعالى:{وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال : ٤٢]، أي:" وليحيا مَن حيَّ عن حجة لله قد ثبتت وظهرت له"[١١].

قرأ ابن كثير فى رواية قنبل وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائى {حي عن بينة} بياء واحدة مشددة، وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر ونافع «من حيى» بيائين الأولى

---

[١] تفسير الطبري:٥٦٣/١٣.

[٢] معاني القرآن:٤١٧/٢.

[٣] أخرجه الطبري(١٦١٣٩):ص٥٦٣/١٣.

[٤] أخرجه الطبري(١٦١٤٠):ص٥٦٤/١٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٦١٤٢):ص٥٦٤/١٣.

[٦] أخرجه الطبري(١٦١٤٥):ص٥٦٥/١٣.

[٧] التفسير الميسر:١٨٢.

[٨] التفسير الميسر:١٨٢.

[٩] التفسير الميسر:١٨٢.

[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٢٢/٢.

[١١] التفسير الميسر:١٨٢.

مكسورة والثانية مفتوحة، وقال البزى عن ابن كثير«حيى» بياءين مثل نافع، وروي عن أبي بكر البغدادي عن الحسين بن بشر الصوفى قال حدثنا روح بن عبد المؤمن قال حدثنا محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير أنه قرأ «حيى» بياءين ظاهرتين مثل رواية البزى، وروى حفص عن عاصم {حي} بياء واحدة مشددة[1].

قوله تعالى:{وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال : ٤٢]، أي:" وإن الله لسميع لأقوال الفريقين، لا يخفى عليه شيء، عليم بنيَّاتهم"[2].

الفوائد:

١- فضيلة غزوة بدر وفضل أهلها.

٢- بيان تدبير الله تعالى في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.

٣- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما: «السميع»و«العليم»:

- فـ«السَّمِيعُ»: بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة، كقولهم: عليم: من عالم، وقدير: من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى. سواء عنده الجهر، والخفوت، والنطق، والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة.

كقول النبي - ﷺ -: "اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع"[3]، أي: من دعاء لا يستجاب.

ومن هذا قول المصلي:"سمع الله لمن حمده"[4]، معناه: قبل الله حمد من حمده.

وأنشد أبو زيد لشتير بن الحارث الضبي[5]:

دعوت الله حتى خفت ألا ... يكون الله يسمع ما أقول

أي: لا يجيب، ولا يقبل[6].

و{السَّمِيعُ} له معنيان:

أحدهما: بمعنى المجيب. ومثاله قوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، أي: لمجيب الدعاء.

والثاني: بمعنى السامع للصوت، وهوينقسم إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل،وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله، وهو من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثاً، ومثاله: قوله

---

[1] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٦-٣٠٧.

[2] التفسير الميسر:١٨٢.

[3] .هذاطرف حديث رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٢٤٤٠ موارد، والنسائي ٨/ ٢٦٤،والإمام أحمد ٣/ ١٩٢، ٢٥٥، ٣٨٣،والخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢ من حديث أنس وانظرالكنز ٢/ ٢٠١.

[4] أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم ٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٨٨، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٩،وفيه: "ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه" وبرقم ٣٢٠٣، ٣٢٢٨، ٤٠٦٩، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨.

ومسلم، باب "الصلاة" برقم (٢٥)، (٢٨)، (٥٤)، (٦٢)، (٦٣)، (٧١)، (٧٧)، (٨٦)، (٨٨)، (٨٩)، (١٩٦)، (١٩٨)، (١٩٩)، (٢٠٢)،وفيه: "اللهم ربنا لك الحمد،ملءالسموات، وملءالأرض، وملء ماشئت من شيء بعده". وكذلك روايته برقم (٢٠٣) وكتاب صلاة المسافرين برقم (٢٠٢)، (٢٠٣)،والنسائي (افتتاح) ٢/ ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١١. وابنماجهبرقم ٨٦٢، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ١٠٦١، ١٢٣٨، ١٢٣٩. وغيرهم.

[5] أنشده الطبري في تفسيره، ٥/ ٦ - ٥٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ١٤٤، والقرطبي ٢/ ٣١، وفي الخزانة ٢/ ٣٦٣، مطلع قصيدة من سبعة أبيات في الشاهد السادس والستين بعد الثلاثمائة منسوباً إلى شمير بن الحارث الضبي. وقال: شمير، بضم الشين المعجمة وفتح الميم وآخره راء مهملة، هكذا ضبطه أبو زيد. وقال الأخفش -فيما كتبه عليه- الذي في حفظي سمير -بالسين المهملة وكذا ضبطه الصاغاني في العباب بالمهملة- وقال: هو شاعر جاهلي والله أعلم. اهـ وفي نوادر أبي زيد ص ١٢٤ مع ستة أبيات أخرى. وفي أمالي المرتضى ١/ ٦٠٣، وفي اللسان (سمع) ولم ينسبه. وأنشده الخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢، والزمخشري في الفائق ١/ ٦١٢ كما هنا، إلى شتير. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٢..

[6] انظر: شأن الدعاء للخطابي:٥٩-٦٠.

تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى على بعضه"[١].

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، وهو من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب، ومثاله: قوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

الثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد، ومثاله: قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول[٢].

- و«العليم»: من أسمائه -عزّ وجل-، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٣].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٤].

القرآن

{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)} [الأنفال : ٤٣]

التفسير:

واذكر -أيها النبي- حينما أراك الله قلة عدد عدوك في منامك، فأخبرت المؤمنين بذلك، فقوِيت قلوبهم، واجترؤوا على حربهم، ولو أراك ربك كثرة عددهم لتردد أصحابك في ملاقاتهم، وجَبُنتم واختلفتم في أمر القتال، ولكن الله سلَّم من الفشل، ونجَّى من عاقبة ذلك. إنه عليم بخفايا القلوب وطبائع النفوس.

قوله تعالى:{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا} [الأنفال : ٤٣]، أي:" واذكر -أيها النبي- حينما أراك الله قلة عدد عدوك في منامك، فأخبرت المؤمنين بذلك، فقوِيت قلوبهم، واجترؤوا على حربهم"[٥].

قال الطبري:" يقول : يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك ، حتى قويت قلوبهم ، واجترأوا على حرب عدوهم"[٦].

وفي قوله تعالى:{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا} [الأنفال : ٤٣]، وجهان[٧]:

---

[١]رواه البخاري معلقاً"الفتح" (١٣١/ ٣٧٢) في كتاب التوحيد/ باب {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}. وقد وصله الإمام أحمد في "المسند" (٦/ ٤٦)،وابنكثير ٤/ ٢٨٦ ، وابن ماجة بهذا اللفظ، ورواه ايضاً بلفظ "تبارك" (٢٠٦٣).

[٢] انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٢٠٦/١-٢٠٧.

[٣] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

[٤] شأن الدعاء:٥٧.

[٥] التفسير الميسر:١٨٢.

[٦] تفسير الطبري:٥٦٩/١٣.

[٧] انظر: النكت والعيون:٣٢٣/٢.

أحدهما : أن الله أرى نبيه -ﷺ- قلة المشركين عياناً ، وقوله{فِي مَنَامِكَ} يريد في عينيك التي هي محل النوم ، قاله الحسن[١]، وأبو عبيدة[٢].
والثاني : أنه ألقى عليه النوم وأراه قلتهم في نومه، وهو الظاهر ، وعليه الجمهور[٣]
قال مجاهد:"أراه الله إياهم في منامه قليلا فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك ، فكان تثبيتًا لهم"[٤].
قال ابن إسحاق:" فكان أول ما أراه من ذلك نعمةً من نعمه عليهم ، شجعهم بها على عدوهم ، وكفَّ بها ما تُخُوِّف عليهم من ضعفهم ، لعلمه بما فيهم"[٥].
قال الماوردي:"وإنما أراه ذلك على خلاف ما هو به لطفاً أنعم به عليه وعلى أمته ، ليكون أثبت لقلوبهم وأقدم لهم على لقاء عدوهم ، ولولا ذلك لما جازت هذه الحالة من الله تعالى في نبيه -ﷺ-"[٦].
قوله تعالى:{وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ} [الأنفال : ٤٣]، أي:" ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم"[٧].
قال الطبري: يقول : "ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا ، لفشل أصحابك ، فجبنوا وخاموا ، ولم يقدروا على حرب القوم "[٨].
قال القرطبي:أي:" لجبنتم عن الحرب"[٩].
قال الصابوني:" وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه معصوم بل قال {لَفَشِلْتُمْ} إشارة إلى أصحابه"[١٠].
قوله تعالى:{وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ} [الأنفال : ٤٣]، أي:" ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم"[١١].
قال الطبري: يقول : "ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا"[١٢].
قال القرطبي:أي:" اختلفتم"[١٣].
قوله تعالى:{وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ} [الأنفال : ٤٣]، أي:" ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع"[١٤].
قال القرطبي:" أي سلمكم من المخالفة"[١٥].
وفي قوله تعالى:{وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ} [الأنفال : ٤٣]، وجوه:
أحدها :معناه : ولكن الله سلم للمؤمنين أمرهم من الفشل والتنازع، حتى أظهرهم على عدوهم. قاله ابن عباس[١٦].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٣٢٣/٢.
[٢] انظر: مجاز القرآن ١ /٢٤٧.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٢٣/٢.
[٤] أخرجه الطبري(١٦١٥٠):ص٥٧٠/١٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٦١٥١):ص٥٧٠/١٣-٥٧١.
[٦] النكت والعيون:٣٢٣/٢.
[٧] صفوة التفاسير:٤٧١/١.
[٨] تفسير الطبري:٥٦٩/١٣.
[٩]تفسير القرطبي:٢٢/٨ .
[١٠] صفوة التفاسير:٤٧١/١.
[١١] صفوة التفاسير:٤٧١/١.
[١٢] تفسير الطبري:٥٦٩/١٣-٥٧٠.
[١٣]تفسير القرطبي:٢٢/٨ .
[١٤] صفوة التفاسير:٤٧١/١.
[١٥]تفسير القرطبي:٢٢/٨ .
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٦١٥٤):ص٥٧١/١٣.

والثاني: معناه: ولكن الله سلم أمره فيهم. قاله قتادة[1].
والثالث: أي: أتم أمر المسلمين بالظفر. حكاه القرطبي[2].
وروي ع ابن عباس في قوله: {ولكن الله سلم}، أي: أتم"[3].
قال الطبري:والصواب" في ذلك بالصواب عندي ما قاله ابن عباس ، وهو أن الله سلم القومَ بما أرى نبيه ﷺ في منامه من الفشل والتنازع ، حتى قويت قلوبهم ، واجترأوا على حرب عدوهم. وذلك أن قوله : {ولكن الله سلم} عَقِيب قوله : {ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر}، فالذي هو أولى بالخبر عنه ، أنه سلمهم منه جل ثناؤه ، ما كان مخوفًا منه لو لم يُرِ نبيه ﷺ من قلة القوم في منامه"[4].
والثالث : لجبنتم عنهم وانهزمتم منهم ولكن الله سلم من العدو .
والرابع : ولكن الله سلم أمره فيهم حتى نفذ ما حكم فيهم به من هلاكهم. أفاده الماوردي[5].
قوله تعالى:{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الأنفال : ٤٣]، أي:" إنه عليم بخفايا القلوب وطبائع النفوس"[6].
قال الطبري:يقول:" إنه عليم بما تُجنُّه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب"[7].
عن مقاتل بن حيان قوله: "{عليم بذات الصدور}، بما في قلوبهم"[8].
قال محمد بن إسحاق: {عليم بذات الصدور}، أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم مما استخفوا به منكم"[9].
الفوائد:
١- بيان تدبير الله تعالى في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.
٢- ومن الفوائد: أهمية الرؤى في حياة الناس، إذ جاء الاهتمام بالرؤيا الصادقة في كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - اهتمامًا يحفظ المسلم من الغلو أو التفريط فيها.
فالرؤيا الصادقة من الله، وهي جزء من أجزاء النبوة، ومن مبشرات النبوة، وهي من الأنبياء وحي، بل هي مبدأ الوحيين والتصديق بها حق ولا خلاف فيها بين أهل الحق والدين ولا ينكرها إلا من شذ عن الحق[10].
فدل كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - على أن رؤيا الأنبياء وحي، فهي تدخل في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} [الشورى: ٥١].
ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه بعض رؤى أنبيائه، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ} [الأنفال: ٤٣].
وجعل سبحانه معجزة نبيه يوسف عليه السلام تأويل الرؤى، كما جاء في سورة يوسف.

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٦١٥٥):ص٥٧١/١٣.
[2] انظر: تفسير القرطبي:٢٢/٨.
[3] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٢٤):ص١٧١٠/٥.
[4] تفسير الطبري:٥٧١/١٣-٥٧٢.
[5] انظر: النكت والعيون:٣٢٣/٢.
[6] التفسير الميسر:١٨٢.
[7] تفسير الطبري:٥٧٠/١٣.
[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٢٥):ص١٧١٠/٥ .
[9] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٢٦):ص١٧١٠/٥ .
[10] انظر: التمهيد لابن عبد البر :١/ ٢٨٥.

وكذلك ما جاء في رؤيا إبراهيم عليه السلام، وكيف أقدم على ذبح ابنه وعد ما رآه في المنام أمرًا من الله تعالى، وكذلك الابن قال: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ}، قال تبارك وتعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٢ - ١٠٥].

وكذلك رؤيا نبينا محمد - ﷺ - في قصة الحديبية قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [الفتح: ٢٧].

أما السنة فقد بين النبي - ﷺ - أن أول أحوال النبيين الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١].

أما رؤيا المؤمن فهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة كما ثبت عنه - ﷺ - (٢) وهي من مبشرات النبوة، وباعث خير وطمأنينة.

ولهذا جاءت الأحاديث الكثيرة عن النبي - ﷺ - في شأن الرؤى، فهناك الأحاديث التي تبين أقسامها، وأن ما يراه الإنسان في منامه منه الرؤيا الحق، ومنه حديث النفس، ومنه تهاويل الشيطان، ولكل نوع علاماته وصفاته.

وهناك الأحاديث التي تبين أن الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوة، ومن مبشرات النبوة[٢]، وأحاديث تبين أن رؤية النبي - ﷺ - في المنام حق[٣]، إذا رآه على صورته وليس ذلك مبررًا للتلقي عنه - ﷺ - في المنام.

وأحاديث تبين الآداب التي يتأدب بها المسلم عندما يرى ما يحب وعندما يرى ما يكره.

وأحاديث تبين تأويل النبي - ﷺ - للرؤيا وهي كثيرة جدًا.

وأحاديث تبين أحكام الرؤى، من حيث حكم الكذب فيها، وهل الرؤيا إذا عبرت وقعت، وما شروط المعبر وآدابه، وغيرها من الآداب والأحكام.

ولقد كان النبي - ﷺ - كثيرًا ما يقول لأصحابه «هل رأى أحد منكم رؤيا» كما ثبت من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه[٤].

---

[١] أخرج الترمذي طرفاً من هذا الحديث قالت: «أول ما ابتُدئ بهِ رسول الله - ﷺ- من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به: أن لا يرى رؤيا إلا جاءَت كفَلَق الصبح، فمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكث، وحُبِّب إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلو».

رواه البخاري ١ / ٢١ - ٢٧ في بدء الوحي، وفي الأنبياء، باب {واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً} ، وفي تفسير سورة {اقرأ باسم ربك الذي خلق} ، وفي التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، ومسلم رقم (١٦٠) في الإيمان، باب بدء الوحي برسول الله ﷺ، ورواه أيضاً الترمذي رقم (٣٦٣٦) في المناقب، باب رقم (١٣)

[٢] قال صلى الله عليه ووسلم:" أيها الناس لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ألا وإنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم".

أخرجه أحمد (٢١٩/١، رقم ١٩٠٠) ، وابن أبى شيبة (١٧٣/٦، رقم ٣٠٤٥٦) ، ومسلم (٣٤٨/١، رقم ٤٧٩) ، وأبو داود (٢٣٢/١، رقم ٨٧٦) ، والنسائى (١٨٩/٢، رقم ١٠٤٥) ، وابن ماجه (١٢٨٣/٢، رقم ٣٨٩٩) ، وابن حبان

(٢٢٢/٥، رقم ١٨٩٦) . وأخرجه أيضًا: ابن الجارود (ص ٦١، رقم ٢٠٣) ، وأبو عوانة (٤٩٠/١، رقم ١٨٢٢).

[٣] قال ﷺ:" من رآنى فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكوننى".

أخرجه البخارى (٢٥٦٨/٦، رقم ٦٥٩٦) .

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير (٤٨) باب تعبير الرؤيا بعد صلاح الصبح الحديث (٧٠٤٧) (٤/ ٣١٠ /٤) وصحيح مسلم، كتاب الرؤيا، ٤ باب رؤيا النبي - ﷺ - (٢٢٧٥) (٤/ ١٧٨١).

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله - ﷺ - كان مما يقول لأصحابه: «من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له»[(١)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - كان إذا انصرف من صلاة الغداة يقول: «هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟ فيقول إنه ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»[(٢)].

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وهذا الحديث يدل على شرف علم الرؤيا وفضلها لأنه - ﷺ - إنما كان يسأل عنها لتقص عليه، ويعبرها، ليعلم أصحابه كيف الكلام في تأويله» [(٣)].

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله: «الرؤيا جزء من أجزاء النبوة، فلا يتلاعب بالنبوة» [(٤)].

وقال القرطبي رحمه الله: «والرؤيا حالة شريفة ومنزلة رفيعة»[(٥)].

ولقد كان من اهتمام النبي - ﷺ - بالرؤى وبيان أحكامها وآدابها لأمته، أنه كان يبين لهم ذلك في خطبه، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله! رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتددت [(٦)] على أثره، فقال رسول الله - ﷺ - للأعرابي: «لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك» وقال: سمعت النبي - ﷺ - بعد يخطب فقال: «لا يحدثن أحدكم بتلعب الشيطان به في منامه»[(٧)].

بل حتى وهو - ﷺ - في مرض موته، الذي سيودع فيه أمته ويلقى ربه، كشف الستار والناس صفوف خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها العبد الصالح أو ترى له»[(٨)].

ولهذا اهتم المحدثون رحمهم الله بهذه الأحاديث، فعقدوا لها في مصنفاتهم الكتب والأبواب فمن ذلك: أن الإمام البخاري رحمه الله وضع في كتابه الجامع الصحاح كتابًا للتعبير أي تعبير الرؤيا، وذكر فيه ثمانية وأربعين بابًا، وتسعة وتسعين حديثًا، وعشرة آثار عن الصحابة والتابعين[(٩)].

بدأ تلك الأبواب بباب، بيان أول ما بدئ به رسول الله - ﷺ - من الوحي الرؤيا الصادقة[(١٠)].

٣- وفوائد الآية الكريمة اثبات اسم من اسمائه تعالى وهو:«العليم»:أي: المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[(١١)].

[(١)]أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا ٣ باب في تأويل الرؤيا، (٢٢٦٩) (٤/ ١٧٧٨).

[(٢)]أخرجه الإمام مالك في الموطأ، في كتاب الرؤيا (٢/ ٩٥٧) والإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٢٥) وسنن أبي داود في كتاب الأدب، ٦٩ باب ما جاء في الرؤيا،، الحديث (٥٠١٧) (٢/ ٧٢٣) ومستدرك الحاكم (٤/ ٣٩٠) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٦٦) (٤٧٣).

[(٣)]التمهيد (١/ ٣١٣).

[(٤)] المصدر نفسه:٢٢٨/١.

[(٥)] تفسير القرطبي: ٩/ ١٢٢.

[(٦)]أي: عدوت على أثره، انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٤٥٢)..

[(٧)]صحيح مسلم كتاب الرؤيا (٤/ ١٧٧٦) وله روايات متعددة وبألفاظ مختلفة.

[(٨)]أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢١٩) ومسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، (٤١) باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (١/ ٣٤٨).

[(٩)]انظر: ما ذكره ابن حجر رحمه الله حول عدد هذه الأحاديث والموصول منها والمعلق وما وافق مسلم فيها البخاري وما انفرد به البخاري فتح الباري (١٢/ ٤٤٦).

[(١٠)]انظر: صحيح البخاري (٩١) كتاب التعبير (٤/ ٢٩٥ - ٣١١).

[(١١)] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

القرآن

{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)} [الأنفال : ٤٤]

التفسير:

واذكر أيضًا حينما برز الأعداء إلى أرض المعركة فرأيتموهم قليلا فاجترأتم عليهم، وقلَّلكم في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لحربكم؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولا فيتحقق وَعْدُ الله لكم بالنصر والغلبة، فكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. وإلى الله مصير الأمور كلها، فيجازي كلا بما يستحق.

قوله تعالى:{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [الأنفال : ٤٤]، أي:" واذكر أيضًا حينما برز الأعداء إلى أرض المعركة فرأيتموهم قليلا فاجترأتم عليهم، وقلَّلكم في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لحربكم"[١].

قال الطبري:يقول:" إذ يري الله نبيه في منامه المشركين قليلا وإذ يريهم الله المؤمنين إذ لقوهم في أعينهم قليلا وهم كثير عددهم، ويقلل المؤمنين في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم"[٢].

قال القرطبي:" هذا في اليقظة. يجوز حمل الأولى على اليقظة أيضا إذا قلت: المنام موضع النوم، وهو العين، فتكون الأولى على هذا خاصة بالنبي ﷺ، وهذه للجميع"[٣].

عن عن عبد الله بن مسعود، قال: "لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه قال: كنا ألفا"[٤].

عن السدي قال: "قال ناس من المشركين: إن العيرَ قد انصرفت فارجعوا. فقال أبو جهل: الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه! فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم. وقال: يا قوم لا تقتلوهم بالسلاح، ولكن خذوهم أخذًا، فاربطوهم بالحبال! يقوله من القدرة في نفسه"[٥].

قوله تعالى:{لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} [الأنفال : ٤٤]، أي:" ليقضي الله أمرًا كان مفعولا فيتحقق وَعْدُ الله لكم بالنصر والغلبة، فكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى"[٦].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: قلّلتكم أيها المؤمنون، في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلا حتى يقضي الله بينكم ما قضى من قتال بعضكم بعضًا، وإظهاركم، أيها المؤمنون، على أعدائكم من المشركين والظفر بهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعلَه وبالغًا فيه أمرَه"[٧].

قال ابن إسحاق:" أي: ليؤلف بينهم على الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد إتمام النعمة عليه من أهل ولايته"[٨].

قال السعدي:أي: " من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضا لطفا بالباقين، الذين من الله عليهم بالإسلام"[٩].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٢.

[٢] تفسير الطبري:٥٧٣/١٣.

[٣] تفسير القرطبي:٢٢/٨.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٢٧).:ص١٧١٠/٥

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٦١٥٩):ص٥٧٣/١٣.

[٦] التفسير الميسر:١٨٢.

[٧] تفسيرالطبري:٥٧٣/١٣.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(١٦١٦٠):ص٥٧٣/١٣.

[٩] تفسير السعدي:٣٢٢.

قوله تعالى:{وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الأنفال : ٤٤]، أي:" وإلى الله مصير الأمور كلها، فيجازي كلا بما يستحق"[١].

قال السعدي:" أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل، الذي لا جور فيه ولا ظلم"[٢].

الفوائد:

١- بيان أن مرد الأمور نجاحا وخيبة لله تعالى ليس لأحد فيها تأثير إلا بإذنه.

٢- أن أفعال العباد إختيارية وسبق تقديرها من الله تعالى، ومذهب أهل السنة الجمع بين نفوذ القضاء ونفي الجبر، لأنه لا يصح الجبر في حق الرب سبحانه إجماعاً.

ويجدر القول أن في باب القدر انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام[٣]:

- قسم امنوا بقدر الله عز وجل وغلوا في اثباته ، حتى سلبوا الانسان قدرته واختياره ، وقالوا : ان الله فاعل كل شئ وليس للعبد اختيار ولا قدرة ، وانما يفعل الفعل مجبرا عليه ، بل ان بعضهم ادعى ان فعل العبد هو فعل الله ، ولهذا دخل من بابهم اهل الاتحاد والحلول وهؤلاء هم الجبريه.
- والقسم الثاني قالوا : ان العبد مستقل بفعله وليس لله فيه مشيئة ولا تقدير حتى غلا بعضهم ، فقال : ان الله لا يعلم فعل العبد الا اذا فعله ،اما قبل ، فلا يعلم عنه شيئا وهؤلاء هم القدرية مجوس هذه الامة.

فالاولون غلوا في اثبات افعال الله وقدره وقالوا : ان الله عزوجل يجبر الانسان على فعله وليس للانسان اختيار.

والاخرون غلوا في اثبات قدرة العبد وقالوا : ان القدرة الالهية والمشيئة الالهية لا علاقه لها في فعل العبد فهو الفاعل المطلق الاختيار.

- والقسم الثالث : اهل السنة والجماعة ، قالوا : نحن ناخذ بالحق الذي مع الجانبين ، فنقول : ان فعل العبد واقع بمشيئة الله وخلق الله ، ولا يمكن ان يكون في ملك الله ما لا يشاؤه ابدا والانسان له اختيار وارادة ، ويفرق بين الفعل الذي يضطر اليه والفعل الذي يختاره ، فافعال العباد باختيارهم وارادتهم ومع ذلك فهي واقعة بمشيئة الله وخلقه.

ولكن سيبقى عندنا إشكال : كيف يكون خلقا لله وهي فعل الانسان؟!

والجواب ان افعال العباد صدرت بارادة وقدرة والذي خلق فيه الارادة والقدرة هو الله عز وجل . لو شاء الله تعالى لسلبك القدرة فلم تستطع . ولو ان احدا قادرا لم يرد فعلا لم يقع الفعل منه . كل انسان قادر يفعل الفعل فانه بارادته ، اللهم الا من اكره. فنحن نفعل باختيارنا وقدرتنا والذي خلق فينا الاختيار والقدرة هو الله [٤].

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)} [الأنفال : ٤٥]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا ولا تنهزموا عنهم، واذكروا الله كثيرًا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم والظَّفَر بعدوكم؛ لكي تفوزوا.

---

[١] التفسير الميسر:١٨٢.

[٢] تفسير السعدي:٣٢٢.

[٣] انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٦٧/٢-٦٨.

[٤] انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين:٦٧/٢-٦٩.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ٤٥]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[١].

قال الطبري: يعني:" صدقوا الله ورسوله"[٢].

قوله تعالى:{إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} [الأنفال : ٤٥]، أي:" إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا ولا تنهزموا عنهم"[٣].

قال السعدي:" أي: طائفة من الكفار تقاتلكم، {فاثبتوا} لقتالها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر"[٤].

قال الطبري: يقول:" إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر بالله للحرب والقتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا عنهم ولا تولوهم الأدبار هاربين، إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة منكم"[٥].

قوله تعالى:{وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال : ٤٥]، أي:" واذكروا الله كثيرًا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم والظَّفَر بعدوكم؛ لكي تفوزوا"[٦].

قال الطبري: " يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكر، كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصرَ والظفر عليهم"[٧].

قال ابن إسحاق:" اذكروا الله الذي بذلتم له أنفسكم والوفاء بما أعطيتموه من بيعتكم {لعلكم تفلحون}"[٨].

قال السعدي: أي: " واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله، {لعلكم تفلحون} أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر"[٩].

قال ابن عطية:" {تُفْلِحُونَ}، تنالون بغيتكم وتبلغون آمالكم، وهذا مثل قول عبيد بن الأبرص[١٠]:

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتَ، فَقَدْ يُدْرَكُ بِالضَّـ ـعْفِ، وَقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيب"[١١]

أي: "ابق بما شئت من كيس أو غفلة"[١٢].

قال أبو عبيدة:" الفلاح، أي: البقاء"[١٣].

قال ابن قتيبة:" فكأنه قيل للمؤمنين: مفلحون؛ لفوزهم بالبقاء في النعيم المقيم. هذا هو الأصل"[١٤].

وللعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال[١٥]:

أحدها: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

---

(١) التفسير الميسر:١٨٢.
(٢) تفسير الطبري:٥٧٤/١٢.
(٣) التفسير الميسر:١٨٢.
(٤) تفسير السعدي:٣٢٢.
(٥) تفسير الطبري:٥٧٤/١٢.
(٦) التفسير الميسر:١٨٢.
(٧) تفسير الطبري:٥٧٤/١٢.
(٨) أخرجه الطبري(١٦١٦٢):ص٥٧٤/١٣.
(٩) تفسير السعدي:٣٢٢.
(١٠)ديوانه ٧- وشرح العشر ١٦١، والطبري ١/ ٨٣، والجمهرة ٢/ ١٧٧، والسمط ٣٢٧، واللسان، والتاج (فلح) ، والقرطبي ١/ ١٥٨.
(١١) المحرر الوجيز:٥٣٦/٢.
(١٢) غريب القرآن لابن قتيبة:٣٩.
(١٣) مجاز القرآن:٣٠/١.
(١٤) غريب القرآن لابن قتيبة:٣٩.
(١٥) انظر: تفسير القرطبي:٢٣/٨-٢٤.

والثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة : ٢٥٠].

قال القرطبي:"وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس"[١].

والثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم.

قال القرطبي:" والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عز وجل: {أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا} [آل عمران : ٤١]، ولرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله عز وجل:{إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا}.

قال قتادة :"افترضَ الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضِرّاب بالسيوف"[٢].

قال القرطبي:"وحكم هذا الذكر أن يكون خفيا، لأن رفع الصوت في مواطن القتال ردئ مكروه"[٣].

قال ابن عطية:" وهذا ذكر خفي لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه إذا كان إلغاطا، فأما إن كان من الجمع عند الحملة فحسن فاتّ في عضد العدو، وقال قيس بن عباد: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند ثلاث: عند قراءة القرآن وعند الجنازة والقتال، وقال النبي ﷺ: «اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال وإقامة الصلاة ونزول الغيث»[٤]، وقال وقال ابن عباس :«يكره التلثم عند القتال»"[٥].

قال ابن عطية: ولهذا والله أعلم يتسنن المرابطون بطرحه عند القتال على ضنانتهم به"[٦].

الفوائد:

١- الثبات في وجه العدو والصمود في القتال حتى لكان المجاهدين جبل شامخ لا يتحرك {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة} أي جماعة مقاتلة {فاثبتوا} .

٢- ذكر الله تعالى تهليلا وتكبيرا وتسبيحا ودعاء وضراعة ووعدا ووعيدا. {واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} أي: تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة والمذلة في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة.

٣- أن الثبات والذكر من أكبر أسباب الفوز والنصر على الأعداء في الدنيا، ومن أسباب الفوز بالفلاح وبرضوان الله في الآخرة.

القرآن

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} [الأنفال : ٤٦]

التفسير:

والتزموا طاعة الله وطاعة رسوله في كل أحوالكم، ولا تختلفوا فتتفرق كلمتكم وتختلف قلوبكم، فتضعفوا وتذهب قوتكم ونصركم، واصبروا عند لقاء العدو. إن الله مع الصابرين بالعون والنصر والتأييد، ولن يخذلهم.

---

[١] تفسير القرطبي:٢٣/٨.

[٢] أخرجه الطبري(١٦١٦١):ص٥٧٤/١٣.

[٣] تفسير القرطبي:٢٤/٨.

[٤] الحديث:" اطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث".
(صحيح) (الشافعي هق في المعرفة) عن مكحول مرسلًا. (الصحيحة ١٤٦٩).

[٥] المحرر الوجيز:٥٣٦/٢.

[٦] المحرر الوجيز:٥٣٦/٢.

قوله تعالى:{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال : ٤٦]، أي:" والتزموا طاعة الله وطاعة رسوله في كل أحوالكم"[١].

قال القرطبي:" هذا استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أم بدر وتنازعهم"[٢].

قال الشيخ رشيد رضا:أي:"أطيعوا الله في هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح في القتال وفى غيرها، وأطيعوا رسوله فيما يأمر به وينهى عنه من شؤون القتال وغيرها من حيث أنه المبين لكلام الله الذي أنزل إليه على ما يريده تعالى منه، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، ومنه ولاية القيادة العامة في القتال، فطاعة القائد العام هي جماع النظام الذي هو ركن من أركان الظفر"[٣].

وقال القاسمي في تفسيره بعد شرحه للآية:"تنبيه: قال بعض المفسرين في قوله تعالى: {وَلا تَنَازَعُوا} أي: لا تختلفوا فيما أمركم به من الجهاد، بل ليتفق رأيكم، قال: ولقائل أن يقول: استثمر من هذا وجوب نصب أمير على الجيش ليدبر أمرهم ويقطع اختلافهم، فإنه بلزوم طاعته ينقطع الاختلاف وقد فعله ﷺ في السرايا، وقال: «اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي»[٤]"[٥].

قوله تعالى:{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا} [الأنفال : ٤٦]، أي:" ولا تختلفوا فتتفرق كلمتكم وتختلف قلوبكم، فتضعفوا"[٦].

قال ابن إسحاق:" أي: لا تختلفوا فيتفرق أمركم"[٧].

قال ابن زيد:" «الفشل»، الضعف عن جهاد عدوه والانكسار لهم، فذلك «الفشل»"[٨].

قال السعدي:أي:" تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، {فتفشلوا} أي: تجبنوا "[٩]، " إذا إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم"[١٠].

قوله تعالى:{وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال : ٤٦]، أي:" وتذهب قوتكم ونصركم"[١١].

قال القرطبي:" أي: قوتكم ونصركم"[١٢].

قال السعدي:" أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله"[١٣].

وفي قوله تعالى:{وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال : ٤٦]، وجوه:

أحدها : يريد بالريح القوة، وضرب «الريح» لها مثلاً.

قال السدي:أي:" حَدُّكم وجِدُّكم"[١٤].

قال ابن إسحاق:"فيذهب حَدُّكم"[١٥].

---

(١) التفسير الميسر:١٨٣.

(٢) تفسير القرطبي:٢٤/٨.

(٣)تفسير المنار :١٠ / ٢٤.

(٤)أخرجه البخاري في كتاب الأحكام (باب: ٤): ص١٢١/١٣.

(٥)محاسن التأويل جـ٨/ ٣٠١٢..

(٦) التفسير الميسر:١٨٣.

(٧) أخرجه الطبري(١٦١٦٩):ص٥٧٧/١٣.

(٨) أخرجه الطبري(١٦١٧٠):ص٥٧٧/١٣.

(٩) تفسير السعدي:٣٢٢.

(١٠) تفسير السعدي:١٢٦.

(١١) التفسير الميسر:١٨٣.

(١٢) تفسير القرطبي:٢٤/٨.

(١٣) تفسير السعدي:٣٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري(١٦١٦٦):ص٥٧٦/١٣-٥٧٧.

(١٥) أخرجه الطبري(١٦١٦٩):ص٥٧٧/١٣.

والثاني : يريد بالريح «الدولة» . ومعناه: وتنقطع دولتكم ، قاله أبو عبيدة[١]،و ابن قتيبة[٢].
قال ابن قتيبة:" هبت له ريح النصر. إذا كانت له الدولة. ويقال: الريح له اليوم. يراد له الدولة"[٣].
والثالث : يريد «ريح النصر» التي يرسلها الله عز وجل لنصر أوليائه وهلاك أعدائه قاله قتادة[٤]، وابن زيد[٥].
قال ابن زيد: "«الريح»، النصر، لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو، فإذا كان ذلك لم يكن لهم قِوَام[٦].
والرابع: {ريحكم}، معناه: نصركم، قاله مجاهد[٧].
عن مجاهد قوله: "{وتذهب ريحكم}، قال: نصركم. قال: وذهبت ريحُ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، حين نازعوه يوم أحد"[٨].
وفي رواية أخرى عنه أيضا قال:" ريح أصحاب محمد حين تركوه يوم أحد"[٩].
والخامس:أن الريح الهيبة ، وريح القوم هيبتهم التي تتقدمهم كتقدم الريح . ويكون معنى الكلام . فتذهب ريحكم وهيبتكم. أفاده الماوردي[١٠].
قال الطبري:" وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل"[١١].
قوله تعالى:{وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال : ٤٦]، أي:" واصبروا عند لقاء العدو. إن الله مع الصابرين بالعون والنصر والتأييد، ولن يخذلهم"[١٢].
قال الطبري:" يقول: اصبروا مع نبيّ الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه ، {إن الله مع الصابرين}، يقول: اصبروا فإني معكم"[١٣].
قال ابن إسحاق:" أي: إني معكم إذا فعلتم ذلك"[١٤].
قال السعدي:أي:"{واصبروا} نفوسكم على طاعة الله {إن الله مع الصابرين} بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له"[١٥].
قال القرطبي:" أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصة موطن الحرب، كما قال: {إذا لقيتم فئة فاثبتوا}"[١٦].
وعن الحسن :{واصبروا}، قال: على الصلوات"[١٧].
وعن زيد بن أسلم في قوله: "{واصبروا}، قال: على الجهاد"[١٨].
وعن قتادة قوله: "{واصبروا}، قال: على حق الله"[١].

---

[١] انظر: مجاز القرآن:٢٤٧/١.
[٢] انظر: غريب القرآن:١٧٩.
[٣] غريب القرآن:١٧٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦١٦٧):ص٥٧٧/١٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦١٦٨):ص٥٧٧/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٦١٦٨):ص٥٧٧/١٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦١٦٣):ص٥٧٦/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٦١٦٣):ص٥٧٦/١٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٦١٦٥):ص٥٧٦/١٣.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٢٤/٢.
[١١] تفسير الطبري:٥٧٦/١٣.
[١٢] التفسير الميسر:١٨٣.
[١٣] تفسير الطبري:٥٧٦/١٣.
[١٤] أخرجه الطبري(١٦١٦٩):ص٥٧٧/١٣.
[١٥] تفسير السعدي:٣٢٢.
[١٦] تفسير القرطبي:٢٥/٨.
[١٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤٤):ص١٧١٣/٥.
[١٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤٤):ص١٧١٣/٥.[أعطاه المحقق الرقم السابق نفسه]

قال سعيد بن جبير:" «الصبر»: اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر"[٢].

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: "الصبر في بابين: الصبر لله فيما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله تعالى"[٣].

الفوائد:

١- طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما ومنه طاعة قائد المعركة ومديرها وهذا من أكبر عوامل النصر حسب سنة الله تعالى في الكون {وأطيعوا الله ورسوله} .

٢- عدم التنازع والخلاف عند التدبير للمعركة وعند دخولها وأثناء خوضها.

٣- بيان نتائج التنازع والخلاف وإنها: الفشل الذريع، وذهاب القوة المعبر عنها بالريح {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}، قد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدعو المسلمين وتأمرهم بالإجماع والتآلف، وتنهى عن التفرق والاختلاف المؤديين إلى التنازع والفشل، فمن هذه الآيات قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ... [آل عمران: ١٠٣]، ومنها قوله تعالى: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: ١٠٥]، ومنها قوله عز من قائل: وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [الأنفال: ٤٦]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى.

١- الصبر على مواصلة القتال والإعداد له وتوطين النفس وإعدادها لذلك. {واصبروا إن الله مع الصابرين} .

٢- بيان أسباب النصر وعوامله ووجوب الأخذ بها في كل معركة وهي: الثبات وذكر الله تعالى، وطاعة الله ورسوله وطاعة القيادة وترك النزاع والخلاف والصبر والإخلاص.

القرآن

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)} [الأنفال : ٤٧]

التفسير:

ولا تكونوا مثل المشركين الذين خرجوا من بلدهم كبرًا ورياءً؛ ليمنعوا الناس عن الدخول في دين الله. والله بما يعملون محيط لا يغيب عنه شيء.

سبب النزول:

عن محمد بن كعب القرظي؛ قال: "لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف؛ فأنزل الله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)} "[٤]. [ضعيف جداً]

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤٥):ص١٧١٣/٥.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤٦):ص١٧١٣/٥.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤٧):ص١٧١٣/٥.

[٤]أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٦١٨٢):ص٥٨١/١٣: ثنا الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز ثنا أبو معشر عن محمد به.

قلنا: وهذا سند تالف، واهٍ جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: أبو معشر؛ ضعيف، أسن واختلط؛ كما في "التقريب".

الثالثة: عبد العزيز بن أبان؛ متروك، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب".

قوله تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ} [الأنفال : ٤٧]، أي:" ولا تكونوا مثل المشركين الذين خرجوا من بلدهم كبرًا ورياءً"[١].

قال الطبري: يقول:"ولا تكونوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، في العمل بالرياء والسمعة، وترك إخلاص العمل لله، واحتساب الأجر فيه، كالجيش من أهل الكفر بالله ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطرًا ومراءاة الناس بزّيهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم"[٢].

قال السعدي:" أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم"[٣].

قال ابن عباس:" يعني: المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ- يوم بدر"[٤].

عن مجاهد قوله: "{بطرًا ورئاء الناس}، قال: أبو جهل وأصحابه يوم بدر"[٥].

قال عبد الله بن كثير: "هم مشركو قريش، وذلك خروجهم إلى بدر"[٦].

قال الضحاك:" هم المشركون، خرجوا إلى بدر أشرًا وبطرًا"[٧].

قال قتادة:" كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله يوم بدر، خرجوا ولهم بَغْي وفخر. وقد قيل لهم يومئذ: "ارجعوا، فقد انطلقت عيركم، وقد ظفرتم". قالوا: لا والله، حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا!. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذ: «اللهم إنّ قريشًا أقبلت بفخرها وخيلائها لتحادَّك ورسولك» !"[٨].

قال ابن إسحاق:" أي: لا تكونوا كأبي جهل وأصحابه الذين قالوا: لا نرجع حتى نأتي بدرًا، وننحر الجزر، ونسقي بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا، أي: لا يكونن أمركم رياءً ولا سمعة، ولا التماس ما عند الناسَ، وأخلصوا لله النية والحِسْبة في نصر دينكم، وموازرة نبيكم، أي: لا تعملوا إلا لله، ولا تطلبوا غيره"[٩].

قال الطبري:" وهذا تقدُّمٌ من الله جل ثناؤه إلى المؤمنين به وبرسوله، أن لا يعملوا عملا إلا لله خاصة، وطلب ما عنده، لا رئاء الناس، كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلبَ رئاء الناس. وذلك أنهم أخبروا بفَوْت العِير رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: "انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها! "، فأبوا وقالوا: "نأتي بدرًا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القِيان، وتتحدث بنا العرب فيها"، فَسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا"[١٠].

قال البيضاوي:" يعني: أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير. بطرا فخرا وأشرا. ورئاء الناس ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدرا ونشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب، فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده"[١١].

قال القرطبي:" «البطر» في اللغة: التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصي، وهو مصدر في موضع الحال. أي خرجوا بطرين مراءين صادين...يعني: أبا جهل

---

[١] التفسير الميسر:١٨٣.
[٢] تفسير الطبري:٥٨١/١٣.
[٣] تفسير السعدي:٣٢٢.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٤٩):ص١٧١٣/٥.
[٥] أخرجه الطبري(١٦١٧٥):ص٥٨٠/١٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٦١٧٦):ص٥٨٠/١٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٦١٨١):ص٥٨١/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٦١٧٩):ص٥٨٠/١٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٦١٧٣):ص٥٧٩/١٣.
[١٠] تفسير الطبري:٥٧٨/١٣.
[١١] تفسير البيضاوي:٦٢/٣.

وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير. خرجوا بالقيان[١] والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني- وكان صديقا لأبي جهل- بهدايا إليه مع ابن له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خف من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد. فوردوا بدرا و لكن جرى ما جرى من هلاكهم"[٢].

عن عروة قال: كانت قريش قبل أن يلقاهم النبي ﷺ يوم بدر، قد جاءهم راكب من أبي سفيان والركب الذين معه: إنا قد أجزنا القوم، وأن ارجعوا. فجاء الركب الذين بعثهم أبو سفيان الذين يأمرون قريشًا بالرجعة بالجُحفة، فقالوا: "والله لا نرجع حتى ننزل بدرًا، فنقيم فيه ثلاث ليالٍ، ويرانا من غَشِينا من أهل الحجاز، فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا". وهم الذين قال الله: {الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس}، والتقوا هم والنبيّ صلى الله عليه وسلم، ففتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المؤمنين منهم "[٣].

قال ابن عباس:" لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عِيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا! فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، -وكان «بدر» موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، وننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا"[٤].

قوله تعالى:{وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال : ٤٧]، أي:" ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله"[٥].

قال الطبري: " يقول: ويمنعون الناس من دين الله والدخول في الإسلام، بقتالهم إياهم، وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان بالله"[٦].

قال القرطبي:" صدهم، إضلال الناس"[٧].

قال السعدي:"والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه"[٨].
سلوكه"[٨].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [الأنفال : ٤٧]، أي:" والله بما يعملون محيط لا يغيب عنه شيء"[٩].

قال البيضاوي:يعني:" فيجازيكم عليه"[١٠].

قال الطبري: أي:" من الرياء والصدِ عن سبيل الله، وغير ذلك من أفعالهم{محيط}، يقول: عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيء، وذلك أن الأشياء كلها له متجلّية، لا يعزب عنه منها شيء، فهو لهم بها معاقب، وعليها معذِّب"[١١].

---

[١]لقيان: جمع قينة، وهى الامة مغنية كانت أو غير مغنية. والمعازف: الملاهي.
[٢] تفسير القرطبي:٢٥/٨.
[٣] أخرجه الطبري(١٦١٧١):ص٥٧٨/١٣-٥٧٩.
[٤] أخرجه الطبري(١٦١٧٢):ص٥٧٩/١٣.
[٥] انظر: التفسير الميسر:١٨٣، وصفوة التفاسير:٤٧٢/١.
[٦] تفسير الطبري:٥٨١/١٣.
[٧] تفسير القرطبي:٢٥/٨.
[٨] تفسير السعدي:٣٢٢.
[٩] التفسير الميسر:١٨٣.
[١٠] تفسير البيضاوي:٦٢/٣.
[١١] تفسير الطبري:٥٨١/١٣.

قال السعدي:" فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم"[١].

الفوائد:

١- الإخلاص في القتال والخروج له لله تعالى فلا ينبغي أن يكون لأي اعتبار سرى مرضاة الله تعالى {ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط}.

٢- بيان عوامل الفشل والخيبة وهي النزاع والاختلاف والبطر والرياء والاغترار.

القرآن

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)} [الأنفال : ٤٨]

التفسير:

واذكروا حين حسَّن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له وما همُّوا به، وقال لهم: لن يغلبكم أحد اليوم، فإني ناصركم، فلما تقابل الفريقان: المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة، رجع الشيطان مُدْبِرًا، وقال للمشركين: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون من الملائكة الذين جاؤوا مددًا للمسلمين، إني أخاف الله، فخذلهم وتبرأ منهم. والله شديد العقاب لمن عصاه ولم يتب توبة نصوحًا.

قوله تعالى:{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" واذكروا حين حسَّن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له وما همُّوا به"[٢].

قال الطبري:أي:" وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم، أيها المؤمنون، لحربكم وقتالكم وحسَّن ذلك لهم وحثهم عليكم"[٣].

قوله تعالى:{وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" وقال لهم: لن يغلبكم أحد اليوم"[٤].

قال الطبري:أي:" وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من بني آدم، فاطمئنوا وأبشروا"[٥].

قوله تعالى:{وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" فإني ناصركم"[٦].

قال الطبري:أي:" من كنانة أن تأتيكم من ورائكم فمعيذكم، أجيركم وأمنعكم منهم، فلا تخافوهم، واجعلوا حدَّكم وبأسكم على محمد وأصحابه"[٧].

قال الضحاك:" إن الشيطان سار معهم برايته وجنوده وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم"[٨].

قال السدي: "أتى المشركين إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكنانيّ الشاعر، ثم المدلجي، فجاء على فرس، فقال للمشركين: {لا غالب لكم اليوم من الناس} ! فقالوا: ومن أنت؟ قال: أنا جاركم سراقة، وهؤلاء كنانة قد أتوكم!"[٩].

---

[١] تفسير السعدي:٣٢٢.
[٢] التفسير الميسر:١٨٣.
[٣] تفسير الطبري:١١/١٤.
[٤] التفسير الميسر:١٨٣.
[٥] تفسير الطبري:١١/١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٨٣.
[٧] تفسير الطبري:١١/١٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٥٨):ص٥/١٧١٥.
[٩] أخرجه الطبري(١٦١٨٤):ص١٤/٨.

قال عروة بن الزبير: "لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر –يعني: من الحرب- فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة [بن مالك] بن جعشم المدلجيّ، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه"! فخرجوا سراعا"[1].

عن محمد بن كعب قال:"لما أجمعت قريش على السير قالوا: إنما نتخوف من بني بكر! فقال لهم إبليس، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم: أنا جار لكم من بني بكر، ولا غالب لكم اليوم من الناس"[2].

قوله تعالى:{فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" فلما تقابل الفريقان: المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة، رجع الشيطان مُدْبرًا"[3].

قال الطبري:" يقول: فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، رجع القهقري على قفاه هاربًا "[4].

قال الزجاج: :{فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ}، أي:" توافقتا حتى رأت كل واحدة الأخرى، فبصر إبليس بالملائكة تنزل من السماء فنكص على عقبيه... ومعنى {نكص}، رجع بخزي "[5].

قال التستري:" قوله:{نكص على عقبيه}، من حيث جاء"[6].

قال القرطبي:" معنى «نكص»: رجع بلغة سليم، عن مؤرج[7] وغيره. وقال الشاعر[8]: الشاعر[8]:

ليس النكوص على الأدبار مكرمة إن المكارم إقدام على الأسل

وقال آخر[9]:

وما ينفع المستأخرين نكوصهم ولا ضر أهل السابقات التقدم"[10].

قال ابن عطية:" قوله {نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ}، معناه: رجع من حيث جاء، وأصل «النكوص» في اللغة: الرجوع القهقرى، وقال زهير[11]:

هُمْ يَضْرِبُونَ حَبِيكَ البَيْضِ إِذْ لَحِقُوا لا يَنْكُصُون، إِذَا مَا اسْتُلْحِمُوا وَحَمُوا

كذا أنشد الطبري، وفي رواية الأصمعي «إذا ما استلأموا» وبذلك فسر الطبري هذه الآية، وفي ذلك بعد، وإنما رجوعه في هذه الآية مشبه بالنكوص الحقيقي، وقال اللغويون: النكوص، الإحجام عن الشيء، يقال أراد أمرا ثم نكص عنه، وقال تأبّط شرّا[12]:

ليس النكوص على الأدبار مكرمة إن المكارم إقدام على الأسل

فليس هنا «قهقرى» بل هو فرار، وقال مؤرج: نكص هي رجع بلغة سليم، وقوله {عَلى عَقِبَيْهِ}، يبين أنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضد إقباله"[1].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦١٨٥):ص١٤/٨.
[2] اخرجه الطبري(١٦١٩٢):ص١٤/١١.
[3] التفسير الميسر:١٨٣.
[4] تفسير الطبري:١٤/١١.
[5] معاني القرآن:٢/٤٢١.
[6] تفسير التستري:٧٢.
[7] هو مؤرج بن عمرو السدوسي يكنى أبا فيد مات سنة ١٩٥ هـ.
[8] انظر: المحرر الوجيز:٢/٥٣٨، وتفسير القرطبي:٨/٢٧، والبحر المحيط:٥/٣٢٢، الأسل: الرماح والنبل.
[9] .
[10] تفسير القرطبي:٨/٢٧.
[11] لم أجده، والبيت في النكت والعيون: ٢/٣٢٥، وتفسير القرطبي:٨/٢٧، وفتح القدير:٢/٣٦٠.
[12] ديوانه: ١٥٩، من قصيدته في هرم بن سنان، وهي من جياد شعره. و " حبيك البيض "، طرائق حديده. و " البيض " جمع " بيضة "، هي الخوذة من سلاح المحارب، على شكل بيضة النعام، يلبسها الفارس على رأسه لتقيه ضرب السيوف والرماح. و " استلحم الرجل " (بالبناء للمجهول) : إذا نشب في ملحمة القتال، فلم يجد مخلصًا. وقوله: " وحموا "، من قولهم: " حمى من الشيء حمية ومحمية "، إذا فارت نفسه وغلت، وأنف أن يقبل ما يراد به من ضيم، ومنه: " أنف حمى ".

قوله تعالى:{وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" وقال للمشركين: إني بريء منكم"[٢].

قال ابن عطية:" وقوله {إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ} هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم"[٣].

قوله تعالى:{إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" إني أرى ما لا ترون من الملائكة الذين جاؤوا مددًا للمسلمين"[٤].

قال الطبري:"يعني: أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددًا للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم"[٥].

قال ابن عطية:" قوله {إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ}، يريد الملائكة وهو الخبيث، إنما شرط أن لا غالب من الناس فلما رأى الملائكة وخرق العادة خاف وفرّ"[٦].

وروي أن رسول الله ﷺ، قال «ما رأى الشيطان يوما هو فيه أصغر، ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ، منه في يوم عرفة. وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام. إلا ما رأى يوم بدر» قيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة»[٧].

قال الحسن: "رأى جبريل معتجرا بردائه يقود الفرس بين يدي أصحابه ما ركبه"[٨].

عن ابن عباس :"{إني أرى ما لا ترون}، وذلك حين رأى الملائكة[٩].

قوله تعالى:{إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال : ٤٨]، أي:" إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه"[١٠].

قال الطبري:أي:" إني أخاف عقاب الله ، وكذب عدوُّ الله"[١١].

قال الزجاج: : فإن قال قائل: كيف يقول إبليس: (إني أخاف الله) وهو كافر؟ فالجواب في ذلك أنه ظن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر"[١٢].

قال ابن عطية:" قوله {إِنِّي أَخافُ اللَّهَ} قيل إن هذه معذرة منه كاذبة ولم تلحقه قط مخافة، قاله قتادة وابن الكلبي، وقال الزجّاج وغيره: بل خاف مما رأى من الأمر وهوله وأنه يومه الذي أنظر إليه، ويقوي هذا أنه رأى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب"[١٣].

قال الماوردي:" وإنما ذكر خوفه من الله تعالى في هذا الموضع ولم يذكره في امتناعه من السجود لآدم، لأنه قد كان سأل الإنظار إلى قيام الساعة، فلما رأى نزول الملائكة ببدر تصور قيام الساعة فخاف فقال {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}"[١٤].

---

(١) المحرر الوجيز:٥٣٨/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٨٣.
(٣) المحرر الوجيز:٥٣٨/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٨٣.
(٥) تفسير الطبري:١٢/١٤.
(٦) المحرر الوجيز:٥٣٨/٢-٥٣٩.
(٧) موطا مالك(١٥٩٧/ ٤٢٧):ص٦٢١/٣.
قال الجوهري: «وهذا حديث مرسل»، مسند الموطأ صفحة٩٧، أخرجه أبو مصعب الزهري، ١٤٦١ في المناسك؛ والحدثاني، ٦٢٤ في المناسك، كلهم عن مالك به.
«ولا أغيظ منه» أي: أشد غيظا محيطا بكبده؛ «أدحر» أي: أبعد عن الخير؛ «يزع الملائكة» أي: يصفهم للقتال ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض في الصف، الزرقاني ٢: ٥٢٥؛ «أصغر» أي أذل.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٦٣):ص١٧١٦/٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٦٢):ص١٧١٦/٥.
(١٠) صفوة التفاسير:٤٧٢/١.
(١١) تفسير الطبري:١٢/١٤.
(١٢) معاني القرآن:٤٢١/٢.
(١٣) المحرر الوجيز:٥٣٩/٢.
(١٤) النكت والعيون:٣٢٥/٢.

قال القرطبي:" قيل: خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذي أنظر إليه. وقيل: كذب إبليس في قوله:{إني أخاف الله}، ولكن علم أنه لا قوة له"[١].

قال ابن عباس: "جاء إبليس يوم بدر في جُنْد من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: {لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم}، فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولَّوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع. إبليس يده فولَّى مدبرًا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، تزعم أنك لنا جار؟ قال: {إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب}، وذلك حين رأى الملائكة"[٢].

عن قتادة قوله: "{وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم}، إلى قوله: {شديد العقاب} ، قال: ذُكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لا يَدَيْ له بالملائكة، وقال: {إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله} ، وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلَم، وتبرأ منهم عند ذلك"[٣].

قال الحسن، وتلا هذه الآية: "{وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم} الآية، قال: سار إبليس مع المشركين ببدر برايته وجنوده، وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دين آبائكم، ولن تغلبوا كثرةً! فلما التقوا نكص على عقبيه -يقول: رجع مدبرًا- وقال: {إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون}، يعني: الملائكة"[٤].

الفوائد:

١- بيان تطور الجن وتشكلهم، إذ أن الجن يتطورون ويتشكلون في صور الإنس والبهائم فيتصورون في صور الحيات والعقارب وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وفي صور الطير وفي صور بني آدم، كما حدث في غزوة بدر، إذ تشكل في صورة سراقة بن مالك، ووعد المشركين بالنصر، وفيه أنزل الله: {وإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ واللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ}. [الأنفال:٤٨]، وفي صورة حيوان: جمل أو حمار أو كلب أو قط، خاصة الكلاب السود. وفي هذا الحديث" الكلب الأسود شيطان"[٥] ما يدل على ذلك يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" الكلب الأسود شيطان الكلاب، والجن تتصور بصورته كثيرا، وكذلك بصورة القط الأسود لأن الأسود أجمع للقوى الشيطانية من غيره، وفيه قوة الحرارة[٦].

٢- بيان عمل الشيطان في نفوس الكافرين بتزيينه لهم الحرب ووعده وتمنيته لهم.

٣- أن الشيطان –لعنه الله- يعد الناس بالمواعيد الكاذبة، ويعللهم بالأماني المعسولة؛ كي يوقعهم في الضلال.

---

(١) تفسير القرطبي:٢٧/٨.

(٢) أخرجه الطبري(١٦١٨٣):ص١٤/٧.

(٣) أخرجه الطبري(١٦١٨٧):ص١٤/٩.

(٤) أخرجه الطبري(١٦١٩١):ص١٤/١٠-١١.

(٥)أخرجه الطيالسى (ص ٦١، رقم ٤٥٣) ، وأحمد (١٦١/٥، رقم ٢١٤٦٧) ، وأبو داود (١٨٧/١، رقم ٧٠٢) ، والترمذى (١٦١/٢ رقم ٣٣٨) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٦٣/٢، رقم ٧٥٠) ، وابن ماجه (٣٠٦/١، رقم ٩٥٢) ، والدارمى (٣٨٥/١، رقم ١٤١٤) ، وابن خزيمة (٢٠/٢، رقم ٨٣٠) ، وابن حبان (١٤٩/٦، رقم ٢٣٨٨).

(٦) انظر: آكام المرجان في أحكام الجان ، ابن تقي الدين:٤٠، وعالم الجن والشياطين لعمر الأشقر :٢٩.

وللشيطان أساليب في إضلال الإنسان، إذ لا يأتي الشيطان إلى الإنسان ويقول له: اترك هذه الأمور الخيرة، وافعل هذه الأمور السيئة؛ كي تشقى في دنياك وأخراك؛ لأنه لو فعل ذلك، فلن يطيعه أحد، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة، يغرر بها بعباد الله.

فمن أساليبه-لعنه الله- في الإضلال(١):

أ- تزيين الباطل:

هذا هو السبيل الذي كان الشيطان، ولا يزال، يسلكه لإضلال العباد، فهو يظهر الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل، ويكرهه بالحق، حتى يندفع إلى فعل المنكرات، ويعرض عن الحق، كما قال اللعين لربّ العزة: {قال رب بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينَّهم أجمعين - إلاَّ عبادك منهم المخلصين} [الحجر: ٣٩-٤٠] .

ب- الإفراط والتفريط:

يقول ابن القيم في هذه المسألة: " وما أمر الله - عزّ وجلّ - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلوّ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنّه يأتي إلى قلب العبد فيشامّه، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة، فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمورَ جملة.

وإن وجد عنده حذراً وجدّاً، وتمشيراً ونهضة، وأيس أن يأخذه من هذا الباب، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له أن هذا لا يكفيك، وهمتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، وأن لا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات، فاغسل أنت سبعاً، وإذا توضأ للصلاة، فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة، وتعدي الصراط المستقيم، كما يَحْمِلُ الأول على التقصير دونه وألا يقربه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم: هذا بألا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا يُنْجِي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان وقوة على محاربته، ولزوم الوسط. والله المستعان "(٢).

ت- تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل:

وله في ذلك أساليب وطرق، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم (القافية: مؤخر الرأس) ، إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله، انحلت عقدة، فإن توضأ، انحلت عقدة، فإن صلى، انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"(٣).

وفي البخاري ومسلم: "إذا استقظ أحدكم من منامه فتوضأ، فليستثر ثلاثاً، فإن الشيطان يبيت على خيشومه"(٤).

وفي صحيح البخاري: أن الرسول ﷺ ذكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح، فقال: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه"(٥).

وهذا الذي ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله، وقد يثبط الإنسان بالوسوسة، وسبيله في ذلك أن يحبب للإنسان الكسل، ويسوّف العمل، ويسند الأمر إلى طول الأمل، يقول ابن الجوزي في هذا: "كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حبّ الإسلام، فلا

---

(١) انظر: عالم الجن والشياطين:٦٨-٨٨، وللإستزادة يمكن الرجوع إلى :تلبيس إبليس وإغاثة اللهفان.

(٢)الوابل الصيب:١٩.

(٣)رواه البخاري: ٢٤/٣. ورقمه: ١١٤٣.

(٤)صحيح البخاري: ٣٣٩/٦. ورقمه: ٣٢٩٥. ورواه مسلم: ٢١٣/١. ورقمه: ٢٣٨، واللفظ للبخاري.

(٥)رواه البخاري: ٢٨/٣. ورقمه: ١١٤٤.

يزال إبليس يثبطه، ويقول: لا تعجل وتمهل النظر، فيسوفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة، فيعجل له غرضه من الشهوات، ويمنيه الإنابة، كما قال الشاعر:

لا تعجل الذنب لما تشتهي   وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجدّ سوفه! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثَبّطه! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه، فقال: استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل يصلي، فقال له: عليك وقت، ولا يزال يحبب الكسل، ويسوف العمل، ويسند الأمر إلى طول الأمل.

فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم، والحزم تدارك الوقت، وترك التسويف، والإعراض عن الأمل، فإنّ المخوف لا يؤمن، والفوات لا يبعث، وسبب كل تقصير، أو ميل إلى شرّ طول الأمل، فإن الإنسان لا يزال يحدّث نفسه بالنزوع عن الشر، والإقبال على الخير، إلا أنه يَعِدُ نفسه بذلك، ولا ريب أنه من أمّل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً. ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً، ومن صوّر الموت عاجلاً جدّ ...

وقال بعض السلف: أنذركم (سوف) ، فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل، كمثل قوم في سفر، فدخلوا قرية، فمضى الحازم، فاشترى ما يصلح لتمام سفره، وجلس متأهباً للرحيل، وقال المفرط: سأتأهب فربما أقمنا شهراً، فضرب بوق الرحيل في الحال، فاغتبط المحترز (المتوقي الحازم) ، وتحير الأَسِفُ المفرط.

فهذا مثل الناس في الدنيا، منهم المستعد المستيقظ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم، ومنهم المغرور المسوّف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة. فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع، صعبت المجاهدة، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب، وأن عدوّه لا يفتر عنه، فإن فتر في الظاهر، بطّن له مكيدة، وأقام له كميناً "[١].

ث- الوعد والتمنية:

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة، ويعللهم بالأماني المعسولة؛ كي يوقعهم في وهدة الضلال: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشَّيطان إلاَّ غروراً) [النساء: ١٢٠] .

يعد الكفرة في قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة، ثم يتخلى عنهم، ويولي هاربا: (وإذ زيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من النَّاس وَإِنِّي جارٌ لكم فلمَّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إِنِّي بريءٌ منكم) [الأنفال: ٤٨]، ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال في الآخرة بعد الدنيا، فيقول قائلهم: {ولئِن رُّددتُّ إلى رَبِّي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً} [الكهف: ٣٦] ، فيدمر الله جنته في الدنيا، فيعلم أنّه كان مغروراً مخدوعاً.

ويشغل الإنسان بالأماني المعسولة، التي لا وجود لها في واقع الحياة، فيصده عن العمل الجاد المثمر، ويرضى بالتخيل والتمني، وهو لا يفعل شيئاً.

ج- إظهار النصح للإنسان:

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية، يزعم أنه ينصح له ويريد خيره، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له: (وقاسمهما إِنِّي لكما لمن النَّاصحين) [الأعراف: ٢١]

وقد روى وهب بن منبه هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب[٢]، نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في إضلاله العباد، وكي نحذر نصحه، ونخالفه فيما يدعونا إليه.

---

[١] تلبيس إبليس: ٤٥٨.

[٢] هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لا تصدق ولا تكذب، ويجوز التحديث بها أخرج البخاري من (١٢٧٥/٣) (٣٢٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعا: " بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ".

يقول وهب: " إن عابداً كان في بني إسرائيل، وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة، لهم أخت، وكانت بكراً، ليس لهم أخت غيرها، فخرج البعث على ثلاثتهم، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا من يأمنونه عليها، ولا عند من يضعونها.

قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه عن أن يخلفوها عنده، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم، فأبى ذلك عليهم، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم، قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم. فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها.

فمكثت في جوار ذلك العابد زمناً ينزل إليها بالطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة، ثم يأمرها فتخرج من بيتها، فتأخذ ما وضع لها من الطعام، قال: فتلطف له الشيطان، فلم يزل يرغبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها، ووضعه على باب بيتها، ولم يكلمها.

قال: فلبث على هذه الحال زماناً، ثم جاءَه إبليس فرغّبه في الخير والأجر وحضه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك، فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام، ثم وضعه في بيتها، فلبث على ذلك زماناً.

ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وحضّه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطّلع إليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تتنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها، وتقعد هي على باب بيتها، فتحدثك كان آنس لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدثان.

ثم جاءَه إبليس فرغبه في الأجر والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجت من باب صومعتك، ثم جلست قريباً من بيتها، فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل به حتى فعل. فلبثا زمناً على ذلك.

ثم جاءه إبليس، فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها، ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها، نهارها كله، فإذا مضى النهار صعد صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها، فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه، ويسول له حتى وقع عليها، فأحبلها فولدت له غلاماً، فجاء إبليس فقال: أرأيت إن جاء إخوة الجارية، وقد ولدت منك فكيف تصنع؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل.

فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها، خذها واذبحها، وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها، وألقاها في الحفرة مع ابنها، وأطبق عليهما صخرة عظيمة، وسوّى عليهما، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاؤوا فسألوه عنها، فنعاها لهم، وترحم عليها وبكاها. وقال: كانت خير امرأة، وهذا قبرها، فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم، وترحموا عليها، فأقاموا على قبرها أياماً، ثمّ انصرفوا إلى أهاليهم.

فلما جنّ عليهم الليل، وأخذوا مضاجعهم، جاءَهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم، فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان. وقال: لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد

أحبل أختكم وولدت منه غلاماً، فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم، وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً. وأتى الأوسط في منامه، فقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل ذلك.

فلما استيقظ القوم، أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيت الليلة عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى.

فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم، قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي هذا المكان، فأنظر فيه. قال: فانطلقوا حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب، وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة، كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما، فاستَعْدَوْا عليه ملكهم، فأنزل من صومعته، وقدّم ليصلب.

فلما أوثقوه على الخشبة، أتاه الشيطان، فقال له: قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة، حتى أحبلتها، وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم، وكفرت بالله الذي خلقك وصوّرك، خلصتك مما أنت فيه، فكفر العابد، فلما كفر بالله تعالى، خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه"[(1)].

وهذه القصة يذكرها المفسرون عند قوله تعالى: {كمثل الشَّيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمَّا كفر قال إنِّي بريءٌ منك} [الحشر: ١٦] ، ويذكرون أن المعنيّ بالإنسان هذا العابد وأمثاله. والله أعلم.

ح- التدرج في الإضلال:

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في الإضلال، وهو أن يسير بالإنسان خطوة خطوة، لا يكل ولا يملّ، كلما روّضه على معصية ما، قاده إلى معصية أكبر منها، حتى يوصله إلى المعصية الكبرى، فيوبقه ويهلكه، وتلك سنة الله في عباده، أنهم إذا زاغوا سلط عليم الشيطان، وأزاغ قلوبهم: (فلمَّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم) [الصف: ٥] .

خ- إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه:

ومن ذلك ما فعله بآدم، فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربّه: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيَ ولم نجد له عزماً) [طه: ١١٥] ، وقال صاحب موسى لموسى: (فإني نسيت الحوت وما أنسَانِيهُ إلاَّ الشَّيطان أن أذكره) [الكهف: ٦٣] .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه في المجالس التي يستهزأ فيها بآيات الله، ولكن الشيطان قد ينسي الإنسان أمر ربه، فيجالس هؤلاء المستهزئين: (وإذا رأيت الَّذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتَّى يخوضوا في حديثٍ غيره وإمَّا ينسينَّك الشَّيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظَّالمين) [الأنعام: ٦٨] .

وطلب نبي الله يوسف إلى السجين الذي ظنّ بأنه سينجو من القتل، ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه، فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبي الله يوسف، فمكث يوسف في السجن بضع سنين: (وقال للَّذي ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشَّيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) [يوسف: ٤٢] .

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكناً كلياً، فإنه ينسيه الله بالكلية: (استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشَّيطان ألا إنَّ حزب الشَّيطان هم الخاسرون) [المجادلة: ١٩] . وهؤلاء هم المنافقون، كما دلت عليه الآية السابقة لهذه الآية. وسبيل التذكر هو ذكر الله؛ لأنه يطرد الشيطان: (واذكر ربَّك إذا نسيت) [الكهف: ٢٤] .

[(1)] تلبيس إبليس: ٣٩.

د- تخويف المؤمنين أولياءَه:

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا سبحانه عن هذا فقال: {إِنَّما ذلكم الشَّيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مُّؤمنين} [آل عمران: ١٧٥] . والمعنى: يخوفكم بأوليائه، قال أبو مالك"[١].

قال الإمام ابن القيم: "ومن كيد عدو الله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، فكلما قوي إيمان العبد؛ زال منه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه؛ قوي خوفه منهم"[٢].

ونستنتج من ذلك:

- أن الخوف عبادةٌ يجب إخلاصه لله.
- الحذر من صرف الخوف لغير الله، كأن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره.
- التحذير من كيد الشيطان.

ذ- دخوله إلى النفس من الباب الذي تحبه وتهواه:

يقول ابن القيم في هذا الموضوع: " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، حتى يصادف نفسه ويخالطها، ويسألها عمّا تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علّم إخوانه وأولياءَه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنّه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره، فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود "[٣].

ر- لقاء الشبهات:

ومن أساليبه في إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات، وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها، ففي حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولِيَنْتهِ"[٤].

ولم يسلم الصحابة - رضوان الله عليهم - من شبهاته وشكوكه، وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ يشكون ما يعانونه من شكوكه ووساوسه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به! قال: "أو قد وجدتموه؟) قالوا: نعم. قال: "ذلك صريح الإيمان"[٥].

وصريح الإيمان دفعهم وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها، وقد سئل الرسول ﷺ عن الوسوسة فقال: "تلك محض الإيمان"[٦]..

وانظر إلى شدّة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه، روى أبو داود في سننه عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٤٥٣٤):ص٨٢٠/٣.
[٢]إغاثة اللهفان: ١١٠/١.
[٣]إغاثة اللهفان: ١٣٢/١.
[٤]رواه البخاري: ٣٣٦/٦. ورقمه: ٣٢٧٧. ورواه مسلم: ١٢٠/١. ورقمه: ١٣٤.
[٥]رواه مسلم: ١١٩/١. ورقمه: ١٣٢.
[٦]رواه مسلم: ١١٩/١. ورقمه: ١٣٣.

- يعرض بالشيء - لأن يكون حممة أحبّ إليه من أن يتكلم به، فقال: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة"[1].

ومن جملة ما يلقيه في النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه في قوله: {وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبِيٍّ إلاَّ تمنَّى ألقى الشَّيطان في أمنيَّته فينسخ الله ما يلقي الشَّيطان ثمَّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم - ليجعل ما يلقي الشَّيطان فتنةً للَّذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم وإنَّ الظَّالمين لفي شقاق بعيدٍ - وليعلم الَّذين أوتوا العلم أنَّه الحقُّ من ربك فيؤمنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبهم وإنَّ الله لهاد الَّذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيمٍ} [الحج: ٥٢-٥٤] .

والمراد بالتمني هنا حديث النفس، والمراد أن النبي ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة، فيقول: لو سألت الله - عز وجل - أن يغنمك ليتسع المسلمون، أو يتمنى إيمان الناس جميعاً.... فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوسواسه في أمنية النبي ﷺ، وذلك بتنبيهه إلى الحق، وتوجيهه إلى مراد الله ... ، وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل في القرآن ما ليس منه ففيه بعد، ويرده أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم في التبليغ.

يقول شقيق، مبيناً بعض الشبهات التي قذفها الشيطان في نفس الإنسان: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: {وإني لغفَّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمَّ اهتدى} [طه: ٨٢] ، وإما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه، فأقرأ: {وما من دابَّةٍ في الأرض إلاَّ على الله رزقها} [هود: ٦] ، ومن قبل يميني، يأتيني من قبل النساء، فأقرأ: {والعاقبة للمتَّقين} [الأعراف: ١٢٨] ، ومن قبل شمالي، فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: {وحيل بينهم وبين ما يشتهون} [سبأ: ٥٤][2] .

ز- الخمر والميسر والأنصاب والأزلام:

قال تعالى: {إنَّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشَّيطان فاجتنبوه لعلَّكم تفلحون - إنَّما يريد الشَّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصَّلاة فهل أنتم مُنتهون} [المائدة: ٩٠-٩١] .

والخمر: كل ما يسكر، والميسر: القمار، والأنصاب: كل ما نصب كي يعبد من دون الله، من حجر، أو شجر، أو وثن، أو قبر، أو علم. والأزلام: القداح كانوا يستقسمون بها الأمور؛ أي: يطلبون بها علم ما قسم لهم.

وهذه قد تكون أقداحاً أو سهاماً أو حُصَيّات أو غير ذلك، يكون مكتوباً على واحد منها أمرني ربي، وعلى الآخر نهاني ربي، فإذا شاء أحدهم زواجاً أو سفراً أو نحو ذلك، أدخل يده في الشيء الذي فيه هذه القداح أو السهام، فإن خرج الذي فيه الأمر بالفعل فعل، وإن خرج الآخر ترك.

فالشيطان يحض الناس على هذه الأربع؛ لأنها ضلال في نفسها، وتؤدي إلى نتائج وخيمة، وآثار سيئة، فالخمر تفقد شاربها عقله، فإذا فقد عقله فعل الموبقات، وارتكب المحرمات، وترك الطاعات، وآذى عباد الله.

ذكر ابن كثير في تفسيره عن عثمان بن عفان قال: " اجتنبوا الخمر، فإنها أمّ الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة، فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً تغلقه دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام، وباطية خمر.

---

[1] صحيح سنن أبي داود: ٩٦٤/٣. ورقمه: ٤٢٧١.
[2] انظر: عالم الجن والشياطين: ٧٠-٨١.

فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه "[1].

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والنحاس في ناسخه عن سعد بن أبي وقاص: أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة، ثمّ سقاهم خمراً قبل أن ينزل تحريمها، فلما سكروا تفاخروا، فتعاركوا، وأصاب سعد بن أبي وقاقص من هذا العراك أذى، فقد ضربه أحدهم بلحي بعير، فأصاب أنفه، فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته[2].

وتقدم أحدُ الصحابة يصلي بالناس وهو سكران، قبل نزول تحريم الخمر فقرأ: {قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون} فأنزل الله: {لا تقربوا الصَّلاة وأنت سكارى حتَّى تعلموا ما تقولون} [النساء: ٤٣][3] .

وقد رأينا الرجل الذي بلغ من الكبر عِتّياً عندما يشرب الخمر يتصرف تصرفات المجانين، ويضحك منه الكبار والصغار، ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها.

والميسر: مرض خطير كالخمر، إذا تأصل في نفس الإنسان صعب الشفاء منه، وهو سبيل لضياع الوقت والمال، والميسر ينشئ الأحقاد، ويدفع الحرام.

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كي تتخذ بعد ذلك آلهة تُعبد من دون الله، وقد انتشرت عبادة الأنصاب قديماً وحديثاً، والشياطين تلازم هذه الأصنام، وتخاطب عبادها في بعض الأحيان، وتريهم بعض الأمور التي تجعل عابديها يثقون بها، فيقصدونها بالحاجات، ويدعونها في الكربات، ويستنصرون بها في الحروب، ويقدمون لها الذبائح والهدايا، ويرقصون حولها ويطربون، ويقيمون لها الأعياد والاحتفالات، وقد أضلّ بهذا الكثير، كما قال إبراهيم داعياً ربه: {واجنبني وبني أن نَّعبد الأصنام ، رب إنهنَّ أضللن كثيراً من النَّاس} [إبراهيم: ٣٥-٣٦] .

وأما الاستقسام بالأزلام: فإن الأمور المستقبلية من مكنون علم الله، ولذلك شرع لنا الرسول ﷺ الاستخارة، إذا أردنا سفراً أو زواجاً أو غير ذلك، نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور، وأبطل الاستقسام بالأزلام، فإن السهام والقداح لا تعلم أين الخير ولا تدريه، فاستشارتها خلل في العقل، وقصور في العلم.

ومثل ذلك زجر الطير: كان من يريد سفراً، إذا خرج من بيته، ومرّ بطائر زجره، فإن تيامن، كان سفراً ميموناً، وإن مرّ عن شماله، كان سفراً مشؤوماً ... ، وكل ذلك من الضلال.

س- السحر:

ومما يضل به الشيطان أبناء آدم السحر، فهم يعلمونهم هذا العلم، الذي يضر ولا ينفع، ويكون هذا العلم سبيلاً للتفريق بين المرء وزوجه، والتفريق بين الزوجين: يعدّه الشيطان من أعظم الأعمال التي يقوم بها جنوده، قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة : ١٠٢].

---

[1] رواه البيهقي، وصحح ابن كثير إسناده..

[2] انظر: الدر المنثور، للسيوطي: ١٥٨/٣.

[3] انظر: روايات الحديث في الدر المنثور: ٥٤٥/٧.

ش- ضعف الإنسان:
في الإنسان نقاط ضعف كثيرة، هي في الحقيقة أمراض، والشيطان يعمق هذه الأمراض في نفس الإنسان، بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية، ومن هذه الأمراض: الضعف، واليأس، والقنوط، والبطر، والفرح، والعجب، والفخر، والظلم، والبغي، والجحود، والكنود، والعجلة، والطيش، والسفه، والبخل، والشح، والحرص، والجدل، والمراء، والشك، والريبة، والجهل، والغفلة، واللدد في الخصومة، والغرور، والادعاء الكاذب، والهلع، والجزع، والمنع، والتمرد، والطغيان، وتجاوز الحدود، وحب المال، والافتتان بالدنيا.

فالإسلام يدعو إلى إصلاح النفس، والتخلص من أمراضها، وهذا يحتاج إلى جهد يبذل، كما يحتاج إلى صبر على مشقّات الطريق.

أمّا اتباع الهوى، وما تميله النفس الأمارة بالسوء، فإنه سهل ميسور، فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل، ومثل الثاني كمن يهوي من أعلى الجبل إلى أسفله، ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة، وَوَجد دعاة الحق صعوبة، وأي صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى.

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف؛ لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف في الإنسان.

حكى المعتمر بن سليمان عن أبيه أنه قال: " ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينبعث في قلب ابن آدم عند الحزن والفرح، فإذا ذكر الله خنس"(١).

وقال وهب بن منبه: " قال راهب للشيطان وقد بدا له: أي أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدّة (صفة تعتري الإنسان كالغضب) ، إن العبد إذا كان حديداً، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة " (٢).

ويذكر ابن الجوزي أيضاً عن ابن عمر: " أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التي يهلك بها الناس، فقال: الحسد والحرص "(٣).

وليس بعيداً عنّا ما فعله الشيطان بيوسف وإخوته، وكيف أوغر صدور الإخوة على أخيهم، وقد قال يوسف: {وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نَّزغ الشَّيطان بيني وبين إخوتي} [يوسف: ١٠٠] .

ص- النساء وحب الدنيا:
وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء، ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين، وأمر الرجال بغض أبصارهم، ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة، وأخبر أنّه ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما. وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح: "المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان"(٤).

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج النساء كما وصفهم الرسول ﷺ كاسيات عاريات، قامت مؤسسات في الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لترويج الفاحشة بالصورة المرئية، والقصة الخليعة، والأفلام التي تحكي الفاحشة وتدعو لها!

أما حبّ الدنيا فهو رأس كل خطيئة، وما سفكت الدماء، وهتكت الأعراض، وغصبت الأموال، وقطعت الأرحام، ... إلا لأجل حيازة الدنيا، والصراع على حطامها الفاني، وحرصاً على متعها الزائدة.

ض-الغناء والموسيقى:

---

(١)تفسير ابن كثير: ٤٢٣/١٧ .
(٢)تلبيس إبليس: ٤٢ .
(٣) انظر: تلبيس إبليس:٢٨.
(٤)صحيح سنن الترمذي: ٣٤٣/١. ورقمه: ٩٣٦. وقوله: استشرفها، أي: زينها في نظر الرجال.

الغناء والموسيقى طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب، ويخرب النفوس، يقول ابن القيم: " ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب بها عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكراً وغروراً، وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه، فقبلت وحيه، واتخذت لأجله القرآن مهجوراً...."[١].

ومن عجب أن بعض الناس، الذين يدّعون التعبد، يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبد، يتركون السماع الرحماني، ويذهبون إلى السماع الشيطاني، وقد عدّ ابن القيم[٢] لهذا السماع بضعة عشر اسماً: اللهو، واللغو، والباطل، والزور، والمكاء، والتصدية، ورقية الزنى، وقرآن الشياطين، ومنبت النفاق في القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر، وصوت الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمود.

وأطال النفس في بيان تحريمه، وما فيه من زور وبهتان، فراجعه إن شئت.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن: "الجرس مزامير الشيطان"[٣] . ولذا فإن الملائكة "لا تصحب رفقة فيها كلب ولا جرس"[٤].

ط- تهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به:

إذا التزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لإضلاله والعبث به، فإذا تهاون وتكاسل في بعض الأمور، فإن الشيطان يجد فرصة، قال تعالى: (يا أيَّها الَّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّةً ولا تتَّبعوا خطوات الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌ مُّبينٌ) [البقرة: ٢٠٨] .

فالدخول في الإسلام في كل الأمور هو الذي يخلص من الشيطان، فمثلاً إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة، فإن الشياطين لا تستطيع أن تتخلل المصلين، فإذا تُركت فُرجٌ بين الصفوف، فإن الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين؛ ففي الحديث: (أقيموا صفوفكم، لا تتخللكم الشياطين كأنّها أولاد الحَذَف) . قيل يا رسول الله: وما أولاد الحذف؟ قال: (سود جُرد بأرض اليمن"[٥].

وفي الحديث الآخر: "أقيموا صفوفكم، وتراصوا، فوالذي نفسي بيده، إني لأرى الشيطان بين صفوفكم كأنها غنم عُفْر"[٦].

القرآن

{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)} [الأنفال : ٤٩]

التفسير:

واذكروا حين يقول أهل الشرك والنفاق ومرضى القلوب، وهم يرون قلة المسلمين وكثرة عدوهم: غرَّ هؤلاء المسلمين دينُهم، فأوردهم هذه الموارد، ولم يدرك هؤلاء المنافقون أنه من يتوكل على الله ويثق بوعده فإن الله لن يخذله، فإن الله عزيز لا يعجزه شيء، حكيم في تدبيره وصنعه.

---

[١] إغاثة اللهفان: ٢٤٢/١.
[٢] إغاثة اللهفان: ٢٥٦/١.
[٣] صحيح مسلم: ١٦٧٢/٣. ورقمه: ٢١١٤.
[٤] صحيح مسلم: ١٦٧٢/٣. ورقمه: ٢١١٣.
[٥] صحيح الجامع: ٣٨٤/١. وأولاد الحَذَف: الغنم الصغار، والمراد الشياطين، فإنها تدخل في أوساط الصفوف كأولاد الحذف. جُرد، أي: ليس على جلدها شعر.
[٦] صحيح الجامع: ٣٨٤/١.

قوله تعالى:{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الأنفال : ٤٩]، أي:" واذكروا حين يقول أهل الشرك والنفاق ومرضى القلوب، وهم يرون قلة المسلمين وكثرة عدوهم"[١].

قال الطبري:" {والذين في قلوبهم مرض}، يعني: شك في الإسلام ، لم يصحَّ يقينهم ، ولم تُشرح بالإيمان صدورهم"[٢].

قال ابن عطية:" قال المفسرون إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم وقلة عددهم، قالوا مشيرين إلى المسلمين غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ أي اغتروا فأدخلوا نفوسهم فيما لا طاقة لهم به، و«النفاق» أخص من مرض القلب لأن مرض القلب مطلق على الكافر وعلى من اعترضته شبهة وعلى من بينهما، وكني بالقلوب عن الاعتقادات إذ القلوب محلها"[٣].

وفي قوله تعالى:{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الأنفال : ٤٩]، أقوال:

أحدها : أنهم قوم في قلوبهم شك كانوا تكلموا بالإسلام وهم بمكة ، قاله ابن عباس ومجاهد[٤]، وابن جريج[٥]، وعامر[٦]، وابن إسحاق[٧].

قال ابن جريج:" ناس كانوا من المنافقين بمكة ، قالوه يوم بدر ، وهم يومئذ ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا"[٨].

قال مجاهد: "فئة من قريش : أبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبّه بن الحجاج؛ خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب ، فحبسهم ارتيابهم. فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : {غرّ هؤلاء دينهم}، حتى قدموا على ما قدموا عليه ، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، فشرَّد بهم من خلفهم"[٩].

قال ابن إسحاق:" وهم الفتية الذين خرجوا مع قريش من مكة احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: {غر هؤلاء دينهم} حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوهم وهم فتية من قريش مسمون خمسة أبو قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحارث بن زمعة وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه"[١٠].

قال ابن عطية:" ولم يذكر أحد ممن شهد بدرا بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، فإنه القائل يوم أحد {لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا} [آل عمران: ١٥٤]، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة، فأخبر الله بها نبيه في هذه الآية"[١١].

والثاني : أنهم المشركون ، قاله ابن عباس، وحكاه الماوردي عن الحسن[١٢].

قال ابن عباس:" لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين، في أعين المشركين وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون: وما هؤلاء؟ {غر هؤلاء دينهم}، وإنما قالوا

---

[١] التفسير الميسر:١٨٣.
[٢] تفسير الطبري:١٢/١٤.
[٣] المحرر الوجيز:٥٣٩/٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦١٩٥):ص١٣/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦١٩٨):ص١٤/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦١٩٣):ص١٣/١٤.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩١٦٧):ص١٧١٦/٥-١٧١٧.
[٨] أخرجه الطبري(١٦١٩٨):ص١٤/١٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٦١٩٥):ص١٣/١٤.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٦٧):ص١٧١٦/٥-١٧١٧.
[١١] المحرر الوجيز:٥٣٩/٢.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٢٦/٢.

ذلك من قلتهم في أعينهم وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في أنفسهم ذلك فقال الله تعالى: {ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم}"[١].

والثالث : أنهم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر ، فسموا «منافقين». قاله الحسن[٢].

والرابع: أنهم قوم مرتابون لم يظهروا العداوة للنبي -ﷺ- بخلاف المنافقين[٣].

و«المرض» في القلب كله هو الشك[٤]، وهو مشهور في كلام العرب ، قال الشاعر[٥]:

الشاعر[٥]:

ولا مرضاً أتقيه إني لصائن لعرضي ولي في الأليّة مفخر

قوله تعالى:{غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ} [الأنفال : ٤٩]، أي:" اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به"[٦].

قال الطبري:" يقول :غر هؤلاء الذين يقاتلون المشركين من أصحاب محمد ﷺ من أنفسهم ، دينُهم وذلك الإسلام، وذُكر أن الذين قالوا هذا القول ، كانوا نفرًا ممن كان قد تكلم بالإسلام من مشركي قريش ، ولم يستحكم الإسلام في قلوبهم "[٧].

قال الماوردي:"{غَرَّ هَؤُلَاءِ}، يعني: المسلمين .{دينُهُمْ }، يعني: الإسلام ، لأن الله تعالى قلل المشركين في أعين المسلمين ليتقدموا عليهم ، وقلَّل المسلمين في أعين المشركين ليستهينوا بهم حتى أظفر بهم المسلمين فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا"[٨].

عن قتادة:" رأت عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، قال: وذكر لنا أن عدو الله أبا جهل بن هشام لما أشرف على محمد وأصحابه قال: والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتوا"[٩].

قال ابن جريج:" لما دنا القوم بعضهم من بعض ، فقلَّل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلَّل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : {غر هؤلاء دينهم}، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم ، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك ، فقال الله : {ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيز حكيم}"[١٠].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال : ٤٩]، أي:" ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز، أي: غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه"[١١].

قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل"[١٢].

قال البغوي:" أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به، {فإن الله عزيز} قوي يفعل بأعدائه ما يشاء، {حكيم}"[١٣].

قال الزمخشري:" ثم قال جوابا لهم: {ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز} غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى"[١٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٦٨):ص١٧١٧/٥.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٦١٩٦):ص١٣/١٤-١٤.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٢٦/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:٣٢٦/٢.
(٥) لم أقف على قائله، انظر: النكت والعيون:٣٢٦/٢.
(٦) صفوة التفاسير:٤٧٢/١.
(٧) تفسير الطبري:١٢/١٤.
(٨) النكت والعيون:٣٢٦/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٦٩):ص١٧١٧/٥.
(١٠) أخرجه الطبري(١٦١٩٩):ص١٤/١٤.
(١١) صفوة التفاسير:٤٧٢/١.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٧٠):ص١٧١٧/٥.
(١٣) تفسير البغوي:٣٦٧/٣.
(١٤) الكشاف:٢٢٨/٢.

قال الطبري:" معناه: ومن يسلم أمره إلى الله ، ويثق به ، ويرض بقضائه ، فإن الله حافظه وناصره، لأنه {عزيز}، لا يغلبه شيء ، ولا يقهره أحد ، فجارُه منيع ، ومن يتوكل عليه مكفيٌّ، وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم ، أن يفوِّضوا أمرهم إليه ، ويسلموا لقضائه ، كيما يكفيهم أعداءهم ، ولا يستذلهم من ناوأهم ، لأنه {عزيز} غير مغلوب ، فجاره غير مقهور {حكيم}، يقول : هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم ، لا يدخل تدبيره خلل"[1].

قال ابن عطية:" ثم أخبر الله عز وجل بأن من توكل على الله واستند إليه، فإن عزة الله تعالى وحكمته كفيلة بنصره وشد أعضاده، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأوجز لفظ وأبلغه"[2].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان حال المنافقين وضعفة الإيمان عند وجود القتال ونشوب الحروب.
٢- وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه مهما كانت دعاوى المبطلين والمثبطين والمنهزمين.
٣- أن الجن لا تقدر على شيء إلا بإرادة الله، فعلى المسلم أن يكون دائم الصلة بالله -عز وجل-،فمن كان في كنف الله -عز وجل- حماه الله من شياطين الإنس والجن فهو نعم المولى ونعم النصير.
٤- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»:

- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب. والعز في كلام العرب على ثلاثة أوجه. أحدها: بمعنى الغلبة، ومنه قولهم:من عز بز، أي: من غلب سلب، يقال منه: عز يعز -بضم العين- من يعز. ومنه قول الله سبحانه: {وعزني في الخطاب} [ص : ٢٣].

والثاني: بمعنى الشدة والقوة. يقال منه: عز يعز -بفتح العين- من "يعز" ، كقول الهذلي - يصف العقاب-[3]:

حتى انتهيت إلى فراش عزيزة		سوداء روثة أنفها كالمخصف

جعلها عزيزة، لأنها من أقوى جوارح الطير.

والوجه الثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر. يقال منه: عز الشيء يعز -بكسر العين- من يعز، فيتأول معنى العزيز على هذا، أنه الذي لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له، ولا نظير"[4].

- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء. صرف عن مفعل إلى فعيل، كقولهم: أليم بمعنى: مؤلم، وسميع بمعنى: مسمع؛ كقوله -جل وعز-: {آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]، فدل على أن المراد بـ«الحكيم هنا الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل.

---

[1] تفسير الطبري:١٤/١٤-١٥.
[2] المحرر الوجيز:٥٣٩/٢.
[3]ديوان الهذليين القسم الثاني ص ١١٠، وشرح أشعارهم للسكري ص ١٠٨٩ آخر قصيدة لأبي كبير الهذلي، أبياتها ٢٣ بيتاً، مطلعها:
أزهير هل عن شيبة من مصرف ... أم لا خلود لباذلٍ متكلفِ
وفي مقاييس اللغة ٢/ ١٨٢ وتهذيب الأزهري ٧/ ١٤٧ برواية: فتخاء، بدل، سوداء، وفي اللسان والقاموس وشرحه (عزز). وفي الديوان، يريد: أن منسرها حديد دقيق كأنه مخصف. والروثة: طرف الأنف، وفراشها: عشها.
والبيت استشهد به الزجاج في تفسير الأسماء ص ٣٤ على معنى "العزيز".
[4] شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.

ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها. إذ ليس كل الخليقة موصوفا بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك. هذا في قوله -جل وعز-: {الذي أحسن كل شيء خلقه} [السجدة:٧] لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيهإلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها. كقوله [تعالى]: {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} [الفرقان:٢][(١)].

القرآن

{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)} [الأنفال : ٥٠]

التفسير:

ولو تعاين -أيها الرسول- حال قبض الملائكة أرواح الكفار وانتزاعها، وهم يضربون وجوههم في حال إقبالهم، ويضربون ظهورهم في حال فرارهم، ويقولون لهم: ذوقوا العذاب المحرق، لرأيت أمرًا عظيمًا، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة «بدر» ، ولكنه عام في حق كلِّ كافر.

قوله تعالى:{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [الأنفال : ٥٠]، أي:" ولو تعاين -أيها الرسول- حال قبض الملائكة أرواح الكفار وانتزاعها وهم يضربون وجوههم في حال إقبالهم، ويضربون ظهورهم في حال فرارهم"[(٢)].

فقال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ولو تعاين ، يا محمد ، حين يتوفى الملائكةُ أرواحَ الكفار ، فتنزعها من أجسادهم ، تضرب الوجوه منهم والأستاه"[(٣)].

قال السعدي:" يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم، و {الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم"[(٤)].

عن مجاهد، قوله:"{يضربون وجوههم وأدبارهم}، قال:وأستاههم، ولكنه كريم يَكْنِي"[(٥)].

وفي قوله تعالى:{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [الأنفال : ٥٠]، قولان:

أحدهما : يتوفاهم ملك الموت عند قبض أرواحهم ، قاله مقاتل[(٦)].

قال الماوردي:قوله:"{يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدبَارَهُمْ}تأويله على هذا القول: يضربون وجوههم يوم القيامة إذا واجهوهم ، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار"[(٧)].

والثاني : قتل الملائكة لهم حين قاتلوهم يوم بدر. قاله ابن عباس[(٨)]، مجاهد[(٩)].

---

(١)انظر:شأن الدعاء:١/٧٢-٧٣.

(٢) التفسير الميسر:١٨٣.

(٣) تفسير الطبري:١٤/١٥.

(٤) تفسير السعدي:٣٢٣.

(٥) أخرجه الطبري(١٦٢٠٢):ص١٤/١٦.

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢/١٢١.

(٧) النكت والعيون:٢/٣٢٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٢٠٥):ص١٤/١٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٦٢٠٠):ص١٤/١٦.

قال ابن عباس:" إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ، ضربوا وجوههم بالسيوف. وإذا ولّوا ، أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم"[١].

عن الحسن قال : "قال رجل : يا رسول الله ، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك![٢] قال : ما ذاك ؟ قال : ضربُ الملائكة"[٣].

عن مجاهد : "أن رجلا قال للنبي ﷺ : إني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضربه، فنَدرَ رأسُه ؟[٤] فقال : سبقك إليه الملك"[٥].

وتأويله على هذا القول الثاني: يحتمل وجهين[٦]:

أحدهما : يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا ، وأدبارهم لما انهزموا .

والثاني : أنهم جاءوهم من أمامهم وورائهم ، فمن كان من أمامهم ضرب وجوههم ، ومن كان من ورائهم ضرب أدبارهم .

قال الصابوني:" أي: لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين، وجواب {لَوْ} محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً"[٧].

قال أبو حيان:" حذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التعظيم، أي: لرأيت أمرا عجيبا وشأنا هائلا كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام : ٢٧]"[٨].

وكلهم قرأ {إذ يتوفى} بالياء، غير ابن عامر فإنه قرأ«إذ تتوفى»، بتاءين[٩].

قوله تعالى:{وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال : ٥٠]، أي:" ويقولون لهم: ذوقوا العذاب المحرق"[١٠].

قال الطبري:أي:" ويقولون لهم : ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم"[١١].

قال السعدي:" أي: العذاب الشديد المحرق"[١٢].

قال مقاتل:" فلما كان يوم القيامة دخلوا النار، تقول لهم خزنة جهنم وذوقوا عذاب الحريق"[١٣].

قال الزجاج: " ومعنى {عذاب الحريق}، أي: عذاب محرق - بالنار، لأن العذاب يكون بغيرالنار، فأعلم أن مجازاة هؤلاء هذا العذاب، وقوله: {ذوقوا} هذه كلمة تقال للشيء يوئس من العفو يقال ذق ما أنت فيه، أي: لست بمتخلص منه"[١٤].

قال أبو عبيدة:" بمعنى: ويقولون ذوقوا عذاب الحريق، والعرب تفعل ذلك، قال النّابغة[١٥]:

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢٠٥):ص١٤/١٦.

[٢]" الشراك " ، سير النعل الذي يكون على ظهرها.

[٣] أخرجه الطبري(١٦٢٠٥):ص١٤/١٦-١٧.

[٤]" ندر الشيء " سقط . يقال : " ضرب يده بالسيف فأندرها " ، أي قطعها فسقطت.[حاشية تفسير الطبري:١٤/١٧]

[٥] أخرجه الطبري(١٦٢٠٦):ص١٤/١٧.

[٦] انظر: النكت والعيون:٢/٣٢٦.

[٧] صفوة التفاسير:١/٤٧٢.

[٨] البحر المحيط:٥/٣٣٦.

[٩] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٧.

[١٠] التفسير الميسر:١٨٣.

[١١] تفسير الطبري:١٤/١٥.

[١٢] تفسير السعدي:٣٢٣.

[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٢/١٢١.

[١٤]معاني القرآن: ١/ ٤٩٤.

[١٥]فى ديوانه من الستة ٣٠، وفى الكتاب ١/ ٣٢٧- والكامل ٢١٩، والطبري ٥/ ٧٠، والشنتمرى ١/ ٣٧٥،

كأنّك من جمال بنى أقيش يقعقع خلف رجليه بشنّ

معناه: كأنك جمل، والعرب تقدّم المفعول قبل الفاعل"(١).

قال أبو حيان: " واستعير لمباشرة العذاب الذوق، لأن الذوق من أبلغ أنواع المباشرة، وحاستها متميزة جدا. والحريق: المحرق فعيل بمعنى مفعل، كأليم بمعنى مؤلم. وقيل: الحريق طبقة من طباق جهنم.

وقيل: الحريق الملتهب من النار، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة، والملتهبة أشدها.

والظاهر إن هذا القول يكون عند دخولهم جهنم. وقيل: قد يكون عند الحساب، أو عند الموت"(٢).

يقول ابن القيم: "فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة؛ فإنه معطوف على قوله يضربون وجوههم وأدبارهم وهو من القول المحذوف مقولة لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة"(٣).

قال الحسن: "بلغني أنه يحرق أحدهم في اليوم سبعين ألف مرة"(٤).

الفوائد:

١- تقرير عذاب القبر بتقرير العذاب عند النزع.

٢- أن هؤلاء سوف يذوقون العذاب بالألم البدني والألم النفسي، ففي قوله: {عذاب الحريق}: ألم بدني، وفي قوله: {وذوقوا}: ألم نفسي، لأن هذا توبيخ وإهانة، فالأمر هنا للتوبيخ والإهانة.

٣- الردّ على من قال بأن أهل النار لايذوقون العذاب، لأن أجسامهم تأخذ على النار وتتكيف بها، فيصبحون لايذوقون ألما، لقوله: {وذوقوا عذاب الحريق}، وفيه بيان قدرة الله إذ يحترق جلود هؤلاء وتنضج جلودهم وكلما نضجت جلودهم بدّلوا جلودا غيرها، ومع ذلك لايموتون مع أن مثل هذا الحريق لو أصاب احدا في الدنيا لهلك كما قال سبحانه: {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [الأعلى: ١٣]، فلايموت فيستريخ ولا يحيا حياة هنيئة.

القرآن

{ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)} [الأنفال : ٥١]

التفسير:

ذلك الجزاء الذي أصاب المشركين فبسبب أعمالكم السيئة في حياتكم الدنيا، ولا يظلم الله أحدًا من خَلْقه مثقال ذرة، بل هو الحَكَمُ العدل الذي لا يجور.

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ} [الأنفال : ٥١]، أي:" ذلك الجزاء الذي أصاب المشركين فبسبب أعمالكم السيئة في حياتكم الدنيا"(٥).

قال الطبري:" هذا العذاب لكم، بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار ، واجترحتم من معاصي الله أيام حياتكم، فذوقوا اليوم العذابَ، وفي معادكم عذابَ الحريق"(٦).

قال أبو الليث:" يعني: ذلك العذاب بما قدمت أيديكم من الكفر والتكذيب وبترككم الإيمان"(٧).

واللسان والتاج (قعقع) والعيني ٤/ ٦٨، والخزانة، ٢/ ٣١٢.

(١) مجاز القرآن:٢٤٧/١.

(٢)البحر المحيط: ٣/ ٤٥٦.

(٣) مفتاح السعادة:٧٢/١.

(٤)أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٩٢): ص ٣/ ٨٣٠.

(٥) التفسير الميسر:١٨٣.

(٦) تفسير الطبري:١٨/١٤.

(٧) بحر العلوم:٢٦/٢.

قال البيضاوي:أي:" ذلك الضرب والعذاب. بما قدمت أيديكم بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر {لذلك}"[١].

عن أبي مالك قوله: "{ذلك}، يعني: هذا"[٢].

عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: "{ذلك}، يعني: الذي نزل بهم"[٣].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الأنفال : ٥١]، أي:" ولا يظلم الله أحدًا من خَلْقه مثقال ذرة، بل هو الحَكَمُ العدل الذي لا يجور"[٤].

قال مقاتل:" يقول: ليس يعذبهم على غير ذنب"[٥].

قال الطبري:أي:" لا يعاقب أحدًا من خلقه إلا بجرم اجترمه ، ولا يعذبه إلا بمعصيته إياه ، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه"[٦].

قال السعدي:أي:" ذلك العذاب حصل لكم، غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت"[٧].

قال البيضاوي: قوله:"{وأن الله ليس بظلام للعبيد}، عطف على «ما» للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم لا أن لا يعذبهم بذنوبهم. فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفي الظلم سببا للتعذيب وظلام التكثير لأجل العبيد"[٨].

عن ابن عباس في قوله: "{وأن الله ليس بظلام للعبيد}، قال: ما أنا بمعذب من لم يجرم عندي أن أعذبه"[٩].

الفوائد:

١- تنزه الخالق عز وجل عن الظلم لأحد.

٢- ومن الفوائد: أن الجزاء من جنس العمل.

القرآن

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)} [الأنفال : ٥٢]

التفسير:

إنَّ ما نزل بالمشركين يومئذ سُنَّة الله في عقاب الطغاة من الأمم السابقة من أمثال فرعون والسابقين له، عندما كذَّبوا رسل الله وجحدوا آياته، فإن الله أنزل بهم عقابه بسبب ذنوبهم. إن الله قوي لا يُقْهر، شديد العقاب لمن عصاه ولم يتب من ذنبه.

قوله تعالى:{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} [الأنفال : ٥٢]، أي:" إنَّ ما نزل بالمشركين يومئذ سُنَّة الله في عقاب الطغاة من الأمم السابقة من أمثال فرعون والسابقين له، عندما كذَّبوا رسل الله وجحدوا آياته"[١٠].

---

[١] تفسير البيضاوي:٦٣/٣.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٩٣):ص٨٣٠/٣.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٩٤):ص٨٣٠/٣.
[٤] التفسير الميسر:١٨٣.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢١/٢.
[٦] تفسير الطبري:١٨/١٤.
[٧] تفسير السعدي:٣٢٣.
[٨] تفسير البيضاوي:٦٣/٣.
[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٤٥٩٥):ص٨٣٠/٣.
[١٠] التفسير الميسر:١٨٣.

قال مقاتل:" يعني: كأشباه آل فرعون في التكذيب {والذين من قبلهم} من الأمم الخالية قبل آل فرعون ، و«الأمم الخالية» قبل آل فرعون قوم نوح، وعاد، وثمود وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب"[1].

قال الإمام الشافعي:" أي: تظاهرهم على النبي - ﷺ - كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام، وقيل: عادتهم في كفرهم كعادة آل فرعون"[2].

قال الفراء:" يريد: كذب هؤلاء كما كذب آل فرعون، فنزل بهم كما نزل بآل فرعون"[3].

قال ابن قتيبة:" أي: كعادتهم يريد كفر اليهود ككفر من قبلهم. يقال: هذا دأبه ودينه وديدنه"[4].

قال الزجاج:" معناه: عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم، فجوزي هؤلاء بالقتل والسبى كما جوزي آل فرعون بالإغراق والإهلاك، كذا قال بعض أهل اللغة، في «الدأب» أنه العادة، وقال أبو إسحاق: وحقيقة الداب إدامة العمل، تقول: فلان يداب في كذا وكذا أى يداوم عليه ويواظب، ويتعب نفسه فيه. وهذا التفسير معنى العادة إلا أن هذا أبين وأكشف"[5].

قال الطبري:أي:" يقول تعالى ذكره : فِعْلُ هؤلاء المشركون من قريش الذين قتلوا ببدر ، كعادة قوم فرعون وصنيعهم وفعلهم وفعل من كذّب بحجج الله ورسله من الأمم الخالية قبلهم ، ففعلنا بهم كفعلنا بأولئك"[6].

قال البيضاوي:" أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. والذين من قبلهم من قبل آل فرعون. {كفروا بآيات الله} تفسير لدأبهم"[7].

قال أبو الليث: {كفروا بآيات الله}،" يعني: جحدوا بعذاب الله في الدنيا إنه غير نازل بهم"[8].

عن ابن عباس في قوله:"{كدأب آل فرعون}، قال: كصنع آل فرعون"[9].

عن عامر ومجاهد وعطاء:"{كدأب آل فرعون}، كفعل آل فرعون، كسُنَنِ آل فرعون"[10].

عن الربيع في قوله:"{كدأب آل فرعون}، يقول: كسنتهم"[11].

وعن الضحاك في قوله:"{كدأب آل فرعون}، قال: كعمل آل فرعون"[12].

قال ابن زيد في قوله:"{كدأب آل فرعون}، قال: كفعلهم، كتكذيبهم حين كذّبوا الرسل، وقرأ قول الله: {مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ} [سورة غافر: ٣١] ، أن يصيبكم مثل الذي أصابهم عليه من عذاب الله. قال: الدأبُ العمل"[13].

و«الدأب»:" هو الشأن والعادة"[14]، كما قال امرؤ القيس بن حجر[1]:

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦٥/١.
(٢) تفسير الإمام الشافعي:٤٦٣/١.
(٣) معاني القرىن:٤١٣/١.
(٤) غريب القرآن:١٠١.
(٥) معاني القرآن:٤٢٠/٢.
(٦) تفسير الطبري:١٨/١٤.
(٧) تفسير البيضاوي:٦٣/٣.
(٨) بحر العلوم:٢٦/٢.
(٩) أخرجه الطبري(٦٦٦٤):ص٢٢٤/٦.
(١٠) أخرجه الطبري(١٦٢٠٨):ص١٩/١٤.
(١١) أخرجه الطبري(٦٦٥٩):ص٢٢٣/٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٦٦١):ص٢٢٤/٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٦٦٦٢):ص٢٢٤/٦.
(١٤) تفسير الطبري:١٩/١٤.

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَة فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِث قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

يعني بقوله:"كدأبك"، كشأنك وأمرك وفعلك. يقال منه:"هذا دَأبي ودأبك أبدًا،.يعني به: فعلي وفعلك، وأمري وأمرك، وشأني وشأنك، يقال منه:دَأَبْتُ دُؤُوبًا ودأْبًا، وحكى عن العرب سماعًا: دأبْتُ دأَبًا، مثقله محركة الهمزة، كما قيل:هذا شعَرٌ، ونَهَر، فتحرك ثانيه لأنه حرفٌ من الحروف الستة، فألحق"الدأب" إذ كان ثانية من الحروف الستة، كما قال الشاعر[٢]:

لَهُ نَعَلٌ لا تَطَّبِي الكَلْبَ رِيحُهَا وَإِنْ وُضِعَتْ بَيْنَ الْمَجَالِسِ شُمَّتِ"[٣].

قال الخليل:" أي: كعادتهم وحالهم"[٤].

قال أبو عبيدة:" مجازه: كعادة آل فرعون وحالهم وسنتهم ، والدّأب والدّيدن والدّين واحد، قال المثقّب العبدىّ[٥]:

تقول إذا درأت لها وضينى أهذا دينه أبدا ودينى
أكلّ الدهر حلّ وارتحال أما يبقى علىّ ولا يتينى "[٦]

قوله تعالى:{فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ} [الأنفال : ٥٢]، أي:" فأنزل بهم عقابه بسبب ذنوبهم"[٧].

قال أبو الليث:" يعني: عاقبهم وأهلكهم بذنوبهم وشركهم"[٨].

قال الطبري:" يقول : فعاقبهم الله بتكذيبهم حججه ورسله ، ومعصيتهم ربهم ، كما عاقب أشكالهم والأمم الذين قبلهم"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال : ٥٢]، أي:" إن الله قوي لا يُقْهر، شديد العقاب لمن عصاه ولم يتب من ذنبه"[١٠].

قال أبو الليث:" يعني: قوي في أخذه، شديد العقاب لمن عصاه"[١١].

قال الواحدي:" {قَوِيٌّ} قادرٌ لا يغلبه شيء {شديد العقاب} لمَنْ كفر به وكذَّب رسله"[١٢].

---

(١)ديوانه: ١٢٥ من معلقته المشهورة، ثم يأتي في التفسير ١٢: ١٣٦ (بولاق) البيت الثاني. وهو شعر مشهور خبره، فاطلبه في موضعه.

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه:١١٢/٢، والحيوان: ٢٦٦/١، والبيان:١٠٩/٣، ١١٢، واللسان"نعل".
ورواية اللسان"وسط المجالس"، أما رواية الديوان فبخلاف هذا ولا شاهد فيها، كما سترى. والشعر مما قاله كثير حين بلغه وفاة عبد العزيز بن مروان بمصر، فرثاه، فكان مما قال فيه: يَؤُوبُ أُولُو الحَاجَاتِ مِنْهُ إذَا بَدَا ... إلَى طَيّبِ الأَثْوَابِ غَيْرِ مُؤَمَّتِ
كَأَنَّ أبْنَ لَيْلَى حِينَ يَبْدُو فَتَنْجَلِي ... سُجُوفُ الخِبَاءِ عَنْ مَهِيبٍ مُشَمَّتِ
مُقَارِبُ خَطْوٍ لا يُغَيّرِ نَعْلَهُ ... رَهِيفَ الشِّرَاكِ، سَهْلَةَ المُتَسَمَّتِ
إذَا طُرِحتْ لَمْ تَطَّبِ الكَلْبَ رِيحُهَا ... وَإِنْ وُضِعتْ في مَجْلِس القَوْم شُمَّتِ
يقول: لا يلبس من النعال إلا المدبوغ الجلد، فذهبت رائحة الجلد منها، لأن النعل إذا كانت من جلد غير مدبوغ، وظفر بها كلب أقبل عليها بريحها فأكلها. يصفه بأنه من أهل النعمة واليسار والترف. ثم زادها صفة أخرى بأن جعلها قد كسبت من طيب رائحته طيبًا، حتى لو وضعت في مجلس قوم، تلفتوا يتشممون شذاها من طيبها. وقوله: "يطبى" من: "اطباه" أي: دعاه إليه.

(٣) تفسير الطبري:٢٢٥/٦.

(٤) العين"دأب":ص٨٥/٨.

(٥) البيتان فى ديوانه رقم ٥- وفى شرح المفضليات ٥٨٦ والاقتضاب ٤٢٦ والأول فقط فى الجمهرة ٢/ ٣٠٥، ٣/ ٤٤٢ واللسان (درأ) وشعراء الجاهلية ٤٠٥- ٤٠٩. - الوضين للرحل بمنزلة الحزام، ودرأت مددت وشددت رحلها..

(٦) مجاز القرآن:٢٤٨/١.

(٧) التفسير الميسر:١٨٣.

(٨) بحر العلوم:٢٦/٢-٢٧.

(٩) تفسير الطبري:١٩/١٤.

(١٠) التفسير الميسر:١٨٣.

(١١) بحر العلوم:٢٦/٢.

(١٢) الوجيز:٤٤٤.

قال الطبري:أي:" لا يغلبه غالب ، ولا يرد قضاءه رادٌّ ، يُنْفِذ أمره ، ويُمضي قضاءه في خلقه شديد عقابه لمن كفر بآياته وجحد حُججه "[١].

قال ابن عثيمين:{شَدِيدُ الْعِقَابِ}، "أي: قوي العقوبة"[٢].

قال الآلوسي:" وفائدة هذه الجملة[{شَدِيدُ الْعِقَابِ}]، المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإن اختصاص {الْقُوَّةَ} به تعالى لا يوجب شدة «العذاب» لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه"[٣].

الفوائد:

١- بيان سنة الله تعالى في أخذ الظالمين وإبدال النعم بالنقم.

٢- ومن الفوائد: إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ}.

٣- ومنها: اثبات اسم من اسمائه تعالى، وهو:«القوي»:

قال الخطابي:" «القوي»: قد يكون بمعنى القادر. ومن قوي على شيء فقد قدر عليه، ويكون معناه: التام القوة الذي لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال. والمخلوق وإن وصف بالقوة فإن قوته متناهية. وعن بعض الأمور قاصرة"[٤].

٤- ومنها: شدة عقاب الله عز وجل لمن عصاه، لقوله: {شَدِيدُ الْعِقَابِ}، فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟

فالجواب: أن هذا من كمال عزه، وسلطانه، وعدله، وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.

القرآن

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)} [الأنفال : ٥٣]

التفسير:

ذلك الجزاء السيِّئ بأن الله إذا أنعم على قوم نعمة لم يسلبها منهم حتى يغيّروا حالهم الطيبة إلى حال سيئة، وأن الله سميع لأقوال خلقه، عليم بأحوالهم، فيجري عليهم ما اقتضاه علمه ومشيئته.

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال : ٥٣]، أي:" ذلك الجزاء السيِّئ بأن الله إذا أنعم على قوم نعمة لم يسلبها منهم، حتى يغيّروا حالهم الطيبة إلى حال سيئة"[٥].

قال البغوي:" أراد: أن الله تعالى لا يغير ما أنعم على قوم حتى يغيروا هم ما بهم، بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم، فسلبهم النعمة"[٦].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره : وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم ، وفعلنا ذلك بهم ، بأنهم غيَّروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعاثه رسولَه منهم وبين أظهرهم ، بإخراجهم إياه من بينهم ، وتكذيبهم له ، وحربهم إياه ، فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم ، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى علينا وعصى أمرنا "[٧].

---

[١] تفسير الطبري:١٩/١٤.

[٢]تفسير ابن عثيمين: ٢/ ٢٢٥ .

[٣] معاني القرآن: ٤٣٣/١.

[٤]شأن الدعاء:٧٧ .

[٥] التفسير الميسر:١٨٤.

[٦] تفسير البغوي:٣٦٨/٣.

[٧] تفسير الطبري:٢٠/١٤.

قال أبو الليث:" ذلك العذاب الذي نزل بهم، بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم في الدين والنعم. فإذا غيروا، غير الله عليهم ما بهم من النعمة وهذا قول الكلبي"[1].

قال الواحدي:"إنَّ الله تعالى أطعم أهل مكَّة من جوعٍ وآمنهم من خوف وبعث إليهم محمداً رسولاً وكان هذا كلُّه ممَّا أنعم عليهم ولم يكن يُغيِّر عليهم لوْ لم يُغيِّروا هم وتغييرهم كفرهم بها وتركهم شكرها فلمَّا غيَّروا ذلك غيَّر الله ما بهم فسلبهم النِّعمة وأخذهم"[2].

قال البيضاوي:" {ذلك}، إشارة إلى ما حل بهم. {بأن الله}، بسبب أن الله. {لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم} مبدلا إياها بالنقمة. {حتى يغيروا ما بأنفسهم}، يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكف عن تعرض الآيات والرسل بمعاداة الرسول عليه السلام ومن تبعه منهم، والسعي في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته على تغييره متى يغيروا حالهم، وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفا"[3].

وفي قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الأنفال : ٥٣]، قولان[4]:

أحدهما: معناه: {لم يكن مغيرا نعمة} يعني: لم يكن مبدلا النعمة بالبلية.

والثاني: أن هذا في أهل مكة؛ فإن الرسول كان نعمة أنعمها الله تعالى عليهم، فكفروا بهذه النعمة، فغيرها الله تعالى، ومعناه: أنه نقلها إلى أهل المدينة وهم الانصار. وهذا قول السدي[5].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال : ٥٣]، أي:" وأن الله سميع لأقوال خلقه، عليم بأحوالهم، فيجري عليهم ما اقتضاه علمه ومشيئته"[6].

قال أبو الليث:أي: "{سميع} لمقالتهم، {عليم} بأفعالهم"[7].

قال البيضاوي:" {سميع} لما يقولون. {عليم} بما يفعلون"[8].

قال الطبري: " يقول : لا يخفى عليه شيء من كلام خلقه ، يسمع كلام كلّ ناطق منهم بخير نطق أو بشرّ {عليم}، بما تضمره صدورهم ، وهو مجازيهم ومثيبهم على ما يقولون ويعملون ، إن خيرًا فخيرًا ، وإن شرًّا فشرًّا"[9].

الفوائد:

١- لم يكن من سنة الله تعالى في الخلق تغيير ما عليه الناس من خير أو شر حتى يكونوا هم البادئين.
٢- التحذير من بطر النعمة.
٣- أن النعمة -التي أسداها الله للعبد- لا تثبت إلا بالشكر، ولذلك قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الأنفال:٥٣] أي: يغيروا ما في قلوبهم، فلا يقرون بأن هذه نعمة الله جل في علاه، ولا يشكرون ربهم، فتثبيت النعم بالشكر.
٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسمائه تعالـ وهما: «السميع»، «العليم»:

---

[1] بحر العلوم:٢٧/٢.
[2] الوجيز:٤٤٤.
[3] تفسير البيضاوي:٦٤/٣.
[4] انظر: تفسير السمعاني:٢٧٢/٢-٢٧٣.
[5] انظر: تفسير البغوي:٣٦٩/٣.
[6] التفسير الميسر:١٨٤.
[7] بحر العلوم:٢٧/٢.
[8] تفسير البيضاوي:٦٤/٣.
[9] تفسير الطبري:٢٠/١٤.

- فـ«السَّمِيعُ»: بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة، كقولهم: عليم: من عالم، وقدير: من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى. سواء عنده الجهر، والخفوت، والنطق، والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة.

كقول النبي - ﷺ -: "اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع"[1]، أي: من دعاء لا يستجاب، ومن هذا قول المصلي:"سمع الله لمن حمده"[2]، معناه: قبل الله حمد من حمده. حمده. وأنشد أبو زيد لشتير بن الحارث الضبي[3]:

دعوت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول

أي: لا يجيب، ولا يقبل[4].

- و«العليم»:هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[5].

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء السادس عشر من التفسير ويليه الجزء السابع عشر بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (٥٤) من سورة «الأنفال».

---

[1] .هذاطرف حديث رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٢٤٤٠ موارد، والنسائي ٨/ ٢٦٤،والإمام أحمد ٣/ ١٩٢، ٢٥٥، ٣٨٣،والخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢ من حديث أنس وانظرالكنز ٢/ ٢٠١.

[2] أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم ٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٨٨، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٩،وفيه: "ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه" وبرقم ٣٢٠٣، ٣٢٢٨، ٤٠٦٩، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨.

ومسلم، باب "الصلاة" برقم (٢٥)، (٢٨)، (٥٤)، (٦٢)، (٦٣)، (٧١)، (٧٧)، (٨٦)، (٨٨)، (٨٩)، (١٩٦)، (١٩٨)، (١٩٩)، (٢٠٢)،وفيه: "اللهم ربنا لك الحمد،ملءالسموات، وملءالأرض، وملء ماشئت من شيء بعده". وكذلك روايته برقم (٢٠٣) وكتاب صلاة المسافرين برقم (٢٠٢)، (٢٠٣)،والنسائي (افتتاح) ٢/ ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١١. وابنماجهبرقم ٨٦٢، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ١٠٦١، ١٢٣٨، ١٢٣٩. وغيرهم.

[3] أنشده الطبري في تفسيره:٥/ ٦ - ٥٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ١٤٤، والقرطبي ٢/ ٣١، وفي الخزانة ٢/ ٣٦٣، مطلع قصيدة من سبعة أبيات في الشاهد السادس والستين بعد الثلاثمائة منسوباً إلى شمير بن الحارث الضبي. وقال: شمير، بضم الشين المعجمة وفتح الميم وآخره راء مهملة، هكذا ضبطه أبو زيد. وقال الأخفش -فيما كتبه عليه- الذي في حفظي سمير -بالسين المهملة وكذا ضبطه الصاغاني في العباب بالمهملة- وقال: هو شاعر جاهلي والله أعلم. اهـ وفي نوادر أبي زيد ص ١٢٤ مع ستة أبيات أخرى. وفي أمالي المرتضى ١/ ٦٠٣، وفي اللسان (سمع) ولم ينسبه. وأنشده الخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢، والزمخشري في الفائق ١/ ٦١٢ كما هنا، إلى شتير. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٢..

[4] انظر: شأن الدعاء للخطابي:٥٩-٦٠.

[5] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.